

رَحْمَةُ الْفَقِيرِ وَالْأَعْوَجِ

فِي إِسْلَامِ

حَقُوقُ الْطَّبِيعِ حَفْوَكَةُ
الْطَّبِيعَةُ الْأَوَّلَى
١٤٩٣ م - ٢٠٠٤

تُطلِّبُ جمِيعُ كُتُبِنا مُنْتَ : .
دَارُ الْقَلْمَرْ - دَمْشَقْ : صَرِيبْ : ٤٥٤٣ - ت : ٤٤٤٩١٧٧
الْدَّارُ الشَّامِيَّةُ - بَيْرُوْتُ - ت : ٦٥٣٦٦٦ / ٦٥٣٦٥٥
صَرِيبْ : ٦٥٠١ / ١١٣

تُونِسُ جمِيعُ كُتُبِنا فِي السُّعُودِيَّةِ عَنْ طَرِيقِ
دَارِ الْبَشِيرْ - جَكَّةُ : ٢١٤٦١ - صَرِيبْ : ٩٨٩٥
ت : ٦٦٠٨٩٤ / ٦٦٥٢٦٢١

أَحْبَابُ الْفِكْرِ وَالْعِوْنَةُ فِي إِسْلَامٍ

الطبعة الثانية

الإمام الأدهلوi

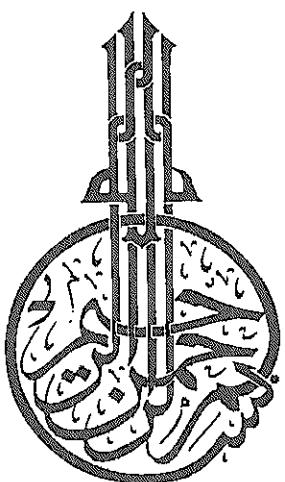
١١١٤ - ١١٧٦

حيّاً حَكِيمُ الْإِسْلَامِ الْإِمَامُ أَخْمَدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ
الْمَعْرُوفُ بِالشَّيْخِ وَلِيِّ اللَّهِ الدَّهْلَوِيِّ
وَالشَّعْرَيْفُ بِالدَّوْرِ الْإِصْلَاحِيِّ التَّجْدِيدِيِّ. القياديُّ الاجتِهادِيُّ
الذِّي قَامَ بِهِ فِي مَجَالِ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ
وَالتَّفْكِيرِ وَالتَّأْلِيفِ

يَقَامُ الدَّاعِيَةُ أَحْمَدُ
الْسَّيِّدُ أَبِي أَحْسَنٍ عَلَى أَحْسَنِ النَّذْوِيِّ

تقدير تَقْدِيرٍ يَبْرُرُ
الدُّكْتُورُ عَذْنَانُ زَرْزُورٌ سَلَمانُ حَسِينِيُّ النَّذْوِيِّ

ولِلرَّفِيقِ
دُمَيْشِي



٩٧٥٣
١٧٢٩٤

مع الإمام الدهلوi سوزن

تقديم

الدكتور عذان رزروز^(١)

الإمام ولی الله الدهلوی مجدد القرن الثاني عشر الهجري^(٢) (الثامن عشر الميلادي) في الهند، كان حظه من المعرفة في البلاد العربية أكثر من الإمام السرہندي. وقد حظي كتابه (حجۃ الله البالغة) بشهرة لم يحظ بها أيٌ من كتب سلفه الإمام السرہندي. وربما كان لرحلته الحجازية ومجاورته في بيت الله الحرام أثرٌ في ذلك، علمًا بأنَّ هذه الرحلة والإقامة احتلت في حياته العلمية والفكرية والدعوة التجددية مكانةً تاريخيةً كبيرةً كما يقول الأستاذ السيد أبو الحسن؛ حتى إنَّ عدَّها «باباً جديداً، وخطأً فاصلاً بين عهدين» كما سنشرح بعد قليل.

بِهِ يَرَاكَ لَتَبِعَ خَاتَمَ الْمُهَاجَرِ

از جانب مولا ناصر بن شمس الدين دهلوی (رحمه)

قال الإمام: «في سنة ١١٤٣ هـ تقدَّم إلى زيارة الحرمين التسرينين، وتشرفت بالحج في آخرها، ثم جاوريت في سنة ١١٤٤ هـ بيت الله الحرام، وزرتُ المدينة المنورة، أروي الحديث عن الشيخ أبي طاهر المدنی وغيره، وجالست علماء الحرمين وغيرهم مجالساتٍ طويلة واسعة.. وعلى تمام هذا العام، أي عام ١١٤٤ هـ أديتُ مناسك الحج، ثم عدتُ إلى الهند في أوائل سنة ١١٤٥ هـ وانتهيتُ إلى الوطن المأله يوم الجمعة العاشر من شهر رجب سنة ١١٤٥ هـ في كتف الصحة والسلامة».

(١) نشر التقديم كاملاً في الجزء الأول من هذه السلسلة.

(٢) ولد الإمام أحمد بن عبد الرحيم المعروف بالشيخ ولی الله الدهلوی صباح يوم الأربعاء في ٤ شوال عام ١١١٤ هـ الموافق ٢٠/٣/١٧٥٣م، وتوفي يوم السبت في ٢٩ من المحرم الحرام عام ١١٧٦ هـ الموافق ٨/٢٠/١٧٦٢م.

وريما كان مُناخ التجديد في مصر وبلاد الشام - في القرن الثامن عشر - هو الذي استدعي الإمام الذهلي؛ علماً بأنَّ في وسع الباحث أن يقرن بين مصر والهند في معالم التجديد والإصلاح، بل في اتجاهاته ومدارسه في العصر الحديث. وكانت السلفية في الاعتقاد، والاجتهداد في التشريع من أبرز هذه المعالم.

وقد كان هذا الاجتهداد يقوم على دعامتين أو يُعني بأمرتين:

الأول: البحث في مقاصد الشريعة وغاياتها، والتعمق في معرفة أسرارها.

والثاني: البحث في المعاش والأخلاق والمدنية والسياسة والسنن والاجتماع (ال عمران)

وإذا كانت عنابة الإمام الشاطبي مصروفة للأمر الأول، وعنابة ابن خلدون مصروفة للأمر الثاني؛ فإن الإمام الذهلي الذي تردد في كتبه أصداء هذين الأمرين يمكن عدهُ أبرز العلماء بعد الشاطبي وابن خلدون؛ بل أبرزهم كذلك بعد شيخ الإسلام ابن تيمية، لأنَّه سار على طريقته وعلى منهج السلف في الاعتقاد، كما أشرنا قبل قليل.

قال الأستاذ الشيخ أبو الحسن: « وإن كان بعد الإمام ابن تيمية من يمكن أن يصرَّح باسمه في هذا المجال بكل ثقة واعتماد، وأعماله ظاهرة معروفة في أوساط العلماء؛ فهو الإمام ولِي الله الذهلي ». .

قال الإمام في رسالته له باللغة الفارسية: «وصية هذا الفقير الأولى: أن يتمسك المسلم في العقائد والعلم بالكتاب والسنة، ويعرض عليهما بالنواخذ، ويعمل بهما دائمًا، ويختار في العقائد منهج المتقدمين من أهل السنة، ويعرض في باب الصفات والأيات المتشابهات التي لم يخض السلف في تفصيلها والبحث فيها عنه، ولا يلتفت إلى تشكيكات العقلانيين المتكايسين».

أما المقاصد والغايات التي تحدث عنها الإمام الشاطبي، فيكفينا في الدلالة عليها عند الذهلي قولُ الأستاذ السيد أبي الحسن: «وأما اكتناهه لأسرار

الشريعة ومقاصدها وغاياتها، وجمعهُ وتوفيقهُ بين الفقه والحديث فلم يصل إليها أحدٌ منذ عدة قرون».

أما نزعته (الخلدونية) فيمكن أن نقف عليها - في هذا السياق - من خلال استعراض طرف من عنوانين الأبواب التالية من كتابه (حجۃ الله البالغة) على سبيل المثال :

اختلاف الناس في جبّتهم المستوجبة لاختلاف أخلاقهم وأعمالهم ومراتب كمالهم - أسباب الخواطر الباعثة على الأعمال - لصوق الأعمال بالنفس وإحصائهما عليها - ارتباط الأعمال بالهيئات النفسانية - كيفية استبانت الارتفاعات - اتفاق الناس على أصول الارتفاعات - فن آداب المعاش - سياسة المدينة . . . إلخ.

وسنعود لبيان طرف من هذه (المصطلحات) وبيان المتزلة التجددية الكبرى لكتابه (حجۃ الله البالغة) بعد قليل ، مكتفين بالقول : إنَّ السید الأستاذ أبي الحسن قرنہ بالعلامة ابن خلدون من الوجهة الأدبیة والیانیة - وربما من حيث القدرة على تولید المعانی ووضع المصطلحات - قال رحمه الله : «إنَّ مؤلفات الإمام الذهلي ، لا سيما (حجۃ الله البالغة) تشهدُ على أنه ليس قادرًا على اللغة العربية والتحرير والإنشاء فحسب .. بل هو مؤسس لطراز أسلوبٍ جديدٍ هو أليق ما يكونُ من الأساليب بشرح المواضيع والمطالب العلمية وتحريرها ، ولا نجدُ له فيه بعد العلامة ابن خلدون نظيرًا ولا قريباً .. ».

هذا طرف من أسباب شهرة الإمام الذهلي ، وملمحٌ من أسباب حركته في التجديد والإصلاح ، وقبل أن نستكملَ الحديثَ في أسباب هذه الحركة؛ نستعرضُ في سطورِ الأبواب الأولى من كتاب الأستاذ الجليل الشیخ أبي الحسن رحمه الله .

استعرض الشیخ في الباب الأول : أوضاع العالم الإسلامي وتطوراتها في القرن الثاني عشر الهجري (الثامن عشر الميلادي) فتحدث عن الوضع السياسي ، وبخاصة في الدولة العثمانية واليمن والمجاز وإيران وأفغانستان والأوضاع العلمية والدينية والخلقية والاجتماعية والعقائدية ، وأشار في هذا السياق إلى تأثير إيران الحضاري والثقافي على الهند ، ولاحظ وجود عدد من نوابغ العلماء

في هذا القرن؛ الأمر الذي دعاه إلى القول بعدم - لزوم - الربط بين الانحطاط السياسي والفرقة والانقسام من جهة، وبين الركود العلمي وندرة العلماء والنابغين من جهة أخرى، علمًا بأن الأسباب التي قدمها في تعليل هذه الظاهرة يمكن أن يضاف إليها أسباب أخرى كذلك.

ثم استعرض أوضاع الهند على وجه الخصوص. وتناولها كذلك من النواحي السياسية والعلمية والروحية، وتحدث عما ساد فيها من انحطاط خلقي واجتماعي؛ إلى جانب فساد العقيدة واستيلاء الشرك والبدع! وهي الأوضاع التي لخصها العلامة السيد سليمان الندوبي بقوله:

«ولقد كانت شمس الدولة المغولية في أ Fowler، وكان للعادات والتقاليد الجاهلية في المسلمين صولة وجولة، فكان الدراوיש والمشايخ الكاذبون المتصنعون متربعين على دُسْت مشايخهم في رباطهم، جالسين يوقدون الشموع على مقابرهم، وكانت جنبات المدارس ترتفع بأصداء الفلسفة والمنطق، وكان التقىء بالتصوص الفقهية والالتزام الحرفي في الفقه والفتاوی شعار كل فقيه ومفتی، وكان التحقيق والبحث في المسائل الفقهية جريمة كبرى بحق الدين! وكانت الخاصة فضلاً عن العامة جاهلةً بمعانی القرآن الحكيم ومطالبه، وأحكام الأحاديث النبوية وإرشاداتها، وأسرار الفقه ومصالحه».

ثم تحدث في الباب الثاني عن سيرة الإمام الدهلوي:

قدمت أسرة الإمام الدهلوي إلى الهند - على الأرجح - في أواخر القرن السابع أو أوائل القرن الثامن الهجري، على إثر حملات التتار المدمرة على العالم الإسلامي، وأقامت هذه الأسرة في مدينة (رهتك) التي كانت في ذلك الحين أول منزل وأهمه - قبل دهلي - للجيوش الإسلامية والمujahidin المسلمين، ولدعوة الإسلام والمبليين والعلماء الربانيين الذين يتوجهون إلى دهلي من غرب الهند، ثم تحولت الأسرة إلى دهلي.

وقد كانت هذه الأسرة عربية الأصل جليلة النسب، وكانت حائزة على شرف الانتساب إلى سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قال الأستاذ السيد أبو الحسن: «وقد وفق الله تعالى الأسر الفاروقية في الهند، مراراً وتكراراً،

للمآثر التجديدية العظيمة من الحفاظ على الدين، وإعلاء شعائر الإسلام، ومقاومة الحركات المعادية له..» - وقد أشرنا إلى خصائص الأسر العربية في الهند وتقاليدها في الفقرة (٥) - وأضاف الأستاذ أبو الحسن قائلاً: «ومن المقطوع به أن يكون لهذه النسبة والنسب الشعور بشرفه ومسؤوليته تأثيراً ودخلًّا في ذلك العمل الضخم المتنوع الواسع الذي قام به الإمام الدهلوi لتجديد الدين وإحيائه».

ونخص الباب الثالث بالحديث عن (مآثر الإمام الدهلوi التجديدية) ملاحظاً سعة دائرة التجديد الذي قام به وتنوعه.

و قبل أن نتحدث عن تجديده وجهوده في إحياء الحديث الشريف والانتصار للسنة، وهو التجديد الوثيق الصلة بهذا النسب العربي : نشير إلى مآثره التجديدية، أو نعدد .. فقط .. هذه المآثر؛ تمهدًا للحديث الموجز عن تجديده في بعض المجالات الأخرى رحمة الله .

مآثره التجديدية:

يقول الأستاذ أبو الحسن: «إن الأعمال والمآثر التجديدية التي وفق الله تعالى الإمام الدهلوi لتحقيقها وإنجازها .. تتسع دائرتها وتنوع شعبها بحيث لا يوجد لها نظيرٌ لا في المعاصرين، ولا في عامة العلماء والمؤلفين في عهود سابقة كذلك». وقد (صنفها) الأستاذ أبو الحسن - ويبحث فيها - تحت العناوين التالية:

- ١ - إصلاح العقائد والدعوة إلى القرآن الكريم.
- ٢ - القيام بنشر الحديث الشريف وترويجه، والجهود الموفقة للتطبيق بين الفقه والحديث.
- ٣ - عرض الشريعة الإسلامية في صورة متناسبة مدعاة بالأدلة والبراهين، والكشف عن أسرار الأحكام الشرعية ومقاصدتها وحكمها.
- ٤ - بيان مكانة الخلافة ووظيفتها في الإسلام، وشرح خصائص الخلافة الرشيدة ومميزاتها وإثباتها بالأدلة، والرد على الروافض.

٥ - عمله التجديدي القيادي في عهد الاضطراب السياسي، واحتضار الدولة المغولية.

٦ - الحسبية على مختلف طبقات الأمة، ودعوتها إلى الإصلاح والتغيير.

٧ - القيام بتربية العلماء الراسخين ورجال العزيمة والكافح، وتخرجهم حتى يقوموا - بعده - بهذا العمل التجديدي من الإصلاح ونشر الدين الصحيح، وينقلوه إلى الأجيال القادمة.

أما إصلاح العقائد فمما لا يحتاج إلى شرح وبيان في بلد كالهند، أشرنا إلى ما خلقته دياناتها وفلسفاتها وتقاليدها وعاداتها من تأثير على عقيدة المسلمين، وبخاصة في القرن الثاني عشر الهجري، بالإضافة إلى أن سمة الإسلام الأولى وشعاره المميز : التركيز على العقيدة وتصحيحها أولاً وقبل كل شيء.

وقد عَوَّل الإمام الذهلي في إصلاح الاعتقاد على الكتاب والسنة (وقد أشرنا إلى منزلته في ذلك بعد شيخ الإسلام ابن تيمية) فقام بنشر القرآن، وتعيممه عن طريق ترجمته التفسيرية باللغة الفارسية، ووضع هذه الترجمة بين أيدي المسلمين، بعد عودته من الحججاز، وقد سمى هذه الترجمة التفسيرية (فتح الرحمن).

كما كتب كتابه الشهير (الفوز الكبير في أصول التفسير) الذي وصفه الأستاذ الندوي بأنه مأثرة تجديدية ثورية في صلدد الدعوة إلى القرآن، وإنشاء ملكة الفهم والتدبر للقرآن الكريم في أوساط الخاصة وأصحاب العلم والمثقفين، وإيقاظ عاطفة الإصلاح للأمة الإسلامية، وإنه لكتاب فريد في بابه.

المحدث الذهلي:

خدم الإمام الذهلي الحديث الشريف، وانتصر للسنة، وقام بمحاولة رائدة للتطبيق أو التوفيق بين الفقه والحديث، بل الجمع بين المذاهب على أساس الحديث.

أما خدمته للحديث ونشره له فيمكن عدُّه فصلاً مضيئاً مهمّاً في صحيفه تجدیده، ومؤلفاته في هذا الموضوع تمتاز بالدقّة والاجتهد والتحقيق كما يقول

الأستاذ أبو الحسن، حتى غدا لقب (المحدث) جزءاً من اسمه، وجرى على ألسنة الناس : «الإمام ولی الله المحدث الدهلوی» . . بل يمكن عدّه عنوان مرحلة في تاريخ الهند، لأنَّ مُناخ العناية بالحديث وعلومه اتسع نطاقه في الهند بعد عصر الإمام الدهلوی وتلامذته، حتى غدت مركزاً لهذا العلم الشريف بعد أن كان قد شهد تراجعاً وانحساراً مع انقراض دولة العرب من بلاد السندي، حيث غلب على الناس في ظل الملوك الغزنوية والغورية: الشعر والنجمون والفنون الرياضية . وفي العلوم الدينية: الفقه والأصول . كما يقرر العلامة عبد الحي الحسني والد الشيخ أبي الحسن، الذي أضاف قائلاً: «ومضت على ذلك قرون متباولة حتى صارت صناعة أهل الهند حكمة اليونان، والإضراب عن علوم السنة والقرآن!».

وقد تحدّث السيد العلامة عبد الحي في كتابه (الثقافة الإسلامية في الهند) عن مصافات أهل الهند في الحديث النبوي، وأرّخ لمسألة الانحسار والنهضة المشار إليها، ويؤكّد من هذا التاريخ أنَّ النهضة بدأت في القرن العاشر بورود بعض علماء الحديث إلى الهند من مصر وال العراق والحجاز، ثم برحلة عدد من العلماء الهنود إلى الحرمين الشريفين، أي إن الحديث الشريف حُمل إليهم ورحلوا هم إليه . . قبل أن يبلغ مع الإمام الدهلوی تلك المترفة التي أشرنا إليها، وندّر هنا بأثر رحلته الحجازية في عيشه بالحديث، وأنّذه له عن الشيخ أبي طاهر المدني، والشيخ تاج الدين القلعي الحنفي مفتى مكة، والشيخ محمد وفـد الله المالكي، الذين أجازوه برواياتهم .

لقد ربط الأستاذ السيد أبو الحسن بين علم الحديث والعرب، وقال: «إنَّ منْ حقائق فلسفة التاريخ الإسلامي أنَّ البلاد التي كان العرب حملة الإسلام إليها، وإليهم يرجعُ الفضلُ في انتشاره فيها، انتشر فيها علم الحديث الشريف مع انتشار الإسلام وازدهر . . أما البلاد التي انتشر فيها الإسلام بأيدي العجم فليس شأنها في هذا الأمر كذلك، فقد حكمت في الهند أسر تركية الأصل أو أفغانية الأصل، وقام فيها بنشر الإسلام وتبلیغه والدعوة إليه أولئك المشايخ والعلماء والدعاة الذين كان معظمهم من أصول عجمية، أو من أبناء البلاد العجمية، لاسيما إيران وتركستان . . .».

ومعلوم أنَّ الهند «وصل إليها الإسلام بعد أن طاف بتركستان وإيران وأفغانستان، وقد كثيراً من طاقته وحيوته ونضارته بأيدي أولئك الذين لم يتشرفوها بصحبة النبي ﷺ، ولم يتمتعوا بالاستفادة مباشرةً من مصدر النبوة الفياض، والذين كان كثير منهم لم يتحرروا كلياً من تأثيرات شعبيهم وسلاماتهم» كما يقول الأستاذ السيد أبو الحسن.

ولهذا، فإنه لا يستغني عن هذا المصدر (الحديث الشريف) كما يقول السيد أبو الحسن «كلُّ مَنْ يرِيدُ إرجاع المسلمين في عصره إلى الدين الخالص والإسلام الكامل، ويريدُ أن يوجد صلة بينهم وبين الحياة النبوية والأسوة الكاملة، وكلَّ مَنْ تلجمه الحاجة وتطورات العصر إلى استنباط الأحكام الجديدة».

قلت : وهذا ما قام به المحدث المجدد الحجازي الفاروقى الإمام الدهلوى رحمة الله . والذى نحب أن نقرره في هذا السياق أن سلامه العرب (جمهورهم) من تشيع الصفوين الإيرانيين ، وصوفية الترك الطرفين ، وفوضى المذاهب والعقائد عند الهند الموزعين أو المتقلبين ! لا تعود فقط إلى أنَّ القرآن الكريم نزل بلغة العرب ، بل لأنَّ الحديث النبوي يقى بضائعهم ، ومن ثَمَّ يقى مصدرأ لحياتهم اليومية السلوكية ، وإن شئت قلت : لثقافتهم ؛ فقاوموا به عوامل الزَّيغ والانحراف ، وبعثَ الجاهلية !

فإذا علمنا أنَّ الله لا يغير ما يقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، وأنَّ الحديث الشريف هو مصدر الحياة اليومية للمسلم في العبادة والسلوك ؛ أدركنا معنى تأسيس التجديد والإحياء على الحديث ، وانطلاقه منه ؛ على النحو الذي شهد له التاريخ ، وأشار إليه السيد الأستاذ أبو الحسن رحمة الله .

أما في محاولة التوفيق بين الفقه والحديث التي عدَّها الأستاذ أبو الحسن (مأثرةً من مآثره التجددية ، وحلقة ذهبية رائعة في سلسلة خدمته للحديث الشريف وانتصاره للسنة السنوية) فهي شاهدةٌ على ما كان يتمتع به الإمام الدهلوى من موضوعية وتوازن واعتدال ، وبعيد عن التعصب ، وعلى سعة باعه في علميَّة الفقه والحديث .

لقد انتقد الغلاة من المذهبين «الذين لا يستطيعون أن ينحرفو عن مذهبهم

قيد شعرة!» كما انتقد (الظاهرية) - كما أسماهم - الذين أنكروا الفقه المذهبى، وأطلقوا لسانهم في «أولئك الفقهاء الأجلة، الذين هم رأس العلماء، وأئمة الهدى، وقادة أهل الدين». وقرر لزوم عرض المسائل الفقهية الاجتهادية على الكتاب والسنّة، وقال: إنّ الأمة لا غنى لها عن ذلك في أيٍّ عصرٍ من العصور!

أما وعيه العميق باختلاف العصور، وأثر ذلك في تجديد (الفقه) والاجتهداد؛ فقد تجلّى في كتابه المشهور: (حجّة الله البالغة). الذي يحتاجُ أن يفرد وحده بدراسة علمية دقيقة وموسعة. وقد نكتفي بالإشارة إليه بطرفِ مما وصفه به الأستاذ السيد أبو الحسن وتحدّث عنه؛ متوجهين في سياقنا هذا عن الجمع بين الفقه والحديث بملاحظة الإمام الذهلوى الدقيقة، والتي وصف فيها (التقليد) بأنه عملٌ تنظيميٌّ، وليس عملاً أو حكماً من أحكام التشريع. قال: ويهدف هذا العمل التنظيمي الإداري إلى «صيانة العامة من اتباع النفس والهوى، وحماية المجتمع المسلم من الفوضى والاضطراب...». ولكن المشكلة أنهم «اللُّجُوا عليه بشدة وتأكيد غليظ» - بحسب عبارته - ونقلوه من كونه مسألة اجتهادية إلى «كونه نصاً ظاهراً، وعملاً قطعياً، وأمراً دينياً مستقلّاً»!

(حجّة الله البالغة) أو: أسرار الشريعة وفلسفة نظام الإسلام:

يمكّنا أن نضع هذا العنوان الثاني إلى جانب العنوان الأول الذي وضعه المؤلف رحمة الله لهذا الكتاب الكبير القيم، في حين أنَّ الأستاذ السيد أبو الحسن عرف به - وقام بدراساته - في أكثر من عشرين صفحة، تحت عنوان: (عرض الشريعة الإسلامية عرضاً مبرهنًا متسقاً، والكشفُ عن مقاصد الحديث وأسراره في ضوء «حجّة الله البالغة») وقد عدَّ هذا الكتاب من جلائل أعماله وتأثيره العلمية الكبرى «التي عرضت فيها الشريعة الإسلامية والدين الحنيف في صورة جامعة متناسقة، مدّعمة بالحجج والدلائل الناصعة القوية، وقدمت فيها أبواب الإيمان والعبادات والمعاملات والأخلاق والمجتمع والمدنية والسياسة بترتيب وترتيب ونظام، وفي تناصق واتزان، بحيث يخيّل إليك كأنها لائع العقد المنظوم أو حلقات سلسلة متراقبة، مع توضيح الفروق بين الأصول والفرع والمقاصد والغايات والوسائل والآلات، وبين الحقائق الدائمة المستقبلة والأمور العارضة

المؤقتة، بحيث لا يغيب ذلك - لحظة - عن الأنظار...».

ولا ريب في (دقة الموضوع وخطورته) كما قال الأستاذ السيد أبو الحسن، ولكن الإمام الذي تكونت عقليته في بيئه الكتاب والسنّة، ورُبّي في ظلال الإيمان والاحتساب، وكان عالماً بغاية نزول الشرائع الإلهية، ومتمنكاً من أصول الدين الإسلامي الحنيف، كان مهيئاً لهذا الموضوع، وقد احتلّ موضوع التكليف والجزاء - أبرز ما يميّز الإنسان - حجر الزاوية في هذا الكتاب، ويرى الإمام الذهلي أنَّ الإنسان يملك عدّاً قوتي العقل والمنطق أمرين آخرين:

(زيادة القوة العقلية، وما أسماه - ببراعة - (براعة القوة العملية)... ومعنى ذلك - أو ينبغي عليه - أنَّ طبيعة الإنسان تتطلّب التقدُّم والرقيّ وعلوَّ الهمة، وتسعى إلى الكمال! وإن شئت قلت: إنَّ هذه الطبيعة تتطلّب التقدُّم في باب السلوك أو التعامل مع الذات والمجتمع، كما تتطلّب الارتقاء في باب الصناعة والتعامل مع المادة والأشياء).

ولهذا بدأ كتابه بتلك المباحث والمواضيعات التي تتعلق بالنظام التكويني في العالم والحياة والبشرية، والتي تتكون بالالتزام بها هيئة اجتماعية صحيحة، ومدنية صالحة. وقد استخدم لذلك مصطلح (الارتفاعات)، ويرادُ بهذا المصطلح عنده - على هذا، أو على ما ذهب إليه الأستاذ أبو الحسن - «اشتراكُ أفراد الناس في الانتفاع بعضهم من بعض والتعاون فيما بينهم، والمشاركة في العمل والتداريب النافعة لإنشاء حياة مدنية معتدلة متزنة»^(١).

والأحكام الشرعية أو (النظام التشريعي) الذي يتطلّب هذه الحياة لا يوافق النظام التكويني فحسب، بل يمتدُّ ويتعاون معه، ويخدم أغراضه ومقاصده. وهكذا تنشأ في ظل هذا الاجتماع الإنساني: الصلة الوثيقة بين علم الأخلاق وعلم الاقتصاد.

(١) انظر مقدمة الكتاب، وانظر فيها - بخاصة - إشاراته أو حديثه عن البشارات الغيبة التي تلقاها لإنجاز هذا العمل بوصفه «نوع بيان للدين». وقد تحدث عن هذا الأستاذ السيد أبو الحسن في هذا الكتاب، ص ٢٠٦.

ولهذا فإنَّ الإمام الذهلي لم يتحدث فقط عن أهمية الحياة المدنية وأشكالها، وعن صور المكاسب، ووجوه المعاش... إلخ، بل تحدث كذلك عن السعادة التي لا تتحقق بالمال والاقتصاد فحسب، حتى إنه جعل أصولها أربعة هي: الطهارة، والإخبار إلى الله، والسماحة، والعدالة.

قلنا: إن الكتاب - بموضوعاته ومصطلحات الإمام الذهلي فيه - يذكرنا بمقيدة العلامة ابن خلدون، ولكن مصطلحات الإمام لم يجرِ تحديتها بعدُ، كما أنَّ كثيراً من آرائه واجتها ذاته تحتاج إلى شرح يضعُها في سياق الكتاب العام. ولكنها على أيَّ حال أبعدُ من آراء ابن خلدون في قابليتها أو بعبارة أدق: في إمكانية قطعها وتوظيفها لأغراض غير شريفة - إذا استخدمنا عبارات ابن خلدون نفسه - كما فعل أصحاب النظرية المادية مع مقدمة ابن خلدون. علمًا بأنَّ أصول القاضي العلامة الفقيه ابن خلدون ومنطلقاته وأغراضه إسلامية - لا مجال هنا للإشارة إلى هذه المنطلقات والأصول والأغراض - ويعود ذلك فيما نرى إلى عدَّة أسباب:

منها أن إطار الدراسة عند الإمام الذهلي أوسع منه عند ابن خلدون: الأمر الذي يجعلُ قطعَ بعض المسائل عن سياقها العام أكثر صعوبة.

ومنها أنَّ الإمام الذهليَّ وضع كتابه في عصر قويت فيه نزعة البحث عن مقاصد الشريعة وتحكيمها من موقع الدفاع، أو بفرض مواءمة أحكام الشريعة مع مقتضيات التزعة العقلية المنقوله عن الغرب... حتى ولو أدى ذلك إلى تقديم المصالح أو تحكيمها في النصوص! فجاءت تعبيرات الإمام الذهليَّ تحملُ في طياتها طابع الرد غير المباشر على المعترضين وأصحاب الأغراض!

وقد نضيف سبباً ثالثاً يفرض نفسه في هذا السياق، وهو أنَّ القاضي العلامة ابن خلدون كتب (مقدمته) بقلم المؤرخ وبروح السياسي ورجل الدولة، أمَّا الإمام الذهليَّ فقد كتب (حجَّة الله) بقلم الرباني، وبروح المصلح الديني ورجل الدعوة^(١).

(١) يقولُ بعضُ الباحثين: إنَّ الإمام الذهليَّ عبرَ بمصطلح (الارتفاعات) عن العلاقة ما بين أوضاع الناس ونقوسهم وزمانهم وظروف معيشتهم، وبين النصوص. قال: «ترتفقُ على =

وريما كانت هذه الأسباب ونحوها، إلى جانب موضوع الكتاب، وما ارتاده المؤلف من آفاق . . هي التي حملت بعض العلماء على عد هذا الكتاب (فناً) جديداً من فنون المعرفة .

موضوعه: النظام التشريعي المحمدي .

وغايتها: أن يعلم المكلَّفُ أنَّ أحكامَ الله تعالى ورسوله ﷺ لا تخالفُ الفطرة، وأنَّه لا يُعْسِرُ فيها ولا تضييق .

وحدهُ: أنَّه العلم الذي تُعرَفُ به حِكْمَ الأصول الدينية والأحكام الشرعية .

أما مبادئه: فجميع العلوم المتعلقة بالحياة الإنسانية!

ورحم الله الإمام الذهلي والداعية الندوبي، ورحم أستاذنا المفكر محمد المبارك الذي كان ينوه بهذا الكتاب في محاضراته في (نظام الإسلام) .

(إزالَةُ الْخَفَاءِ عَنْ خِلَافَةِ الْخَلْفَاءِ):

عدَّ الأستاذ السيد أبو الحسن كتابه عن (الإمام السر هندي) هديته إلى القرن الخامس عشر الهجري، كما قدمنا، ويمكننا نحن أن نعد كتاب (إزالَةُ الْخَفَاءِ عَنْ خِلَافَةِ الْخَلْفَاءِ) للإمام الذهلي هديته إلى القرن المذكور أو إلى القرن الميلادي الحادي والعشرين، على الرغم من أنه قد مضى على تأليفه نحو ثلاثة قرون! وإذا كان قد عرض في كتابه (حجَّةُ اللهِ البالغة) نظام الإسلام الشامل المتناسق، وأثبتَ فيه أنه دون تطبيق هذا النظام لا أمل في قيام مجتمع رشيدٍ، ومدنيَّةٍ صالحةٍ، وحياة اجتماعية طيبة، فإنه في كتابه (إزالَةُ الْخَفَاءِ) قام بالبرهنة والتدليل على ذلك من خلال الواقع التاريخي الذي شهدَه عصر الخلافة الراشدة على وجه

=

النص بحيث يوجد نوعٌ من التفاعلي ما بين الأوضاع والنصوص

قلت: إنَّ الإمام الذهليَّ لم يهمل النظر في تلك العلاقة، ولكن لا يبدو أنها المراده بمصطلحه المذكور. راجع كتاب: نحو فقه جديد للأستاذ جمال البتا: ٨٣/٣، دار الفكر الإسلامي ١٩٩٩م - القاهرة. ولا يخلو الكتاب - مع مقاصد المؤلف الحسنة - من مجازفات وردود فعل، وتوسيع في مفهوم التطور وأفاقه وأثاره

الخصوص؛ حتى لكانَ الكتابين يكملُ أحدهما الآخر؛ تحدث في أولهما عن (المبادئ) وفي الثاني عن (التطبيق).

ومن وجه آخر، فإنَّ كتاب (حججة الله البالغة) جاء في عصر الثورة العقلية، واستجابةً لتحدياتها، وأعني التحديات الخارجية التي انطوت عليها الثقافة الأوروبية التي مهدت للاستعمار، أو مشت في ركبها، في حين أنَّ كتاب (إزالة الخفاء...) جاء ردًا على سيطرة العناصر الشيعية الإيرانية في عصره على الهند، ومحاولَة منه لاستنفاذ المسلمين في شِبَهِ القارة من الإضطراب الفكري والعقائدي الذي صاحب تلك السيطرة، أي أنه جاء ردًا على التحديات الداخلية التي واجهت المجتمع الهندي في القرن الثاني عشر الهجري، والتي زرعت في حياة المسلمين الشبهات والشكوك. يقول الإمام الذهلي في بيان البابعث على تأليف الكتاب:

«إنَّ بدعة التشيع راجت في هذا العهد وانتشرت، وتأثرت طبائع العامة بشبهاتهم التي أوردوها تأثيراً عميقاً، ونشأت في قلوب معظم أهل هذه المنطقة شكوكٌ وشبهاتٌ كثيرة في موضوع ثبوت خلافة الخلفاء الراشدين».

لقد واجه الإمام الذهلي نظرية (الإمامية) عند الشيعة بنظرية (الخلافة) عند أهل السنة. ومن هنا جاء قوله: «إنَّ كلَّ منْ يحاول هدم هذا الأصل - ثبوت الخلافة الرشيدة وصحتها - وينكرُ هذا الأصل الأصيلَ من الدين إنما يحاول هدم جميع الشعب الدينية»!

لقد لاحظ الإمام الذهلي - وهو يقرر هذه النتيجة - أموراً كثيرة، منها: أنَّ الشيعة ضارعوا بإمامتهم هذه النبوة والرسالة.. وهو الأمر الذي مكّنهم من إعادة صياغة الإسلام على النحو المرغوب أو أتاح لهم فرصة وضع إسلام ذي مواصفات خاصة، بغضّ النظر عن مدى ملاءمة هذا الدين مع الثقافة والتقاليد الإيرانية!

الأمر الثاني: أنَّ الإسلام - السنّي - إنما وصلنا عن طريق الصحابة الذين نقلوا القرآن بعد أن شهدوا نزوله، وتلقّوه عن النبي الموصوم عليه السلام، والذين نقلوا السنة كذلك، وإنَّ الطعن فيهم ينطوي على الطعن في هذين المصادرين، وفي جميع الأمور التي اتفق عليها المسلمين خلال مئات السنين، فوق ما يومئ إليه هذا

الطعن ويدلّ عليه من «خيبة الإسلام وإخفاقه في عهده الأول الظاهر، وأنّ صحبة النبي ﷺ لم تثمر ، ولم تفعل فعلها في تكوين مجتمع صالح فاضل يوثق به» !! كما يقول الإمام الذهلي .

قلت : فإذا كان هذا العصر الظاهر أو أزهى العصور هوأسوها وأحرارها بالنقض والتجریح في العرف (الإمامي) فأین هو الإسلام؟ أو ما مصيره بعد ذلك العصر؟

إنَّ (إزالة الخفاء عن خلافة الخلفاء) أو إثبات خلافة الخلفاء الراشدين ، وبيان عظيم متّهم على الأمة ليس مجرد تحقيق تاريخي ، أو دفاع عن رجال .. ولكنّه دفاعٌ عن مبادئ ، وشرح لحقائق الإسلام .. وإن شئت قلت : إنه ليس فقط دفاعاً عن أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم ... ولكنّه قبل ذلك وبعده دفاع عن النبوة ، وعن محمد ﷺ والقرآن ..

لقد شرح الإمام الذهليُّ كيف حافظ الصحابة على تطبيق تعاليم الإسلام بعد عهد النبوة - مباشرة - بنجاح منقطع النظير .. وكيف أنَّ آثار هذا التطبيق اتسع نطاقها في عهد الخلفاء الراشدين الفاتحين حتى تعمّت بالإسلام تلك الشعوب التي كانت ترّزح تحت حكم الدولتين الساسانية والبيزنطية .

لقد كتب الإمام الذهلي في هذا الكتاب فصلاً تحت عنوان (تحطيم الدولة الساسانية) وفصلاً آخر تحت عنوان (تحطيم الدولة الرومية) ولا ندري إن كان قد أشار في هذا السياق إلى أولئك الذين لم يصبوا جام غضبهم ، ويوجّهوا طعونهم إلى أحدٍ من صحابة رسول الله كما فعلوا ذلك مع الخلفاء الراشدين ، الذين ثبّتوا أركان الإسلام ، ووسعوا أفقه .. ومع سائر الفاتحين أو (القادة) الميدانيين ، الذين كان لهم فضل تحطيم الكفر في الدولة الساسانية !

تحدّث الأستاذ السيد أبو الحسن عن الآفاق التي ارتادها الإمام الذهليُّ في هذا الكتاب ، وأشار إلى ما يزخر به من «نكات علمية مثيرة ، وإشارات نادرة لطيفة» فوق ما تهياً لمؤلفه من «تدبر طويل ، وتفكير عميق في كتاب الله تعالى .. إلى جانب عمق الاستنباط ودقته ، ووفرة الذكاء وتوقّد الذهن ..» .

وقد شعر الإمام الدهلوi نفسه أن جملة ما أودعه في كتابه ينطوي على علم مستقل أو على أصل جديد - عظيم - من أصول الدين، وأن ذلك تم بتوفيق من الله عزّ وجلّ . قال رحمة الله : «والواقع أنَّ نور التوفيق الإلهي ألقى في روع هذا العبد الضعيف علمًا مستقلًا بكلٍّ وضوح وتفصيلٍ حتى علم اليقين أن إثبات خلافة الخلفاء الراشدين أصل من أصول الدين العظيم ، وما لم يتمسّك الإنسان بهذا الأصل تمسكاً قوياً ، ولم يغضّ عليه بالتواجد ، بقيت كلُّ مسألة من مسائل الشريعة معرضة للشك والضيغف !»

ويذكّرنا الإمام الدهلوi في هذا - مرة أخرى - بالعلامة ابن خلدون من جهة ، وبحجة الإسلام الغزالي من جهة أخرى .

بين المجدد الدهلوi ومعاصره المصلح الكبير الشيخ محمد بن عبد الوهاب:

ولد الإمام الدهلوi قبل الشيخ محمد بن عبد الوهاب بعام واحد ، ولكن الشيخ توفي بعده بثلاثين عاماً . يقول الأستاذ السيد أبو الحسن : «ورغم هذه المعاصرة وكثير من الأمور المشتركة بينهما لم نعثر على معرفة الإمام الدهلوi به وتعريفه عليه . فضلاً عن مقابلته ولقائه . . .» .

وبعد أن تحدثَ السيد الأستاذ عن دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وجهاده وجهوده العظيمة التي دارت حول الدعوة إلى التوحيد الخالص ، والرد على مظاهر الشرك واستئصال التقاليد والطقوس الجاهلية . . . وحوال توضيح الفرق بين توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية ، وشرح حقيقة التوحيد الذي طلبه الله تعالى من عباده . . . وأشار إلى الشّبه الكبير في هذا كله بين آراء الشيخ وتحقيقاته وبحوثه ، وأراء الإمام الدهلوi وتحقيقاته وبحوثه ؛ قال رحمة الله :

«ولكنَّ دائرةَ أعمالِ الدهلوi الإصلاحية والتَّجديدية أوسعُ وأشملُ من ذلك بكثيرٍ ؛ فإنَّها تضمُّ بين جوانبها: إحياءَ العلومِ الإسلامية ، وتجديداً للفكر الإسلامي ، والكشفَ عن أسرارِ الشريعةِ الإسلامية ومقاصدها ، والمأثرة العلمية لعرضِ التعاليم الدينية والشريعة الإسلامية في صورةٍ متناسبةٍ شاملةٍ . ومقاومة

الجمود والتحجر العلمي، والعصبية الشديدة للمذاهب الفقهية. والعمل الاجتهادي للتطبيق بين العقل والنقل، والتوفيق بين المذاهب الفقهية الأربع. والمحاولات الجادة لحفظها على السلطة الإسلامية في الهند. والدراسة العميقة للأحاديث النبوية الشريفة، والجهود التجددية لنشرها وتعديمها والدعوة إليها، والدعوة إلى تزكية النفوس، وإصلاح القلوب، والوصول إلى درجة الإحسان، وتعليم طرقها ومناهجها. وتربيبة الرجال الأ��اء. وفوق ذلك يتميّز الإمام الدهلوi برقّة وحنان، وقوّة عاطفة كانت - على حد التعبير الشعري لمحمد إقبال - كوجود ماء زمزم الرقيق الفياض في أرض الحجاز الحجرية الصلبة! وبذلك يجمع بين صلابة عقيدة التوحيد وحنان القلب! وهذا أثرٌ من آثار بيئه الإمام الدهلوi، وتربيته الروحية الخاصة، ويمكن أن نشاهد أمثلته في قصائده ومدائحه النبوية، على ممدوحها الصلاة والسلام».

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

كتاب المؤلف

الحمد لله رب العالمين ، والصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى سَيِّدِ الْمَرْسُلِينَ وَخَاتَمِ النَّبِيِّنَ
مُحَمَّدٌ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ ، وَمَنْ تَبَعَهُمْ بِإِحْسَانٍ وَدُعَا بِدُعَوْتِهِمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ .

أما بعد : فيسرُّ المؤلفَ ويُسعدُهُ أَنْ يَقْدِمُ لِلقراءِ الْعَرَبِ الْجَزءُ الرَّابِعُ مِنْ
كتابِهِ : (رجالُ الْفَكْرِ وَالدُّعْوَةِ فِي الإِسْلَامِ) ، وَهُوَ الْجَزءُ الْخَاصُّ بِحَيَاةِ حَكِيمِ
الإِسْلَامِ الْإِمامِ (أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحِيمِ) الْمُعْرُوفُ بِالشِّيخِ (وَلِيُّ اللهِ الْذَّهْلُوِيُّ)
(١١١٤ - ١١٧٦ هـ) ، وَالتَّعْرِيفُ بِدُورِهِ الْإِسْلَاحِيِّ التَّبْجِيدِيِّ التَّرْبِيَّيِّ الْقِيَادِيِّ
الَّذِي قَامَ بِهِ ، وَوُفِّقَ لَهُ فِي شَبَهِ الْقَارَةِ الْهَنْدِيَّةِ ، الَّتِي كَانَتِ الْجَزْءُ الْحَاسِمُ الْحَسَاسِ
مِنَ الْعَالَمِ الْإِسْلَامِيِّ فِي الْقَرْنِ الثَّانِيِّ عَشَرَ وَمَا بَعْدَهُ ، وَبِدُورِهِ فِي إِحْيَا الْفَهْمِ
الصَّحِيحِ لِلَّدِيْنِ ، وَإِعْاَدَةِ الْحَيَاةِ وَالنَّشَاطِ وَالْحَيْوَيَّةِ وَالنَّمْوِ إِلَى الْفَكْرِ الْإِسْلَامِيِّ ،
وَعَرَضَ الشَّرِيعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ فِي صُورَةٍ مُّتَنَاسِقَةٍ شَامِلَةٍ ، وَالْكَشْفُ عَنِ أَسْرَارِ الْأَحْكَامِ
الشَّرِيعَةِ وَمَقَاصِدِهَا وَحِكْمَهَا ، وَالْتَّطْبِيقُ بَيْنِ الْعُقْلِ وَالنَّقلِ ، وَبَيْنِ الْفَقْهِ وَالْحَدِيثِ ،
وَالْتَّوْفِيقُ بَيْنِ الْمَذاَهِبِ الْفَقِيهِيَّةِ الرَّئِيْسِيَّةِ ، وَذَلِكُ فِي مَجَالِ الْعَالَمِ الْإِسْلَامِيِّ كُلِّهِ ،
وَلِلْأَجِيَالِ الْآتِيَّةِ كُلِّهَا .

فَهُوَ بِذَلِكَ اسْتَحْقَقَ دراسَةً اخْتِصَاصِيَّةً مِنَ الْبَاحثِيْنَ فِي تَارِيْخِ الْإِسْلَامِ
الدِّينِيِّ وَالْفَكْرِ الْإِسْلَامِيِّ ، وَمِنَ الْمُعْنَيِّنِ بِالصِّحَوَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَرِبَطِ الْمَجَمِعِ
الْإِسْلَامِيِّ بِالْأَصْوَلِ الْإِسْلَامِيَّةِ السَّلِيمَةِ ، وَالْتَّعَالِيمِ الشَّرِيعَةِ الْقَوْيَّةِ ، فِي كُلِّ بَلْدَةٍ
مِنْ بَلَادِ الْإِسْلَامِ ، وَفِي كُلِّ طَبَقَةٍ مِنْ طَبَقَاتِ الْمُتَقْدِفِينِ الْإِسْلَامِيِّينَ ، وَالْعَالَمِيْنَ لِرَفْعِ
شَأنِ الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِيْنَ .

إنَّ العمل الضخم المتنوع الواسع الذي قام به الإمام الذهلي اشتمل على إصلاح العقائد، ونشر الكتاب والسنّة، والرِّد على المذاهب الدخيلة على الإسلام النابتة الطفيليَّة في حقله، وعلى المحاولة الحكيمية القائمة على الدراسات العميقَة لجمع شمل الأمة محمديَّة، بتصصير الفجوة بين المذاهب الفقهية السائدة، وبين الفقه والحديث، وردم الفجوة بين المتنمرين إليها، وعرض الشريعة الإسلامية وشعُّها وأبوابها في ترابطٍ ونظامٍ، وفي تناسقٍ واتزانٍ، يختل إلى القارئ كأنَّها لآلئ العِقد المنظوم، أو حلقات سلسلة مترابطة، وعلى رفع القناع عن فوائد الشريعة العملية والاجتماعية والمدنية، وشرح التعاليم الدينية والهداية السماوية في محيط الحياة الواسع، وفي سياق العلاقات المشتركة بين الناس، وصلة الأسباب بالنتائج.

هذا هو الدور القيادي المجاهد الذي قام به في عهد الفوضى السياسيَّة، واحتضار الدولة الإسلاميَّة في الهند، وبذل الجهود لإقامة مملكة قوية موطدة الأركان، الدور القيادي الحكيم الذي يقوم به أكبر سياسي بصير لا يمثُّل إلى التأليف والتصنيف والبحث والتدريس بأيٍّ صلة، مع عدم إهمال المجتمع المسلم الذي هو مصدر كل انقلاب صالح وغير صالح، والحاصلن للقيادة والحكام، والأرضية التي تقوم عليها الحكومات والمنظّمات، وقد وفق لوضع الأصياغ على أمراض طبقاته المختلفة ومواضع ضعفها، وضرب على الوتر الحساس، ودلَّ على مكامن الضعف والانحراف، وأنواع الغرور والخداع، مع توجيه النصائح والملاحظات، إلى كل طبقة من هذه الطبقات.

ولم يكن كل ذلك نظرياً وعلمياً فحسب، ومقصوراً على شخصه الخاص، فقد ضمَّ إلى كل ذلك تربية الخلفاء والرجال الأكفاء، الذين قاموا بإكمال مهمته، حسب مقتضيات الزمان، ومتطلبات الدين، ومدَّ دوره الإصلاحي إلى مساحة مكانية و زمنية من أوسع المساحات التي قيَّضَتْ لمصلح ديني، وعالم مؤلف، مدرسٍ مربٍّ، مضافاً إلى ذلك كلَّه، إحياء الجهاد في سبيل الله، ومقاومة الخطر على حرية المسلمين وسلطتهم.

وبهذا الشمول العجيب، والتنوع النادر، والفكر الإسلامي الأصيل، والعلم الديني الراسخ، وفهم روح العصر، والتنبه للأخطار والتحديات التي كان يتمتّض بها المستقبل، ولا تزال في ضمير الزمان، والتنبيه إليها، والدعوة إلى إعداد العدة لها، أصبح نموذجاً كاملاً للمصلح الديني، والمجدد الإسلامي في كل بيئة من بيئات العالم الإسلامي، وفي أوضاع دينية واجتماعية وسياسية، يختلف بعضها عن بعض اختلافاً كبيراً، وأصبح مدرسةً علمية فكرية، واسعة جامعة، يتخرج فيها علماء مصلحون، ومفكرون إسلاميون على اختلاف مستوياتهم، وتتنوع اتجاهاتهم.

وفي الحقيقة إنَّ هذا العصر هو عصر (شيخ الإسلام الحافظ أحمد بن تيمية الحزناني) (ت ٧٢٨هـ)، وحكم الإمام أحمد بن عبد الرحيم (الشيخ ولد الله الدهلوi) (ت ١١٧٦هـ)، وذلك لاعتمادهما على الكتاب والسنة - اللذين كتب لهما من الخلود وصلاحية البقاء ما لم يكتب لحتاج علمي ومدرسة فكرية - واعتبارهما الأصل والأساس، والقائد والنبراس في حلِّ المعضلات والمشاكل، في العبادات والمعاملات، والأخلاق والمجتمع، والمدنية والسياسة، وتربيّة النفوس وتزكيتها، وبما كانا يدينان به من الحاجة إلى الاجتهاد في كل عصر، وتجديد الفكر الإسلامي، وبما كانوا يتصفان به من مقاومة الجمود والتحجر العلمي، والعصبية الشديدة للمذاهب الفقهية، ويمتازان به من دراسة البيانات غير الإسلامية، والمذاهب المتزعّمة للإسلام.

هذا مع ما لا بد منه من اختلاف في المنهج والذوق، وفي العناصر التي تركبت منها شخصية كل واحد منها، وتكون بها مزاج خاص، اختلافٌ يقتضيه اختلاف البيئات، وأساليب التربية، وطبيعة الزمان والمكان، واتجاه الأسر والأباء، لذلك كان نشر مؤلفات كل واحد منها وتحقيقاته، وتاريخ كفاحه، ودوره الإصلاحي، في مكانه وأوانه.

وقد سبق للمؤلف وضعُ كتابٍ خاصٍ بحياة (شيخ الإسلام الحافظ أحمد

ابن تيمية) كون الحلقة الثانية من (رجال الفكر والدعوة في الإسلام)^(١)، وأتبع ذلك بإصدار كتاب خاص بالإمام (السرهندي) الشيخ أحمد بن عبد الأحد (٩٧٦هـ - ١٤٠٣هـ). يكون الجزء الثالث من سلسلة (رجال الفكر والدعوة في الإسلام)، وقد صدر في سنة ١٤٠٣هـ (١٩٨٣م)، وهو إمام من كبار أئمة الإصلاح والتجديد في تاريخ الإسلام الطويل، وقد كُتب له من النجاح في أهدافه الإصلاحية والتجديدية ما قلّ لمصلح آخر في الماضي، فقد قضى على بعض الفتن التي كانت تقضي على الإسلام - لو لا قضاء الله ببقاءه وكفالته بحفظه - وجلّى بعض الحقائق الدينية الرئيسية، وال الحاجة إلى النبوة، وفضل الأنبياء، وإعادة الثقة والإيمان بالنبوة المحمدية، تجليًّا لم تؤثر عن مصلح آخر، وغيره مجرى التاريخ في شبه القارة الهندية، وحوال وجهة الإمبراطورية المغولية، من الفكر والإلحاد، والبرهنية ووحدة الأديان، إلى الدين الحنيف، والشريعة الإسلامية السمحاء، ذلك كلّه بطرق حكيمه سلمية، وأساليب دعوية تربوية، وربانية صادقة خالصة.

وها هي الحلقة الرابعة من هذه السلسلة الذهبية، يسندُ بعضها بعضاً، وكلها متربطة متناسقة ، تدل على أنّ شجرة هذا الدين تؤتي أكلها كلّ حين ، وعلى أنّ خليتها لا تنقطع عن التعسيل ، وكتنانة لا تندُ ، ولا تخطئ سهامها .

وقد وضع المؤلف هذا الكتاب أصلًا بـ (اللغة الأوردية) لغة شبه القارة الهندية ، العلمية والتأليفية ، التي يفهمها أكثر من مئتي مليون إنسان في شبه القارة وخارجها ، والتي ابتدأ المؤلف وضع هذه السلسلة التاريخية فيها ، وقد قام بنقل الجزئين الثالث والرابع من هذه السلسلة^(٢) الأستاذ العزيز (سلمان الحسيني التدوبي) من أساتذة دار العلوم ندوة العلماء خير قيام ، استحقّ به دعوات المؤلف بطول حياته وحسن توفيقه ، وشكر القراء ، وفوق كل ذلك ، رضاً من الله وحسن ثوابه .

(١) صدرت الطبعة الأولى للكتاب من دار القلم (الكويت) سنة ١٣٩٥هـ (١٩٧٥م).

(٢) قام بنقل الجزء الثاني من هذه السلسلة وهو الجزء الخاص بـ (شيخ الإسلام الحافظ أحمد بن تيمية) الأستاذ سعيد الأعظمي التدوبي أحد أساتذة دار العلوم الكبير، ورئيس تحرير مجلة (البعث الإسلامي) جزاً الله خيراً.

أرجو أن ينال هذا الكتابُ مكانه اللائق في المكتبة الإسلامية الحديثة ، وفي
أوساط الدارسين والباحثين ، والمعنيين باليقظة الإسلامية والإصلاح الديني ،
وعلى الله قصد السبيل .

أبو الحسن علي الشيرازي

دارة الشيخ علم الله الحسني - رأيي بريلي
١٣ من جمادى الآخرة ١٤٠٥ هـ

لِلّٰهِ الْحُكْمُ

العَالَمُ الْإِسْلَامِيُّ
فِي الْقَرْنِ الْثَانِي عَشَرَ الْهِجْرِيِّ

اللَّبَّ لِلَّهِ

الْعَالَمُ الْإِسْلَامِيُّ

فِي الْقَرْنِ الثَّانِي عَشَرِ الْهِجْرِيِّ

تَهْمِيد

أهمية دراسة أوضاع البلاد الإسلامية وتطوراتها وأحداثها
في القرن الثاني عشر الهجري:

لقد صرّح مؤلف هذا الكتاب الجزء الرابع من سلسلة (رجال الفكر والدعوة) في بداية الجزء الثالث من (رجال الفكر والدعوة)، الذي يختص بحياة الإمام أحمد ابن عبد الأحد السرّهندى (٩٧١ - ١٠٣٤ هـ) وتاريخ عصره ومآثره الإصلاحية والتجدidية العظيمة، وهو يشير إلى أهمية الدراسة التاريخية للقرن العاشر الهجري - الذي ولد فيه الإمام السرّهندى، ونشأ نشأته العقلية والعملية - بما يلي:

«وينبغي - ونحن في هذه الدراسة - أن لا نغفل حقيقة ذات شأن، وهي أنَّ العصر الذي يولد فيه الإنسان، والعالم الذي يعاصره، والمجتمع الإنساني الذي يعيش فيه، هو كالنهر الجاري، تتصل كلُّ موجة فيه بالموجة الأخرى، وتتسق معها، فلا يمكن لأجل ذلك أن يبقى بلدٌ - مهما كان بعيداً نائياً، يعيش في عزلة عن سائر العالم - غير متأثِّر بالأحداث الخطيرة، والثورات العظيمة، والقوى المتحاربة، والحركات المؤثرة القوية، التي تجري في بلدان العالم الأخرى، لا سيما إذا كان مركز هذه الأحداث والواقع والثورات والتطورات بلداً يشاركه في العقيدة والمذهب والمشرب، ويجاوره في المكان، ولذلك فلا يجوز للمؤرخ البصير في هذه الدراسة التاريخية أن يقتصر على الهند فحسب، بل يلزمُه أن يلقي نظرةً عامة على العالم الإسلامي كله في القرن العاشر، لا سيما البلدان المسلمة المجاورة التي كانت بينها وبين الهند أواصر علمية ودينية وحضارية، وكانت

تصل إليها لفحائتها الشديدة اللاذعة، ونفحاتها الرخامية الناعمة، على بُعد الدار،
وطول المسافة»^(١).

إن الحاجة إلى مراعاة هذه الحقيقة التاريخية، وتطبيق هذا الأصل المهم في دراسة حياة الإمام الدهلوi، وإلقاء الأضواء على أعماله التجديدية الكبيرة أشد وأكثر، إذ إن تربيته الفكرية والعلمية تدين بلاد الحرمين الشريفين، وإن لهما الدور الأساسي في تكوين عقليته وثقافته، حيث أقام الإمام الدهلوi أكثر من عام واحد في الفترة الواقعة بين ١١٤٣ - ١١٤٤ هـ^(٢)، ودرس علم الحديث الشريف على المحدث الشيخ أبي طاهر محمد بن إبراهيم الكردي المدنى أحد أئمة الفن وعلماء الحديث الكبار في عصره، الذي كان يؤمّه طلابُ الحديث من مختلف الأقطار والأماكن، وتخرج على يديه وأسندَ عنه جميع مروياته، وجالس علماء الحرمين الشريفين (الذين كانوا من مختلف البلدان الإسلامية والعربية) وصحبه مدةً من الزمن.

وقد كان الحجاز آنذاك في ولاية الدولة العثمانية وإدارتها، وكان أشراف (مكة) يتبوّؤون منصب الإمارة كنواب عن السلاطين العثمانيين، وقد كان الحرمان الشريفان - لاسيما المدينة المنورة على صاحبها الصلاة والسلام - اللذان يجتمعان في رحابهما في أيام الحج كلّ عام صفوّة أصحاب العقول النيرة، والقلوب الصافية، يتهافتون عليهما تهافت الفراش على النور - مركزين دائمين لعلم الحديث الشريف، حيث يلتقي طلابُ هذا العلم وهواته من كلّ بقعة من يقاع العالم الإسلامي.

وكان من الميسور لمن يقيم بها أن يستعرض العالم الإسلامي كله، ويدرسه روحاً وعلمياً، وخلقياً واجتماعياً، ومدنياً وسياسياً، وأن يقدر - بسهولة - رقى البلدان الإسلامية والعربية وازدهارها، أو سقوطها وانحطاطها من هذه النواحي كلها، ويطلع على مختلف رجالها وشخصياتها ونوابعها، وحركاتها ودعواتها

(١) رجال الفكر، الإمام السروري - حياته وأعماله، ص ٣٢.

(٢) لقد كان الإمام الدهلوi وصل إلى الحجاز في أواخر عام ١١٤٣ هـ وعاد منها إلى الهند في أوائل عام ١١٤٥ هـ، وحجّ حجيـن.

الإصلاحية، وما يُبَذِّلُ فيها من جهود بناء ومتمرة، وما تحاكي فيها وتبيّن من مؤامرات مفسدة مدمرة.

بل كان من الممكن أن يجُسَّ نبض العالم الإسلامي، ويقدّر سيره، ويسمع خفقان قلبه، ومن اللازم أن إماماً نابعة كالأمام الذهلي في المعيته، وتوقد ذكائه، ولوحة قلبه وتوجّعه، يكون قد استفاد من كل ذلك، وتأثّر به، واستخدمه في توسيع نطاق فكره، وبُعد نظره، وعالمية دعوه وفلسفته ومنهجه.

زد على ذلك أن الهند كانت - عبر قرون وأجيال - مجالاً للغزاة والفاتحين من الأسر الأفغانية والتركية من آسيا الوسطى، ولم تزل هذه البلاد تحت وصايتها سياسياً وإدارياً، وهم الذين كانوا يزوّدون حكوماتها الضعيفة النحيلة وهيكلها التنظيمي والإداري بدماء جديدة حارّة، ويهبون إدارتها المفككة المنهارة وقوتها العسكرية المتداشلة قسطاً جديداً من القوة والحيوية والحرارة، وإذا أشرفت أسرة حاكمة - طال عهد حكمها - على مرحلة الشيخوخة والهرم، أقبلت من ممرٍ (خبير) أو ممر (بولان) قوة عسكرية جديدة، دافقة بالحيوية والحرارة إلى الهند، وطعّمت سلسلة الحكومات التي تدين بدين واحد (الإسلام)، وعقيدة واحدة (عقيدة أهل السنة والجماعة)، وقانون واحد (الشريعة الإسلامية)، ولغة واحدة (التركية) أو (الفارسية)، وحضارة واحدة - وهي الحضارة التي كانت مزيجاً من الحضارات العربية والإيرانية والتركية والهنديّة - بالقوة والنشاط، ووهبتها قسطاً جديداً من الحياة.

ثم إنّه لا ينبغي أن ننسى حقيقةً تاريخيةً، وهي أن أفغانستان وولايتها الكبيرة المهمة (كابل) و(قندھار) لم تزل منذ عهد الملك (بابر) وقيام الدولة المغولية جزءاً من الحكومة الإسلامية الهندية، وقلعة خارجية لها، وسوراً منيعاً، وقد كان دخول الملك نادر شاه ملك إيران في الهند، وزحفه إلى دهلي في عهد الإمام الذهلي نفسه، كما غزا الهند في عهده (أحمد شاه الأبدالي) عدة مرات حتى كانت أخيراً عام ١١٧٤ هـ الموافق عام ١٧٦١ م؛ تلك المعركة الحاسمة في ساحة (بني بت) التي هزم فيها (المرهته) هزيمةً نكراء، وغير وجهة التاريخ وتيار

الأحداث، وأعطى الدولة المغولية فرصةً صالحة تستدرك ما فات، وتعود إلى الحياة، والمجتمع المسلم وطبقة الأمراء والولاة فرصةً سانحة للقيام بدورٍ جديد، لم يستطيعوا أن يقوموا به لعدم كفاءتهم، وسوء تصرفاتهم.

لقد كانت هذه الأحداث كلُّها في عهد الإمام الذهلي، بل كان الحدث الأخير منها بإشارة منه وإرشاد، وكان صاحباً هاتين الغزوتين يتمنىان إلى إيران وأفغانستان، ولأجل ذلك لا يمكن في دراسة عهد الإمام الذهلي واستعراض القرن الثاني عشر الهجري التغاضي عن أوضاعهما وانقلابات الدول من جراء ذلك.

تأثير إيران الحضاري والثقافي على الهند:

ثم إنَّ الهند كما كانت من القرن الخامس الهجري تحت تأثير تركستان وأفغانستان من النواحي السياسية والعسكرية، كذلك كانت في قليل أو كثير تحت تأثير إيران من النواحي العلمية والأدبية والثقافية والحضارية والفكيرية، وتتجذرُ على فكرتها وعقليتها ظلالُ أدبها وشعرها، وطرق تصوّفها، وأخيراً ظلالُ مناهجها الدراسية، ونظمها التعليمية، ومؤلفات علمائها ونوابغها، لا سيما منذ دخول الملك (همايون) إلى إيران، واستعادة الدولة الهندية بمناصرتها وتأييدها.

ثم منذ مُقدِّمَ الأمِير (فتح الله الشيرازي) والحكيم (علي الكيلاني) في عهد الملك (أكبر) أصبحت الهند - كلياً - عالَةً على إيران في مناهجها الدراسية، وطرق التعليم، وتحديد مقاييس الفضل والنبوغ، وفي مجال العلوم العقلية والحكمية، تقلدَها، وتدين لها، وتمشي في أثرها، وتنتَ بذلك السيطرة العليا لإيران على الهند في هذا الصدد، فلا يمكننا - نظراً إلى هذه الحقيقة التاريخية - أن نغفلُ الأحداث الجارية فيها في هذه الدراسة التاريخية.

أهمية الدولة العثمانية وعظمتها:

كذلك لا يمكننا التغاضي - عدا بلاد أفغانستان وإيران المجاورة - عن الدولة العثمانية (التي كانت تتولى من القرن العاشر الهجري منصب الخلافة، وهي وإن

كان موقعها الجغرافي على مسافة شاسعة من الهند في أوروبا وأسية الصغرى، ولكنها تحيط جميع البلدان العربية تقريباً (مصر، الشام، العراق، اليمن، نجد، الحجاز، والجزء الكبير من إفريقيا الشمالية).

وقد كان المسلمون كلهم ينظرون إليها، من حيث كونها حامية للديار المقدسة، وحاملة عبء الخلافة الإسلامية، ولأنها كانت قوة ومملكة كبيرة، ورمزأً للجبهة الإسلامية في نظر الغرب والقوى المعادية للإسلام، ومحافظة على كثير من المصالح الإسلامية، نظرة تقدير واحترام، ولم يكونوا يهتمون بما يجري فيها من وقائع وأحداث فحسب، بل كانوا يتأثرون بها، ويتكيفون معها، فلم يكن يمكن لمثل الإمام الذهلي في سعة أفقه، وعاليمة تفكيره - والذي كان اطلاعه على التاريخ الإسلامي اطلاعاً واسعاً عميقاً - أن يغضن النظر عن الدولة العثمانية، وقد كان خبيراً ب موقف الشريعة الإسلامية من الخلافة، وأهميتها السياسية والاجتماعية.

وكان يرى أنه لا بد للدين والأخلاق الصالحة والمجتمع الصالح والمدنية الصحيحة والحياة الإسلامية من حكومة مستقلة حرة، وقوة سياسية صالحة.

وكان يتمنى أن يرى المسلمين قوة مؤثرة، آمرة ناهية، لا في بلادهم فحسب، بل في العالم كله.

وكيف كان من الممكن أن يتغاضى عن رُؤيَّة أعظم مملكة للمسلمين وسقوطها، وصعودها وهبوطها، وهدوئها الداخلي واضطرابها، لا سيما وقد عاش في أحَبِّ البقاع وأكرمها في نطاق دولتها وهي الحجاز بعين مفتوحة، وذهب وقاد، وعقل حاضر، وقلب شاعر، ١٩٩.

وكان قد درس تلك التأثيرات وسمع أخبارها عن طريق الوافدين من ممتلكاتها وولاياتها والبلدان التي كانت تحت وصايتها كمصر والشام والعراق، التي كانت تترك على أوساط هذه البلاد العلمية والدينية بصماتها، نتيجةً لميل سلطانها العثمانيين وزرائهم، وشيخوخة الإسلام والعلماء الأتراك فيها، وعقليةتهم ونزاعاتهم، فلا بد إذن من إلقاء نظرة إجمالية على المملكة العثمانية في القرن

الثاني عشر الهجري (القرن الثامن عشر المسيحي) وعلاقاتها بالبلدان الغربية
المسيحية المجاورة، وتفككها وانحلالها، وتماسكها واستحكامها، ودورات
المد والجزر في قوتها السياسية.

* * *

الوضع السياسي في العالم الإسلامي

ستنظر أولاً في حالة العالم الإسلامي السياسية، وانقلاب الدول والحكومات، وأهم الواقع والأحداث، ثم ندرس أوضاع العالم الإسلامي العلمية والدينية والخلقية.

الدولة العثمانية في القرن الثاني عشر:

ولد (الإمام الذهلي) عام ١١١٤هـ وتوفي عام ١١٧٦هـ، وقد تولى في هذه الفترة - (٦٢) عاماً - على عرش الدولة العثمانية خمسة سلاطين، وهم: (مصطفى الثاني) (ت ١١١٥هـ)، (أحمد الثالث) (ت ١١٤٣هـ)، (محمد الأول) (ت ١١٦٧هـ)، (عثمان الثالث) (ت ١١٧١هـ)، و(مصطفى الثالث) (ت ١١٨٧هـ).

تولى أربعة من هؤلاء السلاطين: أحمد الثالث، محمد الأول، عثمان الثالث، ومصطفى الثالث، زمام الأمور في عهد بلغ فيه الإمام الذهلي أشدّه، واكتمل وعيه، وبدأ عمله وتفكيره، إلا أنَّ أهمَّ الفترات الزمنية من حياته (وهي السنوات الخمس الأخيرة) قضتها في عهد (مصطفى الثالث).

حكم مصطفى الثالث (١٦) عاماً، و(٨) أشهر، واندلعت في عهده نار الحرب بين الدولة العثمانية وروسية، انهزمت فيها الدولة العثمانية عام ١٧٦٩م، ولكن لم يكن لروسية فيها أيَّ مفخرة ومكرمة، بل كانت هذه الهزيمة بسبب بعض الأحداث والخلل في بعض التدابير والإجراءات^(١).

(١) انظر للتفصيل: تاريخ الدولة العثمانية العلية، لمحمد فريد بك المحامي، ط بيروت.

وأراد الجنرال الروسي (الفنسنون) أن يحمل على القسطنطينية أيضاً، إلا أنه منع من ذلك.

واتخذ (مصطفى خان) إجراءات لتعزيز جنوده واهتم بالإصلاحات العسكرية، وأحرز مكاسب عسكرية، وتقدمت روسية بشروط للمجادلة، كانت تشتمل على الإهانة لتركية، وجّه كرامتها، وعقد في (بخارست) في (١٣) شعبان عام ١١٨٦هـ (أي بعد وفاة الإمام الدھلوی بعشرين عاماً) الموافق (٩) تشرين الثاني - نوفمبر عام ١٧٧٢م مؤتمر، قدّمت فيه بعض الشروط، ولكن الدولة العثمانية رفضتها، وأصدرت أوامرها للجيش التركي بإعلان الحرب ضد روسية، فلقيت فيها روسية هزيمةً منكرة، ودخل في قلوبهم الرعب، حتى عندما مرّ الجيش التركي بسوق (جق) التي تدعى اليوم (Tobukhın) خلّى سكان هذه المدينة الروس المدينة بأكملها، يقول المؤرخ هيمر (Hemer): «إنَّ العثمانيين وجدوا قدوراً موضوعة على المراجل والأثافي، كان يطّبخ فيها اللحم».

توفي السلطان (مصطفى الثالث) في (٨) ذي القعدة عام ١١٨٧هـ (الموافق ٢١) كانون الثاني - يناير عام ١٧٧٤م) ويثنى المؤرخون على عده، ورغبته وجهوده في أمور الخير، وكان قد أقام في عهده كثيراً من المدارس والرباطات.

وقد انتشرت المطابع في الدولة العثمانية حين كان الإمام الدھلوی شاباً، وقامت المطبعة الأولى في القسطنطينية، وظهرت في هذا العهد نفسه حركةُ الشيخ محمد بن عبد الوهاب (١١١٥هـ - ١٢٠٦هـ)^(١).

واستولى (علي بك الكبير) الذي كان يدعى (بشيخ البلد) في عهد (عثمان الثالث) على حكومة مصر وإدارتها، وتأمر مع الجنرال الروسي الذي كان قد عُيِّن قائداً لأسطول بحر الروم، واشترط عليه مساعدته بالسلاح والذخيرة حتى تستقل مصر، ونجح (علي بك) بمساعدته في سيطرته على غزة ونابلس والقدس وبيافا ودمشق .

(١) تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص ٣٢٩ - ٣٤٠.

وكان يريد التوجه إلى الأنضوص إذ خرج عليه أحد القادة المماليك المدعوه (محمد بك أبو الذهب) الذي اضطر (عليه بك) للعودة إلى مصر، ولقي هزيمة على يديه، كان من نتيجة هذه الحرب الداخلية والفرضي أن أطلقت الأساطيل الروسية النيران على بيروت، وأنهلم بسببها حوالي ثلاثة بيت، ثم وقعت الحرب بين جيوش (عليه بك) وجيوش (محمد بك) في شهر محرم عام ١٨٧ هـ، انتصر فيها (محمد بك) وأسر (عليه بك) ومات بجرحه، وفصل رأسه من جسده، ويعُثَّ به مع أربعة ضباط روس إلى الوالي العثماني (خليل باشا) الذي أرسله إلى القدسية، وعادت مصر مرة ثانية إلى حكم الدولة العثمانية.

الوضع السياسي في الحجاز:

عندما سافر (الإمام الذهلي) إلى الحجاز، وأقام في الحرمين الشريفين مدة عام، كان ذلك في خلافة السلطان محمود الأول (١٤٣-١٦٧ هـ) وكان يمثل السلطان العثماني، وينوب عنه في الحجاز محمد بن عبد الله^(١) بن سعيد ابن زيد بن محسن الحسني (ت ١٦٩ هـ) واليه على الحجاز، الذي كان يقال له: (شريف مكة)، وكان قد ولد على الحجاز بعد وفاة والده عام ١٤٣ هـ، وقد كان عهده عهد الحرب الداخلية، والصراع بين أفراد الأسرة^(٢) على الإمارة، فقد

(١) ذكر اسمه في بعض الكتب (محمد عبد الإله) ولعل ذلك لأجل تجنب المماثلة اللغوية لاسم محمد بن عبد الله تأديباً واحتراماً.

(٢) لم يزل أشراف مكة (الذين كانوا يختارون من السادة الحسينيين نسبةً إلى الحسن بن علي رضي الله عنه، ولذلك كانوا يدعون بالأشراف) يتولون شؤون الحجاز منذ الثالث الأول للقرن الرابع الهجري، فقد عين الشريف الأول بمكة في عهد الخليفة العباسي المطیع الله (٣٣-٣٦ هـ) ثم كانت تولية الأشراف إلى عهد استيلاء السلطان سليم على الشام ومصر وولايته للحرمين الشريفين من قبل أسرة المماليك في مصر، فلما استولى السلطان سليم على الشام ومصر أقرَّ شريف مكة في عهده السيد بركات، وأبنته السيد أبانعي على منصبهما، وكانت شريفي مكة، واستمررت هذه الإمارة في الأشراف إلى الشريف حسين، الذي خرج على العثمانيين في يونيو عام ١٩١٦ الموافق شعبان عام ١٣٣٤ هـ وخلع في يناير عام ١٩٢٦ م، بعد استيلاء السلطان ابن سعود على الحجاز.

عزله عمّه مسعود بن سعيد عام ١١٤٥هـ، وتسلّط على الإمارة، ولكنه استعاد منصبه عام ١١٤٦هـ، ثم عزله عمّه ويني واليأ عليها إلى آخر عمره عام ١١٦٥هـ^(١)، وساد في عهده الأمن والسلام في الحجاز، ويصفه المؤرخون بأنه كان ذكيًّا متيقظًا، وسياسيًّا محنكًا^(٢).

ولإننا نجد كتب التاريخ والرحلات ومذكرات الحج التي أُلقيت في متتصف القرن الثاني عشر الهجري، أو تورّخ ذلك العهد، أنها تشكو قلة الأمن في الطرق، وغارات البدو، وفساد النظام، وسوء الإدارة، الذي كان نتيجةً بعد مركز الدولة العثمانية (القسطنطينية) وسياسة عدم التدخل من جانب الأتراك إلى حد المستطاع في الأمور الداخلية للحجاج، والتسامح الزائد مع (أشراف مكة) - الذين كانوا من الأسرة الحسينية، وكان نسبهم صحيحًا معلومًا - والإجلال الزائد للعرب، واحترامهم، وسياسة التغاضي عن تجاوزاتهم، وسوء تصرّفاتهم، وعلاوةً على ذلك نظام الوراثة في إمارة الحجاز، وانحصرها في أسرة واحدة.

ومن الممكن أن يقطع بأن الإمام الذهلي كان قد نظر بعين بصيرته في هذه الأوضاع القلقة المضطربة، والصراع الداخلي على منصب الإمارة، وقلة النظام، وضعف الإدارة، وشعر بفداحة الأمر بقلبه العامر بالحمىّة الدينية، ولعلَّ الصراع بين العم وابن أخيه على الإمارة الذي كان عام ١١٤٥هـ، قد يكون وقعَ في مدة إقامته بالحجاج، ولعلَّه توصلَ بهذه الأوضاع إلى نتائج بعيدة المدى، وأنخذ منها شواهد على الانحطاط الخلقي الذي أصيّبت به هذه البلاد.

(١) واستولى بعد ذلك الأمير سعود بن عبد العزيز (١١٦٣هـ - ١٢٢٩هـ) أمير نجد بقوة التنظيم العسكري، وحماسه للجهاد، وبهذه الدعوة على الجزء الأكبر من الحجاز وجزيرة العرب عام ١٢١٨هـ، ثم عادت هذه البقعة بجهود الخديوي (محمد علي) والتي مصر إلى قبضة الدولة التركية عام ١٢٣٤هـ، وثُنيَ الأمير عبد الله بن سعود بن عبد العزيز إلى القسطنطينية وُقتل بها.

(٢) الأعلام: ١١١/٨ - ١١٢، نقلًا عن (خلاصة الكلام) و(عنوان المجد) وتنليل (شفاء الغرام لأخبار البلد الحرام): ٣٠٤/٢ - ٣١٠/٢ بباب ولاة مكة.

الوضع السياسي في اليمن:

وكان يسود في اليمن أيضاً مثل هذا النظام السياسي، فكانت اليمن تحت السلطة العثمانية من الناحية السياسية بصفة عامة، والسياسة الخارجية بصفة خاصة، فكان يوجد بها حاكم من الحكام العثمانيين يُعين من قبل الدولة العثمانية، ولكتها رغم ذلك يسود فيها (نظام الإمامة) كذلك، الذي كان يستمر فيها من القرن الثالث الهجري، وكان يتولاها (الأشراف الزيديون)^(١).

فكان أهل اليمن يبايعونهم بيعة الخلافة، ويدعونهم (الإمام)، وكان من يتولى هذا المنصب يعتقد فيه أنه بلغ رتبة الاجتهد والإمامنة في المذهب، وأنه عالمٌ متبخرٌ فيه، مسلماً له الزعامة والقيادة.

دخلت اليمن في حوزة الدولة العثمانية في عهد السلطان (سليمان القانوني) ابن يازع سليم، وكان يحكمها - آنذاك - (أمامها) وخلفة الأئمة الأشراف فيها (السيد المطهر) بن الإمام شرف الدين (ت ٩٨٠ هـ) فكانت بينه وبين القائد التركي (سنان باشا) حربٌ أسفرت عن خضوع اليمن للدولة العثمانية^(٢).

إلا أنَّ الأتراك العثمانيين أبقوها هنا كالحجاز على نظام الإمارة، وأعطوا الإمام الحرية في الشؤون الداخلية.

(١) يرى العلامة محمد أبو زهرة في كتابه (تاريخ المذاهب الإسلامية): «هذه الفرق هي أقرب فرق الشيعة إلى الجماعة الإسلامية وأكثرها اعتدالاً، وهي لم ترفع الأئمة إلى مرتبة النبوة، بل لم ترتفعهم إلى مرتبة تقاريبها، بل اعتبروهم كسائر الناس، ولكنهم أفضل الناس بعد رسول الله ﷺ، ولم يكفروا أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ».

و(الزيدية) لا يؤمنون بأنَّ الإمام الذي أوصى به النبي ﷺ، قد عينه بالاسم الشخص، بل عرَّفه بالوصف، وأنَّ الأوصاف التي عُرِفت تجعل الإمام علياً - رضي الله عنه - هو الإمام من بعده، وعلى ذلك الأصل أقرَّ الإمام زيد إمامَة الشيَخين أبي يكر وعمرو رضي الله عنهما، ولم يكفر أحداً من الصحابة. وعلى ذلك تقول: إنَّ الزيدية قسمان: المتقدون منهم، وهم لا يعذرون رافضةً، ويعرفون بامامة الشيَخين أبي بكر وعمرو».

(٢) راجع للتفصيل: (البرق اليماني في الفتح العثماني) للعلامة قطب الدين النهرواني الفتني الحنفي.

ولما كان الإمام الذهلي في الحجاز كان الإمام (المنصور بالله الحسين بن المتركل على الله قاسم بن حسين) إمامَ اليمَن ، الذي استمرَّ عهْدُ إمامته وإمارته من ١١٣٩هـ إلى ١١٦١هـ، وكان أكثر سكان اليمَن - رغم سلطة المذهب الزيدِي ورعايته الحكومية - من أهل السنة في العقائد، والشافعية في المذهب.

وقد كانت اليمَن مركزاً كبيراً لعلم الحديث الشريف في القرنين الثاني عشر والثالث عشر، حيث ولد الإمام (محمد بن إسماعيل الأمير) (ت ١١٤٢هـ) صاحب (سبل السلام شرح بلوغ المرام) في القرن الثاني عشر، والعلامة (محمد ابن علي الشوكاني) (ت ١٢٥٥هـ) صاحب (نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار) في القرن الثالث عشر، ولعلَّ الإمام الذهلي أثناء إقامته بالحجاج يكون - لقرب المسافة والعلاقات العلمية - قد استفاد من مؤلفات علماء اليمَن وخدماتهم الجليلة في الحديث الشريف .

الوضع السياسي في إيران:

كان قد مضى في إيران على الأسرة الصفوية الحاكمة قرنان من الزمن، وجرى عليها حسب ستة الله - تعالى - من الضعف والهرم ما يقول عنه المؤرخ الفيلسوف العلامة ابن خلدون : «إن الهرم إذا نزل بدولة لا يرتفع»^(١) ، وقد استغلَ هذا الوضع في إيران البليد المجاور أفغانستان، وحمل عليها في قيادة حاكمها الطموح الشجاع (محمود خان الغزنوي) عام ١١٣٤هـ وفتح أصفهان، فأسر (حسين شاه).

ثم أراد الأفغانيون فتح ما تبقى من المدن والأقصارات، ولكن لم يكن عندهم من العدد ما يكفي للاستيلاء على مناطق أخرى والبقاء فيها، ومات (محمود خان) بعد أن حكم ثلاثة أعوام، عام ١١٣٧هـ الموافق ١٧٢٤م، وانتشرت الفوضى في البلاد في عهد خلفه (أشرف خان) فزحف حاكم الروس (بطرس الأكبر) على المديريات الشمالية في إيران، وأضطر ملك إيران إلى الصلح، وخسرت إيران

(١) مقدمة ابن خلدون.

٩٨٥٣
٩٧٦٩٩٤

بذلك كثيراً من مناطقها الخصبة المهمة، وكان (شاه إيران) في الأسر، إذ رُزق خلفه وولي عهده (طهماسب) قائداً محظياً صاحب عزيمة وتدبير وسياسة، وهو رغم كونه يتسبّب إلى أسرة خاملة، وكونه رجلاً من عامة الناس - استطاع بكتفاه الممتازة، وصلاحيته للقيادة أن ينخرط في سلك أولئك العصاميين، الذين يؤسسون الدول والحكومات، كان ذلك (نادر شاه).

بِهِمْ رَأَى... كَلَبْ خَانِقَلْيَ الْعَمَانِي

از جانپ مولانا سعید مرثیه دروی (مرحوم)

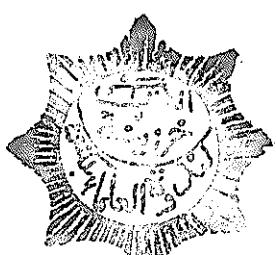
نادر شاه أفسار:

أجلس (نادر شاه) ولـيـ العهد (طهماسب) على عرش آبائه، وكانت الدولة الصفوية تعاني السقوط والانهيار، ولم تكن هناك علائم العودة إلى الحياة والنشاط، وكانت الفوضى تسود البلاد، وفقدت الثقة بين الناس.

فأحسن (نادر شاه) استغلالـ هذا الوضع، ونظم قوة عسكرية جديدة، ونفخت رجلـته وطموحـه وشجاعـته روحـاً جديدة في الإـيرـانيـين، فـهـبـ كالـعاـصـفةـ العـاتـيةـ، وـاستـولـىـ عـلـىـ الـبـلـادـ، وـطرـدـ الـأـفـغـانـيـينـ كـلـيـاـ مـنـ إـيرـانـ عـامـ ١١٤٣ـ هـ المـواـفـقـ ١٧٣٠ـ مـ، وـوقـفتـ الـجـيـوشـ الـرـوـسـيـةـ عـامـ ١١٤٦ـ هـ المـواـفـقـ ١٧٣٣ـ مـ عـلـىـ بـحـيـرـةـ الـخـزـرـ (caspian sea)ـ وـصـالـحـهـ مـصـالـحـةـ عـزـيزـةـ مـعـ إـيـاءـ وـشـمـ، وـلـمـ يـدـعـ الـعـرـبـ يـتـجـاـزـوـنـ الـحـدـودـ الـغـرـبـيـةـ، وـاضـطـرـ سـلـطـانـ الـرـوـمـ إـلـىـ الـانـسـحـابـ مـنـ الشـمـالـ، وـاسـتـعادـ لـاـيـاتـ الـمـمـلـكـةـ الـإـيـرـانـيـةـ الـقـدـيمـةـ مـنـ الـمـسـتـولـينـ عـلـيـهـاـ، وـتوـسـعـتـ إـيرـانـ نـتـيـجـةـ لـكـلـ ذـلـكـ حـتـىـ عـادـتـ عـامـ ١١٤٨ـ هـ المـواـفـقـ ١٧٣٥ـ مـ إـلـىـ حدـودـهاـ وـثـغـورـهاـ الـقـدـيمـةـ، وـانتـهـتـ الـأـسـرـةـ الـصـفـوـيـةـ عـامـ ١١٥٠ـ هـ المـواـفـقـ ١٧٣٧ـ مـ وـسيـطـرـ نـادـرـ شـاهـ عـلـىـ إـيرـانـ كـلـهـاـ، فـكـانـ مـلـكـهـ الـوـحـيدـ غـيرـ مـنـازـعـ^(١).

كان نادر شاه - حسب تصريح مؤلف موسوعة تاريخ العالم - قبل عرش المملكة على شرط أن يتخلّى الإيرانيون عن التشيع، ويتبّروا منه، وكان نادر شاه سُنياً عقيدة، تركياً نسبةً - والأتراء معروفون بشدة تمسّكهم بالسنّة - ولكن نادر شاه لم ينجح في استمالة الإيرانيين إلى قبول المذهب السنّي، لقد استولى قواده

(١) ملخص من كتب تاريخ إيران والهند.



عام ١٧٣٧م على بلوخستان، وبلغ، وتم استيلاؤهم عام ١٧٣٨م على قندهار، ثم توجه للاستيلاء على الهند فاستولى على كابل، ويشاور، ولاهور.

وهزم عام ١٧٣٩م جيشَ الملك المغولي الجرار قرب (دلهي)، واستولى على (دلهي) ووضع في رقاب أهلها السيف، فأقام مجزرةً رهيبة^(١)، ولم يسلب (نادر شاه) عرش المغول، بل أخذ منهم جبايةً خمسة مليون دولار، كما أدخل المناطق الشمالية الغربية من نهر السند في مملكته، وتم استيلاؤه على بخارى وخوارزم (خيوه) عام ١٧٤٠م، وكان هنا نهاية حملاته التوسعية وسيطرته، ومن هنا بدأ التحول في حياته

لقد كان نادر شاه قائداً عصامياً كبيراً، ولكنه لم يكن يملك من التدبير السياسي وصلاحية الإدارة والتنظيم شيئاً، وكان من نتيجة محاولاتة القضاء على التشيع^(٢) أن اضطربت الأمور، وعمت الفوضى، وتعود نادر شاه لقمع هذه الاضطرابات والقضاء عليها العجور والظلم والعدوان، وأرهد بلاده بجياباته الباهضة، ومكوسه الظالمة، وقتل أخيراً بيد أحد أبناء قبيلته عام ١٧٤٧م.

حالة إيران بعد مقتل نادر شاه:

لقد أدى مقتلُ (نادر شاه) في إيران إلى فساد الأمن واضطراب الأوضاع وملوك الطوائف، وبدأ يحلُّم قادةُ جيشه بحكوماتهم المستقلة، وتربع على عرشه بعد قتل ابن أخيه عادل شاه (١٧٤٧م) الذي أعمل السيف في أسرته، وقتل جميع أفرادها، ولم ينجُ من بطشه إلا (شاه رخ) أحد أبناء الملك المقتول، الذي كان

(١) انظر تفاصيل هذه الواقع في الصفحات التالية.

(٢) يمكن أن تثار شبهة في تصريحات المؤرخين الغربيين وبعض المؤلفين المسلمين أنَّ نادر شاه أراد استصال مذهب التشيع من إيران بجدٍ وإصرار، وأنَّه كان سنياً متعصباً، هل كان ذلك محاولةً لتغيير العقائد نفسها والمذهب نفسه أم كان سياسةً اتخذها لأغراضٍ أخرى؟ فإنه لا يتضح لنا من حملاته على دلهي، وإقامته بها وبائيٍ شيءٌ في حياته أنه كان سنياً المعتقد، وأنَّه كان يريد سوق إيران إلى راية الشيعة تحت حكمها.

حيث تُنذر ابن أربع عشرة سنة، وعزل عادل شاه في ظرف عام واحد بيد أخيه إبراهيم، وسُولِّث عيناه.

أعقب ذلك ثورة في جيش إبراهيم، فأسره ضباط جيشه، ثم قتلوه، ثم قتل عادل شاه كذلك.

ثم استولت على إيران أسرة (زند)، وحكم كريم خان زند (١١٦٤ هـ - ١١٩٣ هـ) الموافق (١٧٥٠ م - ١٧٧٩ م) إيران تسعة عشر عاماً، وجعل مدينة (شيراز) عاصمة مملكته، وكان معروفاً بعدله ورأفته، وأعاد إلى إيران - بعد الحروب والمعارك الدامية - الأمن والطمأنينة والسلام، ولذلك حزن الناس على موته، ورثّوه.

وخلقه عددٌ من الملوك الضعاف، حتى انقرضت حكومة هذه الأسرة في عهد (لطف علي) انقرضاً كلياً، فقتل (لطف علي) عام ١٢٠٩ هـ الموافق عام ١٧٩٤ م، وخلا عرشُ إيران لأسرة (قاجار) ولا نريد أن ن تعرض لهذا العهد وما يليه، لأنَّه لا علاقة له بعهد الإمام الذهبي.

أفغانستان وأحمد شاه الأبدالي:

لقد كان بعض الأجزاء من بلاد أفغانستان قبل القرن الثامن عشر الميلادي تحت سلطة إيران، والجزء الآخر تحت سلطة الهند، وكان يحكم الجزء الثالث خواتين بخاري، واستقلَّت قندهار عام ١٧٠٦ م.

ثم استولى (نادر شاه) على قندهار عام ١٧٣٧ م وأخذ الحكم من أيدي الأفغانيين، ثم استولى على أفغانستان كلها والجانب الغربي من الهند.

وجيء إلى (نادر شاه) في تلك الأيام بشخصٍ كان يُعرف بأحمد خان كأسيرٍ من أسرى الحرب، وأعجب نادر شاه به، وجعله في حاشيته وخدمه، فصار أحمد خان يتدرج في مراتب الرقي، ويحوز على ثقة الملك، ويتمكن من نفسه، فلما قُتل نادر شاه، انتدب هو نفسه، وتولى زمام الولايات الأفغانية، وكان ينتهي

إلى الفرع الدراني (سدوزي) من القبيلة الأبدالية، ولقب: (دردوران)، وسميت أسرته لأجل ذلك بالدرانية.

لقد أرسى (أحمد شاه) قواعد الحكومة للأسرة الدرانية، بل أسس المملكة الدرانية، وكانت المملكة الأفغانية حين وفاته تحتوي على شرق إيران (مشهد) وبلاط أفغانستان كلها، وبلوشستان كلها، وعلى كشمير وبنجاب في الناحية الشرقية، وهو يستحق أن يُعدَّ من كبار المؤسسين للدول والحكومات، والقادة المحنكين العصاميين، والحكام العادلين الطيبين، الذين يخشون الله، ويستحق من حيث مجموع صفاته وخصائصه (إذا نظرنا إلى بيته وحياته البدائية، وفقره وقلة وسائله) أن يُعدَّ من الشخصيات العبرية (genius) النابغة، إنه جعل الهنـد كالسلطان (محمود الغزني) ساحةً لحربه وغزوـاته من عام ١٧٤٧ م إلى ١٧٦٩ م.

وقد اعترف عددٌ من معاصرـيه المعروـفين الكبار بـحركـته وذـكـائه وـصلـاحـيـته العسكرية، وتدـيـنه، وحـبـه لـلـعـلـمـ وـالـعـلـمـاءـ، وـطـيـبـ نـفـسـهـ، وـكـرـمـ طـبـعـهـ، إـنـهـ وـحدـ أفـغـانـسـتـانـ، الـتـيـ كـانـتـ تـشـتـمـلـ عـلـىـ وـحـدـاتـ مـتـعـدـدـةـ مـتـشـرـرـةـ بـعـدـ مـدـةـ طـوـيـلـةـ مـنـ الزـمـنـ، وـضـمـ هـذـهـ الـوـحـدـاتـ بـعـضـهـاـ إـلـىـ بـعـضـ فـيـ صـورـةـ وـحدـةـ قـوـيـةـ مـحـكـمـةـ ثـابـتـةـ^(١).

أفغانستان بعد أحمد شاه الأبدالي:

توفي (أحمد شاه الأبدالي) عام ١٨٦ هـ الموافق (٢٣) تشرين الأول - أكتوبر عام ١٧٧٢ م بـقـنـدـهـارـ، وـمـنـ الـمـؤـسـفـ أـنـ خـلـفـاءـ كـخـلـفـاءـ السـلـطـانـ العـادـلـ (أـورـنـكـ زـيـبـ عـالـمـكـيـرـ) كـانـواـ ضـعـفـاءـ غـيرـ أـكـفـاءـ (وـقـدـ وـقـعـتـ هـذـهـ الـمـأسـةـ مـعـ أـكـثـرـ مـؤـسـسـيـ الـدـوـلـ وـالـحـكـومـاتـ وـالـفـاتـحـينـ الـمـظـفـرـينـ وـالـحـكـامـ الـأـقـوـيـاءـ) فـكـانـ تـيمـورـ شـاهـ الـذـيـ خـلـفـهـ فـيـ السـلـطـانـ، وـوـرـثـ عـنـهـ هـذـهـ الـمـلـكـةـ الـعـظـيمـةـ النـاشـتـةـ، لـاـ يـمـتـ إـلـىـ وـالـدـهـ الـعـظـيمـ الـعـبـرـيـ الطـمـوحـ بـأـيـ صـلـةـ فـيـ خـصـائـصـهـ وـمـزـاـيـاهـ، فـقـدـ حـكـمـ

(١) وسيأتي عنه تفصيل أكثر في الباب التاسع في ذكر أحمد شاه الأبدالي.

عشرين سنة في ضعفٍ واحتلالٍ، كانت تظهر أثناءها على مملكته الناشئة علامات السقوط والانهيار ومات عام ١٧٩٣م، وانتقلت السلطة أيام حكم ابنه محمود إلى أسرة (باذك زئي)^(١)، التي لم تزل تحكم أفغانستان إلى ثورة عام ١٩٧٥م^(٢).

* * *

(١) انظر للتفصيل: (سيرة سيد أحمد شهيد) بالأردية، الجزء الأول (سقوط الأسرة الدرانية وأسبابه)، ص ٤٢٠ - ٤٢٣.

(٢) كانت هذه هي الأسرة التي واجهها (الإمام أحمد بن عرفان الشهيد) وأصحابه، وانتهى فرعها الأخير على الملك ظاهر شاه عام ١٩٧٥م.

الفصل الثاني

وضع العالم الإسلامي العلمي والديني

ستعرضُ - بعد أن استعرضنا العالم الإسلامي سياسياً وإدارياً - لدراسته علمياً ودينياً إذ إن لها صلةً قريبة بحياة الإمام الذهلي وموضوعه وشخصيته وذوقه وعمله الإصلاحي والتجديدي.

نوابغ القرن الثاني عشر الهجري:

تفيدنا دراسة تاريخ المسلمين العلمي والفكري، وقصة نشاطاتهم العلمية التحقيقية والتاليفية، أن حياتهم العلمية والفكرية ونشاطاتهم في مجالات العلم والبحث والتصنيف لم تكن مرتبطة بالتقدم السياسي، ورقى الدول وازدهارها، وفتحوها وانتصاراتها، مثلما نجد في تاريخ الشعوب والمملل غير الإسلامية، فإنها تعاني من الانحطاط العلمي، وأزمة الرجال، مع الانحطاط السياسي، وانقلاب الحكومات، وسوء الإدارة، والفووضي في البلاد، وإذا فقدت تشجيع الحكومات وإشرافها واحتضانها، فقدت الثقة بالنفس والشعور بالاستعلاء، فإنها تجفّ منابع فكرها وذكائها، وتموت فيها عواطف المسابقة والمنافسة وحب التقدم، وتضعف دوافع العمل وأسباب الإنتاج.

أما المسلمون، فإن شأنهم يختلف في ذلك عن غيرهم، فقد نبغ فيهم مراراً وتكراراً - رغم انحطاطهم السياسي، والفووضي الداخلية، واضطرب الأوضاع - عباقرةٌ ونوابغٌ لا يبدو أنهم وليدو عهد السقوط والانهيار، ففي آخر القرن السابع الهجري بعد سقوط بغداد عاصمة المسلمين ودار خلافتهم، على أثر هجمات التتر، ذلك الجراد المنتشر، الذي حطم شرق العالم الإسلامي، وأهلك الحرف

والنسل ، وخرّب الديار والبلدان ، التي كانت مراكز العلم والمعرفة منذ عدة قرون ، بعد كلّ هذا الدمار والسقوط والانهيار نجد في أواخر هذا القرن وأوائل القرن الثامن رجالاً من نوابع العلماء ، كشيخ الإسلام تقى الدين ابن دقيق العيد (ت ٧٠٢ هـ) محدثاً ، والعلامة علاء الدين الباجي (ت ٧١٤ هـ) أصولياً ومتكلماً ، وشيخ الإسلام ابن تيمية الحراني (ت ٧٢٨ هـ) إماماً ومجتهداً ، والعلامة شمس الدين الذهبي (ت ٧٤٨ هـ) محدثاً ومؤرخاً ، والعلامة أبي حيان التخويني (ت ٧٤٥ هـ) تخلصياً ومفسراً ، وأمثالهم من نوابع العلماء وعباقرة الفنون .

والسرّ في ذلك أنّ دوافع النبغ في العلوم الدينية ، والبراعث على خدماتها ونشرها والحفظ عليها ، مما تستقرّ في داخل هذه الأمة وباطنها ، لا في الخارج من إشراف الحكومات وتقديرها وتشجيعها ، وهذه الدوافعُ المخفية الباطنة هي الرغبة في الحصول على رضا الله تعالى ، والقيام بواجب نيابة الأنبياء والمرسلين ، والشعور القوي بالحفظ على الدين ، ونقله مصوناً من جيل إلى جيل .

فبالرغم من أنّ هذا العهد الذي نورّنه هو عهد الاضطرابات الداخلية في البلاد . وقد بدت في الأفق علامات سقوط الدول والحكومات المسلمة ، حتى المملكة العثمانية العظيمة ، ظهرت عليها أمارات الهرم والسقوط ، وكانت البلدان الإسلامية حتى بلاد الحجاز تشهد صراعات وحروبًا داخلية ، للتوصل إلى الإمارة والسلطان . كان العلماء في مصر والشام والعراق والحجاج واليمن وإيران والهند وغيرها من بلدان العالم الإسلامي منتصفين إلى التدريس والإفادة ، وكان الباحثون والمحققون والمفكرون مقبلين على التأليف والتصنيف والبحث والتحقيق .

وكان المشايخ والصوفية الربانيون متوجهين إلى إصلاح النفوس ، وتركية القلوب ، متخصصين بالفضائل الروحية من صفاء القلب وإشراق الروح ، وقد بلغ بعضهم من علو المكانة وجلاله الشأن ما لا يوجد له نظير في الأقطار المتراكمة والبلاد القاصية والدانية في الماضي القريب .

خذ مثلاً علم الحديث الشريف ، تجدُ فيه المحدثين الكبار كالعلامة

أبي الحسن السندي الكبير (ت ١١٣٨هـ)، الذي درس مدةً طويلة في الحرث الشريف، وتعليقاته على الكتب الستة معروفة بالهؤامش الستة، والشيخ محمد حياة السندي (ت ١١٦٣هـ) الذي يزدأن به كذلك هذا العهد، والشيخ إسماعيل العجلوني المشهور بالجرافي (ت ١١٦٢هـ)، الذي كان من المحدثين الكبار في الشام، وكتابه (كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس)^(١) من أنفع الكتب وأجمعها في هذا الموضوع، ولعله أكبر مجموعة من مجاميع الأحاديث الضعيفة والموضوعة، ويتصح من دراسة الكتاب ما يملكه المؤلف من سعة النظر، والإحاطة بالموضوع، والأخذ بالإنصاف والاحتياط، وتشتمل هذه المجموعة عدا الأحاديث الضعيفة والموضوعة على تلك الأحاديث المشتهرة بين الناس، التي لا يُعرف تخرّيجها بصفة عامة، فعرف بها المؤلف وخرجها.

وكان الحرمان الشريفان من أكبر المراكز لتدريس الحديث الشريف حيث كان الشيخ أبو طاهر الكوراني الكردي، والشيخ حسن العجمي يلقيان الدروس. وكان في اليمن الشيخ سليمان بن يحيى الأهل (ت ١١٩٧هـ) محدث اليمن الجليل، ومن أكبر المحدثين وأجلهم في عصره خدمةً للحديث، ونشرأ لعلوم الستة المطهّرة، وكان الشيخ محمد بن أحمد السفاريني (ت ١١٨٨هـ) من كبار علماء الحديث والأصول، وهو صاحب (الدر المصنوعات في الأحاديث الموضوعات)، وكان الأمير محمد بن إسماعيل الحسني الصنعاني (ت ١١٤٢هـ) محدثاً جليلاً، ومحققاً كبيراً، ومن مؤلفاته الجليلة (سبل السلام شرح بلوغ المرام)، و(توضيح الأفكار شرح تنقیح الأنوار).

ويلمع في نوابغ هذا القرن أيضاً اسم العلامة الشيخ محمد سعيد السنبل (ت ١١٧٥هـ) الذي يعتمد أكثر شيوخ الحديث على أوائله لكتب الحديث^(٢) في

(الناشر)

(١) نشره حسام الدين قدسي بمصر، ثم أعيد نشره في حلب - سوريا.

(٢) وهو المعروف بالأوائل السنبلية في أوائل كتب الحديث.

رواياتهم وإنجازاتهم، ومن كبار المحدثين كذلك العلامة محمد بن عبد الباقي الزرقاني (ت ١١٢٢هـ) الذي وصفه المؤرخون بقولهم: «خاتمة المحدثين بالديار المصرية»^(١).

ومن العلماء البارزين في هذا العهد في تبحّرهم العلمي، وكثرة التدرّيس والإفادة، والتصنيف والتأليف، الشیخ عبد الغنی النابلسي (ت ١١٤٣هـ) الذي كثُر تلامذته والأخذون عنه، ويصفونه: «بالأستاذ الأعظم»، ويقال: إن مؤلفاته تبلغ مئتين وثلاثة وعشرين.

وقد كان العلامة إسماعيل حقي (ت ١١٢٧هـ) أيضاً من علماء هذا العصر، الذي ألف كتابه (روح البيان في تفسير القرآن) ويعرف كذلك بتفسير حقي.

وكذلك كان الشیخ عبد الله بن حسين السویدي (ت ١١٧٤هـ) من علماء بغداد، صاحب مؤلفات كثيرة^(٢).

وتوجّد في هذا العصر عدا المدارس والجامعات القديمة كالجامعة الأزهر وجامعة الزيتونة بتونس، وجامعة التروبيين بفاس - المغرب - أسماء المدارس الأخرى بدمشق كالمدرسة الحافظية والمدرسة الشبلية والمدرسة العذراوية^(٣).

ويشکر من بين الطرق الصوفية ذكر الطرق النقشبندية، والخلوتية، والشاذلية، والقادرية، والرافعية، ويظهر أنّ مشايخها وأصحابها متشرّدون من تركية إلى أندونيسية.

نظرة على الذوق العلمي والأدبي والروحي في العالم الإسلامي:

يغلب على أصحاب العلم والمتقين في هذا العصر ذوقُ الأدب والشعر، وثقافة المجالس والنوادي، وللطائف والطراائف، والألغاز والأحاجي،

(١) انظر للتفصيل: (البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع) للعلامة محمد بن علي الشوكاني صاحب (نيل الأوطار)؛ و(سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر) للمرادي.

(٢) انظر: (سلك الدرر) و(البدر الطالع).

(٣) انظر: (سلك الدرر).

ولا ييدو أنهم حازوا فيها الفضل والسبق، أو ابتكروا نوعاً جديداً، بل يطرد فيه السجع، وتكتُر القوافي، ويغلب التكلف والتعمل، ويتجلّى تأثير الحكومة التركية^(١) على الأوساط العلمية والأدبية، فلا يعثر على باحثٍ محقق، ومفكِر كبير، إلا بعد بحثٍ كبير، وترخر المجلَّدات الأربع لـ(سلك الدرر) للمرادي بالقصائد والغزليات والأبيات والمقطوعات الشعرية، ويكتُر فيها ذكر المكافئات والكرامات، والأوهام، والخرافات.

ويتجه علماءُ البلدان التي هي تحت السلطة العثمانية ونوابعها وأصحاب الفضل والكمال فيها إلى دار الخلافة (القدسية) ويتولون مناصب الحكومة، والعلوم العقلية، والحساب، والهندسة، وعلوم البلاغة، والفقه، وشيء من الحديث، وهي الأجزاء الأساسية للمناهج الدراسية.

وتنتشر الرقى والتمائم، وقد نظم بعض العلماء متن (القدوري)، والمتون الفقهية الأخرى.

وكان عدد من العلماء العرب يعرفون اللغة الفارسية والتركية، وكان الناس لا سيما في الشام - يألفون اللغة التركية لكونها اللغة الرسمية، وكان عدُّ كثير من علماء تركية نازلين بسوريا، ويتكلمون بالعربية الفصحى، وكان التدريس في الجامع الأموي بدمشق من أسباب الفخر والاعتزاز، وكان بعضُ العلماء والمشايخ يلقون الدروس في (الفتوحات المكية) وأخْرَ يدرُّس (فصوص الحكم)، وكان يُدرُّس (شرح الجامي)^(٢) و(مختصر المعاني)^(٣) في الشام أيضاً.

وكان التصوّف هو السُّمة الغالبة حتى على العلماء والمحدثين، وكان الشيخ عبد الغني النابلسي وعدد من العلماء والمشايخ يقولون (بوحدة الوجود)^(٤).

(١) انظر: (سلك الدرر)، الأجزاء: ١ - ٢ - ٣ - ٤.

(٢) لكافية ابن حاجب في النحو. واسمها الفوائد الضيائية.

(٣) في علوم البلاغة للمخطيب الفزويوني الدمشقي، وقد شرحه سعد الدين التفتازاني شرحين مختصر ومطوى.

(٤) طبيعة الأتراك طبيعة سياسة وإدارة وعسكرية (martial race) ولا نجد فيهم في عهد =

سيطرة العلوم العقلية في إيران وتأثيرها على البلدان المجاورة:

لقد أسس إسماعيل الصفوي (٩٠٥ - ٩٣٠ هـ) في بداية القرن العاشر الهجري الحكومة الصفوية في إيران، وجعل المذهب الشيعي هو المذهب الرسمي في البلاد، وقضى على المذهب السني، ومحاًثاته إلى حد كبير، وبذلك انقطعت صلة إيران - تلك البلاد الخصبة التي أنتجت - في جانب - أئمة فن الحديث، والأساطين الأربع لبنيان الحديث الشامخ، وهم (الإمام مسلم)^(١) والإمام أبو داود) والإمام الشّافعـيـ والإمام ابن ماجـهـ الذين خضع الناس لإمامتهم وجلاـلةـ شأنـهـمـ، وأـنـجـتـ فيـ جـانـبـ آـخـرـ كـبارـ الفـقـهـاءـ النـابـغـينـ وـالـعـلـمـاءـ الـمـتـبـحـرـينـ كـالـإـمـامـ أـبـيـ إـسـحـاقـ الشـيـراـزـيـ، وـإـمـامـ الـحرـمـينـ أـبـيـ الـمعـالـيـ عـبـدـ الـمـلـكـ الـجـوـيـونـيـ، وـحـجـةـ إـلـاسـلامـ أـبـيـ حـامـدـ مـحـمـدـ الـغـزـالـيـ - وـأـمـالـهـمـ منـ نـوـادـرـ الزـمـنـ وـنـوـابـغـ الـعـلـمـوـنـ - لقد انقطعت صلة إيران في عهد هذه المملكة القوية العظيمة الذي يمتدّ على مدى قرنين وربع قرن من الزمن عن الحديث الشريف والفقه والعلوم النافعة المفيدة.

فقد كان الملوك الإيرانيون يميلون إلى الحكمـةـ والـفـلـسـفـةـ، لأنـ الشـيـعـةـ لم تـزـلـ مـتـعـلـقـةـ بـالـفـلـسـفـةـ وـالـاعـتـزاـلـ، وقد كان الفـيـلـسـوـفـ وـالـرـيـاضـيـ المعـرـوـفـ خـواـجـهـ نـصـيرـ الدـيـنـ الطـوـسيـ (تـ ٦٧٢ـ هـ) مـؤـلـفـ (شـرـحـ إـشـارـاتـ اـبـنـ سـيـنـاـ)ـ - الـذـيـ كانـ شـيـعـيـاـ وـمـعـتـزـلـيـاـ - مـسـتـشـارـ أـخـاصـ الـهـوـلـاـكـوـ خـانـ وـأـمـيـنـاـ لـدـيـهـ^(٢).

وـكـانـ هـذـهـ الثـقـةـ وـالـزـلـفـيـ عـنـدـ الـمـلـكـ التـتـرـيـ سـبـبـاـ كـبـيـراـ فيـ نـشـرـ عـلـومـ الـفـلـسـفـةـ وـالـرـيـاضـيـاتـ فيـ الـمـمـلـكـةـ التـتـرـيـةـ التـيـ كـانـتـ تـشـتـمـلـ عـلـىـ تـرـكـسـتـانـ وـإـرـانـ وـالـعـرـاقـ، فـقوـيـتـ فـيـهـاـ الـمـيـوـلـ إـلـىـ الـعـلـمـ الـعـقـلـيـةـ.

= حكمـهمـ الطـوـيلـ عـلـمـاءـ كـبـارـ مـنـ الـمـحـقـقـيـنـ وـالـمـؤـلـفـيـنـ الـبـارـزـيـنـ أـمـالـ الـعـلـمـ أـبـيـ السـعـودـ وـطـاشـ كـبـرـىـ زـادـهـ، وـخـلـيـفـةـ چـلـبـيـ إـلـاـ قـلـيـلـاـ جـداـ.

(١) الإمام مسلم عربي من بنى قشير.

(٢) انظر: (تاريخ أخبار وأثار خواجة نصیر الدين الطوسي) نشر جامعة طهران- إيران.

وفي عهد الملك طهماسب (ت ٩٨٤ هـ) الحاكم الثاني للملكة الصفوية نفسها لمع نجم ميرغياث الدين منصور (ت ٩٤٨ هـ) الذي كان حكيمًا إشرافيًّا، وفيلسوفًا، ومؤسسًا للمدرسة المنصورية بشيراز، وتولى منصب الرئاسة فيها في عهد الملك (طهماسب) لمدة طويلة، وانتشر تلامذته وتلامذتهم إلى الهند، فكان الأمير فتح الله الشيرازي (ت ٩٩٧ هـ) من تلامذته الذي قصد الهند في أواخر القرن العاشر الهجري، وولاه الملك (أكبر) منصب الصدار، وهو الذي طبع المناهج والمقررات الدراسية والطراوئق التعليمية في الهند بالطابع العقلاني، وترك تأثيراً عميقاً استمرّ مفعوله إلى القرن الثالث عشر الهجري، وهو الذي جاء - حسب تصريح العلامة آزاد البلكرامي - بمؤلفات (صدر الدين الشيرازي) و(الميرغياث الدين منصور) والفضل (ميرزاجان) (ت ٩٤٤ هـ) إلى الهند، وقررها في المدارس الإسلامية.

وطلعت شخصية الميرياقداماد (ت ١٠٤١ هـ) في منتصف القرن الحادي عشر الهجري الذي سيطر بذكائه وعقليته وأدبه على الأوساط العلمية والتعليمية من إيران إلى الهند، وقد كان مرموقاً عظيم القدر والحظوظة في بلاد الشاه عباس الصفوي (ت ١٠٣٧ هـ) وظلّ كتابه (الأفق المبين) غاية ما يحلّق في أجواءه المعلمون، والكتاب النهائي في الأوساط الدراسية.

ثم برزت شخصية العلامة صدر الدين الشيرازي (ت ١٠٥٠ هـ) الذي كان حكيمًا إشرافيًّا، وفيلسوفًا طليقاً، حرًّا التفكير، ومؤلفه: (الأسفار الأربع) و(شرح هداية الحكمة) المعروف بـ(صدرًا)^(١) يحملان صيتاً ذائعاً وشهرة عالمية.

لقد تعاون الذوق الإيراني - الذي تعود منذ قرون على صنع القبة من العجنة،

(١) كتاب (صدرًا) مقرر في المناهج الدراسية في الهند من القرن الحادي عشر الهجري، ولم يكن الطالب يُعد قبل دراسته وإحراز البراعة فيه خريجاً فاضلاً لأي مدرسة من مدارس الهند.

وتشقيق الشعرة - مع هذه التزعة العقلية الفلسفية، وبيّن شبكة التعمير في الألفاظ، وتوليد الطرائف والنكبات، وتعقيدات الدعاوى والمفروضات، من الحدود الغربية لإيران إلى الحدود الشرقية للهند، التي لم يكن مثُلها إلا كما يقال: «تمتّحض الجبل فولد فأراً».

لقد كانت دولة العلوم العقلية والفلسفية تسيطر على الأوساط التعليمية والتأليفية من عجم القرن العاشر إلى عرب القرن الثاني عشر، ولم تكن هناك وسيلة للعلماء لإظهار فضلهم ونبوغهم وإثبات ذكائهم وعبريتهم إلا حلّ عبارات المؤلفين السابقين، وشرحها، والتحشية عليها، ومحاولات فهمها وإفهامها، وكان أدنى مقاييل وانتقاد لفائدة لها وثمرتها إثباتاً للجهل والغباء وسوء الفهم.

لقد تركت إيران تأثيرها - بطبيعة الحال - على أفغانستان، ولاستima على (هرة) المدينة الغربية في أفغانستان، فكان القاضي محمد إمام الهروي الكابلي (ت ١٠٦١ هـ) سفيراً لأستانة إيران، ونوابها في المنطق والفلسفة، ورفع ابنه القاضي محمد زاهد، المعروف بميرزا هد (ت ١١٠ هـ) منار هذه العلوم، وزاد في قدرها ومكانتها، وقد أمضى معظم حياته في الهند، ونالت حواشيه الثلاثة على (شرح المواقف) و(شرح التهذيب) و(الرسالة القطبية) التي تعرف بـ (الزرواهد الثلاثة) قبلًا كبيراً ورواجاً عظيمًا في الأوساط الدراسية في الهند.

ولم يكن هو بجانب فضله ونبوغه في العلوم العقلية عاليَّ الكعب في الفقه والحديث والعلوم الشرعية، حتى أنه لم يكن يشق بنفسه في تدريس كتابٍ متوسط متداول في الفقه كـ (شرح الوقاية)، فقد جاء في (ملفوظات الشیخ عبد العزیز الدھلوی) وهي مجموعة كلاماته التي دونها بعضُ أصحابه: «كان أحد الأمراء يقرأ على میرزا هد كتاب (شرح الوقاية)، ولكنَّه - لعدم ثقته بنفسه في تدريس هذا الكتاب - لم يكن يدرس إلا بعد أن يحضر الجد^(١)، (وهو الشیخ عبد الرحیم، الذي كان أحد تلامذته في العلوم العقلية).

(١) ملفوظات شاه عبد العزیز.

وكان خوضُه - بجانب ذلك - في العلوم العقلية إلى حد أنه كان يقول:
كلام الميرزا جان هو روحاني وكلام أخوند هو روح روحي»^(١).

ولم يكن هذا التأثير لإيران على الهند وأفغانستان فحسب، بل كانت إيران تترك تأثيرها على العراق والشام أيضاً، فكان يُتَّنَظَرُ هناك كذلك إلى علماء المعقولات بعين التقدير والاحترام، وكانت لهذه العلوم مهابة في القلوب وجلالة في النفوس وكانت كتبها مقررة في المناهج الدراسية.

* * *

(١) ملفوظات شاه عبد العزيز، ص ٨٣.

الفصل الثالث

الوضع الخلقي والاجتماعي والجماهيري العام

لقد كان العالم الإسلامي - رغم اشتغال العلماء بالعلم والبحث، ووجود عدد كبير من النوابغ وأصحاب الفضل والكمال، وانتشار السلسل والطرق الصوفية في الناس، والعنابة بالحديث النبوي الشريف، وتدين كثير من الملوك والحكام، ورغم وجود تلك الحكومات المسلمة التي كانت تدين بالإسلام وتدين بالشريعة الإسلامية في كثير من نواحي الحياة العملية وقوانين الأحوال الشخصية، ووجود المدارس آهلة والمساجد معمورة، وكون الجمهوه وعامة المسلمين يحبون الإسلام ويدينون به، ويعتقدون في المشائخ والصالحين، ويحافظون على أركان الدين وفرائضه، ولا تخلو قلوبهم من الحمية الإسلامية -، كان العالم الإسلامي رغم كل ذلك يعاني من الجمود والانحطاط، وقد تسربت الأدواء إلى الأخلاق والمجتمع، وقبل المسلمين كثيراً من العادات والشعائر والتقاليد العجمية غير الإسلامية، وكان الحكام والأمراء أنانيين قد ركبوا رؤوسهم، وعملوا بأهوائهم، وكانت الفوضى في الدول والحكومات.

وقد ألهت طبقة الأمراء والأثرياء أموالهم وثرواتهم، وتسربت إليهم أخلاقي المترفين ونزعاتهم، وسيطرت على كثير من طبقات المجتمع في البلاد عادة الكسل والتواكل والبطالة، والتعلق بحواشى السلطان، والتقرب في البلاد، والإطراء والتملق، وكانت طبقات أخرى تهيم في الأوهام والخرافات، وكانت تتراءى نماذج عبادة القبور وتقديس الأولياء وتعظيمهم إلى حد التالية، وتعدى حدود التوحيد، حتى ظهرت مظاهر الشرك الجلي في بعض المواضع.

وقد صور المؤلف الأمريكي الدكتور لوثروب استودارد (stoddard) في كتابه الشهير (حاضر العالم الإسلامي) (new world of islam) العالم الإسلامي في القرن الثامن عشر المسيحي، وهو إنْ كان يوجد فيه إفراطٌ وغلطٌ في بعض المواضع، ولكنه بمجموعه ليس تصويراً خطأً⁽¹⁾ للعالم الإسلامي حينذاك، وقد جاءت فيه جوانب كثيرة لا يتبه لها من يعيشون داخله، والمشاهدون له كلَّ حين، وتستوعي انتباة الزائرين العدد والمشاهدين لأول مرة، وسوف لا يكون خطأً ولا غير لائق بالمكان أن نقل شيئاً من هذا التصوير بدون أن نتحمل مسؤولية صحته مئة في المئة، يقول المؤلف الأمريكي :

«في القرن الثامن عشر كان العالم الإسلامي قد بلغ من التضعضع أعظم مبلغ، ومن التدني والانحطاط أعمق درجة، فاريدجُوهُ، وطبقت الظلمة كلَّ صيقٍ من أصقاعه، ورجاء من أرجائه، وانتشر فيه فسادُ الأخلاق والأداب، وتلاشى ما كان باقياً من آثار التهذيب العربي». .

« واستغرقت الأمم الإسلامية في اتباع الأهواء والشهوات ، وماتت الفضيلة في الناس ، وسد الجهل ، وانطفأت قياسات العلم الضئيلة ، وانقلب الحكومات الإسلامية إلى مطابياً استبداداً وفوضى واغتيال ، فليس يُرى في العالم الإسلامي في ذلك العهد سوى المستبددين الغاشمين كسلطان تركية وأواخر ملوك المغول في الهند ، يحكمون حكماً زاهياً فاشياً القوة متلاشي الصبغة ، وقام كثيراً من الولاة والأمراء يخرجون على الدولة التي هم في حكمها ، ويُنشئون حكوماتٍ مستقلة ، ولكنها مستبدة كحكومة الدولة التي خرجوا عليها ، فكان هؤلاء الخوارج

(1) لقد صدق هذا التصوير والاستعراض العام للعالم الإسلامي واستحسنَه، ورأه أحسنَ بالحقيقة والواقع أميرُ البيان الأمير شكيب أرسلان في حواشيه الشهير على الترجمة العربية لهذا الكتاب ، والتي نشرت باسم (حاضر العالم الإسلامي)؛ فقال معلقاً على هذا الوصف : «لو أنَّ فيلسوفاً من فلاسفة الإسلام أو مؤرخاً عبقرياً بصيراً بجميع أمراضه الاجتماعية أراد تشخيصَ حالته في هذه القرون الأخيرة ما أمكنه أن يصيبَ المحرز ، وأن يطبق المفصل تطبيقَ هذا الكاتب الأمريكي ستودارد».

لا يستطيعون إخضاع مَنْ في حكمهم من الزعماء هنا وهناك ، فكثير السلبُ والنهبُ ، وفُقدَ الأمانُ ، وصارت السماءُ تمطر ظلماً وجوراً ، وجاء فوق جميع ذلك رجالُ الدين المستبدون ، يزيدون الرعایا إرهاقاً فوق إرهاق ، فُغلَت الأيدي ، وقُعد عن طلب الرزق ، وكاد العزم يتلاشى في نفوس المسلمين ، ويارت التجارة بواراً شديداً ، وأهملت الزراعة أثما إهمالاً .

وأَمَا الذين فقد غشيتها غاشية سوداء ، فَأَلْيَسَتِ الْوَحْدَانِيَّةُ التي عَلِمَها صاحبُ (الرسالة) النَّاسَ سَجْفاً من الخرافات وقشور الصوفية ، وخللت المساجدُ من أرباب الصلوات ، وكثُر عدیدٌ من الأدعية الجهلاء وطوائف الفقراء والمساكين يخرجون من مكانٍ إلى مكانٍ ، يحملون في عناقهم التمامَ والتعاويذ والسبحات ، يوهمنون الناس بالباطل والشبهات ، ويرغبونهم في الصحيح إلى قبور الأولياء ، ويزينون للناس التماس الشفاعة من دفنه القبور ، وغابت عن الناس فضائل القرآن ، فصار يُشرَبُ الخمر والأفيون في كل مكان ، وانتشرت الرذائل ، وهتك ستر الحرمات على غير خشية ولا استحياء^(١) .

* * *

(١) (حاضر العالم الإسلامي)، تعریف (الأستاذ عجاج نویہض) : ١ / ٢٥٩ - ٢٩٠ .

المقدمة

١- الوضع السياسي:

ولد الإمام (ولي الله الدهلوi) قبل وفاة السلطان أورنك زيب عالمكير (ت ١١١٨هـ) بأربع سنتين، عام ١١١٤هـ، وقد كان السلطان عالمكير في ضوء التاريخ المعلوم المحفوظ أكبر سلاطين شبه القارة الهندية بعد الملك أشوكا (إذا كانت البيانات والتصريحات عن سعة مملكته وعظمتها صحيحةً ومحتملة) وكانت مملكته وحكومته أوسع الحكومات التي قامت في الهند، يقول مؤلفو (تاريخ الهند) :ccambridge history of india

«كانت حكومة أورنك زيب من غزنة إلى شيتاغونغ، ومن كشمير إلى كرناٹك»^(١).

ويقول المؤرخون الآخرون: «لم تقم في الهند من العهد القديم إلى عهد سيطرة الإنكليز وغلبتهم مثل هذه الحكومة (حكومة أورنك زيب) الواسعة الأرجاء، الطويلة الأبعاد»^(٢).

وقد فتح مير جمله في عهده ويأياعز منه ولاية (آسام) لأول مرة (التي كانت ولا تزال منطقةً مستقلة عن الهند في لغتها وثقافتها ومدنيتها، وديانتها وسلالتها) وضمتها إلى الهند^(٣).

(١) cambridge history of india, vol.4 p.316

(٢) muslim rule in india, d.p.mahagan. delhi, 1971 cambridge history of the world.p.175

delhi 1970

(٣) انظر للتفصيل: (مآثر عالمكير) لمحمد ساقى مستعد خان، ص ٣٩ - ٤٠ ، طبع كلكتا عام =

وبالرغم من تعليقات وانتقادات المؤرخين الغربيين، والمؤرخين الهنودس التي ليس الدافع إليها إلا حمية أورنك زيب، وحمايته للإسلام^(١)، فإن قوة إرادته التي لا يوجد لها نظير، ورباطة جأشه ومقدراته الإدارية والتنظيمية، وحياته البسيطة الزاهدة، وبطوله وشجاعته من الحقائق التاريخية التي لا يختلف عليها اثنان، ويعرف بها جميع المؤرخين^(٢).

أورنك زيب عالمكير:

ووجه السلطان أورنك زيب بعد ما تولى بيده زمام الأمور كلّ همه إلى القضاء على آثار (العهد الأكبري) المخالفة للإسلام، والحدّ من تأثير التشيع الذي كان أكبر مراكزه في جنوب الهند.

ولذلك صرف عالمكير الجزء الأكبر من حياته وطاقاته للسيطرة عليه، واستصال التأثيرات الحضارية لإيران المختلفة بالنزاعات المجنوسية، التي دخلت في عهد الملك أكبر، وكانت توجد في أشكال التقويم الإيراني وعيد النيروز.

وعين المنصب الشرعي للمحتسب، ليروع الناس عن ارتكاب المحرمات والمنهيّات، وعطل كثيراً من أنواع الدخُل المحرّمة، التي كانت تحصل بها للحكومة ثروات طائلة، وأوقف الرقص والغناء، وعادة الاجتماع لزيارة السلطان، التي كانت تشم منها رائحة التقديس.

وعين القضاة الشرعيين، وحوّلهم حقوقاً وسلطةً كبيرة، وتولى - تيسيراً - للقضاة وتطبيقاً للقوانين الشرعية وتنفيذها في سائر مملكته - تدوين المسائل الفقهية، وترتيبها من جديد، فكان من نتيجة ذلك أن ظهرت مجموعة ضخمة

= ١٨٧١م؛ (وقائع سير وسياحت) (مذكرة السياحة) للدكتور بيرنير (dr.berner)، ص ٢٩٤

(١) انظر للتفصيل: (رجال الفكر والدعوة.. الإمام السرهندي) للمؤلف: ٣٠٩-٢٩٥ / ٣

(٢) انظر: كتاب ستانلي لي بول بعنوان (أورنك زيب)؛ وكتاب ظهير الدين الفاروقى،

بعنوان (aurangzeb and his age)؛ وكتاب جادونات ركار (history of aurangzeb)؛

ومقالات العلامة شibli النعmani (عالمكير).

باسم (الفتاوى العالمة الكيرية) التي اعتبرت في مصر والشام أيضاً - حيث تعرف باسم (الفتاوى الهندية) - مصدراً معتبراً كبيراً من مصادر الفقه الإسلامي.

وألغى عادات تقبيل العتبة والأرجل غير الإسلامية عند التحية والتسليم، وكل ما يخالف التوحيد، وأعاد العمل بستة التحية الإسلامية.

وبالجملة فقد كان كما يقول الدكتور إقبال في بيت من شعره: «كان فراشة لشمعة التوحيد، وكان في بيت الأصنام والأوثان كإبراهيم عليه السلام».

وعلاوة على هذه المآثر الإصلاحية الثورية، التي تحمل قيمة دينية كبيرة، كان من أكبر مزاياه وأبرزها يقظته وذكاؤه، وحيده ونشاطه، واهتمامه بالمسؤولية، ومعرفته الدقيقة بكل صغير وكبير في أمور دولته، ومعهاولته الهمينة الكلية على إدارة البلاد ونظامها، الأمر الذي يعتبر من الشروط الأولية لأي حاكم من حكام هذه المملكة الواسعة العريضة، إنه كان قد كتب إلى والده السلطان شاهجهان - وتشهد عليه حياته وتؤيده - : «إنني لا يمكن أن أنتهي بالكسيل والفتور»^(١).

وقال مرة وهو يردد على كلام أحد الأمراء، الذي أشار عليه بـألا يتحمل المجهودات الشاقة المضنية في أمور الدولة (فإنه يخاف منها الإضرار بصحة الملك) فقال: إنّ ربي ابتعثني لأنّ اجتهاد وأكديح للناس ، وأنشد بيتاً من شعر السعدي ما معناه: «لا تَنْمِ غَافِلًا، فإنَّ النَّوْمَ حَرَامٌ عَلَى قَائِدِ الْقَوْمِ»^(٢).

إن هذا الاطلاع الواسع والمعرفة الدقيقة الشاملة بإدارة البلاد وشؤونها - رغم سعة الدولة وانتشار أطراها - ليس إلا عمل ذلك الرجل العصامي، الذي يحمل إرادة حديدية، وجسداً حديدياً، وشعوراً بالغ الغاية بالمسؤولية، وخشية الله تعالى في السر والعلن.

ومن المدهش الغريب أنّ معرفته بالكليات ومهام الدولة، وشؤونها الكبيرة لم تكن تحول دون معرفته بالجزئيات، بل كانت معرفته بالكليات لا تقل عن

(١) انظر: ظفرنامه شاهجهان.

(٢) انظر: (أورنوك زيب) لستانلي لي بول، ص ٧٣ - ٧٢.

اطلاعه على جزئيات الدولة، إنه كان في الدكن جنوبياً، ولكنه كان في الوقت نفسه خبيراً بما يجري في الشمال والشرق، وكان لأجل اطلاعه الشخصي، وبالاستعانة بكتابه، يفحص بنفسه تفاصيل الأمور الإدارية ويختبرها، ولذلك كان عماله دائمًا في حالة حذر وتهيّز، وهو الذي يعيّن الكتاب والمحررين بنفسه^(١)، ويعبر هذا البيت من شعره عن قلبه وشعوره بالمسؤولية، ويصوّر ما يواجهه نتيجة هذا الشعور الزائد - من مشاكل ومعضلات، فقد كان ينشد هذا البيت كثيراً الذي معناه:

«إنَّ همومَ العالم وأحزانَه كثيرةُ، ولا أحملُ إلَّا قلباً واحداً، فكيف أحملُ
رمَالَ هذه الصحراءِ في زجاجةٍ سَاعَةً واحدةً»^(٢).

وكان ينشد أحياناً هذا البيت، ويأخذ به في العمل والتطبيق، ومعناه:
«لا أقولُ لكَ: ضيئعُ أو فَكَرْ في المنفعةِ. أيها الغافلُ عن الفرَصِ المتاحةِ لكَ! كنْ
أسرعَ مَا تكونُ فيما تحبُّ أن تكونَ». .

خلفاء عالمكير الضعفاء:

وخلَفَ أورنَك زِيب على عرشه العظيم المهيِّب (الذي كان قد أصبح حاميَاً
للدين، وحارساً له، وخادماً للشعب المسلم بَدَلَ أن يكون ماحياً للدين، وهادماً
له، ومستغلاً للشعب) من أولاده أولئك الأشخاص الضعاف، الذين كانوا حلفوا
أن يتداركوا ما وقع فيه عالمكير من خطأ الحفاظ على الدين، والذبّ عنه، وإحياء
الشريعة الإسلامية، وإجراء السنة النبوية !! وإنهم سيكفرون - دائمًا - عن تلك
الجريمة التي ارتكبها السلطان عالمكير بتوسيعه لحدود المملكة، وتنظيمه لأمور
البلاد، وتوطيد دعائم الحكم بيقظته وحنكته، وجده ومحاباته، وشعوره
بالمسؤولية، وما أدخل من الرعب والهيبة في قلوب العامة والأشرار والمفسدين
بتوفهم وبذلهم وكسالئهم وعدم كفاءتهم، وصراعهم الداخلي ومنازعاتهم،

(١) المصادر السابق، ص ٧٩.

(٢) (تاریخ هندوستان) : ٤٧٥ / ٨.

واعتمادهم - كلياً - على الوزراء وأركان البلاط المغرضين المتكالبين على الجاه والسلطان، وغفلتهم عن شؤون الدولة وإدارة البلاد.

فكان من سوء حظ الدولة المغولية، بل الأمة الإسلامية، بل الهند كلها، أن توالى على عرش مملكتها ملوكٌ ضعفاء غير أكفاء، وكان من عجائب التاريخ، ومن الأدلة على أنَّ الله - تعالى - غنيٌ عن العالمين، أنَّ كان خليفة أورنك زيب الأول (شاه عالم بهادرشاه الأول) نفسه على الصدِّ من والده العظيم.

لقد توالى على عرش الدولة المغولية في عهد الإمام ولي الله الدهلوi (١١٤-١١٧٦هـ) بعد السلطان أورنك زيب أحد عشر ملكاً، وهما هي أسماؤهم:

- ١ - محمد معظم بهادرشاه (الملقب بشاه عالم بهادرشاه الأول).
- ٢ - معز الدين جهاندارشاه.
- ٣ - فرخ سير ابن عظيم الشان.
- ٤ - نيكوسير.
- ٥ - رفيع الدرجات ابن رفيع القدر.
- ٦ - رفيع الدولة ابن رفيع القدر.
- ٧ - محمد شاه بن جهان شاه.
- ٨ - أحمد شاه بن محمد شاه.
- ٩ - عزيز الدين عالمكير بن جهاندارشاه.
- ١٠ - محبي السنة بن كام بخش بن عالمكير.
- ١١ - شاه عالم بن عزيز الدين.

أي أنه تعاقب أحد عشر ملكاً في مدة نصف قرن من الزمن، وكان منهم من لم تمتد حكمته إلا عشرة شهور^(١)، ومنهم من حكم أقل من أربعة

(١) وهو معز الدين جهاندارشاه.

أشهر^(١)، ومنهم من حكم لأيام^(٢) أو مدة يسيرة جداً^(٣)، وسوف نتحدث في السطور التالية عن أهم الواقع والأحداث في عهد خليفة الأول (شاه عالم بهادر شاه) والملك (فرجخ سير ابن عظيم الشان) والملك محمد شاه، والملك شاه عالم الثاني) الذين أسهموا بدورهم في تاريخ الهند، ومصير المسلمين الهنود.

شاه عالم بهادر شاه الأول:

كان هذا أكبر أبناء عالمكير، الذي هزم أحد إخوته محمد أعظم، وتربع على عرش الدولة، وأكبر دليل وأوله على اختلاف ميله وطبيعته عن ميل عالمكير وطبيعته أنه تبني المذهب الشيعي، الذي لم يكن مخالفًا لعوائد السلطان عالمكير وطبيعته وذوقه فحسب، بل كان مخالفًا لعوائد جميع الملوك التيموريين المغول ومذهبهم ومنهجهم في الحياة، وكان معاكساً لمصالح هذه الدولة أيضاً (التي كان تسعون إلى خمسة وتسعين في المئة من سكانها من حدودها الشرقية بالبنغال إلى حدودها الغربية بكابل وقندهار ستين عقيدة، حنفيين مذهبًا).

ولم تكن هناك إمكانيات في الهند لقبول هذا المذهب ونجاحه على مستوى الجماهير.

وبحسب تصريح غلام حسين طباطبائي مؤلف (سير المتأخرین) (الذي يتبع إلى الفرقـة الثانية عشرية، وتجلى شيعيته في تاريخه للواقع والأحداث) لما أمر بهادرشاه باعتناق المذهب الشيعي، وعقد المباحثات والمناظرات مع علماء أهل السنة في هذه القضية، وأمر بإدخال هذه الكلمات: (عليه ولئله، وصي رسول الله) في الخطبة، حدث اخطراب في لاهور، حيث كان الملك مقیماً، ووقد اشتباكات، وصرّح المؤلف بأن ذلك لم ينل قبولًا ورواجًا، يقول:

(١) هو رفيع الدرجات بن رفيع القدر، وكانت مدة حكومته ثلاثة أشهر وعشرين يوماً.

(٢) محبي السنة بن كام بخش بن عالمكير.

(٣) رفيع الدولة بن رفيع القدر.

«لم يزل بهادرشاه يصرّ على هذا، ويسعى جاهدأً في نشر المذهب الشيعي وقويته، ولم يزل بابُ المناقشة والمناقشة مع العلماء مفتوحاً مدةً طويلاً من الزمن، ولكنَّ ذلك لم يُجد شيئاً»^(١).

وكان من نتيجة هذا التغيير أن استاءت الجماهير والجيش كذلك، ولم يبق في الجيش ذلك الحماس الديني الذي كان في عهد المغول الماضي قوةً دافعة كبيرةً، وقد تقطّن لذلك بعضُ المؤرخين من غير المسلمين أيضاً، يقول الدكتور ستيش شنдра (dr. satish chandra): «لقد ضعفَ تأثير الدين على سياسة الحكومة»^(٢).

ويقول الشيخ ذكاء الله الدھلوی في (تاريخ الهند):

«لقد حدثت انقلابات وتطورات كبيرة بعد عالمكير في أمور الدولة، وتغيرت أشكال العلاقات كلها، وانقلب العلاقات التي كانت بين الدولة التيمورية والمرهته رأساً على عقب، وكانت الدولة المغولية قد بلغت من الضعف والهزال حد الاحتضار، ولكنها رغم احتضارها وإشرافها على الموت لم تننس كبراءتها وغطرستها»^(٣).

كان عالمكير إذا كان في أورنک آباد^(٤) خافه أركان الدولة وكبار الأمراء في بهار وبنغال - فضلاً عن دہلی - وهابوه، فقد كان متقدداً للأحوال، مطلعاً على الأمور الجليلة والحقيرة من شؤون الدولة، ولم يكن يتأنّر لحظةً في إصدار أوامره في الوقت المناسب.

(١) سير المتأخرین: ٣٨١ / ٢.

(٢) dr. satish chandra . partes and politics in the muchal court , 1707-40 aligarh 1959 , p-40.

(٣) (تاريخ هندوستان) للملوی ذکاء الله الدھلوی : ٩ / ٣٣ .

(٤) مدينة في الجنوب، كانت في إمارة حیدر آباد سابقاً، وتقع الآن في مهاراشترا، وقد أقام فيها أورنک زیب مدة للقضاء على الإمارات النابطة (وأكثرها شیعیة) التي انفصلت عن المركز في فترات مختلفة.

أما خلفه (بهادر شاه) فكان حاًلـ كـما يـقول مؤـرـخ الـهـنـدـ:

«كـانـ أـوـامـرـهـ غـيـرـ مـتـظـمـمـةـ،ـ وـلـمـ يـعـدـ أـيـ اـعـتـبـارـ لـتـوـقـيـعـ السـلـطـانـ،ـ وـكـانـ السـلـطـانـ يـقـولـ لـعـدـمـهـ وـحـواـشـيـهـ:ـ لـقـدـ تـحـالـفـ كـلـ الـمـوـظـفـينـ وـتـوـافـقـوـ فـيـمـاـ بـيـنـهـمـ فـمـاـ يـرـونـهـ أـفـضـلـ عـنـهـمـ يـنـفـذـونـهـ،ـ وـلـيـ إـلاـ الـاسـمـ،ـ وـلـمـ يـعـدـ لـيـ عـمـلـ سـوـىـ أـلـيـ حاجـاتـ الـخـلـقـ وـأـحـقـقـ مـطـالـبـهـمـ»^(١).

ويـقـولـ:ـ «لـقـدـ أـرـأـخـ بـعـضـ الـظـرـفـاءـ الـمـتـنـذـرـينـ جـلوـسـهـ عـلـىـ عـرـشـ الـدـوـلـةـ بـ(ـالـمـلـكـ الـغـافـلـ)،ـ إـنـهـ يـسـهـرـ الـلـيـالـيـ،ـ وـيـنـامـ إـلـىـ الـضـبـحـ،ـ وـهـذـاـ يـسـبـبـ الـمـصـاعـبـ لـلـنـاسـ فـيـ أـيـامـ أـسـفـارـهـ»^(٢).

ويـقـولـ:ـ «إـنـ الـأـمـرـ الـثـالـثـ الـذـيـ أـقـدـمـ عـلـيـهـ مـخـالـفـاـ دـسـتـورـهـ وـقـانـونـهـ،ـ أـنـهـ عـاتـبـ الـعـلـمـاءـ وـغـضـبـ عـلـيـهـمـ،ـ وـأـوـدـعـهـمـ فـيـ السـجـونـ،ـ ثـمـ غـلـبـ عـلـيـهـ الـخـفـقـانـ حـتـىـ وـدـعـ هـذـهـ الدـنـيـاـ الـرـاحـلـةـ فـيـ عـاصـمـتـهـ لـاهـورـ فـيـ (ـ١٩ـ)ـ مـحـرـمـ عـامـ ١١٢٤ـهـ»^(٣).

ويـشـيرـ الطـبـطـبـائـيـ أـيـضاـ إـلـىـ ماـ حـصـلـ لـهـ فـيـ آخـرـ عمرـهـ مـنـ اـخـتـلاـطـ وـسـفـهـ،ـ وـإـصـدـارـ أـمـرـ بـقـتـلـ الـكـلـابـ،ـ وـأـنـهـ كـانـ يـظـنـ بـهـ السـحـرـ»^(٤).

وهـكـذـاـ تـضـعـضـعـتـ الدـوـلـةـ الـمـغـوـلـيـةـ الـعـظـيمـةـ فـيـ عـهـدـ الـخـلـيفـةـ الـأـوـلـ لـعـالـمـكـيرـ،ـ وـفـيـ مـدـةـ سـتـ سـنـوـاتـ فـحـسـبـ،ـ وـزـالـتـ تـلـكـ الـمـهـابـةـ وـالـسـطـوـةـ،ـ وـالـعـظـمـةـ الـتـيـ كـانـتـ مـنـ عـهـدـ الـمـلـكـ (ـبـاـبـرـ)ـ تـخـيـفـ الـقـوـىـ الـمـخـالـفـةـ،ـ وـتـرـعـبـ قـلـوبـ الـغـوـغـائـيـنـ وـأـصـحـابـ الـفـتـنـ وـالـثـورـاتـ،ـ وـتـسيـطـرـ عـلـىـ قـلـوبـ الـخـاصـةـ وـالـعـامـةـ.

فـرـخـ سـيـرـ:

لـقـدـ اـسـتـولـىـ فـيـ عـهـدـ فـرـخـ سـيـرـ (ـ١١٢٥ـهـ - ١١٣١ـهـ)ـ حـسـينـ عـلـيـ خـانـ

(١) (تـارـيخـ هـنـدـوـسـتـانـ):ـ ٣٨/٩.

(٢) المـصـدـرـ السـابـقـ.

(٣) المـصـدـرـ السـابـقـ.

(٤) (سـيـرـ الـمـتـأـخـرـينـ):ـ ٣٨٢ـ٣٨١ـهـ / ٢.

وعبد الله خان (اللذان كان يلقب الأول منهما: بأمير الأمراء، والثاني بقطب الملك) على الملك، وعلى المملكة كلها، فكان فرخ سير العوبة في أيديهما، وقد حبساه أخيراً، ثم أطلقاه من قيد الحياة، يقول مؤلف (تاريخ الهند):

«لقد كان فرخ سير طيب الأخلاق، رحب الصدر، يقدر الناس، وكان يحاول مقابل خدمة كل أحد واهتمامه به أن يوليه منصباً لائقاً وخدمات جيدة، ويزيره على الأفران، ولكنه لم يكن يملك من السلطة شيئاً، ولم يكن محظكاً، فقد نشأ وتربي في ولاية بنغال بعيداً عن آبائه وأجداده، وفي غفلة عن أمور المملكة وشؤون الدولة، وكان يفقد الثبات والاستقامة والرأي السديد، ويقتدي بآراء غيره، فقد أتاه الجد والحظ بالعرش والتاج، وقد كانت الأسرة التيمورية تمتاز بالبطولة والشجاعة، أما هو فكان خلواً من ذلك، جباناً ضعيفاً، ولم يكن يسبر غور الكلام، ولا يتوصل إلى فهم غرض المُغرض، فأصبح بنفسه من بداية حكمه معول هدم لدولته»^(١).

وكان راجه رتن سنكه (ديوان السيد عبد الله خان) يتدخل في أمور جميع الولاية والأمراء، فلم يكن عنده لأي واحد من الناس تقدير ولا اعتبار، ولا سيما في الشؤون المالية، وقد ازداد ترفُّ الملك وخلوته وسفهه، وكانت ضرورات الناس معطلة»^(٢).

وأخيراً سُمِّلَ الأخوان (قطب الملك وأمير الأمراء) عيني الملك فرخ سير وحبسه في السجن داخل القلعة التي كانت كحفرة القبر، ومات الملك بعد أن حكم ست سنوات وأربعة أشهر، وقد قضت هذه الواقع والأحداث على ما كان لخلفاء العرش المغولي من تقدير واحترام، وما كان للدولة المغولية من قوة واعتبار.

(١) المصدر السابق، ص ١٠٩.

(٢) المصدر السابق، ص ١٣٠.

محمد شاه بادشاه (ت ١١٦١هـ):

حكم محمد شاه تسعًا وعشرين سنة وستة أشهر، وعهده مليء بالحوادث والواقع الهائلة، ففي عهده كانت حملة نادر شاه التاريخية على دهلي، ولكن هذين الأخرين من الشيعة الأشرف المعروفين بـ(سادات بارهه) قطب الملك عبد الله خان وأمير الأمراء حسين علي خان، كانوا مُسيطرین على الدولة - كلیاً - وكان أهل البلاط يرون أنَّ الملك لم يبق له - لأجل سيطرة هذين الأخرين - شيء من الحكم وإصدار الأوامر إلا صلاة الجمعة... وكان هذين الأخرين قد شمرا عن ساعد الجد على أن يُلْحِقا العاز بالأسرة التركية والمغولية، ولا نجاة في الخلوة والعزلة عن المناصب.

وقلوب الوارثين للعرش والتاج وأبنائهم وأحفادهم وحشمتهم وخدمتهم البعيدين والقريبين، الذين يفدونهم بالأرواح في حزن عميق، وأسى بالغ، إذ يرون وارث العرش والتاج لا سلطنة له ولا اختيار، ولا قدرة على إجراء أحكام الشرع ولا صلاة الجمعة، والهنداك قرب مدينة (أكره) إلى ساحل البحر يبنون المعابد، ويمعنون من ذبح البقر^(١).

وكان الناس كُلُّهم صغيرُهم وكبيرُهم يحتقون على رتن جند سلطته وتدخله في أمور الدولة وشؤونها المالية، الذي لم يكن يراعي إلا أشراف (بارهه) وقبيلة البقالين، وكانت البيوتات الكريمة في كل مكان تعيش بالذل والمهانة^(٢).

ويقول الطبطبائي مؤلف (سير المتأخرین):

«لما أنَّ الملك كان شاباً فاقداً العزيمة، قليلَ الجرأة، يتهمك في اللذات وحياة الترف والبذخ، ولا يلتفت إلى شيءٍ من أمور الحُكم إلا إذا كان أمراً ضروريَاً جداً، وهكذا زال الخوفُ والمهابةُ - تدريجياً - من قلوب الأمراء والأعيان

(١) (تاريخ هندوستان) : ١٦٦/٩.

(٢) المصدر السابق : ١٨٢/٩.

والوجهاء، بل من قلوب عامة الناس، فكان كلُّ أحدهم يفكِّر في محله أن يعلن حرية واستقلاله، وينقض يده من الطاعة والانقياد»^(١).

ولم يكن حينذاك في البلاط وأركان الدولة إلا شخصية (نظام الملك آصف جاه) الذي كان مع مضاء عزيمته، وعلو همته وفيأ لصاحب العرش والتاج، مخلصاً ناصحاً، ولكنَّ الأشراف والعناصر الإيرانية كانت تتغلب عليه، ولا تدع له أيَّ مجال، ولا تسمع له كلمة، ولذلك لما رأى آصف جاه أنه لا يقدِّرُ وفاؤه وإخلاصه، وأنَّ إقامته هنا إضاعةٌ للوقت، وتعرِيضُ النفس للخطر في كلِّ حين، اتجه إلى الذكرى (الجنوب) وخلا الجو في دهلي للمغرضين وأصحاب المطامع.

ثم غلب على محمد شاه ترفُّ بالغ، حتى خلَّ وراءه المترفين السابقين، وأنسَى الناسَ قصصهم ورواياتهم، وضرب رقماً قياسياً في البذخ والعيشة الرغيدة الناعمة، يقول مؤرخو الهند:

«إنَّ محمد شاه لم يغيِّر دياناته، ولكنه غيَّر مذهبها، فأصبح السحاب الداكن من محبوبيه، وصدر الأمر العام بأنه إذا هاجت السحب من سفح جبال هملايا، ورعدت وبرقت فلتنتصب له الخيام في الصحراء، ثم لا يسمع إلا صوت الملك الهايم السكران»:

الصَّبُوحَ الصَّبُوحَ يَا أَصْحَابَ الْمَدَامَ الْمَدَامَ يَا أَحْبَابَ
وانتهت - أخيراً - سلطةُ أمير الأُمراء (السيد حسين خان) وقطبُ الملك النَّوَاب عبد الله خان (حسن علي خان) من أشراف (بارهه)، وطفحت كأس حياتهما ولكنَّ الدولة المغولية - رغم ذلك - لم تتغير، لأنَّ الملك كان يفقد كلَّ صلاحية للحكم، وأدنى بصيرة وتفرس للأنخطار المحدقة.

يقول السيد هاشمي الفريد آبادي في تاريخه للهند:
«لقد احتُقلَ في البلاد كلُّها بمناسبة انتهاء الأشراف (صانعي الملوك) وعدة

(١) (سير المتأخرین): ٤٥٨/٢.

القدرة والسلطة إلى محمد شاه، واستقبل الناس ذلك - بصفة عامة - بفرح وسرور، ولكنَّ هذا السرور لم يكن نتيجة عاطفة الحب للسلطانين والملوك، بل كان مؤسساً على أمني الإصلاح في المستقبل للإدارة والنظام، وتحقيق مصالح البلاد، ورفاهية الناس، فلم يكن عاقبتها إلا الحزن واليأس والأسى، لأنَّ هذا الخليفة الجديد للملك أكبر والسلطان زيب كان عرياناً عن صفات آبائه الغُرّ الملوكية، إنه لم يكن في حياته المترفة والباذخة والاشتغال بالمتع والملاهي فرصةٌ للنظر في شؤون البلاد، إنه كان أكثر غفلةً وجهلاً بأحوال الدولة، وأقلَّ تفكيراً في فساد الدولة وخرابها من نساء القصر الملكي، حتى إننا نقرأ كثيراً عن جدته (مهربرور زوجة شاه عالم بهادرشاه) أنها كانت تتبع حفيدها الغافل النائم من سباته العميق، وكانت النتيجة الواضحة لكلِّ ذلك الانحطاط والسقوط^(١).

وينبغي في هذا الموضوع ألا نغفل رأي (جادوناته سرکار) الذي أبداه وهو يعلق على مواضع الضعف في محمد شاه، إذ يقول:

«لئن كان محمد شاه لا يستحق التقدير والاحترام، فإنه يستحق الرحمة والعطف، لقد كانت الظروف والأوضاع أدت به إلى موقفٍ كان في حاجةٍ إلى شخصيةٍ عبقرية (genius) ولكنه كان إنساناً عادياً، وإنَّ المؤرخين يعيّبون عليه أنه قضى عمره في البذخ والترف، بدلاً من أن يهتمُ بأمور الدولة، ولكن المأساة هي أنَّ مثله لو صرَّفَ همته إلى شؤون الحكم والإدارة، ما كان بوسعه أن يغيّر تيار الأوضاع.

لقد كان أمثال (رفع الدرجات) و(رفع الدولة) العوبية في أيدي غيرهم، ولم يكن لديهم شعورٌ بذلهم ومهانتهم، أما محمد شاه فكان يشعر بقداحة الخطاب وسوء الأوضاع، وضعفه وعجزه عن الإصلاح^(٢).

وبالجملة فإنَّ المملكة العظيمة التي قامت بعزيمة بابر ويطوله النادرة،

(١) تاريخ الهند لفرید آبادی: ٣/٢٦١.

(٢) fall of the empire, p.373-74

وجده وجهاده وقوته وثباته، والتي حفظها وأبقى عليها أخلاقه إلى السلطان أورنڭ زىب بشجاعتهم، وقوة شكيمتهم، وغيرة التيمورية، بلغت إلى غاية من الترف واللهو، والغفلة والإهمال، الذي أصبح حظّ الحكومات الوراثية الجبارية الجائرة، وما أصبحَ ما قال الدكتور إقبال:

«أنا أنبئك أيها الإنسان بحظوظ الشعوب وجذودهم، إنّ بدايتها بالسيوف والرماح، و نهايتها بالطواويس والطبول».

وكانت التبيجة - أخيراً - هي تلك التي عبرَ عنها محمد شاه نفسه في شطرٍ من شعره، ومعناه:

«إنّ شؤمَ أعمالنا ظهرَ في صورة نادر».

توجه نادر شاه إلى دهلي عام ۱۱۵۱هـ، وكان قد كتب - قبل ذلك - عدة رسائل إلى محمد شاه، ولكن حسب تصريح المؤرخ:

«كانت هنا - إذ ذاك - أيام الأفراح والليالي الملاح، وكان محمد شاه بهادر صاحب العرش والتاج، ولم يكن له من العمل إلا الراحة واللذة، فلاتفارقُ الكأسُ يده، ولا تفارقُ الغادة ذراعيه، فمن يكون له التفكير في الرد على الرسائل والاهتمام بالبريد؟»^(۱).

وينبغي أن تقرأ تفاصيل حملة نادر شاه في كتب تاريخ الهند، وما وصلت إليه حال دهلي بعد حملته - ولا يغيب عن البال أنَّ الإمام الدهلوi كان حينذاك ابن (۳۷) سنة، وكان قد رجع من زيارة الحرمين الشريفين - نستمع في وصفها إلى مؤلف (تاريخ الهند):

«لقد كانت المدينة (دهلي) بعد رجوع (نادر شاه) مليئة بالجثث والأشلاء، فارغة من الأحياء، وكانت البيوت خراباً مهدمة، يخيم عليها السكون المهيب، وكانت الأحياء والحرارات بأسرها محروقة، قد تحولت إلى رماد، وكانت العفونة

(۱) (تاريخ هندوستان): ۲۰۱/۹.

الصاعدة من الجثث والروائح الكريهة الممتنعة تكاد تتصدع الدماغ وتقطره، ولم يكن هناك من يكفن أحداً، أو يدفن في القبر أحداً، وقد اختلطت جثث المسلمين والهندوس، واحتربت في ركام إلى رماد.

هذا حال المدينة، أما حال [حاكم] البلاد، فكان يغطُّ في النوم أيامًا، فلما هبَّ من نومه، كانت القذارة تغطي عينيه، حتى يتقدّر من النظر إليه، ولم يكن في الخزانة فلسٌ واحدٌ، ولا يعرف أين الخراج والمحاصيل! وكان الجيش محظيًّا منهوكًا هالكًا.

وعلاوةً على كل ذلك كان الخوف من (المرهته) لا يزال مسيطرًا، وقد خربت تلك الولايات التي كانوا استولوا عليها، ورغم كل هذه المصائب والمحن كان التزاع قائماً بين أهل البلاط والحاشية، فكان فريقٌ من الأمراء الطورانيين الذين كان على رأسهم (آصف جاه) و(قمر الدين خان) الوزير، وفريقٌ آخر من الأمراء كانوا يحاولون عزلهم وإبعادهم عن البلاط، وكان الملك أيضًا يعذّب منهم، ولو لم تقع قضية (المرهته) ولم تواجههم مشكلتهم لكان هؤلاء الأمراء قد توزعوا المملكة كلها فيما بينهم من زمان، وتركوا الأسرة التيمورية اسمًا بلا رسم^(١).

ولما رجع نادر شاه من الهند كان من أولى نتائج رجوعه أن انفصلت ثلاث ولايات خصبة، البنغال، بيهار، وأريسه، عن حكومة دلهي، وقامت فيها حكومة مستقلة لعلي وردي خان^(٢).

وأصيب محمد شاه أخيراً بمرض الإسهال، ومات في هذا المرض في (٢٦) ربيع الآخر عام ١١٦١هـ الموافق أبريل عام ١٧٤٨م، وحسب ما يقول مؤلف (تاريخ الهند): إنه حكم ثلاثة سنّة، وقد أودى فيها بالأسرة التيمورية إلى شفا ال�لاك والدمار^(٣).

(١) تاريخ هندوستان: ٢٧٢/٩.

(٢) المصدر السابق: ٢٦٢/٩.

(٣) المصدر السابق، ص: ٢٨٤.

شاه عالم الثاني:

لئن كانت الدولة المغولية مُنيَت في عهد محمد شاه بالانحطاط الخلقي والإداري، وما لـ المجتمع الهندي؛ وطبقة الأمراء والأغنياء - بصورة خاصة - لقانون: (الناس على دين ملوكهم) إلى حياة المتع واللذائذ والترف والبذخ، والدعة والراحة، فإنها أصبت في عهد شاه عالم الثاني الذي تولى زمام الحكم عام ١٧٣١هـ الموافق عام ١٧٥٩م بالانحطاط السياسي الشائن الذي بلغ الغاية.

إنه لم يزل في عهد حكومته الممتد على (٤٧) عاماً العوبة في يد غيره، وقد خضع للإنكليز، وقيل طاعتهم عام ١٧٦٤م بعد أن لقي (أمير أوده) وزير شجاع الدولة و(مير قاسم) هزيمة على أيدي الإنكليز في معركة (بكسر)، ووقع الوزير شجاع الدولة على معاهدة ظلّ بسببها موظفاً يتلقى راتبه من الإنكليز، ثم كانت له اتفاقية أخرى مع الإنكليز عام ١٧٦٥م أدت إلى تولي الشركة الشرقية الهندية جباية المحاصيل والسلطة على المحاكم في ولايات بنغالة، ويهار، وأريسه، ودخل شاه عالم نفسه في جوار (المرهته) وووهبهم مديريات إله آباد وآكره.

لقد كانت البلاد كلها قبل عهد (الشاه عالم الثاني) بزمن، تحت رحمة (السيخ) و(المرهته) وكانت مناطق دهلي وآكره وراجبوتانه تحت رحمة (الزط) الذين كانوا يعيشون فيها فساداً، ويخرجون كالطوفان، ويهلكون الحرش والنسل، ولم تكن في البلاد قوة تملك أن تبسيط الأمور وتفرض القانون^(١).

وقد حفظ أحمد شاه الأبدالي هذه البلاد من خطر (المرهته) بعد أن هزمهم في ساحة (بني بت) في (١٤) كانون الثاني - يناير عام ١٧٦١م هزيمة ساحقة نكراة، وقد حاول جهده في طلبه شاه عالم إلى دهلي، وأرسل إليه سفيره لذلك، حتى اضطر إلى أن استكتب والدته النواب (زينت محل) رسالة إليه، ولو كان في الدولة المغولية أيّ رمق من الحياة، وفي (شاه عالم) أيّ كفاءة وصلاحية للحكم، لكن قد استفاد من نتائج حرب (بني بت) واستعاد قوته وسلطته، ولكن الدولة

(١) انظر التفصيل في الباب الثالث، الفصل الخامس من هذا الكتاب، ص ٢٤٩.

كانت جسداً بلا روح، وكان الملك فقداً للهمة والعزمية، خالياً من الغيرة والحمية،
وكما يقول محمد إقبال:

«إنَّ ما يقال لها الحمية ذهبت من أُسرةٍ تيمور، وولَّت إلى غير رجعةٍ».

وعاد الملك من إله آباد إلى دهلي عام 1771 م بعد عشر سنوات كاملة، وقد فات الأوان، فلم يقدر له أن يستفيد من الفتح العظيم في ساحة (بني بنت) والهزيمة الساحقة التي لحقت بالمرهته، بل واجه هنا فتناً جديدة، وصراعاً بين النساء وتحايلهم وتنازعهم، وقوة (روهيله) الجديدة، وحملات (السيخ)، وأخيراً استولى (غلام قادر روهيلا) خفيف نجيب الدولة على دهلي عام 1788 م ونهب القصر الملكي، وأمر بضرب الأميرات بالسياط، وأخرج عيني الملك المغولي ووارث العرش التيموري بنصل الخنجر، ولم يكن قد سبق أن عومل وارث العرش المغولي بهذه المهانة والفضيحة والعار.

وقتل (سنديهيه غلام قادر) عام 1789 م بقسوة فظيعة، وأجلس (شاه عالم) على العرش مرةً ثانية، وعيَّن تسعين ألف روبيه سنويًا لمصروفاته، ودخل عام 1803 م (اللورد ليك) بجيشه الإنكليزي إلى دهلي بعد حروب عديدة، وأجل (المرهته) وقرر للملك المتقاعد راتب مئة ألف روبيه سنويًا^(١).

ولقي (شاه عالم) أجله عام 1806 م، بعد أن حكم (٤٥) عاماً، وقضى (١٨) عاماً في العمى مخلوعاً مهاناً.

٢ - الوضع العلمي والروحي:

لقد كان هذا العهد رغم الاضطراب السياسي، والفووضى الاجتماعية، والانحطاط العام، عهد النبوغ العلمي، والاشتغال بالتدريس والتأليف، والعزلة الروحية، والرقي الباطني، وتزكية النفوس، وإصلاح القلوب، من الناحية الفردية، وقد ظهر فيه عددٌ من النوايغ وأصحاب الفضل والكمال، ممن لا يمتنون

(١) انظر: (تاريخ هندستان) : ٩/٣٤٣، وقد جاء في بعض كتب التاريخ الإنكليزية أنه قرر له تسعين ألف روبيه.

إلى هذا العهد من الانحطاط والفوضى بصلة، ولا يوجد عليهم أيُّ أثرٌ لليلأس من الأوضاع والخوف منها.

يقول بعض المطلعين: إنَّ كثيراً من المآثر والروائع العلمية والأدبية تدين لجهود أولئك الأفراد الأفذاذ، الذين كانوا يعانون من الأمراض المزمنة أو شيئاً من العلل، والخدمات الداخلية، ويعملُ ذلك علماءُ النفس باهتماماً الدفاع والمقاومة تندفع في مثل هذه الحالة، وتقوي الشعورَ بتدارك ما لحقَ بذلك المرض، ويدفع ذلك الشخصَ إلى إنجاز ما لا يقدِّرُ على إنجازه لو كان في الأحوال العادية.

إنَّ هذه الناحية العلمية والروحية في الهند، وظهور هؤلاء الأفذاذ النابغ في عهد الانحطاط إثبات لقوة المقاومة الداخلية في مجتمع مريض منحط مشرف على السقوط، ودليلٌ على أنَّ خلية الإسلام لم تزل تعسِّل، وأنَّه لم يزل يصنع الرجال وينتاج العبريات.

فإننا نجد في هذا العهد في سعة العلم والذكاء الباهر، وقوة التدريس وحسن التأليف والتصنيف أمثال الشيخ أحمد بن أبي سعيد الامتيهوي (١٠٤٧هـ - ١١٣٠هـ) صاحب (نور الأنوار) و(التفسيرات الأحمدية)، والشيخ حمد الله السنديلوبي (ت ١١٦٠هـ) صاحب (شرح سلم العلوم) المعروف بـ (حمد الله)، والشيخ محمد حسن المعروف بـ ملا حسن الفرنكي محلـي صاحب (شرح السلم) المعروف بـ ملا حسن (ت ١١٩٩هـ)، والشيخ رستم علي القنوجي (ت ١١٧٨هـ)، والشيخ صفة الله الخير آبادي (ت ١١٥٧هـ)، والشيخ علي أصغر القنوجي (ت ١١٤٠هـ)، والشيخ غلام علي آزاد البلكرامي (ت ١١١٠هـ - ١٢٢٠هـ)، والشيخ غلام نقشبند اللكنوـي (ت ١١٢٦هـ)، والقاضي محب الله البهاري (ت ١١٩٩هـ) مؤلف (سلم العلوم) و(مسلم الثبوت) (الذي شغلَ علماءَ الهند ومدرسيها في شرح هذين الكتاـين وتحشـيتـهما قرابةً قرـنٍ من الزمان، وكانت كتبـه مرجعـاً للعلماء الكبار، وأساتـذـة الأزهرـ في مصرـ) والقاضـي مباركـ الكـويـامـويـ (ت ١١٦٢هـ) مؤلف (شرحـ السـلمـ) المعـروفـ بـ (قـاضـيـ)، والـشـيخـ مـحـمـدـ أـعـلـىـ التـهـانـوـيـ مؤـلـفـ (كـشـافـ اـصـطـلـاحـاتـ الـفـنـونـ) وـهوـ كـتـابـ فـرـيـدـ فـيـ بـابـهـ، وـمـلـاـ نـظـامـ الدـينـ الـلـكـنـوـيـ

(ت ١١٦١هـ) الذي كان يسيطر منهجه الدراسي المعروف بالمنهج النظامي على الأوساط العلمية من الهند إلى بخارى وسمرقند، والذي وصفه مؤلف (نزهة الخواطر) بـ: «غيث الإفادة الهتون، العالم بالربع المskون، أستاذ الأساتذة، وإمام الجهابذة»، وأمثال هؤلاء من العلماء النابغين، والمدرسين والمؤلفين، والمؤسسين للحركات العلمية، ومناهج التعليم والتربية، الذين يتجلّل بهم التاريخ، وتعترُّ بهم البلاد والأمصار، لقد كان هؤلاء من رجال هذا القرن وأعيانه^(١).

وإذا نظرنا إلى الطريقة والسلوك، فقد كان في هذا القرن الشيخ الريانى ميرزا مظهر جان جانان (١١١١-١١٩٥هـ) من كبار أصحاب التربية والتزكية في السلسلة التقشبنية المجددة، الذي قال فيه الإمام (ولي الله الدهلوى) نفسه: «إنَّ أمثال هؤلاء المشايخ لا يوجدون في عدِّ كبير في كلِّ عصر، فكيف في هذا العصر المليء بالفتنة والفساد»^(٢).

ونجد في هذا العهد شيخ السلسلة القادرية المعروف، والمرشد الروحي للعلامة (نظام الدين اللكنوى) مؤسس المنهج النظامي، والسيد عبد الرزاق البانسوى (ت ١١٣٦هـ)، ومجدد السلسلة الجشتية النظامية الشيخ كليم الله الجهان آبادى (ت ١١٤٠هـ)، وإمام هذه السلسلة وناشرها الشيخ فخر الدين الدهلوى (ت ١١٩٩هـ)، وشيخ السلسلة المعروف الشيخ محمد غوث القادرى اللاهورى (ت ١١٥٤هـ)، وشيخ السلسلة التقشبنية الريانيين الكاملين كالشيخ محمد عابد السنّامي (ت ١١٦٠هـ)، والشيخ محمد ناصر عندليب (والد الشاعر العارف الكبير خواجه مير درد الدهلوى) (ت ١١٧٢هـ)، والشيخ منيب الله البالابوري، والشيخ نور محمد البدايونى (ت ١١٣٥هـ)^(٣)، يزيتون مجالس الطريقة

(١) مقتبس من: (نزهة الخاطر)، ج ٩.

(٢) انظر: (كلمات طيبات)، ص ٦٥.

(٣) استخدنا هذه الأسماء ووفياتهم وخصائصهم المميزة من (نزهة الخواطر)، ج ٦ للعلامة السيد عبد الحى الحسنى رحمة الله تعالى.

والسلوك، ويرشدون إلى طرائق الحق ويصلحون القلوب.

وبالجملة فقد كان هذا العهد عهداً انتشار هذه الطرق الثلاثة: (القادرية) و(الجشتية) و(النقشبندية) وقبولها وشيوخها، وكان شيخوخ هذه الطرق الثلاثة الكبار على قيد الحياة وعلى نشاط، قال الشيخ عبد العزيز الدهلوi:

«كان في دلهي في عهد (محمد شاه) اثنان وعشرون من المشايخ الربانيين المرشدين المتممرين إلى مختلف الطرق، ولا يتحقق وجود مثل هذا إلا قليلاً»^(١).

٣- الانحطاط الخلقي والاجتماعي:

ولكن في الواقع - رغم وجود هؤلاء النوافع وأصحاب الفضل المعروفين والشيوخ الكاملين والمرشدين الربانيين - فإن المجتمع المسلم في الهند - ولا سيما طبقة الأمراء - قد وصل ذروة التردي الخلقي، والإسفاف الاجتماعي بتأثير الدولة والانحطاط السياسي، وتتدفق الأموال والثروات الطائلة، ويتاثر الحضارة الإيرانية، ولأجل ذلك كانت هذه الطبقة عاجزة - تماماً - عن أداء الدور الذي لعبته هذه الطبقة في كل عصر عند انقلاب الدول، وتحول الحكومات، فقد برز من هذه الطبقة التي كانت خطأ ثانياً (second line) في مختلف العصور أولئك الأفراد الذين ملؤوا الفراغ الحادث في المجال السياسي والإداري، ولقد أصاب المؤرخ الفاضل هاشمي الفريد آبادي إذ قال:

«إن ثروات الهند وأموالها الطائلة كانت قد مالت بهذه الطبقة من الأمراء إلى الترف والبذخ والدعة والاسترخاء... فإننا نرى أن جهود هؤلاء الأمراء وكفاءاتهم كلها تبذل في الاحتيال والمؤامرات للأغراض الخسيسة التافهة، فلم يكن أحد من هؤلاء الأمراء يجسر على إعلان استقلاله في محله، دع عنك قلبه للنظام، والاستيلاء على الملك والسلطان، فإذا كان الفساد الداخلي في الإدارة والنظام يسود في جانب هذه الفترة، ففي جانب آخر كانت تفتقد - تدريجياً - من

(١) انظر: (ملفوظات عزيزية)، ص ١٠٦.

أفراد الطبقة الحاكمة أي صلاحية لإدارة الحكومة، والإسهام في العمل والمسؤولية»^(١).

يقول الشيخ عبد العزيز الدهلوi:

«كانت النساء في بيت النواب قمر الدين، يغسلن الغسل الأخير بماء الورد، وكان يصرف في بيوت النوابين (الأمراء) الآخرين ثلاثة روبيه على ورقة التنبول والورود»^(٢).

ويقول الشيخ غلام علي آزاد البلاكريامي في (مآثر الكرام):

«يقول سكان (أورنوك آباد) بإجماع منهم: إنَّ معظم الناس لم يكونوا يطبخون الطعام في بيوتهم في عهد أمير الأمراء حسين علي خان، فكان طباخ قصر أمير الأمراء يبيع حصته من الطعام، وكان الناس يشترون طبق (بلاو) الممتاز (وهو كالكبسة الممتازة عند السعوديين) بفلوس معدودة»^(٣).

٤ - فساد العقيدة واستئلاء الإشراك والبدع:

وأfreجُ من هذا الانحطاط الخلقي، والإسفاف الاجتماعي، وأدعى للحرمان من نصر الله - تعالى - وتأييده، والتجريد من القوة الحقيقة هو الفساد العقيدي، فقد كانت البدع والمححدثات، وكثير من تقاليد الهنادك والشيعة وعاداتهم تسيطر على المجتمع المسلم، وقد تسربت إلى حياة العامة من الناس، وتغلغلت في أحشائهما مخالفةً للإعلان القرآني الصريح: «أَلَا لِلَّهِ الْأَكْبَرُ الْخَالِقُ» [الزمر: ٣]، وكانت للشرك الجلي في كثير من المواريث والأوساط صور وأشكال، لا يمكن أن تعلل تعليلاً علمياً، فمن عبادة القبور، وسجدة التحية للمشايخ، وتقديس الأماكن الخاصة للزيارة كتقدس الحرم، ووضع الكسوة على القبور والتنور

(١) تاريخ الهند للسيد هاشمي الفريد آبادي: ٣/٢٦٢ - ٢٦٣، طبع حيدرآباد، ١٩٢١م.

(٢) انظر: (ملفوظات عزيزية).

(٣) مآثر الكرام: ١/١٧٠.

والقرايين، والذبح باسماء الأولياء والمشايخ، والطواف بالقبور والأماكن المقدسة المزورة، والاحتفال وإقامة الأعياد بها، والأغاني والمزامير، وإشعال الشموع، وباختصار اعتقاد هذه الأماكن هي المرجع والمصير، والملجأ والمجير، وأمثال هذه من الأحوال المشاهد التي لا تحتاج لزيارتها أن تتعجب السفر البعيد، والانتظار الطويل، بل كانت منتشرة في كل مكان.

كذلك الكيش المنذور للشيخ (سدو)، وبقرة السيد (أحمد الكبير)، وأعلام (غازي ميان)، وتعزية محرم (وهي القباب والمقابر المصنوعة من القرطاس يحملها الشيعة أيام المحرم)، والاحتفال الرائع بالأعياد غير الإسلامية، والاتجاه إلى الأرواح الخبيثة في رفع الأمراض، واسترضاء الآلهة والإلهات، والخوف منهم، وتقديس (سيتلا)^(١) لدفع مرض الجدري، والنذر والذبح للأولياء والصالحين، والصوم باسم الأولياء والصالحات، وتعليق الحاجات بهم، والسؤال منهم.

وتعيين الأطعمة الخاصة في الأيام الخاصة، والالتزام فيها بآداب خاصة، وغيرها من العناوين الكبيرة التي تضم تحتها سلسلة طويلة من الأوهام والخرافات، والعقائد الفاسدة المنحرفة، وتقاليد الجاهلية، وعاداتها والتزاماتها وقيودها، كما أنه كانت الأسماء مثل علي بخش (أي عطاء علي) حسين بخش، بير بخش (أي عطاء الشيخ) مدار بخش وسالار بخش، عامرة شائعة.

وكانت عقيدة التوحيد في دائرة كبيرة قد انحصرت في هذا المفهوم، وهو أنَّ الله - تعالى - هو الخالق الحقيقي للأرض والسماءات، والصانع للكون، وهو المعبد حقيقة، وهو الذي يدير الأمور العظام، ولكنه كسلاطين الدنيا قد ولى كثيراً من مصالح مملكته وشعبها عباده المقبولين المقربين، الذين قد ملقوها وخُيروا في التصرف فيها، فهم يتصرّفون حسب ما يشاؤون، فلا يمكن الآن إحراز أي نجاح أو قضاء أي حاجة إلا باسترضائهم، وإقامة الصلة القوية بهم،

(١) إلهة من إلهات الهندوس [الباطلة] يعتقدون أن مرض الجدري من تأثيرها.

وأنَّ الشرك ليس إلا أن يعتقد أنَّ لهذا العالم صانع وخالق غير الله، ويظن أنَّه يستحق العبودية والسجدة مباشرةً، من دون اعتقاد بالوسيلة والشفاعة^(١).

وبالجملة فإنَّ الهند في القرن الثاني عشر الهجري كانت قد ترددت من النواحي السياسية والإدارية والخلقية والاجتماعية والاعتقادية إلى حدٍ كبير في الحضيض، ووصلت إلى آخر نقطة من الانحطاط والإنهيار، وهي التي تكون مرحلة خطيرة مؤسفة لسقوط البلدان الإسلامية، وانحطاط المجتمع المسلم.

وقد صور العلامة السيد (سليمان الندوي) هذه الأوضاع بمجموعها في إحدى مقالاته تصويراً بليغاً موجزاً، يقول:

«لقد كانت شمسُ الدولة المغولية في أ Fowler، وكان للعادات والتقاليد الجاهلية في المسلمين صولة وجولة، فكان الدراويش والمشايخ الكاذبون المتتصعنون متربعين على دست مشايخهم في ربطهم، جالسين يوقدون الشموع على مقابرهم، وكانت جنبات المدارس ترتعج بأصداء الفلسفة والمنطق، وكان التقىد بالنصوص الفقهية والالتزام الحرفي في الفقه والفتاوی شعاراً كل مفتٍ وفقيه، وكان التحقيق والبحث في المسائل الفقهية جريمةً كبرى في جانب الدين، وكانت الخاصة فضلاً عن العامة جاهلةً بمعاني القرآن الحكيم ومطالبه، وأحكام الأحاديث النبوية وإرشاداتها، وأسرار الفقه ومصالحة»^(٢).

* * *

(١) سيأتي تفصيل هذا التصور للتوحيد في الفصل الأول: (إصلاح الإمام الدهلوi وتجديده للعقائد) من الباب الثالث من هذا الكتاب فلينظر هناك، ص ١٤١.

(٢) (مقالات سليماني)، ص ٤٤.

الطب الثاني
سيرة الإمام الذهبي

الفصل الثاني

أجداد الإمام الذهلي ووالده

أجداد الإمام الذهلي:

إنَّ عهد الأجداد الأولين للإمام الذهلي، الذين استوطنوا مدينة (رهتك) من عهد الشيخ شمس الدين المفتى، هو ذلك العهد للتاريخ العلمي والتأليف في الهند، الذي لم يبدأ فيه تأليف كتب الترجم بصفة عامة، وأكثر ما يوجد من كتب الترجم فهي ترجم فردية لبعض مشايخ الطرق المعروفين.

ويحتل فيها ما كتب عن حياة العارف الكبير الشيخ نظام الدين الذهلي باسم (سير الأولياء) الذي ألفه (أمير خورد) مكانة ممتازة، أو كانت هناك كتب تشتمل على ترجم عدد من المشايخ والصالحين، ويجلد منها بالذكر كتابان، أولهما (كلزار أبرار) للشيخ محمد بن حسن الغوثي المندوي، الذي يحتوي معظمها على ترجم مشايخ ماندو ومالوه، والثاني (أخبار الأخيار) للشيخ عبد الحق المحدث الذهلي.

وكانت الكتب المؤلفة في ترجم أصحاب الفضل والنبوغ والشخصيات العلمية المعروفة، التي تشتمل على ترجم رجال مختلف الطرق الصالحين، أو على ترجم الشخصيات البارزة في مختلف المناطق والأصقاع (التي لم تكن مؤسسة لإحدى السلسل والطرق، أو حلقةً مهمة من حلقاتها) وعلى تفاصيل حياتهم، قليلة نادرة، وإن كانت فهي تلك التي تدور حول شخصيات العاصمة المركزية، أو عاصمة الولايات وأعمالها ونواحيها، أو رجال المدن المركزية ذات الشهرة التاريخية، الذين كان يتيسئ للمؤلف التوصل إلى وسائل الاطلاع على أحوالهم وفضلهما وأعمالهم.

وقد كانت أسرة الإمام الدهلوi نازلةً في (رهتك) من عهد الشيخ شمس الدين المفتى إلى عهد جده الشيخ وجيه الدين، ولم تكن هذه المدينة تحمل تلك الأهمية والمكانة الكبيرة، ولذلك فإننا لا نعثر في عامة كتب الترجم على أحوالهم وووأئعهم.

وكان يُخشى أن تبقى أخبار هذه الأسرة الكريمة مغمورةً، ويواجه المؤلف لترجمة حياة الإمام الدهلوi أو لتاريخ أسرته صعوبةً شديدةً، لو لم يكن الإمام الدهلوi نفسه أَلْف رسالةً باسم (الإمداد في مآثر الأجداد)^(١) في ترجم لأجداده وأحوالهم، وهذه الرسالة نفسها تشتمل على ترجم مختصرة مجلمة لأجداده الأولين، وترجمة مفصلة - إلى حدٍ ما - لجده الشيخ وجيه الدين لقرب عصره، وقلة الوسائل، ولذلك فإننا نعتمد على (مآثر الأجداد) ونكتفي به، فإنّ صاحبَ البيت أدرى بما فيه.

سياق النسب:

لقد ذكر الإمام الدهلوi (الذي ينتهي نسباً إلى سيدنا عمر الفاروق رضي الله عنه) فساق نسبة في بداية هذه الرسالة إلى سيدنا عمر الفاروق - رضي الله عنه.

وقد كان من أعقاب الشيخ سالار حسام الدين أحد إخوة الشيخ شمس الدين المفتى، الذي كان أول من قدم إلى (رهتك) من هذه الأسرة، وألقى بها عصى الترحال، أحد المشايخ الصالحين، الذي يدعى (شاه أرزاني البدايوني) وأنّ أنساب أسرته أيضاً تصدقُ هذه السلسلة من النسب، وتؤكد صحتها، وتصل هذه السلسلة النسبية بثلاثين واسطة إلى سيدنا عمر الفاروق رضي الله عنه^(٢).

(١) هذه الرسالة تشتمل على (١٠) صفحات بالقطع المتوسط، وقد نُشرت في مجموعة رسائله الخمسة، والرسالة الأولى منها بعنوان (إنسان العين في مشايخ الحرمين)، طبع مطبعة الأحمدى بدھلی، وهي مضمومة مع الرسائل السبعة أيضاً التي نُشرت مع (أنفاس العارفين).

(٢) راجع: (الإمداد في مآثر الأجداد) في مجموعة الرسائل الخمسة للإمام الدهلوi طبع مطبعة الأحمدى - دھلی.

ويرد في هذه السلسلة لقب ملك مع عدد من الأسماء، يقول عنه الإمام الدهلوi، إنه كان يستعمل للتجليل والتعظيم للقب (خان) في عصرنا.

دخول أسرة الإمام الدهلوi في الهند:

إنَّ أولَ من نزل مدينة (رهتك) من أسرة الإمام الدهلوi حسب تصريحة وروايته - ولعلَّه هو أول من دخل الهند من أسرته أيضًا - هو الشيخ شمس الدين المفتى، ويقدر من حساب عدد الوسائل والأعقاب وأعمارهم الطبيعية التقريبية أنَّ الشيخ شمس الدين المفتى يكون قد قدم الهند في أوَّلِ القرن السابِع أو أوائل القرن الثامن الهجري، حين كانت حملات التتار تدمِّر العالم الإسلامي، وتنهك حرمات الأُسر والبيوتات الإسلامية، وتبدد خزاناتهم العلمية، وتحوَّل المدن الشهيرة الراقية في إيران وتركستان إلى خرابٍ يباب.

ويفيد (تاريخ فiroz Shahi) وكتب التاريخ الأخرى أنَّ كثيراً من البيوتات الكريمة والأُسر الشريفة ذات الفضل والنبوغ توجَّهت في تلك الآونة إلى الهند، التي كانت تحكمها الأُسر المسلمة التركية الأصل، التي ردَّت حملات التتار على أعقابها، واضطربتها للانسحاب، وبذلك فإنَّها لم تحفظ هذه البلاد من غاراتهم الوحشية فحسب، بل حولت هذه البلاد لرعايتها للدين وحبها للعلم والمعرفة إلى دار علمٍ وفضلٍ، ومدرسة واسعة تستقبل أصحاب الفضل والنبوغ، وتوجد فيها في كل مكان حلقات للذرُوس، ومرَاكز للذكر والعبادة وتركية النقوس، ومجامع لأصحاب الأقلام وأهل البحث والتحقيق، حيث كانت الفرص مهيئةً ومواتيةً لأنَّ ينجزَ كلُّ واحدٍ منهم عمله في سكينة وطمأنينة وسلام^(١).

الإقامة بـ(رهتك):

يحيط إلينا - ويبعدو من تصريح الإمام الدهلوi أيضًا - أنَّ مدينة (رهتك) كانت إذ ذاك مدينة ذات أهمية وخطورة للدولة الإسلامية الناشئة، وكانت أول

(1) انظر للتفصيل: رجال الفكر والدعوة: ١٩/٣ - ٢١.

متزلاً وأهمّه قبل دهلي للجيوش الإسلامية والمجاهدين المسلمين، ودعاة الإسلام والمبلغين والعلماء والمشايخ الربانيين، الذين يتوجهون إلى دهلي من غرب الهند.

ويفيد الإمام الدهلوي أنَّ أقدم المشايخ الصالحين من القرشيين الذي قدم هذه المدينة، وظهرت بها بسببه شعائر الإسلام، وانتكست أعمال الكفر والجاهلية، وانطمست معالهما، هو الشيخ شمس الدين المفتى، وقد ذكر الإمام الدهلوي بعض كراماته التي لا تستغرب، نظراً إلى صلاحه وتقواه، وظروف ذلك العصر وتلك البيئة، وكان يولى كلُّ من ينزل بتلك المدينة من كبار العلماء والمشايخ منصب القضاء والمحاسبة، ويولى أحياناً إدارة المدينة أيضاً، ولكنه لم يكن يدعى في ذلك العصر بالقاضي أو المحاسب.

من الشيخ شمس الدين المفتى إلى الشيخ وجيه الدين:

وقد تولَّ بعد وفاة الشيخ شمس الدين المفتى أكبر أبنائه متزلاً الشيخ كمال الدين المفتى، ثم ابنه الشيخ قطب الدين، ثم ابنه الشيخ عبد الملك هذه المناصب، وقاموا بهذه المسؤوليات.

ثم بدأ تعيين القضاة بعد هؤلاء المشايخ الكرام بصورة رسمية محددة، وقد أبقى الشيخ قاضي بده ابن الشيخ عبد الملك على هذه التقاليد للأسرة، وعلى الحياة والمكانة، وقد استمرَّ نسله من ابنيه، وحدثت مصاهرة بين هذه الأسرة وبين الصديقيين (المتتمين نسبياً إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه) في (رهتك) والأشراف في (سوني بيت)، فكان زواج الشيخ محمود (الذي هو الجد الخامس للإمام الدهلوي) والذي ترك منصب القضاء، وتولى مناصب الحكومة والإدارة في أشراف (سوني بيت)، وولده ابن أسماء أحمد.

وقد وَدَّعَ أَحْمَدَ - فِي صَغْرِهِ - مَدِينَةَ (رَهْتَكَ) وَأَقَامَ مَعَ الشَّيْخِ عَبْدِ الْغَنِيِّ بْنِ الشَّيْخِ عَبْدِ الْحَكِيمِ فِي (سُونِي بَيْت) وَاسْتَوْطَنَهَا، وَزَوَّجَهُ الشَّيْخُ عَبْدُ الْغَنِيِّ بْنَتَهُ، وَقَامَ عَلَى تَرْبِيَتِهِ.

ثم قدم الشيخ أحمد مدينة رهتك، وبنى عمارةً خارج القلعة، وجمع أحبابه وأقرباءه، وكان ابنه الشيخ منصور جامعاً للفضائل من جاه وشجاعة وحكم، وقد تزوج أولأ بنت الشيخ عبد الله بن الشيخ عبد الغني.

وكان ابنه الشيخ معظم كاسمه وجيهها مهياً وقوراً، يملك شجاعةً نادرة، وقد صدرت منه حوادث عجيبة، ينقل الإمام الدهلوi عن والده الشيخ عبد الرحيم أنَّ الشيخ منصور اشتباك في حربٍ مع أحد الراجوهات (الأمراء) الهنادك، وكان معيناً على ميمنة الجيش، ولم يتتجاوز سنه الثانية عشرة من عمره، وكانت الحرب شديدة حامية، وقد قتل من الفريقين عدد كبير، وفي أثناء المعركة خاطب أحد الناس الشيخ معظم وقال له: إنَّ والدك الشيخ منصور تناول كأس الشهادة، وأنهزم الجيش الإسلامي، فلم يملك أن ثارت غيرته الإسلامية، ونبض عرقه الفاروقي، ونخاض مجاهداً باسلاً في صفوف الأعداء، يشقها ويفرقها حتى وصل بعد محاولات شديدة إلى فيل الأمير الهندوسي، وانبرى له أحد القادة الكبار من العدو، فضربه الشيخ معظم بالسيف، وصيরه فلتتين، فهجم عليه أحد أصحابه، وأنزلوه من فرسه، وا زدحم عليه الناس، ولكنَّ الأمير زجرهم، ونهاهم عن التعرض له بسوء، وقال: إنَّ هذا الناشئ اليافع، وهذه البسالة والجرأة! إنه - فعلاً - من عجائب الزمن، وأنحده الأمير وقبل يديه، وأكرمه وأكبره، وسأله: لماذا هذا الغضب الفائز؟ .

فقال الشيخ معظم: تُبَشِّثُ أنَّ والدي قد استشهد، فعزمتُ على أن أحمل بنفسي، ولا يقرُّ لي قرار، حتى أقتل قائدَ العدو، وأتحقق بمقره، وكنت قد قررت في نفسي أنني إما سآموت وأقتل أو أقتل .

فقال الأمير: إنَّ من أخبرك بخبر والدك كاذب، إنَّ والدك حيٌّ، وانظر تتراءى أعلامه تلك، وأرسل الأمير - في الوقت نفسه - سفيره إلى الشيخ منصور أننا قد صالحنا لأجل هذا الناشئ، وقبل كلَّ ما قيل له، ورجع أدراجه .

ويحكى الإمام الدهلوi عن والده أيضاً قصة أحد الملائكة المعمرین

للأراضي في قرية شكوه بور (التي كانت تحت ولاية الشيخ معظم) أن ثلاثة من قطاع الطرق استلقوا - ذات مرة - موشي هذه القرية وفروا بها ، وكان الشيخ معظم إذ ذاك بها وحيداً ، ولم يكن هناك أحد من أقربائه أو أبنائه ، فنمى إليه هذا الخبر ، وكانت مائدة الطعام قد وضعت ، فلم يتظاهر بأي عجلة أو فزع ، بل تناول الطعام كعادته بكل طمأنينة حتى فرغ منه ، وغسل يده ، ثم قال : عليَّ بسلامي وفرسي ، فلما ركب وسار ، رافقه بعض ملوك الأرضي مزودين بالأسلحة ، ولكنَّ الشيخ معظم أمرهم بالعودة ، وقال : إنني سوف أغذ السير ، وأطير بفرسي حتى لا يمكنكم أن تلحقوا غبار فرسي ، إلا أنه أخذ معه راوي هذه القصة ، الذي كان سريعاً في سيره حتى يخبر الناس بما يجري ، ثم ركب فرسه حتى أدرك جماعة قطاع الطرق الذين كانوا قد قطعوا عدداً منازل ، واستشار غيرتهم ، ودعاهم إلى النضال ، وبدأ يرمي بالنشاب ، فلما رأى قطاع الطرق براعته هذه في الرمي ، أخذهم الرعب وذهبوا ، واستغاثوا به ، وقالوا : نتوب عما افترفنا ، فليصفح عننا .

قال لهم الشيخ : إنَّ توبتكم أن تجردوا أنفسكم من أسلحتكم ، ويربط كل واحد منكم يدي الآخر ، ثم ساقهم على هذه الحالة المميتة مع الأسلحة والمواشي إلى القرية ، وحلُّفهم حسب ما في ديناتهم أنهم سوف لا يفكرون في العودة إلى هذه القرية ، ولا ينظرون إليها ، فقبلوا ذلك .

وأعقبَ الشيخ معظم من زوجته بنت السيد نور الجبار السوني بــ ثلاثة أبناء ، الشيخ جمال ، والشيخ فيروز ، والشيخ وجيه الدين ، وهذا الأخير هو جد الإمام الذهلي ، والوالد والده .

جد الإمام الذهلي الشيخ وجيه الدين :

لقد ذكر الإمام الذهلي ترجمة حياة جده الشيخ وجيه الدين بشيء من التفصيل بالنظر إلى غيره ، يقول : «إنه كان يجمع بين صفتين الصلاح والتقوى ، والشجاعة والفتوة ، كان الوالد (أبي الشيخ عبد الرحيم) يقول : كان والدي (الشيخ وجيه الدين) جعل حزبه أن يقرأ يومياً جزأين من القرآن الكريم ، ولم يكن يترك

ذلك سَفَرًا وَحْضُراً، وَفِي حَالَةِ الْمُنْشَطِ وَالْمُضْعَفِ وَالْكَسْلِ، فَلَمَّا كَبَرَ وَضَعَفَ بَصَرُهُ، فَكَانَ يَحْمِلُ مَعَهُ مَصْحَافًا مَكْتُوبًا بِالْحُرُوفِ الْكَبِيرَةِ، وَلَمْ يَكُنْ يَفْارِقُهُ فِي السَّفَرِ أَبَدًا.

وَكَانَ يَقُولُ: إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَدْعُ فَرْسَهُ يَرْعَى حَقْلَ غَيْرِهِ، وَلَوْ كَانَ الْجَيْشُ كُلُّهُ يَرْكَضُونَ أَفْرَاسَهُمْ وَخَيْولَهُمْ فِي الْحَقولِ الْمُزْرُوعَةِ، وَلَذِكَّرَ كَانَ أَحْيَاً يَتَجَسَّمُ طَرِيقَ الْأَبْعَدِ غَيْرَ الْمَعْرُوفِ الْمُسْلُوكِ.

وَكَانَ يَقُولُ أَيْضًا: إِنَّهُ إِذَا قَلَّتِ الْمَوْنَةُ فِي إِحْدَى الْحَرَوبِ، وَلَمْ يَتَهَيَّأْ مِنَ الطَّعَامِ شَيْءٌ، فَكَانَ أَصْحَابُهُ وَزَمَلَاؤُهُ مِنَ الْجُنُودِ يَسْطُونُ عَلَى مَوَاشِيِ الْقَرَى، وَيَأْكُلُونَهَا، أَمَّا هُوَ، فَكَانَ يَتَوَرَّعُ عَنِ ذَلِكَ، فَإِذَا طَالَتْ سَاعَاتُ الْجُوعِ وَلَمْ يَجِدْ شَيْئًا يَوْمًا أَوْ يَوْمَيْنِ وَخَارَتْ قُوَّاهُ، يَهْبَئُ اللَّهَ - تَعَالَى - لَهُ رِزْقَهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ.

وَكَانَ أَحْيَاً يَعْنِي فِي التَّفْكِيرِ، وَيَضْرِبُ سُوْطَهُ عَلَى الْأَرْضِ، فَتَخْرُجُ مِنْهَا الْحَمْصُ قَدْرُ مَا يَغْدِيهُ أَوْ يُعَشِّيهُ، فَكَانَ يَغْسِلُهَا وَيَطْهُرُهَا، وَيَغْمِسُهَا فِي الْمَاءِ ثُمَّ يَتَنَاوِلُهَا.

وَكَانَ يَقُولُ: إِنَّ سُلُوكَ وَالَّذِي مَعَ باعَةِ التَّينِ وَأَصْحَابِ الْحَرْفِ الْوَضِيعَةِ (كَمَا يَظْنُونَ) كَانَ فِي غَايَةِ الْلَّطْفِ وَالْلَّيْنِ، وَالْعَدْلِ وَالنَّصْفَةِ، مَا يَنْدَرُ نَظِيرَهُ فِي أَصْحَابِ التَّقْوَى وَالْوَرْعِ أَيْضًا.

وَكَانَ يَقُولُ أَيْضًا: إِنَّهُ شَاهِدًا - فِي أَحَدِ أَسْفَارِهِ - بَعْضُ عَلَائِمِ الْوَلَايَةِ، فَبَاعِيْعُ، وَاشْتَغَلَ بِالْأَسْغَالِ الصَّوْفِيَّةِ، وَاتَّخَذَ قَلْلَةَ الْكَلَامِ وَقَلْلَةَ الْاِخْتِلاَطِ بِالْأَنَامِ (الَّذِي هُوَ عَادَةُ الصَّوْفِيَّةِ النَّقِيَّةِ) شَعَارَهُ، وَالتَّرَمَّ بِهِ التَّزَامًا يَكَادُ لَا يَوْجِدُ فِي صَوْفِيَّةِ هَذَا الْعَصْرِ.

وَيَقُولُ الْإِمَامُ الدَّهْلَوِيُّ: إِنَّ الْوَالَدَ كَانَ يَذَكِّرُ جَرَأَتِهِ وَشَجَاعَتِهِ كَثِيرًا، وَقَدْ ذَكَرَ الْإِمَامُ الدَّهْلَوِيُّ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ عَدْدًا مِنْ وَقَائِعَ شَجَاعَتِهِ النَّادِرَةِ، نَقْلًا عَنِ الْوَالَدِ، فَقَدْ وَاجَهَ - بَعْضَ الْمَرَاتِ - جَمَاعَاتٍ وَفَرَقًا مِنَ الْأَعْدَاءِ، وَيَارِزُهُمْ وَقَاتِلُهُمْ وَحْدَهُ، وَكَانَ يَخْرُجُ فِي الْعَسْكَرِ الْمُلْكِيِّ إِلَى (مَالُوهُ) وَكَانَ قَدْ بَارَزَ كَبَارَ الشَّجَاعَانِ

والأبطال المغایر في عصره، وأنقذـ في بعض الأحيانـ أصحابه أو ضباط جيشهـ
ـ الذين كانوا تعرّضوا للخطر العدوـ في اللحظة الحرجةـ.

وصرّعـ ذات مرةـ ثلاثةـ من المصارعين المبارزينـ، كانوا لا يبالون بأحدـ،
ـ ولا يعيرون أحداً أيّ اهتمامـ، وكان فريداً في فنّ الفروسيةـ^(١).

وكان هو مع (العامكير) في حربه مع إخوتهـ، ولما خرج (شاه شجاع) ضدهـ
ـ في بنغالـة كان هو في عسكر (العامكير) وقد قام بدورٍ كبيرـ، وأدى حقّ الوفاء لوليـ
ـ نعمتهـ، وأثبتـ صدقـه واستقامتـه^(٢)ـ، وقد كتب النصرـ (العامكير) في تلك المعركةـ
ـ برجولـته وشجاعـتهـ، وأرادـ الملكـ بعد الفتحـ أن يرقـي منصـبهـ، فلمـ يقبلـ ذلكـ لزهـدهـ
ـ فيهـ، وقد أدىـ أحـيانـاًـ حقـ الصدـاقـةـ والودـ لأحـبابـهـ وأصدـقـائـهـ، وخاطـرـ لأجلـهمـ
ـ بنفسـهـ، وأنـقـذـهـ في المواقـفـ الصـعبـةـ^(٣)ـ.

وقد ذـكرـ الشـيخـ عبدـ الرـحـيمـ عـدـداًـ مـنـ وـقـائـعـ مـغـامـراتـهـ وـيـطـولـاتـهـ وـرـياـطـةـ
ـ جـاشـهـ، وـقـوةـ شـكـيمـتـهـ وـعلـوـ هـمـتـهـ، كـماـ ذـكـرـ وـقـائـعـ أـخـرىـ لـموـاسـاتـهـ وـمـطـايـتـهـ
ـ وـشـفـقـتـهـ عـلـىـ الـفـقـراءـ وـالـمـساـكـينـ.

وقد تـزـوجـ الشـيخـ وجـيهـ الدـينـ بـنـ الشـيخـ رـفـيعـ الدـينـ مـحمدـ، وـكـانـ الشـيخـ
ـ رـفـيعـ الدـينـ بـنـ الشـيخـ قـطبـ العـالـمـ، وـهـوـ اـبـنـ الشـيخـ عـبـدـ العـزـيزـ شـكـرـبـارـ^(٤)ـ.

وـولـدـ لـلـشـيخـ وجـيهـ الدـينـ مـنـ هـذـهـ الزـوـجـةـ ثـلـاثـةـ أـبـنـاءـ، وـهـمـ: الشـيخـ أـبـوـ الرـضاـ
ـ مـحمدـ، وـالـشـيخـ عـبـدـ الرـحـيمـ، وـالـشـيخـ عـبـدـ الـحـكـيمـ.

يـقولـ الشـيخـ عـبـدـ الرـحـيمـ: كانـ وـالـديـ ذاتـ مـرـةـ يـصـلـيـ التـهـجدـ، فـأـطـالـ
ـ إـحدـىـ السـجـدـاتـ حـتـىـ ظـنـنـ أـنـهـ فـارـقـ الـحـيـاةـ، فـلـمـ رـفـعـ رـأسـهـ قـيلـ لـهـ: لـمـاـ أـطـلـتـ
ـ السـجـودـ إـلـىـ هـذـاـ الحـدـ؟ـ قـالـ: اـعـتـرـتـنـيـ حـالـةـ الغـيـوبـةـ، وـانـكـشـفـ لـيـ فـيـهاـ درـجـةـ

(١) انظر للتفصيل: مآثر الأجداد، ص ٦ - ٧.

(٢) المصدر السابق، ص ٨ - ٩.

(٣) المصدر السابق، ص ٨ - ٩.

(٤) اقرأ ترجمته في: (نزهة الخواطر) ج ٤.

الشهيد وما أعدَ له من ثواب، فتمنيتُ على الله - تعالى - أن يرزقني الشهادة، وألحتُ وبالغتُ في الدعاء حتى انكشفَ لي قبول الدعاء، ووَقعت الإشارة إلى جهة (الدكن) جنوب الهند لأنَّ محلَ الشهادة هو ذاك.

يقول الوالد: إنه بعد هذا الحادث - رغم أنه كان ترك وظيفة الجيش، وكان قد كرهها ونفر منها، ولكنه هيأَ أسبابَ السفر من جديد، واشتري الخيل، وتوجه إلى الدكن، وكان يخلي إلية أنَّ حادثَ شهادته يقعُ في (سيوارا) الذي كان واقعاً خارج حدود الدولة الإسلامية، وكان حاكمُه قد تعرَّضَ للقاضي المسلمين بالإهانة والازدراء، إلا أنه لِمَا وصلَ إلى (برهانبور) انكشفَ له أنه تخطئَ محلَ الشهادة، فرجع القهقرى، ورافقَ في الطريق بعض التجار ممَّن كانت تلوخُ عليهم آثار الرشد والصلاح، وكان يريد العودة من قرية (هنديا) إلى الهند، إذا به عرض له رجلٌ مسنٌ ضعيفٌ كان يudo وهو لاغبٌ مكدوءٌ، فأشفقَ عليه، وسأله عن حاله، فقال: أريد الذهاب إلى دهلي، فقال له: ابقَ عندنا وأعطيكَ ثلاثَ بيساتٍ من راتبي كلَ يومَ.

وكان ذلك العجوز أحدَ جواسيس الكفار، فلماً وصلت القافلةُ إلى رباط (نويزيا) أخبرَ الجاسوسَ أصحابه بخبر هذه القافلة من التجار، وأنها نازلةٌ في الرباط، فهجمَ عددٌ كبيرٌ من قطاع الطرق على هذا الرباط، وكان الشيخ (وجيه الدين) إذ ذاك يتلو القرآن الكريم، فتقدَّمَ إليه منهماثان أو ثلاثة، وقالوا: من هو وجيه الدين؟ فقال: ها أنا، قالوا: ما لنا بك من حاجة، فنحن نعلم أنك لا تحمل شيئاً من الفلوس، وأنك على أحدٍ منا حق الضيافة، ولكننا لا نترك هؤلاء التجار الذين يحملون أمتعة كثيرة، ولماً أنَّ الشيخ وجيه كان أصلَ غرضه من رحلته هذه الشهادة، فلم يرضَ مفارقتهم والتخلية بينهم وبين التجار، فتصدىَ للمهاجمين، وانبرى يقاتلهم، وقد وقع في جسمه اثنان وعشرون جرحًا وطعنة، وكانت الطعنة الأخيرة فصلت رأسه من جسده، ولم يزل لسانه في هذه الحال أيضًا رطباً بالتكبير، حتى سقطَ أخيراً في مكان، ودفنَ به، وقد أشهدَ الله - تعالى - (الشيخ عبد الرحيم) هذا الحادث، فرأى أنه يريه جروحه، وأرادَ الشيخ (عبد الرحيم) أن ينقل جسسه، ولكن إشارة غيبية منعَته من ذلك.

جد الإمام الدهلوi من أمه الشیخ محمد الفلتی:

كان الشیخ (محمد الفلتی) جد الإمام الدهلوi لأمه^(١)، وموطن أسرته الأول (سلہور)^(٢)، ونزعـت هذه الأسرة في عهد السلطان (اسکندر اللودھی) إلى (فلت)، كان والده يسمى الشیخ (محمد عاقل)، الذي كان من صغره ذکیاً المعیاً، ومقرباً لـدی العلماء الصالحین والمشايخ الربانیین.

وكان الشیخ (جلال) خلیفـة الشیخ السید (آدم البنوری) بشـر عند ولادته بمراتبـة العـالیـة.

قرأ أولاً على عم الإمام الدهلوi الشیخ أبو الرضا محمد، ثم على الشیخ عبد الرحیم، وكانت له به مناسبة تامة.

وقصد بعد الفراغ من تحصیل العلوم إلى (فلت) وكان صاحب قدم راسخة في الجود والعطاء، وإنكار الذات، وفـنـاء النفس، وكان قوئـی التأثیر، صاحبـة التزکیة والإرشاد.

وقد ذکـرـ الإمام الدهلوi وقائـعـ من طاعـتـه وختـضـوعـه وتسـلـیـمـه وانـقـیـادـه لـأـسـتـاذـه ومربيـه الشـیـخـ عبدـ الرحـیـمـ^(٣)، وقد حصلـتـ لهـ الإـجـازـةـ منـ الشـیـخـ عبدـ الرحـیـمـ.

وكان ابـنـهـ الشـیـخـ عـبـدـ اللهـ الذـیـ کـانـ خـالـ الإمامـ الـدـهـلـوـيـ وـوالـدـ زـوـجـتـهـ، وـخـلـیـفـتـهـ الأـجـلـ الشـیـخـ مـحـمـدـ عـاشـقـ الفلـتـیـ^(٤).

وقد ذکـرـ الإمامـ الـدـهـلـوـيـ عـدـدـاـ منـ وـقـائـعـ قـوـةـ التـأـثـیرـ التيـ کـانـ يـمـتـازـ بـهـ الشـیـخـ محمدـ الفلـتـیـ، وـإـفـادـاتـهـ وـإـفـاضـاتـهـ^(٥)، توفـیـ الشـیـخـ محمدـ فيـ (٨) جـمـادـیـ

(١) للإمام الدهلوi رسالة في ترجمة حياته بعنوان (العطية الصمدية في الأنفاس المحمدية)، وهي مضمومة إلى مجموعة الرسائل الخمسة.

(٢) مديرية باربة بنكى - حالياً -.

(٣) العطية الصمدية، ص ٢٠.

(٤) انظر لترجمة الشیخ محمد عاشق الفلتی: (نزهة المخواطر) ج ٤.

(٥) العطية الصمدية، ص ٢٢ - ٢٥.

الآخرة، عام ١١٢٥ هـ^(١).

عم الإمام الدهلوi الشيخ أبو الرضا محمد:

كان الشيخ أبو الرضا محمد ابن الأكبر للشيخ وجيه الدين، والعلم الأكبر للإمام الدهلوi، وقد أثبّت الإمام الدهلوi في (أنفاس العارفين) ترجمةً مستقلة له، بعد ترجمة والده، ووصفه بـ(إمام الطريقة والحقيقة) وكانت معظم علومه وإن كان هو قد قرأ على أساتذة عصره) وهبّية في نظر الإمام الدهلوi، بدأـ ياذن والده وإشارتهـ يتّردد إلى أحد الأمّاء، ثم إذا به جذبته جاذبية التوفيق الإلهي، ومنعّته منهـ، واتّخذ التوكّل الكاملـ، والتجريد التامـ؛ والعمل بالسنة دينه وشعّارهـ، وقد خير زوجته أيضاً مستنداً بقوله تعالى: «إِنَّ كُنْتَ تُرِدُنَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَرَبِّنَتَهَا» [الأحزاب: ٢٨]ـ، بين أن تختار الفقر والمسغبة إذا اختارت مرافقته وبالبقاء معهـ، وإلا فلتذهب إلى بيتهـ، وقد اختارت هي أيضاً مقتنيةً بستة الأزواج المطهرات الفقر والمسغبةـ، ولم ترض بمفارقتهـ.

وكان يتولى عليه يومان أو ثلاثة أيام لا يجد طعاماً، فيبيت على الطوىـ، وكانت له نسبةٌ خاصة بالشيخ (عبد القادر الجيلاني)، كما كان له حبٌ خاصٌ ومناسبةٌ خاصة بسيدنا علي بن أبي طالب كرم الله وجهه^(٢).

وقد أراد السلطان (عالملكير) زيارته مراراً، ولكنه لم يرض بذلكـ، لأنّه كان لا يقبل على الأمّاء والحكامـ، أما الخصافون وأصحاب الطواحين وأصحاب أمثال هذه الحرفـ، فكان يقبل عليهمـ، ويحبّهمـ، وإذا قدّموا له ثلاثة أو أربعة فلوس هدية يقبلها منهم بكل رضا وسرورـ.

وقد نعته الإمام الدهلوi بـ«قوى العلم، فصيح اللسان، عظيم الورع، واسع المعرفة، كان جميلاً المحيا، طويلاً القامة، أبيض اللون، خفيف اللحية، لطيف الكلام، وكان يعظُ ويذكر بعد صلاة الجمعة، ويسمعُ الناسَ من حفظه

(١) العطية الصمدية، ص ٢٥.

(٢) (أنفاس العارفين)، ص ٨٦-٨٨.

ثلاثةً أحاديث، ثم يترجمها إلى الفارسية ثم إلى الهندية، وكان يلقي الضوء على معاني هذه الأحاديث وفوائدها، إلا أنَّ كلَّ ذلك بإيجاز واختصار.

وكان أولاً يدرس كتاباً في كُلٌّ فن، ويزدحم عليه الناس إعجاباً بحسن بيانه، وحلاوة منطقه، ثم اكتفى أخيراً بدرسين، أحدهما في (تفسير البيضاوي)، والثاني في (مشكاة المصايب).

وكان يشرح كلمات الصوفية شرحاً عجبياً، وكان مستجاب الدعوات.

وقد ذكر الإمام الدهلوi كثيراً من الواقع التي تدلُّ على حب الناس له، وأنه من المصطفين الآخيار^(١).

وكان له اهتمامٌ بالغ بأداء السنن، وكان ينشد أحياناً الدوبيت في الهندية من شعر الحقائق والمعاني، وقد ذكر الإمام الدهلوi عدداً من وقائع كشوفه وكراماته^(٢)، ونقل بتفصيلٍ كثير أقواله وكلماته، التي يصعب فهمها والاستفادة منها في هذا العصر، ولذلك نفضل الإعراض عن ذكرها^(٣)، كان عمره بين الخمسين والستين إذ وفاه الأجل المحتوم في (١٧) محرم الحرام عام ١١٠١ هـ بعد صلاة العصر، وأُرْخت وفاته بكلمة (آفتاب) (أي الشمس)^(٤).

والإمام الدهلوi الشیخ عبد الرحيم:

لقد أَلْفَ الإمام الدهلوi نفسه عن حياة والده ومناقبه وكراماته وفضائله كتاباً مستقلاً مفصلاً، أسماء (بوارق الولاية) ويعرف بـ (أنفاس العارفين)^(٥)، وأنه لا تتوفر لدينا أمثلة ونماذج في تاريخ الإسلام العلمي لتأليف كتب مستقلة

(١) أنفاس العارفين، ٨٩-٩٠.

(٢) المصدر السابق، ص ٩٠-٩٤.

(٣) المصدر السابق، ص ١١٩.

(٤) المصدر السابق، ص ١٥٥.

(٥) طبع أولاً في المطبع الأحمدى، ثم طبع في المطبع المجتباوى، والإحالات إلى الطبعة الأولى.

بأقلام البناء النواعي في ترجمات آباءهم النوابغ الفضلاء بالدقة العلمية والمسؤولية التاريخية، ويمكن أن يمثل في هذا الصدد بترجمة العلامة تاج الدين السبكي في كتابه الشهير (طبقات الشافعية) لوالده العلامة الشيخ تقى الدين السبكي ترجمة مفصلة مسحية^(١)، وتأليف العلامة الشيخ أبي الحسنات عبد الحفيظ الكتوني الفرنكى محلى رسالة مستقلة بعنوان (حضرت العالم بوفاة مرجع العالم) في حياة والده الشيخ عبد الحليم الكتوني.

وسوف نختار من هذا الكتاب تلك الجوانب والواقع التي تلقى الضوء على شخصيته، والتي يمكن أن تقدر بها مكانته العلمية والدينية والروحية، ويستعان به في تحديد ذلك الدور الأساسي الذي قام به والده في تكوين شخصية الإمام الذهلي وميله وذوقه والتأثير في حياته، ولا نكثير من ذكر الكرامات والكشف والتجارب الروحية والمدارج الباطنية، التي كانت الشغل الشاغل في ذلك العهد، وكانت للمترجم بها مناسبة خاصة، لأن فهمها وإدراكتها يتعمّر على أصحاب هذا العصر، وينبغي لمن يريد هذه التفاصيل أن يرجع إلى الكتاب نفسه.

ولابد من أن نقول إجمالاً: إن هذه الأحوال والواقع تدل على استعداد روحي بالغ، ونبوغ باطني طبيعي، تذكر بأحوال الأولياء المتقدمين، الذين كانت استعداداتهم ومداركهم قوية باللغة، وكان الزمن مواتياً صالحًا، والبيئة متجاوية مساعدة، بل باعثة ومرغبة، وكانت قدرة الله وتربيته بموجب قوله - تعالى - : «كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَاءٍ» [الرحمن: ٢٩] تتجلى في هذا المجال، وكان ذلك تفسيراً لقوله - تعالى - : «كُلُّ أَئِمَّةٍ هَتُولَاءُ وَهَتُولَاءُ مِنْ عَطْلَهُ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَّلَهُ رَبِّكَ مَحْظُورًا» [الإسراء: ٢٠].

ولا يوجد التصريح في كتب الترجم بسنة ولادة الشيخ عبد الرحيم، ولكن لما أنه توفي عام ١١٣١هـ، وعمره (٧٧) عاماً، لذلك نستطيع أن نحدّد سنة ولادته وهي ١٠٥٤هـ^(٢).

(١) وهي تشتمل على (٨١) صفحة بحروف صغيرة.

(٢) أنفاس العارفين، ص ٨٥.

وكان للشيخ عبد الرحيم أخوان هما الشيخ أبو الرضا محمد، والشيخ عبد الحكيم.

يقول الشيخ عبد الرحيم: كنت في صغرى ألوث على رأسي العمامة، وأجلس جلسة الصلاة، وكانت أسيغ الوضوء، واهتم بستته وأدابه، وكان خالي الشيخ عبد الحي (الذي كان أيضاً من المشايخ الربانيين) يراني فيسُرّ بي، ويقول: يطمئن قلبي عند رؤيته. على أَنَّ هذه الثروة المعنوية لسلفنا ستستمر في أعقابنا، فلو لم يظفر بها أحفادنا فلا بأس، فإنَّ أسباطنا سيكونون حملةً أمناء لهذا التراث^(١).

لقد كان الشيخ عبد الرحيم من صغره ميالاً إلى الدين، نفوراً من الدنيا وما لها وجهها، فكان لا يلتفت إلى شيخٍ يريده أن يعلمه دعاءً يحقق حاجات الدنيا ويقول: لا حاجة لي به، فلما رأى ذلك منه أحد المشايخ التقشينيين الذي كان اسمه خواجه هاشم، وكان قد قدم من بخاري، ونزل في الحي الذي كان يسكنه الشيخ عبد الرحيم، لقنه (طريقة الاستكتاب)^(٢)، يقول الشيخ عبد الرحيم: وقد غلت علىَ هذه الطريقة، واستحوذت على نفسي، حتى إنني نسخت مرَّة حاشية ملاً عبد الحكيم السيالكوتي (وهي حاشيته على شرح العقائد) فبدأت أكتبُ اسم الذات حتى تمَّ جزء واحد، ولم أشعر به^(٣).

وكان الشيخ يحضر عند الشيخ عبد الله المعروف بخواجه خورد ابن الشيخ الرباني خواجه باقي بالله، وكان من كبار العارفين، وقد تقدَّم إليه الشيخ لبعض الإشارات الغيبية والبشارات الروحية بطلب البيعة على يديه، فأشار عليه ناصحاً أن يباعِ أحد خلفاء السيد آدم البنوري، ممَّن تكون له قدْ راسخة في العمل بالشريعة، والزهد في الدنيا، وتهذيب النفس، فقال له: إنَّ الشيخ الحافظ السيد

(١) أنفاس العارفين، ص ٤.

(٢) كان المشايخ لغرض نقش اسم الله تعالى على لوح قلب الطالب يستكتبهونه اسم الله تعالى بكثرة على الورق حتى ينقش في القلب، وكانت هذه إحدى الطرق لعلاج القلوب وإحيائها بذكر الله تعالى.

(٣) أنفاس العارفين، ص ٥.

عبد الله^(١)، من خلفاء السيد آدم يسكن بجوارنا، فقال: اغتنم وجوده، فلا تتأخر عن بيته، يقول الشيخ: فجئت إلى حضرة السيد عبد الله، وكان يغلب عليه إخفاء حاله، ويعيش في الخمول، ولكنه أجابني على طلبي الأول، وقبلني للبيعة، فكنت أحضر لدى الشيختين الشيخ خواجه خورد، والشيخ السيد عبد الله، وأستفید منها.

وكانت عنابة السيد عبد الله متوجهة إلى الشيخ عبد الرحيم، فقال له يوماً: كنت صغيراً تلعب مع الولدان، فوجدت في نفسي انجذاباً إليك، فدعوت الله تعالى أن يجعل هذا الولد من الأولياء الصالحين، وأن يظهر نبوغه على يدي، فأحمد الله تعالى على أن ثمرة هذا الدعاء قد ظهرت^(٢).

درسته:

قرأ الشيخ عبد الرحيم من الرسائل الصغيرة إلى (شرح العقائد) و(حاشية الخيالي) على أخيه الأكبر أبي الرضا محمد، وقرأ سائر الكتب على ميرزا زاهد (المعروف بميرزا زاهد) وكان يقول: لقد قرأتُ (شرح المواقف) وسائر كتب الأصول على ميرزا زاهد، وكانت له بي عنابة خاصة، حتى لو قلت له يوماً: لم أطالع الكتاب الليلة، فكان يقول: اقرأ سطراً أو سطرين حتى لا يذهب اليوم خالياً من الدرس.

وراجع الشيخ خواجه خورد أيضاً في حل بعض المواضع من (حاشية الخيالي) واطمأن بحلوله، وكان يقرأ - أحياناً - شيئاً من بداية الكتاب، ثم يدرسه إلى نهايته بنفسه.

وكان الشيخ خواجه خورد تلميذ الشيخ رفيع الدين جد الشيخ عبد الرحيم لأمه، وكان الشيخ خواجه خورد استفاد من أستاذه علمياً وروحياً، ولذلك كان يعامل الشيخ عبد الرحيم معاملة خاصة.

(١) انظر لترجمته: (أنفاس العارفين)، ص ٦ - ١٥.

(٢) المصدر السابق، ص ١١.

وراجع الشيخ عبد الرحيم بعد وفاة السيد عبد الله الشيخ أبو القاسم الأكبر آبادي^(١) أحد كبار المشايخ في السلسلة (الأبي العلائية الأحرارية) واستفاد من الأمير نور العلا أيضاً، وأجازه كذلك الشيخ أبو القاسم، وكان الشيخ يكرمه ويقدره ويعتني به اعتناءً خاصاً لأجل أنه كان يتصل بالشيخ عبد العزيز شكريار، أحد أجداد الشيخ عبد الرحيم من أمه اتصالاً خاصاً.

وقد ذكر الإمام الذهلي في كتابه (أنفاس العارفين) حوادث وروقائع كثيرة للقاءات الشيخ عبد الرحيم مع مشايخ وأولياء عصره ومجاذيبه، وعنياتهم الخاصة به، فقد كان عصر الازدهار للسلوك والتصرف والشوق إلى الله، ومعرفته والوصول إليه والزهد، وكان أمثال هؤلاء المشايخ الذين يتذمرون هذه الأشياء، ويتحللون بالفضائل الروحية الباطنية موجودين بكثرة^(٢)، وقد كان لهم إقبالاً كبيراً على الشيخ عبد الرحيم وعناية خاصة به، وكانت للشيخ معهم لقاءات طيبة.

وذكر الإمام الذهلي وقائع من كشفه للأرواح، مما يدلُّ على قوته الباطنية، وتأثيره الروحي الكبير^(٣)، كما ذكر أيضاً كراماته وإشرافاته^(٤)، ثم ذكر أقواله وكلماته بتفصيل كبير^(٥)، ويظهر من أقواله وكلماته دقة نظره وثقوبه وذكائه، وصلاحيته العلمية الفائقة.

يقول الإمام الذهلي: كان عمل والدي في أكثر المسائل على المذهب

(١) كان الشيخ أبو القاسم خليفة الشيخ ولی محمد النارنولی، وهو خليفة الأمير أبي العلاء الحسيني الأکبر آبادي، وقد عاصر الشيخ أبو القاسم الشيخ أبي العلاء وصحابه، ولكنه حصل على الإجازة من الشيخ محمد النارنولی، توفي عام ١٠٨٩ هـ.

وينبغي أن يعلم أن الطريقة الأبا العلائية الأحرارية هي مزيج من الطريقتين الجشتية والتقطينية وسلسلة كالمي الشهير التي كان فيها الشيخ السيد محمد الترمذی، تنتهي إلى هذه السلسلة (انظر للتفصیل: (نزهة الخواطر): ٢٢/٥).

(٢) انظر: (أنفاس العارفين)، ص ٢٩ - ٣٤.

(٣) أنفاس العارفين، ص ٣٥ - ٥٠.

(٤) المصدر السابق، ص ٥٠ - ٦٥.

(٥) المصدر السابق، ص ٦٦ - ٨٥.

الحنفي، وكان في بعض المسائل يأخذ بال الحديث، أو يرجع أحد المذاهب بما ي ملي عليه وجدانه، فكان من اختياراته قراءة الفاتحة خلف الإمام، وقراءة الفاتحة في صلاة الجنائز.

وقد كان الشيخ عبد الرحيم في تلك اللجنة من العلماء التي عهد إليها بترتيب (الفتاوى الهندية) المعروفة في الهند بـ (الفتاوى عالمكيري)، والتي كانت تشمل على كبار العلماء البارزين والمدرسين والفقهاء البصیرین في الفقه الحنفي في هذه البلاد، وكان رئيس هذه اللجنة والمشرف عليها الشيخ (نظام الدين البرهانبوری) وقد أنفق السلطان (عالمکیر) على هذه الخدمة الجليلة مئتي ألف رویة^(۱)، وقد ذكر مؤلف (الثقافة الإسلامية في الهند) أسماء هؤلاء العلماء المؤلفين بعد تتبع وفحص كبير، بلغ عددهم اثنين وعشرين، وكان الشيخ عبد الرحيم أحد أعضاء هذه اللجنة^(۲).

يقول الإمام الذهلي: لقد كان السلطان عالمکیر في هذه الفترة من الزمن على غاية الاهتمام بهذا الترتيب والتدوين، وكان الشيخ ملا نظام الدين (أحد المشرفين على عمل اللجنة) يقرأ كل يوم صفحة من الكتاب على السلطان، فقرأ ذات يوم - ذلك الجزء الذي كان عهد بترتيبه إلى الشيخ ملا حامد، وكان قد خلط بين عبارتين متفرقتين من كتابين تتعلقان بمسألة واحدة، فنشأ غموض وإبهام، فلما وقع بصرُّ الشيخ عبد الرحيم (الذي كان أحد أصدقائه) على هذا الموضع، قام بالبحث والتحقيق، فظهر له أنه جمع بين عبارتين مختلفتي المؤدى، فكتب على حاشية المسودة هذه العبارة: «من لم يتتفقه في الدين خلط فيه، هذا خلط، وصوابه كذلك» فقرأ ملا نظام مع عبارة المتن هذه الحاشية كذلك، ولم يتتبه في سرعة قراءته للحقيقة، أما السلطان الفاضل الذي كان يسمع بإصغاء واهتمام، فقد التفت وتقطّن، وقال: ما هذه العبارة؟ فاضطرب ملا نظام بعض الاضطراب،

(۱) ولا يقل ذلك اليوم عن خمسة ملايين رویة.

(۲) انظر: (الثقافة الإسلامية في الهند) للعلامة السيد عبد الحفيظ الحسني رحمة الله، ص ۱۱۱، طبع المجمع العلمي بدمشق.

إذ إنه لم يكن قد طالعه من قبل، ثم تمالك نفسه، وقال: إنني لم أكن قد طالعت هذا الجزء، وسوف أشرح ذلك غداً بتفصيل، فلما جاء منزله، شكى إلى ملا حامد توريطه، وقال: كنت تركت مطالعة هذا الجزء ثقة بك، واعتماداً عليك، وقد افتضحت بسببك لدى السلطان، فلم ينس ملا حامد حينئذ بنت شفة، بل شكى ذلك إلى الشيخ عبد الرحيم، ففتح الشيخ أمامه الكتاب وأراه موضع الغلط، وأن العبارَة نشأ فيها غموضٌ واضطربَ، وكان ذلك مثار الحسد عند بعض الزملاء، حتى اضطرَّ الشيخ عبد الرحيم إلى أن يعتزل هذا العمل بعد الانتظام في سلكه لمدة من الزمن.

أخلاقه وشمائله وعاداته وأوراده:

يقول الإمام الذهلي عنـه: إنه كان مَجْمِعاً للفضائل والصفات الكريمة والأخلاق الحميدة، وقد كان متصفًا بغایة الشجاعة والجرأة، والغيرة والفراسة، وكان له مع (عقل المعاد) والتفكير في الآخرة النصيب الأوفر من (عقل المعاش) والحزن في الشؤون الدنيوية.

وكان يحبُّ التوسط والاعتدال في جميع أحواله وأموره، فلم يكن له في الزهد والعبادة من الإفراط والغلو ما يصل إلى حدود الرهبانية، ولا من الرخصة والسهولة ما يبلغ حدَّ التساهل وقلة الاهتمام، ولم يكن يتكلَّف في اللباس، فما تيسَّر له من اللباس الخشن أو الناعم لبسه من غير كلفة، إلا أنَّ الله - تعالى - هيأ له دائمًا من اللباس ما نعم وطاب، وكان الله - تعالى - يكفيه جميع حاجاته، فكان قليلاً ما يخرجُ إلى السوق لشراء الحاجات، ولا كان يذهب إلى قصور النساء والأغنياء، فقد أغلقَ على نفسه الباب، أما إذا زاره أحدٌ من النساء أو الأثرياء فكان يستقبله طلقَ الوجه، ببشرٍ وطيب خلق، وكان يكرِّم الكريِّم منهم، وإذا طلبَ أحدٌ منهم موعظة، وعظه بلينٍ ورفق، وأدى مسؤولية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وكان يعُظِّم العلم والعلماء، وينفر من الجهل والجهلة، وتتبع - دائمًا وفي كل حال - سنن المصطفى صلوات الله عليه وآله وسلامه.

ومن استقامته والتزامه بالعبادات أنه لم تفتته الجماعة بغير عذرٍ في عمره كله، ولم يَمْلِ طبعه - في صباه كذلك - إلى المحرمات والمنهيّات، ولم يكن يتحاشى البيع والشراء في الأمور الحاجية، ولا يلتزم هيئة العلماء وأدابهم المتكتّفة، ولا ملابس الفقراء والدراويش المطلقة، بل كان يعيش بعيداً عن التصنيع والتتكلف، وكان يكره الاستدانة بغير ضرورة، ويكره من يستدين للتتفّكه ورغد العيش ويعييه، وكان له إدراكٌ وذكاءٌ بالغٌ في علم الطب.

وكان من التزاماته وأوراده اليومية أن يصلّي على النبي ﷺ ألف مرّة، ويهلّل ألف مرّة، بعضها جهراً، وبعضها خفية، ويرددُ اسمَ الله - تعالى - اثني عشر ألف مرّة، وكان بعد وفاة أخيه الشّيخ أبي الرضا محمد، يدرّس في (مشكاة المصايبخ) و(تنبيه الغافلين)، و(غنية الطالبين)، ثم بدأ - أخيراً - إلقاء الدروس في التفسير، وكانت قد فرغ من تفسير الزهراوين (سوريي البقرة وأل عمران) إذ اعتراه الضعف وانقطع هذا الدرس.

حميّة الإسلامية:

لقد كان الشّيخ عبد الرحيم حسب تقليد سلفه وارث والده الشّهيد الشّيخ وجيه الدين يتّصف ببالغ الحميّة الإسلاميّة، ويحمل مشبوب العواطف الجهادية، ومن المعلوم أنّ الجهاد والأخذ بالعزيمة تسلسلا في أسرته جيلاً بعد جيل دون انقطاع، فكان قد ورث الشجاعة والفتواة والغيرة، وإن لم نعثر على حادث اشتراكه في معركةٍ من معاركِ الجهاد، ولكن الواقع المذكور في (أنفاس العارفين) تكفي للدلالة على ما كان يتمتّز به من علوّ همة، وعزيمة، وغيره دينية، وهذا هو التراث الجليل الذي انتقل إلى أعقابه أيضاً.

زواجه وأولاده:

كان زواج الشّيخ عبد الرحيم الأول في حياة والده، وقد ولد له من زوجته الأولى ابنٌ سمّيَ (صلاح الدين) الذي لم يلبث أن مات^(١)؛ وبقيت هذه الزوجة

(١) يستفاد من (القول الجلي) أنّ هذا الأخ العلّاتي للإمام الذهلي المدعو بصلاح الدين =

على قيد الحياة مدةً طويلة، وتوفيت بعد زواج الإمام الدهلوi عام ١١٢٨هـ أو ١١٢٩هـ^(١).

وكان الزواج الثاني في الكبير لبعض البشارات والإشارات الغيبية بكريمة الشيخ محمد الفتى الصديقي، وقد ولد منها ابنان: الإمام الدهلوi، والشيخ أهل الله.

وفاته:

لقد صام الشيخ عبد الرحيم آخر صيام حياته في شهر رمضان حين بلغ (٧٧) عاماً من عمره، ثم مرض في شوال، وانقطع الرجاء في الحياة، ثم عادت إليه الصحة، ثم رجع المرض في أوائل صفر واشتد، وبدت علامات الموت قبل الفجر الصادق، وكان جل اهتمامه - حينذاك - أن لا تفوتَه صلاة الفجر؟، فسأل في هذه الحالة من الضعف: هل أصبحنا؟ هل طلع الفجر؟، فقال الحضور: لا لم يطلع بعدنا فلما دنا الوقت جلداً، اشتدَّ على هؤلاء، وردد عليهم بغضب، وقال: إن كان وقت صلاتكم لم يحن بعد، فقد حان وقت صلاتي، وقال: وجهوني إلى القبلة، ثم صلى يومئذ إيماءً، وقد كان في الطلوع شك، ثم اشتغلَ بحركةٍ شفوية بذكر (اسم الذات) وأسلمَ روحه لبارئها.

وَقَعَ هَذَا الْحَادِثُ يَوْمَ الْأَرْبَعَاءِ (١٢) صَفَرَ عَام ١١٣١هـ، وَكَانَ هَذَا آخِرُ عَهْدِ الْمَلِكِ (فَرِخُ سَيِّر) وَدَامُ (فَرِخُ سَيِّر) بَعْدَ وَفَاتَهُ خَمْسِينَ يَوْمًا فِي الْحَبْسِ، وَوَقَعَ فِي الْمَدِينَةِ اضطِرَابٌ كَبِيرٌ، وَكَانَ عَمْرَهُ عَنْدَ وَفَاتَهُ (٧٧) سَنَةً^(٢).

كان قد بلغ سن الشباب، انظر: القول الجلي المخطوط في مكتبة كاكوري.

(١) يقول الإمام الدهلوi في (الجزء اللطيف في ترجمة العبد الضعيف): إنَّ الَّذِي زَوَّجَنِي وَكُنْتُ فِي سَنِّ (١٤)، وَقَدْ أَسْرَعَ فِي أَمْرِ زَوْاجِي، وَقَالَ لِمَنْ كَانَ يَرِيدُ التَّأْجِيلَ: إِنَّ فِي هَذَا مَصْلِحَةً مَرْعِيَّةً، ثُمَّ وَقَعَتْ بَعْدَ الزَّوْاجِ عَدَدٌ مَصَاصَيْنَ فِي الْأَسْرَةِ، لَوْ كَانَتْ وَقَعَتْ مَصَاصَيْنَ مِنْهَا قَبْلَ الزَّوْاجِ لَتَأْجَلَ الزَّوْاجُ، وَذَكَرَ الْحَادِثَةُ الْأُخْرَيَّةُ مِنْ هَذِهِ الْحَوَادِثِ وَفَاتَةَ وَالدَّةِ أَخِيهِ الْكَبِيرِ صَلَاحِ الدِّينِ (انظر: الجزء اللطيف، ص ٢).

(٢) أنفاس العارفين، ص ٨٣-٨٥.

الشيخ عبد الرحيم في نظر الإمام الذهلي:

رغم أنه لا يوجد أي مؤلف (سوى رسالة واحدة) للشيخ عبد الرحيم يحدد مكانته العلمية، وأن صيته إنما يدين لولده النابغة العظيم، وهو الذي عرف به، وترجمه في كتابه (أنفاس العارفين)، وليس هناك أي كتاب لأحد من تلامذته ومسترishiته في حياته، ولكن مؤلفات الإمام الذهلي، ولا سيما كتابه (أنفاس العارفين) يدل على أن الإمام الذهلي كثير الإعجاب والاقتناع - على بصيرة وهدى - بسمة مكانته وقوته الروحية، وقبوله عند الله تعالى، ومنزلته الرفيعة في العلم والسلوك، مما يكون من تأثير الابن البار بفضائل والده ومآثره، واعترافه بمنته العظيمة، وثنائه عليه.

ويظهر أن الإمام الذهلي على علم اليقين والوجدان الصحيح فيما يتعلق بفضائله وكمالاته الروحية والعلمية، ويستشعر القارئ في ترجمته له بأنه معجب به غاية الإعجاب، يجد اللذة والحلوة في ذكره.

ويبدو أن في تعليم الإمام الذهلي وتراثه وفضائله العلمية والروحية والحصول على المدارج الباطنية، ووصوله إلى درجة الإمامة والاجتهداد في العلم والسلوك حظاً كبيراً، ونصيباً وافراً لقوة تأثير والده، ونسبة الروحية، وشفقته وأدعيته وابتهااته.

الأسر العربية الأصل في الهند وخصائصها وتقاليدها:

تفيد الترجم المختصرة لأجداد الإمام الذهلي وسلفيه (التي قدمنا خلاصتها في الصفحات الماضية) أن هناك ثلاثة خلالٍ مشتركة توارث فيهم بصفة عامة :

١ - صلةٌ عامة بالعلم والدين والتقوى والورع والقضاء والإفتاء^(١)، الذي

(١) وظاهر أن هذا ليس كليّة من الكليات التي لا مجال فيها للاستثناء، بل هي قاعدة أغلبية كعامة البيوتات وأسر الأشراف وأهل الفضل والكمال.

لا يستبعد تسلسله واستمراره على أساس هذه المناسبة، والانسجام السلالي الموروث بالعلم والدين والعزيمة وعلو الهمة (التي كان يغذيها تعليم المربين والمشرفين من أصحاب الأخلاق والعزيمة والهمة العالية، وتربيتهم، والقصص الواقع التي يتناقلها أفراد الأسرة كابرًا عن كابر) وقد حفظ الله تعالى كثيراً من الأسر والبيوتات لأجل مآثر الأسلاف ومكارمهم وصلاحهم وتقواهم، واستخدمها لحفظ على ثروة الدين وتراثه العظيم، كما حفظ جدار التيمين، الذي كان يزيد أن ينقض بيد أحد عباده المخلصين المقبولين، وشيد به بنائه: «وَكَانَ أَبُوهُمَّا صَنِيلِحَا» [الكهف: ٨٢].

ويشهد تاريخ عشرات من الأسر في الهند التي استمرة فيها العلم والدين والقضاء والإفتاء والتدريس والتأليف والدعوة والإرشاد على هذا التسلسل في كثير من الصفات الوراثية، وحفظ الله تعالى لهم، وعناته بهم.

٢ - حفظ الأنساب، وتعهد سلسلة النسب للأسرة، وتربيتها، والحفظ عليها، والاهتمام بالكتفاعة بالمقاييس والحد الذي لم يكن يوجد في البلاد العربية، والبلدان الإسلامية القديمة، ولعل الدافع إلى ذلك كان عاطفة الحفاظ على النسب العربي (الذي حملته هذه الأسر من البلدان العربية) في هذه البلاد الأعجمية، وقد كان للتأثير بالنظام الطبقي في الهند أيضاً تأثير، فقد عرف بالتفاخر بالنسب، والاعتزاز به من قديم الزمان، بالرغم من أن الشريعة لم تكلّف الناس بهذا الاهتمام البالغ والرعاية الدقيقة، وقد نشأ فيه إفراطٌ وغلوٌ في القرون المتأخرة، وفي البلاد الأعجمية، ولكن ينبغي أن يلاحظ - مع كل ذلك - أنّ من نتائج هذا الحفاظ على النسب كان استمرار الخصائص الأسرية فيهم عبر قرون وأجيال، وأنهم لم يذوبوا في مجتمع البلاد غير الإسلامية وحضارتها.

٣ - والصفة الثالثة هي صفة الشجاعة والجلادة والفتواة والفروسية التي هي كذلك من الخصائص السلالية الوراثية للنسل العربي، ولا سيما قبيلة قريش، والتي مررت بنا أمثلتها في وقائع الشيخ معظم، والشيخ وجيه الدين، وقصصهما البطولية، ويشاهد نموذجها الرائع في حياة حفيد الإمام الذهلي نفسه، الشيخ محمد إسماعيل الشهيد.

وهناك عوامل ودافع نفسية وعقلية أخرى لتراث هذه الخصائص وتسلسلها، منها أنَّ الأسرَّ العربيةَ الأصلِّ، التي نزحت إلى الحجاز والعراق وإيران وتركستان والهند في مختلف فترات التاريخ وعهوده، إنما كان العامل الأساسي في هجرة أكثرهم، واستيطانهم الهند إما الحفاظ على دينهم وعقيدتهم، أو حافظة حماية مكانتهم وأعراضهم، فقد كانوا تعرَّضوا للخطر الحملات التترية، وقد حفظت الأجيال بعد الأجيال هذا الغرض الأساسي، ولم يُمحَّ من ذاكرتها، وكانوا يحافظون عليه، ويهتمون به، فبارك الله تعالى لذلك في تدينهم وتقواهم، فقد كانوا مصداق قول الله تعالى: ﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأَخْرَجُوا مِنْ دِيَرِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَيِّلٍ وَقَتَّلُوا وَقُتِّلُوا﴾ [آل عمران: ١٩٥]. أو عاطفة الجهاد في سبيل الله، والدعوة إلى الله، التي كانت الهند لها (في عالم القرن السادس والسابع) مجالاً واسعاً، وميداناً فسيحاً، فكان كثيرون من مناطق هذه البلاد الواسعة الأطراف (التي يصحُّ أن تُدعى شبه القارة) لم تخضع للدولة المسلمين، ولم تدخل في طاعتهم، وكان يحكمها أمراءٌ وحكام وشيوخ، وكانوا - أحياناً - يعرقلون إقامة شعائر الإسلام، وتتنفيذ الأحكام الشرعية، وكان كثيرون منهم يخرجون في فتنٍ وأخرى - ضد الدولة الإسلامية، ويقيِّمُون فتنَ ثورةً، ولم يكن من الميسور وصول الجيش الإسلامي إلى كل مكان، فكان قيامُ هذه الأسر العربية الأصلِّ، الشريفة النجيبة، ذات الطموح والهمة العالية، والراغبة في الجهاد والغزوات، وهؤلاء الأعيان والوجهاء، بفتح هذه المناطق، وتسليمها إلى السلطة المركزية، وإخضاعها لدولة الإسلام، إرواءً لغليل طموحاتهم وعزائمهم، وإشباعاً لعواطفهم الدينية الجهادية، وسيباً من أسباب الجاه والإماراة، فكانوا يقطعون أراضٍ واسعة، ويولون مناصب القضاء والإفتاء والنيابة عن الأمراء، ولذلك تكثر في هذه الأسر العربية - والإيرانية الأصل أيضاً - وقائع فتحهم لمناطق بعيدة شاسعة معجهولة، غير ذات شأنٍ كبيرٍ، لم تكن قد دخلت في الدولة الإسلامية^(١).

(١) ومن أمثلته الأمير الكبير السيد قطب الدين محمد المدنى (م ٦٧٧هـ) الذي هو مؤسس الأسرة القطبية الحسينية في ولاية أوده، والجد الأعلى للإمام أحمد بن عرفان الشهيد، =

كانت هذه الأسر تشعر في نفسها بأنّها لم تأتِ الهند إلا لغرضٍ سامٍ كبيرٍ، وأنّ المنبع الأصيل لدينا وحضارتنا وسعادتنا هو مركز الإسلام ومبهج الوحي جزيرة العرب، بل الحجاز المقدّس، فلا يجوزُ لنا أن ننقطعَ عن أصلنا هذا كلياً، ولا بدّ لنا من الحفاظ (مهما كان الأمر) على خصائصنا وميزاتنا الأسرية والحضارية والخلقية والاجتماعية، وحيثُ نستطيع أن نبقى في هذا الجزء البعيد من العالم، وفي هذه الحضارة والبيئة الأجنبية - التي تحمل في نفسها تلك القوة من الصهر والإذابة، التي أذابت الشعوب والسلالات الوافدة من الخارج، وصبتها وقضت على خصائصها وميزاتها وأحرقتها - أعزّة محفوظين من التأثيرات الخارجية.

وقد أنتج فيهم هذا الشعور غيرةً دينية وسلالية، وقوة مقاومة خارقة ضد كل التأثيرات الخارجية، استطاعت أن تبقى على شخصيتهم المميزة إلى حدّ كبير، وأن تنقل خصائصها عبر القرون إلى الأجيال بعد الأجيال.

وقد جاءت هذه الحقيقة واضحةً جليةً في وصيّة من وصايا الإمام الدهلوi، التي كتبها باسم (المرأة الوضيّة في النصيحة والوصيّة) التي خطّب فيها أو لاً أسرته وعشيرته الأقربين، ثم سائر أصحابه، والأمة الإسلامية الهندية كلها، يقول الإمام الدهلوi :

«إنه لا ينبغي لنا أن ننسى أننا غرباء في هذه البلاد، لقد هاجر آباؤنا إلى الهند، وأنّ عريبةً نسبنا ولغتنا مفخرتان لنا عظيمتان، فهما تقرّيانا من سيد الأولين والآخرين وأفضل الأنبياء والمرسلين، ومفخرة الكون والخلق أجمعين : محمد عليه الصلاة والتسليم، وإنّ من واجب الشكر على هذه النعمة الجليلة، أن لا تنقطع صلتنا - كلياً - بعادات أولئك العرب الأولين وتقاليدهم، الذين نشأوا فيهم

قدم من طريق غزنة مع جماعة من أقربائه والأشراف وأعيان غزنة ووجهائها ومجاهديها =
في أوائل القرن السابع إلى دهلي ، ثم توجّه من دهلي إلى الشرق ، وحمل أولاً على مدينة
(فتح) ثم على (مانك بور) و(كره) (التي كانت مركزاً لحكومة مستقلة في ذلك العصر)
وفتح هذه المناطق كلّها وضمّها إلى دولة المسلمين (انظر سيرة سيد أحمد شهيد):
. ٧٩ / ١

رسول الله ﷺ، ولا ندع تقاليد العجم وعادات أهل الهند الوثنين وطقوسهم تنتشر وتشيع فينا».

ثم يقول: «إن السعيدَ مِنْ لَهُ مَشَارِكَةً فِي الْلُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ، وَإِلَمَامٌ بِالصِّرَافِ وَالنَّحْوِ وَالْأَدْبِ، وَاطْلَاعٌ عَلَى الْقُرْآنِ وَالْحَدِيثِ، وَيُلَزِّمُنَا أَنْ نَتَشَرَّفَ بِزِيَارَةِ الْحَرَمَيْنِ الشَّرِيفَيْنِ - بَيْنَ فِيتَةٍ وَآخَرِيْ - وَتَكُونُ لَنَا بِهَا صَلَةٌ قَلِيلَةٌ، فَفِي ذَلِكَ سُرُّ سَعَادَتِنَا، وَفِي الإِعْرَاضِ عَنْهُ سُرُّ شَقَائِنَا وَحَرْمَانَنَا»^(١).

وقد كانت هذه الأسرة - علاوة على أنها كانت عربية الأصل - جليلة النسب، حاذقة على شرف الانساب إلى سيدنا عمر الفاروق رضي الله عنه.

وقد وفق الله تعالى الأسر العمورية الفاروقية في الهند، - مراراً وتكراراً - للمآثر التجديدية العظيمة من الحفاظ على الدين، وإعلاء شعائر الإسلام، ومقاومة الحركات المعادية للإسلام، التي كانت تتطوّي فيها الغيرة الفاروقية، ولعلَّ الصلة النسبية والروحية بسيدنا عمر الفاروق رضي الله عنه أيضاً كانت تدفع إليها، وهي من أكبر الدوافع النفسية وأقواها، فقد قاوم أحد أفراد هذه السلالة في القرن العاشر فتنة الملك أكبر، واجتث - بحول الله تعالى - جرثومتها، وحفظ - بإذن الله تعالى - الهند من تعرّضها لمؤامرة خطيرة من فتنة وحدة الأديان، وداعاوي (العهد الجديد)، و(القانون الجديد)، و(الألف الجديدة)، و(الإمامية الجديدة)، والكفر والإلحاد^(٢)، وكان الشيخ أحمد السرهندي يعتز بهذه النسبة، ويرى هذه الحمية الدينية نتيجة طبيعية لها، وإنحدى مقتضياتها، وقد صدرت من قلمه على سماع بعض التحقيقات المخالفة للعقائد الإسلامية وسلك جمهور أهل السنة والجماعة منسوبة إلىشيخ وعارف شهير، هذه الكلمات القوية:

«يا سيدِي! إِنَّ هَذَا الْفَقِيرَ لَا يُسْتَطِعُ أَنْ يَصْبِرَ عَلَى هَذِهِ الْأَقْوَالِ، إِنَّهُ يَنْبَضُ

(١) المرأة الوصية في النصيحة والوصية (بالفارسية)، طبع عام ١٢٦٧هـ.

(٢) انظر للتفصيل: رجال الفكر والدعوة: ٣/٥٤ - ٦٣ - ٩٨ و ٣/١٠٢.

في عرقى الفاروقى»^(١).

وكذلك لما سمع أن خطيب الجمعة في قرية (سامانه) ترك ذكر الخلفاء الراشدين عمداً في خطبته، قال:

«لما أورث هذا الخبر الموحش المقلق اضطراباً في نفسي، وحرك عرقى الفاروقى وأثاره، صدرت من قلبي هذه الكلمات المعدودة»^(٢).

ومن المقطوع به أن يكون لهذه النسبة والنسب والشعور بشرفه ومسؤوليته تأثيراً ودخولاً في ذلك العمل الضخم المتنوع الواسع، الذي قام به الإمام الدهلوى لتجديد الدين وإحيائه، والذي اشتمل على إصلاح العقائد، والرد على الإشكال والبدع، ونشر الكتاب والسنّة، وترويج الحديث الشريف، والرد على الرفض والتسيّع، وإثبات خلافة الخلفاء الراشدين، وغير ذلك، وهو أمر يتفق وعلم النفس وعلم الحياة، والتجارب والأصول النسلية - التي توجد أمثلتها والشوادر عليها في تاريخ الأسر والأجيال بكثرة - ويعيده العقل والقياس، وقد جاء في الحديث الصحيح:

«الناسُ معاِدُنَ كمَعَادِنِ الْذَّهَبِ وَالْفَضَّةِ، خَيَارُهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خَيَارُهُمْ فِي الْإِسْلَامِ إِذَا فَقَهُوا»^(٣).

* * *

(١) الرسالة رقم ١٠٠، وهي موجهة إلى الشيخ حسن الكشميري.

(٢) الرسالة رقم ١٥، الجزء السادس، المجلد الثاني.

(٣) رواه مسلم رقم (٢٦٣٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الفصل الثاني

حيات الإمام الذهلي يايجار^(١)

ولادته:

ولد الإمام الذهلي صباح يوم الأربعاء عند طلوع الشمس في ٤ شوال عام ١١٤ هـ عند أخواله بقرية (فلت) في مديرية (مظفر نكر) وأرخت ولادته بـ(عظيم الدين)^(٢).

وقد كان والده الشيخ عبد الرحيم عند ولادته في الستين من عمره، وقد سبقت ولادة هذا الابن المبارك كثيرة من المبشرات، ولما كان الشيخ عبد الرحيم أراد أن يتزوج زوجاً ثانياً، وكان قد بلغ الستين، وزوجته الأولى والدة الشيخ صلاح الدين في عصمتها، كان في هذه الإرادة دخل للإشارات الغيبية والبشارات الكثيرة.

ولما علم بذلك الشيخ محمد الفتلي قرر أن ينكحه ابنته^(٣)، وتم هذا الزواج السعيد في أوائل عام ١١٤ هـ.

(١) لقد تُقللت إلينا - من حُسن الحظ - ترجمة الإمام الذهلي، وما قرأ من مقررات دراسية وشيء من منهج والده في التربية والتعليم، وبيعته وإجازته، ورحلته إلى الحجاز، واستفاداته من مشايخه، والتعرّيف بهم وترجمتهم، وأهم وقائع حياتهم بقلم الإمام الذهلي نفسه؛ فهناك مصدران أساسيان لهذه المواد والمعلومات، أولهما: (الجزء اللطيف)، والثاني: (إنسان العين في مشايخ الحرمين)، وقد اقتبسنا ما يتعلّق بحياة الإمام الذهلي من هذين الكتابين، واستندنا في بعض المواضع من (أنفاس العارفين) و(القول الجلي).

(٢) الجزء اللطيف، ص ٢، طبع لاهور.

(٣) أنفاس العارفين، ص ٦٢ - ٦٣.

ويفيد (القول الجلي) أنَّ اسْمَ هَذِهِ الْزَوْجَةِ كَانَ (فَخْرُ النِّسَاءِ)، وَكَانَتْ تَمْتَازُ بِبِرَاعَةٍ فَائِتَةٍ فِي الْعِلُومِ الديِنِيَّةِ، قَلَّمَا يَتِيسِرُ مِثْلُهَا لِلنِّسَاءِ، يَقُولُ مُؤْلِفُ هَذَا الْكِتَابِ الشِّيْخُ مُحَمَّدُ عَاشُقُ الْفَلَتِيُّ الَّذِي كَانَ ابْنُ أَخِيهَا الشَّقِيقُ، وَصَاحِبُ الْبَيْتِ أَدْرِى بِمَا فِيهِ :

«كَانَتْ أُمُّهُ الْكَرِيمَةُ عَالَمَةً بِالْعِلُومِ الْشَّرِعِيَّةِ كَالْتَفَسِيرِ وَالْحَدِيثِ، مَتَّحِلَّةً بِآدَابِ الطَّرِيقَةِ، عَارِفَةً بِأَسْرَارِ الْحَقِيقَةِ، وَكَانَتْ لِجَمِيعِهَا هَذِهِ الْفَضَائِلُ مَفْخُرَةً لِلنِّسَاءِ وَاسْمًا عَلَى مَسْمَاهُ».

وَقَدْ رَأَى الشِّيْخُ عَبْدُ الرَّحِيمِ قَبْلَ وَلَادَةِ ابْنِهِ وَلِيِّ اللَّهِ، الشِّيْخُ خَواجَهُ قَطْبُ الدِّينِ بِخَتِيَّارِ الْكَعْكِيِّ فِيمَا يَرَاهُ النَّائِمُ، فَبَشَّرَهُ بِالْوَلَدِ، وَقَالَ: اجْعَلْ اسْمَهُ عَلَى اسْمِيِّ (قَطْبِ الدِّينِ أَحْمَدَ) يَقُولُ الدَّهْلُوِيُّ: لَمَا وُلِدْتُ كَانَ الْوَالَدُ قَدْ نَسِيَ هَذَا الْمَنَامُ، وَسَمَانِي وَلِيِّ اللَّهِ، ثُمَّ تَذَكَّرَ بَعْدِ بَرْهَةٍ، فَسَمَانِي ثَانِيَاً قَطْبَ الدِّينِ أَحْمَدَ.

كَانَ الْإِمَامُ الدَّهْلُوِيُّ فِي السَّابِعَةِ مِنْ عُمْرِهِ إِذْ شَارَكَ وَالَّذِيْهِ فِي قِيَامِ اللَّيلِ وَوَضَعَ يَدِيهِ عَنْدَ الدُّعَاءِ فِي أَيْدِيهِمَا، وَهَكُذَا جَاءَ تَأْوِيلُ تِلْكَ الرُّؤْيَا الَّتِي كَانَ رَأَاهَا وَالَّدُهُ قَبْلَ وَلَادَتِهِ^(١).

دراسته:

وَلَمَّا بَلَغَ الْإِمَامَ الدَّهْلُوِيَّ الْخَامِسَةَ مِنْ عُمْرِهِ أَدْخَلَ الْكِتَابَ^(٢)، وَاخْتَيَّنَ فِي السَّابِعَةِ مِنْ عُمْرِهِ، وَعُوْدَ مِنْ هَذِهِ السِّنِّ عَلَى الصَّلَاةِ، وَفَرَغَ فِي أَوَانِخِ هَذِهِ السَّنَةِ مِنْ حَفْظِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، وَيَدِأُ قِرَاءَةَ الْكِتَابِ الْفَارَسِيَّةِ وَالْكِتَابِ الْابْتَدَائِيَّةِ الْمُخْتَصَّةِ فِي الْعَرَبِيَّةِ^(٣)، وَفَرَغَ مِنْ (الْكَافِيَّةِ) وَيَدِأُ قِرَاءَةَ (شَرْحِ الْجَامِيِّ لِلْكَافِيَّةِ) وَهُوَ ابْنُ عَشَرَ سَنَوَاتٍ، يَقُولُ: «وَحَصِّلْ لِي اسْتِعْدَادَ لِلْمَطَالِعَةِ فِي الْجَمْلَةِ»^(٤).

(١) أنفاس العارفين، ص ٦٣ .

(٢) الجزء اللطيف، ص ٢ .

(٣) المصدر السابق نفسه.

(٤) المصدر السابق نفسه.

ولما كان في السنة الرابعة عشرة من عمره قرأ شيئاً من البيضاوي، وفرغ من العلوم المتداولة في هذه البلاد وهو في الخامسة عشرة من عمره، يقول: وعقدَ سيدِي الوالد بهذه المناسبة السارة مأدبة فخمة للخاص والعام، وأطعم طعاماً (١).^١

ويقول (وهو في الخامسة عشرة من عمره): وسمعت من سيدِي الوالد بقراءة بعض أصحابي (المشكاة) إلا طرفاً يسيراً، أعني من كتاب البيوع إلى الآداب، ولكنني تداركتُ ما فاتني بالإجازة، وقرأتُ من (صحيح البخاري) إلى كتاب الطهارة تقريرياً و(الشمائل) للترمذى كله.

وقرأت في التفسير طرفاً من (المدارك)^(٢) و(البيضاوي)^(٣) ويقول: «ومن منن الله العظمى علىَّ أني حضرتُ مراراً عندَ والدي دراسة معانى القرآن والبحث عن أسباب التزول والنظر في التفاسير، فكان هذا سبب فتح أبواب معانى القرآن العظيم والحمد لله»^(٤).

المقررات التي درسها الإمام الذهلي:

لقد ذكر الإمام الذهلي في (الجزء اللطيف) تلك المقررات الدراسية التي درسها بتفصيل، وهي كما يلي:

يقول: «وقرأت من الفقه (شرح الوقاية) و(الهداية) إلا طرفاً منها، ومن أصول الفقه (الحسامي)، وطرفاً صالحَا من (التوضيح والتلويع)، ومن المنطق (شرح الشمسية) كله، وقططاً من (شرح المطالع)، ومن الكلام (شرح العقائد) كله، مع جملة من حاشية الخيالي، وشيئاً من (شرح المواقف)، ومن السلوك قطعة من (العوارف)، وبعضاً من (الرسائل النقشبندية) وغيرها. ومن الحقائق

(١) الجزء اللطيف، ص ٢.

(٢) تفسير النسفي.

(٣) الجزء اللطيف، ص ٢.

(٤) المصدر السابق نفسه.

(شرع الرباعيات) لمولانا الجامي و(اللوائح) و(مقدمة شرح اللمعات) ومقدمة (نقد النصوص)، ومن خواص الأسماء والآيات (المجموع الخاص للذاته)، و(الفوائد المثلة) وغيرها، وأجازني بها مرة بعد أخرى.

ومن الطب (الموجز)، ومن الحكمة (شرح هداية الحكمة) وغيرها، ومن النحو (الكافية) وشرحه للجامي، ومن المعاني (المطول) أكثره و(المختصر) قدر ما عليه حاشية لملازاده، وبعض الرسائل المختصرة من الهندسة والحساب.

لقد كان في هذه المقررات التي درسها الإمام الدهلوi دخل ما لا يجتهد والده وأستاذه الأول الحقيقى الشيخ عبد الرحيم، واختياره وانتقاده، فإن المقررات الدراسية التي كانت متداولة في القرن السابع الهجرى في الهند، والتي أضيف إليها في القرن التاسع الهجرى بعد مقدم الشيخ عبد الله والشيخ عزيز الله من (ملتان) إلى (دلهى) ويقيت مستمرة سائرة في الأوساط الدراسية إلى القرن الثاني عشر الهجرى عدد من الكتب في علم الكلام والبلاغة والمعقولات، ثم أدخلت فيها في القرن العاشر بعد مقدم الأمير فتح الله الشيرازي إلى الهند مؤلفات العلماء الإيرانيين المتأخرین كالمحقق الدوانی، والمیر صدر الدین الشیرازی، والمیر غیاث الدین منصور، ومیر زاجان.

ولعلّ الشيخ عبد الرحيم لواقعيته واعتماده على ذكاء ابنه حذف منها عدداً من الكتب (التي كانت تشتمل على مواضيع ومعلومات متكررة) فقد درّسه في النحو - على سبيل المثال - (الكافية) و(شرح الجامي) مكان (المصباح) و(الب الألباب) تأليف القاضي ناصر الدين البيضاوي، و(الإرشاد) تأليف القاضي شهاب الدين الدولة آبادي، وفي أصول الفقه طرفاً صالحًا من (الحسامي) و(التوضيح والتلويح)، بدل (المنار) وشروحه، و(أصول البزدوي)، وحذف (الكشف) في التفسير، كما لا يوجد (مشارق الأنوار) في مقررات الحديث.

وقد كان لمقامات الحريري في الأدب رواجٌ وسيادةً، حتى يذكر أنَّ بعض المشايخ كانوا يحفظونها عن ظهر قلوبهم، ولكننا لا نجدها في المقررات الدراسية عند الإمام الدهلوi، ومن الممكن أنَّ كثيراً من هذه الكتب أصبحت

مهجورة في كثير من الأوساط الدراسية إلى أوائل القرن الثاني عشر.

ول يكن معلوماً أنه في القرن الثاني عشر الهجري نفسه كان أستاذ العلماء ملا نظام الدين السهالوي الفرنكي محلـي (الذـي كان معاصرـاً للإمام الـدهلـوي) وأكـبر منه سنـاً، والـذـي تـوفـي قبل وفـاة الإمام الـدهـلـوي بـ(١٥) سـنة عـام (١١٦١هـ). قد زـاد زـيـادات كـثـيرـة عـلـى هـذـه المـقـرـرات الـدـارـسـية، لـا سيـما فـي عـلـم الـصـرـف وـالـنـحـو وـالـمـنـطـق وـالـفـلـسـفـة وـالـرـياـضـيـات وـالـبـلـاغـة وـعـلـم الـكـلـام، فـقد أـضـاف إـلـيـها كـثـيرـاً مـنـ الكـتـبـ، وـالـتـي ظـهـرـت بـعـد زـيـادات وـإـضـافـات أـخـرى (وـهـي التـي تـمـت فـي عـهـد تـلـامـذـه وـتـلـامـذـة تـلـامـذـه دون تصـمـيم وـتـخـطـيط) فـي صـورـة الـمـنهـج الـنـظـامـي أو المـقـرـرات الـدـرـاسـية الـنـظـامـية، التـي لا تـرـازـل سـائـدة فـي الـمـدـارـس الـقـدـيمـة أو الـقـائـمة عـلـى الـطـرـازـ الـقـدـيـمـ (١).

ولا نـجـد ضـمـنـ المـقـرـراتـ التـي ذـكـرـهـا الإـلـامـ الـدـهـلـويـ أـيـ كـتـابـ فـي الـأـدـبـ الـعـرـبـيـ، معـ أـنـ مـؤـلـفـاتـ الإـلـامـ الـدـهـلـويـ، لـا سيـما (حـجـةـ اللهـ الـبـالـغـةـ) تـشـهـدـ عـلـى أـنـهـ لـيـسـ قـادـرـاـ عـلـىـ اللـغـةـ الـعـرـبـيـةـ وـالـتـحـرـيرـ وـالـإـنشـاءـ فـحـسـبـ، بلـ إـذـا نـظـرـنـا إـلـىـ كـتـابـهـ (حـجـةـ اللهـ الـبـالـغـةـ) فـهـوـ مـؤـسـسـ عـلـىـ طـرـازـ وـأـسـلـوبـ جـدـيدـ هوـ أـلـيـقـ مـا يـكـونـ بـشـرـحـ الـمـوـضـوـعـاتـ وـالـمـطـالـبـ الـعـلـمـيـةـ وـتـحـرـيرـهـاـ، وـلـاـنـجـدـ لـهـ فـيـهـ بـعـدـ الـعـلـامـةـ اـبـنـ خـلـدونـ نـظـيرـاـ وـلـاـ قـرـيـباـ.

ويـيدـوـ أـنـ الإـلـامـ الـدـهـلـويـ كـانـ قـدـ طـالـعـ بـنـفـسـهـ كـتـبـ الـأـدـبـ الـعـرـبـيـ، وـكـتبـ الـشـرـقـ وـالـنـظـمـ الـقـدـيمـ ذاتـ الـمـسـتـوىـ الرـفـيعـ، التـيـ كـانـتـ مـثـالـاـ لـسـلـامـةـ الـبـيـانـ، وـحـلـاوـةـ الـعـبـارـاتـ، وـكـانـتـ مـصـبـونـةـ مـنـ التـأـثـيرـاتـ الـأـعـجمـيـةـ، وـأـنـهـ قـدـ أـعـدـ نـفـسـهـ أـثـنـاءـ أـقـامـتـهـ بـالـحـجـاجـ لـذـلـكـ الـعـلـمـ الـتـالـيـفـيـ الـعـظـيمـ فـيـ الـلـغـةـ الـعـرـبـيـةـ - بـصـفـةـ خـاصـةـ - الـذـيـ كـانـ قـدـ اـخـتـصـ بـهـ التـدـبـيرـ الـإـلـهـيـ (٢).

(١) انظر للاطلاع على التطورات الحادثة في المقررات الدراسية في الهند، والتغير في مقاييس النضـلـ وـالـبـيـوـغـ فيـ مـخـتـلـفـ الـعـهـودـ، وـزـيـادةـ عـدـدـ الشـرـوحـ وـالـحـواـشـيـ لـكـتـابـ واحدـ فيـ المـقـرـراتـ وـعـوـاـمـلـهـ وـأـسـبـابـهـ، كـتـابـ (الـثـقاـفةـ الـإـسـلـامـيـةـ فـيـ الـهـنـدـ) لـلـعـلـامـ عـبـدـ الـحـيـ الـحـسـنـيـ، طـبـ المـجـمـعـ الـعـلـمـيـ الـعـرـبـيـ بـدـمـشـقـ.

(٢) يقول مؤلف (اليانع الجني): «وقد أقام بالحجاج ستين وزاحم العرب، وسمع من أهل=

وإذا كان لم يهمل ذكر (مقامات الحريري) سهواً ونسيناً فكان عدم إدخالها في مقرراته الدراسية خيراً له ومفيلاً بدلاً من أن ينقصه ويضره، فإنَّ أكثر المتأخرین من صرعي هذا الكتاب، الذين قيدوا أنفسهم بالعبارات المسجعة، والجمل المقفأة، حتى لم يعودوا قادرين على أداء المطالب العالية، والتعبير عما في نفوسهم بعبارة سهلة سلسة غير متكلفة.

وكلَّ من جاء بعد الحريري وألْفَ في موضوع من الموضوعات ألفَ بقلم الحريري الذي كان قد بلي ومضى عليه الدهر، حتى لا نجدُ الرسائل والمكاتبات، وتقريرات الكتب والمقدمات إلى عبارات الفتوى الطويلة حرفة طلقة من هذا التأثير للحريري .

يقول الإمام الذهلي: وكان يخطر بيالي في أيام الطلب المطالب العالية تزداد بالجد والاجتهد .. وبعد وفاة (سيدي الوالد) واظبَتْ على تدريس الكتب الدينية والعلوم العقلية نحوًا من اثنتي عشرة سنة، ووقع الخوضُ في كلِّ علم^(١).

تربيَة الوالد وعطفه وإجازته واستخلافه:

يقول الإمام الذهلي: «كان والدي يعطف على الفقير، ويراعي حقوق البنوة بكل لطف ودقة، لا يعدله عطفُ أيِّ أب على ابنه، ولا ضمة أيِّ أستاذٍ بتلميذه، ولا رأفة أيِّ مرشدٍ بمربيده»^(٢).

وكان منهج الشيخ عبد الرحيم في التربية منهجاً تربوياً حكيمًا، يقول الإمام الذهلي: «خرجت ذات مرة - في صغرِي - مع جماعة من أصدقائي وأقربائي إلى بستان، فلما عدتُ من هناك، قال لي والدي: ولِي الله ما الذي أحرزْتَه في هذا اليوم والليلة مما يبقى؟ أما أنا فقد صلَّيْتُ على النبي ﷺ كذا مرة».

= البادية، وهم يومناً أحسنُ حالاً منهم في زماننا»، ص ٨٣.

(١) الجزء الطيف، ص ٣.

(٢) المصدر السابق.

يقول الإمام الذهلي : «لقد انصرف قلبي عند سماع هذا كلياً عن زيارة
البساتين ، والتفرج فيها ، ثم لم تعدلني رغبة إليها»^(١) .

ويقول : «كان والدي يعلماني - كثيراً - الحكمة العلمية ، وآداب المجالس
والمحافل ، وكثيراً من أمور الحكمة والأدب ومكارم الأخلاق ، وكان كثيراً
ما ينشد هذا البيت الفارسي الذي معناه :

راحه العالمين (عالم الدنيا وعالم الآخرة) تفسير لهاتين اللفظتين :
الملاطفة مع الأصدقاء ، والمداراة مع الأعداء»^(٢) .

ويقول : «وكان ينصحني بأن أبدأ - دائمًا - من هم أقل شأناً ومرتبةً بالسلام ،
وأن أبشن في وجوههم ، وأستقبلهم ببشر ، وتعهدهم ، وأنفق أحوالهم ، ولا أرى
ذلك أمراً هيناً أو شيئاً تافهاً ، يقول أحد شعراء الفارسية ما معناه :

تستطيع بأدنى لحظتك أن تشتري مئات مملكة القلوب ، ولكن أصحاب
الحسن والجمال يقترون في هذا ولا يبالون» .

وكان يقول : «إن بعض الناس يلتزمون لباساً خاصاً ، أو يتقيدون بعادة
خاصة ، أو يتعودون على كلمة يكررونها ، أو يكرهون بعض الأطعمة إلى حد
أنهم يعافون ذكره ، ويغضبون عند سماع اسمه ، فينبغي الاحتراز من هذه الأشياء
كلها ، ولا يكون الغرضُ من تحقيق بعض مطالب النفس أو رغباتها محض الحصول
على المتعة واللهة ، بل ينبغي أن يكون الغرضُ تحقيقاً مطلباً ، أو قضاء حاجة من
ال حاجات ، أو الحصول على فضيلة من الفضائل ، أو أداء سنة من السنن ، ولا يظهر
منك الكسل أو الضعف في المشي والسير والقيام والقعود ، وفي أي شيء .

وكان الشيخ عبد الرحيم - حسب تصريح الإمام الذهلي - متصف بصفات
الرجولة والشهامة من شجاعة وفراسته وحسن إدارة وغيرها ، وكان يملك (عقل
المعاش) كاملاً موفوراً كـ(عقل المعاد) ، وكان يحب التوسط في كل شيء ، وقد

(١) أنفاس العارفين ، ص ٦٣ .

(٢) المصدر السابق .

كانت سيرةُ الإمام الدهلوi وأخلاقه صورة من سيرة والده وأخلاقه^(١).

يقول الإمام الدهلوi (وكان في الرابعة عشرة من عمره): «ثم بايعتْ سيدي الوالد، ثم اشتغلتْ بآداب الصوفية سِيما المشايخ النقشبندية، وحصلت التوجة والتلقين وطرفاً صالحَا من تعليم آداب الطريقة، وألبستُ الخرقَة، ثم حين بلغت السابعة عشرة من عمري، مرض سيدي الوالد، وانتقلَ إلى جوار رحمة الله تعالى، وفي المرض الذي مات فيه أجازني للبيعة والإرشاد، وكرر (يده كيدي)^(٢)».

زواجه الأول:

يقول الإمام الدهلوi: «وفي السنة الرابعة عشرة تزوجتُ (وكان زواجه هذا بيَّنت خاله الشيخ عبد الله الصديقي الفلتي) وأسرع فضيلَةُ الوالد في التزويج، حتى إنَّه لما اعتذر أصهاري عن تحمل أعباء هذا الأمر، واستمهله، كتب إليهم سيدي الوالد: إنَّ في هذا التعليل سراً، ثم أثبتت الواقع والفجائع المتتالية فيما بعد أن التزويج إن لم يكن في ذلك الحين، لم يكن إلى سنين»^(٣).

وقد ولد له من هذه الزوجة ابنه الأكبر الشيخ محمد، الذي تخرجَ عليه، وألف الإمام الدهلوi له رسالةً ابتدائية، وكان هو من الحاضرين مع الشيخ عبد العزيز في درس (شمائل الترمذi) وقارئه^(٤).

وانتقل بعد وفاة الإمام الدهلوi إلى قرية (بدهانة) ولبث فيها إلى أن توفي عام ١٢٠٨ هـ، ودفن في قناء الجامع بالقرية^(٥)، وكان الإمام الدهلوi يكتَّب به (أبا محمد)^(٦).

(١) أنفاس العارفين، ص ٨٣.

(٢) الجزء اللطيف، ص ٢.

(٣) يقول الإمام الدهلوi: إنه قد ماتت أم زوجتي بعد أيام، ثم بعد قليل توفيت جدتها من قبل الأم، ثم مات الشيخ فخر العالم بن فضيلة عمي الشيخ أبي الرضا محمد قدس سره، ثم ماتت أم أخي الكبير الشيخ صلاح الدين.

(٤) نزهة الخواطر، ص ٦.

(٥) المصدر السابق.

(٦) الإرشاد في مهمات الإسناد.

ويرد ذكر ابنين للشيخ محمد دُفنا إلى جانبيه في كتاب (مقالات طريقت)، ولكن الكتب الأخرى تصفه بأنه لا عقب له، وقد وجّه الشيخ عبد العزيز في ثلاثٍ من رسائله إلى الشيخ أبي سعيد الحسني الرائي ببريلوي تحيات أخيه الأكبر الشيخ محمد بن ولی الله وتسلیماته إليه، ووصفه في رسالة: (الأخ الأكبر الشيخ محمد) وفي أخرى: (الشيخ الكبير محمد)، ويقدر من هذه الرسائل ما كان بين الأخوة من حُبٍّ ومودة^(۱).

الزواج الثاني:

لقد تَم زواج الإمام الدهلوi الثاني بكرية السيد ثناء الله السوسي بنتي المسمة (السيدة إرادت) بعد وفاة زوجته الأولى، وكان السيد ثناء الله من سكان (سوسي) بـ(ـ) ومن أعقاب السيد ناصر الدين السوسي بـ(ـ) الشهيد.

وقد ولد للإمام الدهلوi من هذه الزوجة الكريمة أبناءه الأربعة المعروفون (الشيخ عبد العزيز، الشيخ رفع الدين، الشيخ عبد القادر، والشيخ عبد الغني) الذين هم الأركان الأربعة للنهضة الدينية العظيمة في الهند، رحمهم الله تعالى. كما ولدت له كذلك بنت سميت (أمة العزيز)، وكان زواجها بالشيخ محمد فائق بن الشيخ محمد عاشق الفلتي، وكان لها أولاد، تناследوا وتعاقبوا.

رحلته للحج:

إن رحلة الإمام الدهلوi إلى الحجاز، وإقامته به تتحلل في حياته العلمية والفكريّة والدعوية والتّجدديّة مكانةً تاريخيةً كبيرةً، وتعتبر باباً جديداً، وخطاً فاصلاً بين عهدين.

إن ملكاته العلمية والعقلية في أثناء هذه الإقامة الطويلة التي تمتد إلى أكثر من عام، قد تدرجت في مدارج الرقي التي لم تكن لتتيسّر له - في ظاهر الحال - لو

(۱) مكتوب المعارف (مخطوط)، ص ۱۶-۱۸.

يقي في الهند، وكان لا بدًّا لذلك من مكان مركزي عالمي كالحرمين الشريفين، ففي هذه الرحلة كانت دراسته الواسعة العميقه لعلم الحديث الشريف، وأكمل هذا الفن على أيدي الأساتذة الكبار والشيوخ الكاملين، الذين كانوا قد اجتمعوا هناك من مختلف الأقطار والأمصار، وذلك ما يحتل مكان (حجر الزاوية) في إيوان إصلاحه وتجديده العظيم، والذي قد وصل به إلى تلك المترفة من التحقيق والاجتهداد التي قلَّ منْ يصل إليها في هذه القرون المتأخرة.

وأما اكتناهه لأسرار الشريعة ومقاصدها وغاياتها وتطبيقه بين الفقه والحديث فلم يصل إليها أحدمنذ عدة قرون.

كان الإمام الذهلي عند رحلته للحج في الثلاثين من عمره^(١)، وقد كانت هذه الرحلة دليلاً ساطعاً على علوّ همة، وحبه للعلم، وصلته القلبية القوية بالحرمين الشريفين، نظراً إلى أوضاع ذلك العهد السياسية، وحالة الأمان المضطربة في الطرق، وسيطرة بعض القوى الأجنبية، والأخطار البرية والبحرية، والقرصنة وقطع الطريق.

كما يدل ذلك على حميته الإسلامية، وبعد نظره، وسمو فكره، إذ إنه لم يكن منحصراً في مهمة الحفاظ على الدين في الهند؛ وتقدم الأمة الإسلامية الهندية؛ وازدهارها واستقلالها في دراسة أوضاع الهند، والاطلاع على ظروفها وأحوالها فحسب، والتفكير في علاجها وإصلاحها، بل إنه كان يريد أن يستفيد تطبيقاً لهذه الإشارة القرآنية البليغة: ﴿لِيَشَهَدُوا مَنْفَعًا لَّهُم﴾ [الحج: ٢٨]، من قلب العالم الإسلامي ومركته، ومن علوم الوفدين من أقطار الأرض وأرجاء

(١) يستفاد من (القول الجلي)، أنَّ الإمام الذهلي قبل هذه الرحلة للحج التي وُفقَ فيها كان قد عزم فجأة على السفر للحج، والهجرة إلى الحرمين الشريفين حين كان عمره عشرين سنة، وخرج من الوطن خفية دون زاد ورحلة، فلما وصل إلى المرفأ علم أنَّ السفن تحركت ولم تبق أي سفينة، فاضطر للإقامة في مدينة (كهبايت) ثم غلبت عليه في إحدى مراقباته وخلواته كيفية صرفه عن هذه الإرادة، فمال طبعه عن السفر، وعزم على الرجوع، وكانت في ذلك إشارة من حضرة النبي ﷺ أيضاً.

المعמורה من وفود الإسلام وضيوف الرحمن ومعارفهم، وعقولهم وأذهانهم، وأفكارهم وأرائهم، وجهودهم وتجاربهم.

وقد كانت (سورة) - حينذاك - ميناء الهند، وباب مكة المشرفة، وكانت المناطق الواقعة في الطريق لا سيما مناطق (مالوه) و(كجرات) معرضة لغارات (المرهته) وحملاتهم، وعمليات سلبهم ونهبهم، وكان من العسير الشاق قطع هذا الطريق من شمال الهند إلى جنوبه بالمراكب القديمة، وعجلات الإبل والثيران^(١).

وكانت جميع سواحل بحر الهند والبحر الأحمر مهددة بهجمات القرابنة البرتغاليين والهولنديين وحملات الفرنسيين والإنجليز المستعمررين، ويمكن أن تقرأ تفاصيل مصائب الحجاج وحوادثهم والأخطار التي كانت تُحدِّق بسفر الحج في مذكرات الرحالة لذلك العهد (التي لم يرتب منها ولم يحفظ إلا القليل) وقد كان هذا الحال في الهند نفسها فإذا تركَ شخص وحده في الليل في قرية أو عمرانٍ كان يخشى عليه، ويذَّهَّب الإمام الذهلي نفسه متضرعاً: يا بديع العجائب، يا بديع العجائب، (وكان ذلك ورداً يقرأ عند غياب شخص والخوف عليه).

وصل الإمام الذهلي من (سورة) إلى (جدة) في ٤٥ يوماً، ودخل مكة المكرمة يوم ١٥ من ذي القعدة، وبدأ العلماء والطلاب يطلبون درسه في المسجد الحرام عند المصلى الحنفي، الذي كثر فيه الناس، وتهافتوا عليه^(٢).

يقول الإمام الذهلي في (الجزء اللطيف): في سنة ١١٤٣هـ ثُقِّت إلى زيارة الحرمين الشريفين، وتشرَّفت بالحج في آخرها، ثم جاورت في سنة ١١٤٤هـ بيت الله الحرام، وزرت المدينة المنورة، أروي الحديث عن الشيخ أبي طاهر المدني وغيره، وجالست علماء الحرمين وغيرهم مجالسات طويلة واسعة، ولبسَت الخرق الصوفية من الشيخ أبي طاهر المدني - رحمة الله - ولعلها حاوية لخرق الصوفية كلها.

(١) تفيد مجموعة كلمات الشيخ عبد العزيز الذهلي (ملفوظات عزيزية) أنَّ الإمام الذهلي كان قد مرَّ في هذه الرحلة بولاية (راجبوتانا)، أيضاً انظر من ٧٣.

(٢) القول الجلي، (مخطوط).

وفي تمام هذا العام، أي عام ١٤٤ هـ، أديت مناسك الحج، ثم عدت إلى الهند في أوائل سنة ١٤٥ هـ، وانتهيت إلى الوطن المأثور في يوم الجمعة العاشر من رجب سنة ١٤٥ هـ في كنف الصحة والسلامة.

مشايخ الإمام الذهلي وأساتذته في الحرمين الشريفين:

لقد ألف الإمام الذهلي في تراجم مشايخه وأساتذته في الحرمين الشريفين رسالة سماها (إنسان العين في مشايخ الحرمين) وقد ذكر فيها شيخه الخاص وأستاذه المحسن إليه المحبوب الشيخ أبو طاهر محمد بن إبراهيم الكردي المدنبي بشيء من التفصيل، ولما كان الأساتذة والمشايخ المربيون يطبعون تلامذتهم الأذكياء ذوي الاستعداد العالي بطبعهم العميق، ويكون لميولهم ونزعاتهم وبحوثهم وتحقيقاتهم تأثير كبير مثير على الطلاب النجباء، فمن المناسب هنا أن نذكر تراجمهم بشيء من التفصيل:

الشيخ أبو طاهر المدنبي:

يقول الإمام الذهلي: لقد قرأ الشيخ أبو طاهر محمد بن إبراهيم الحديث على والده الشيخ إبراهيم الكوراني الكردي، ثم كانت أكثر استفاداته من الشيخ حسن العجمي^(١) ثمقرأ على الشيخ أحمد التخلي، والشيخ عبد الله البصري، (شمائل الترمذى)، و(مسند الإمام أحمد) في أقل من شهرين، وكان يستفيد من العلماء الوافدين إلى الحرمين الشريفين، وقد نال من الشيخ عبد الله اللاهوري إجازة رواية الكتب للشيخ عبد الحق المحدث الذهلي، والشيخ عبد الحكيم السيالكوتى، وقرأ على الشيخ سعيد الكوكنى بعض الكتب العربية والربع من (فتح البارى)^(٢).

(١) ذكر الإمام الذهلي في (إنسان العين) نسبة (العجمي) ولعله خطأ مطبعي، فإنه ذكر في عامة كتب التراجم (العجمي) بالتصغير. (انظر الأعلام للزرکلى: ٢٢٣ / ٢).

(٢) إنسان العين، ص ١٣.

وذكر العلامة محسن بن يحيى الترهتي في (اليانع الجنبي) : أنَّ الشيخ أبي طاهر كان يقول : كان الشيخ ولِي الله يسندُ عنِي اللفظ ، و كنتُ أصحح منه المعنى ، و كتب ذلك في إجازته له أيضًا^(١) .

وقد كان الشيخ أبو طاهر (رغم كونه محدثاً جليلًا) حسن الظن بالصوفية ، محترزاً عن انتقادهم والزراية عليهم ، ويقول الإمام الدهلوi : إنني لما ذهبت إلى الشيخ أبي طاهر للتوديع والمعادرة إلى الوطن ، أشندني هذا البيت :

نسيتُ كُلَّ طرِيقٍ كنْتُ أعرُفُه إِلَّا طرِيقًا يُؤْدِينِي لِرَبِّكُمْ

وكان ردُّ الإمام الدهلوi كذلك ، ويقول الشيخ عبد العزيز الدهلوi : لما أراد الذي العودة من المدينة المنورة ، قال لشيخه أبي طاهر (وقد سُرَّ الشيخ بهذا القول) : إنني قد نسيتُ كُلَّ ما قرأته سابقاً إِلَّا علوم الدين وعلم الحديث الشريف - بصفة خاصة -^(٢) .

وقد صدق ذلك حياة الإمام الدهلوi وأشغاله وأعماله (التي سيأتي تفصيلها في الصفحات القادمة) فيما بعد ، وقد حققَ ما نطق به لسانه ، وأثبتَ القول بالعمل : «مِنَ الْمُقْرِئِينَ يَجِدُ صَدْقَوْمَا عَهَدَوا اللَّهُ عَلَيْهِ» [الأحزاب: ٢٣].

توفي الشيخ أبو طاهر في شهر رمضان عام ١٤٥١هـ ، أي بعد مغادرة الإمام الدهلوi المدينة المنورة والوصول إلى دهلي بشهر ونصف أو شهرين^(٣) ، فلم تمهله الفرصة بعد مقدم الإمام الدهلوi إلى الهند للإفادة والتربية والتدريس إلا قليلاً : «ذَلِكَ تَقْرِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ» [الأنعام: ٩٦].

ومما يجدر بالذكر في ترجمته أنَّ والده الشيخ إبراهيم الكوراني^(٤) كان

(١) اليانع الجنبي في أسانيد الشيخ عبد الغني ، نقلًا عن (كشف الأستار عن رجال معاني الآثار) طبع دار الإشاعة والتدرس (ديوبند الهند).

(٢) ملفوظات الشيخ عبد العزيز ، ص ٩٣.

(٣) إنسان العين ، ص ١٤.

(٤) ولد سنة ١٠٢٥هـ وتوفي سنة ١١٠١هـ ، وله أكثر من ثمانين مؤلفاً.

يدافع عن شيخ الإسلام ابن تيمية، يقول العلامة السيد نعمان خير الدين الألوسي البغدادي في كتابه الشهير: (جلاء العينين في محاكمة الأحمديين):
وكان سلفي العقيدة، ذاباً عن شيخ الإسلام ابن تيمية، وكذا يذبّ عما وقع في كلمات الصوفية ما ظاهره الحلول أو الاتحاد أو العينية^(١).

ويستتتج من ذلك أنَّ ما جاء في كتابات الإمام الدهلوi من تعريف وإشادة بكتب شيخ الإسلام ابن تيمية، والانتصار له والدفاع عنه، ونزعته التطبيقية التي ورثها عن آبائه، كان لأحاديث الشيخ أبي طاهر فيها أيضاً نصيبيُّ وتأثيريُّ، ولعله ورث هذه التزعة من والده الشيخ إبراهيم الكوراني .

الشيخ تاج الدين القلعي الحنفي:

وكان الأستاذ الثاني للإمام الدهلوi الذي أجازه برواياته هو الشيخ تاج الدين القلعي الحنفي مفتى مكة المكرمة، وقد كانت أكثر دراسته للحديث الشريف تمت على يدي الشيخ عبد الله بن سالم البصري، وقرأ (الصحيحين)، على الشيخ العُجميِّ، ونال منه الإجازة العامة المطلقة، وله إجازة أيضاً عن الشيخ أحمد النخلي وغيره، وقد حضر الإمام الدهلوi دروسه ل الصحيح البخاري ثلاثة أيام وسمع منه أطراف الكتب الستة وطروفاً من (الموطأ)، و(مسند الدارمي) و(كتاب الآثار) للإمام محمد و(الموطأ) له، وأجاز الشيخ جميع المحاضرين، وكان منهم الإمام الدهلوi، وسمع منه الحديث المسلسل بالأولية^(٢).

الشيخ محمد وقد الله المالكي:

وأخذ الإمام الدهلوi إجازة الشيخ محمد وقد الله المالكي لجميع مروياته عن والده حافظ الحديث ومجمع الفضائل الشيخ محمد بن محمد بن سليمان المغربي، الذي كان يملك النسخة اليونانية من (الصحيح البخاري) جاء بها من

(١) جلاء العينين، طبع مطبعة المدني، مصر، ص ٤١.

(٢) إنسان العين، ص ١٥ - ١٦.

إستانبول إلى الحرمين الشريفين، وكان شيخ جمهور أهل الحرمين وأستاذهم، وقرأ عليهم - زيادة على ما تقدم - جميع (الموطأ) برواية يحيى بن يحيى الصمودي، وأجزاء الشيخ بروايته^(١).

وكان الإمام الدهلوi - أيام طلبه في الهند - حضر دروس إمام الحديث الشيخ محمد أفضل السيالكوتي^(٢)، الذي كان يروي الحديث عن الشيخ سالم بن عبد الله البصري، وكان هو تلميذ الشيخ عبد الأحد ابن الشيخ محمد سعيد السرهدني أيضاً، الذي كان يدرس في مدرسة غازي الدين خان بدھلی، وكان الشيخ میرزا مظہر جان جانان استفاد منه في الحديث والسلوك^(٣).

وقد كان يرافق الإمام الدهلوi في رحلته هذه خاله الشيخ عبید الله البارھوی وابن خاله الشيخ محمد عاشق الفلتی (مؤلف القول الجلی)، وقد سمع الإمام الدهلوi نبأ وفاة والدته في العودة من هذه الرحلة بمکة المکرمة^(٤).

لقد كانت هناك للإمام الدهلوi فرص طيبة مواتية في الحرمين الشريفين لتدوّق الحديث الشريف، والتتوسيع فيه، وتدریسه وخدمته ونشره، وكانت إمكانات الإفادة للعلماء وطلبة العلم والوافدين من مختلف البلدان والأقطار متوفّرة ميسّرة، ثم كانت مجاورة بيت الله الحرام، ويركّات جوار النبي ﷺ، والأوضاع المضطربة في الهند، واختصار الدولة الإسلامية فيها، والاطلاع على سيطرة القوى الأجنبية، وإحکام استيلتها يوماً فيوماً، كل ذلك كان من الأسباب والدوافع القوية إلى نية الهجرة والإقامة في الحجاز، ولم تكن تهيئ له الأدلة على جوازها فحسب، بل تؤيدها المصالح الدينية والعلمية، ولكنّه عزم على العودة إلى الهند، تلك العزيمة التي كانت تنطوي على خير كثير قدره الله تعالى، وتجلّى في أروع مظہر في عمله التجديدي والاجتهادي العظيم، وكان فيها تحقيق تلك

(١) إنسان العین، ص ٧.

(٢) نزهة الخواطر، ص ٦.

(٣) المصدر السابق.

(٤) القول الجلی (مخطوط).

البشارة النبوية التي تلقاها في المدينة المنورة، وهي :

«إِنَّ مَرَادَ الْحَقِّ فِيكَ أَنْ يَجْمِعَ شَمْلًا مِنْ شُمْلِ الْأُمَّةِ الْمَرْحُومَةِ بِكَ»^(١).

ولم يكن الإمام الدهلوi يرى ذلك لنفسه، بل كان يرى لخواص أصحابه أيضاً أن يتخدوا الهند مركز نشاطاتهم وخدماتهم العلمية والدينية، تلك البلاد التي أنفق عليها أسلافهم الميامين ما كانوا يملكون من كفاءات علمية ودينية فاضلة، وقوى وطاقات كبيرة، والتي أنتجت المحققين والعلماء الربانيين في كلّ عصر، وكانت تتهيأ لتكون في المستقبل مركزاً لعلم الحديث الشريف وللعلوم الدينية الأخرى، ولما سافر أحد خواص تلامذته الشيخ معين الدين السندي إلى الحجاز وأبدى عزمه على البقاء والإقامة هناك، كتب إليه الإمام الدهلوi ينهاه عن ذلك، يقول:

«أَمَا عَزَمْتَ رَجُوعَ إِلَى الْوَطْنِ فَلَا تَسْتَبِدُوا بِهِ حَتَّى يَشْرَحَ اللَّهُ صَدَرَكُمْ أَوْ صَدَرَ رَجُلٍ لِأَجْلِكُمْ»^(٢).

تدريس الإمام الدهلوi للحديث الشريف:

بدأ الإمام الدهلوi بعد عودته من الحجاز تدریسَه للحديث الشريف في المدرسة الرحيمية لوالده، التي كانت واقعةً في دهلي القديمة في ذلك الحي الذي يسمى الآن حي مهنديان، ولم يلبث أن تواردت إليه جماعاتُ الطالبِ، وضريت إليه أكبادُ الإبل من مختلف الأحياء والأصقاع، وضاق بهم المكان، وكان الله تعالى قد قدر للملك محمد شاه (رغم كثير من سقطاته ومواضع ضعفه) هذه السعادة أنْ وَهَبَ لمدرسة الإمام الدهلوi في المدينة بيتاً فخماً كبيراً، ودعاه إلى المدينة، فبدأ إلقاء دروسه هناك^(٣)، يقول الشيخ بشير الدين:

(١) فيوض الحرمين، ص ٦٢، طبع المطبع الأحمدى دهلي.

(٢) (حيات ولي) مكتوبات الإمام الدهلوi، المكتوب العاشر، ص ٥٣٦، طبع مطبع السلفية - لاهور.

(٣) انظر (دار الحكومة دهلي): ٢٨٦/٢، للشيخ بشير الدين.

«كانت هذه المدرسة - في فترة من الفترات - كبيرةً فخمةً زاهيةً، وكانت تعتبر دار العلوم الكبرى، ولم تزل على حالها الأولى إلى ثورة (١٨٥٧م)، ثم نهبت البيوت أيام الشورة، وحمل الناس حتى الألواح والعرى والحلقات».

ويزيد الشيخ قائلاً: «وقد بنيت الآن بيوت عد من الناس في هذا المكان، إلا أنَّ الحي لا يزال يُدعى باسم مدرسة الشيخ عبد العزيز الدهلوi».

وجاء ذكر مسجد هذه المدرسة في أحد المواضيع في مجموعة كلمات الشيخ عبد العزيز (ملفوظات الشيخ عبد العزيز)، يقول فيها:

«كان - في العهد الذي ولدته فيه - كثير من الأولياء الصالحين الذين كانوا من خواص أصحاب السيد الوالد وأحبابه كالشيخ محمد عاشق والشيخ محمد نور، يعتكفون في هذا المسجد»^(١).

وقد كان العلامة السيد عبد الحي الحسني مؤلف (نزهة الخواطير) سافر إلى دهلي وما يجاورها من المدن والقرى عام ١٣١٢هـ - الموافق ١٨٩٤م، وقيد مذكرات هذه الرحلة، يقول في مذكرات يوم (٢٦) من رجب:

«أردت بعد عودتي من درس الشيخ المحدث السيد نذير حسين أن أزور مدرسة الشيخ الجليل قدوة العلماء والفضلاء التي استفاد فيها سلفنا جيلاً بعد جيل، ورأينا من الفخر والسعادة خدمة الكناسة فيها^(٢)، مشيت من هنا إلى المسجد الجامع، ومن ثم قدامه إلى (كلان محل)، وفي (كلان محل) توجد مدرسة شيخ مشايخنا مولانا وقدوتنا، فتذكرت عند رؤيتها الآية الكريمة: ﴿أَفَ كَلَّذِي مَكَّرَ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَّةٌ عَلَى عُرُوشَهَا قَالَ أَنِّي يَعْتَبِرُ هَذِهِ اللَّهُ بِعَدْ مَوْقِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٩] سبحان الله، إنها لعجبات قدرة الله! لقد كان يوم يقيم فيه الطلاب العرب والعجم في هذه المدرسة ويستفيدون، وقد آلت اليوم إلى هذه الحال من المخراب والدمار، ما بها

(١) ملفوظات الشيخ عبد العزيز، ص ١٠٩ ، طبع المطبع المجتبائي ، ميرته.

(٢) ذكر العلامة هنا أسماء عد من أسلاف أسرته الذين لم يزالوا من عهد الإمام إلى عهد الشيخ عبد العزيز يردون إلى هذه المدرسة ويستفيدون بها ويتعلمون .

من أنيس ولا جليس^(١).

ثم حكى عن بقية هذه الأسرة العلية الشیخ السید ظهیر الدین احمد، أَنْ فِي حِی (مهندیان) حِیث تُوجَد قبور هُؤلَاء الاعلام، كَانَتْ تُوجَد مدرسةً أَيْضًا، وَقَدْمَ الْإِمَام الدهلوی - بَعْدَ وَفَاتَهُ وَالدَّهُ الشیخ عبد الرحیم - إِلَى المَدِینَة (دهلی) الْجَدِیدَة، وَعَهَدَ إِلَيْهِ بِهَذِهِ الْمَدِرْسَةِ، وَأَقامَ بِهَا^(٢).

بعض عادات الإمام الدهلوی وخصائصه كما ذكرها الشیخ عبد العزیز الدهلوی:

من المؤسف أَنَّهُ لَا تُوجَدُ لَدِنِنَا ترجمةً معاصرةً أَوْ رَحْلَةً أَوْ مَذَكَرَةً تَطَلَّبُنَا بِتَفْصِيلٍ عَلَى خَصَائِصِ الْإِمَام الدهلوی وَعَادَاتِهِ وَأَحْوَالِهِ وَمَوَاعِيدِ أَعْمَالِهِ، وَقِيَامِهِ وَقِعودِهِ، وَقَدْ تَرَدَ إِشَارَاتٌ فِي (مَجْمُوعَةِ كَلْمَاتِ الشیخ عبد العزیز الدهلوی) إِلَى شَيْءٍ مِّنْ ذَلِكَ.

يقول: لم أَرَ مِثْلَ السید الْوَالَدِ فِي قَوْةٍ ذَاكِرَتْهُ، لَا أَقُولُ: إِنِّي لَمْ أَسْمَعْ بِمُثْلِهِ وَلَكَنِّي لَمْ أَشَاهِدْ^(٣)، وَكَانَ عَلَاوَةً عَلَى عِلْمِهِ وَفَضَائِلِهِ - عَدِيمَ النَّظِيرِ فِي ضَبْطِ مَوَاعِيدِهِ، وَتَنْظِيمِ أَوْقَاتِهِ، وَكَانَ إِذَا جَلَسَ فِي مَجْلِسِهِ بَعْدَ الشَّرُوقِ لَمْ يَغِيرْ جَلْسَتِهِ، وَلَا يَحْكُ جَسَدَهُ، وَلَا يَصْبِقُ إِلَى وَقْتِ الظَّهَرِ^(٤)، وَكَانَ قَدْ هَيَّأَ فِي كُلِّ فَنٍ وَعِلْمٍ رَجَلًا مِّنْ أَصْحَابِهِ، وَكَانَ يَعْهُدُ بِطَالِبِ ذَلِكَ الْفَنِ إِلَيْهِ، وَيَنْصُرُ فَوْنَفْسِهِ إِلَى بَيَانِ الْمَعَارِفِ وَالْحَقَائِقِ، وَتَحْرِيرِهَا وَتَدوينِهَا، وَكَانَ يَدْرِسُ الْحَدِيثَ الشَّرِيفَ وَيَدْرِسُهُ، وَكَانَ إِذَا انْكَشَفَ عَلَيْهِ شَيْءٌ سَجَلَهُ، وَكَانَ قَلِيلًا مَا يَمْرُضُ^(٥)، وَقَدْ كَانَ جَدِي وَعَمِي (اللَّذِينَ كَانُوا طَبِيبِينَ أَيْضًا) يَعْالِجُانَ النَّاسَ، أَمَّا الْوَالَدُ فَقَدْ انْصَرَفَ عَنْ هَذَا الشُّغْلِ، إِلَّا أَنَّهُ كَانَ يَطَالِعُ كَتَبَ الطَّبِ^(٦)، وَكَانَ مِنْ صَبَّاهُ - لَطِيفُ الطَّبِيعِ، يَحْبُّ

(١) (دهلی اور اس کی اطراف) طبع آنجلمن ترقی اردو، ص ٦٣ - ٦٤.

(٢) المرجع السابق، ص ٦٧.

(٣) ملفوظات الشیخ عبد العزیز، ص ١١.

(٤) المرجع السابق، ص ٤٣.

(٥) المرجع السابق، ص ٤٠.

(٦) المرجع السابق، ص ٢٢.

النظافة، وقل ما كان ينشد الأبيات الصوفية، إلا أنه - أحياناً - كان ينشد بيتاً أو
بيتين^(١).

وفاة الإمام الدهلوi:

وأخيراً آن وقت الرحيل لتلك الحياة الغنية المباركة التي كانت كلَّ لحظة منها كبيرة القيمة، مصروفة إلى إعلاء كلمة الله تعالى، واللهم بذكره، ونفع الإسلام والمسلمين، وإحياء السنن، ونشر الكتاب والسنّة، والتعليم والتربية، الرحيل الذي لا يُستثنى منه - لقوله تعالى: «كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ» [آل عمران: ١٨٥] - أيَّ نبي ولا ولی ولا مجد ولا مجاهد، كانت بداية عام ١١٧٦هـ. وكان آخر تاريخ شهر المحرم الحرام أن وافاه الأجل المحتوم، فودع الإمام الدهلوi حين بلغ من عمره الثنين وستين عاماً^(٢) - هذه الدنيا الفانية، وأسلم روحه لبارتها الكريم، ومن أحب لقاء الله أحبَّ الله لقاءه، وصدق الله العظيم: «إِنَّا نَنْهَا إِنَّا نَنْهَا

المُطَمِّيَةَ ﴿٢٧﴾ أَرْجِعْ إِلَى رَبِّكَ رَاضِيَةً مَرْضِيَةً ﴿٢٨﴾ [الفجر: ٢٧ - ٢٨].

ولا تتوفر تفاصيل المرض وحادث الوفاة في أيٍّ كتاب من كتب التراجم، ومما يسرُّ المؤلف ويشرفه أنَّ كلَّ ما يوجد من معلومات وتفاصيل بهذا الصدد فمصدرها الوحيد هو رسالة من أحد أفراد أسرته الحسينية القطبية الكبار الشيخ السيد محمد نعمان الحسني^(٣)، كان قد وجهها إلى شخصية معروفة كبيرة من

(١) ملفوظات الشيخ عبد العزيز، ٤٣.

(٢) جاء في (ملفوظات الشيخ عبد العزيز) (الترجمة الأردية) أنه قال: كان عمره (الإمام الدهلوi) إحدى وستين سنة وأربعة أشهر، ولد في الرابع من شوال عام ١١١٤هـ وتوفي في ٢٩ محرم الحرام عام ١١٧٦هـ، وكان تاريخ وفاته بـ(إمام أعظم دين) (انظر ملفوظات الشيخ عبد العزيز، ص ٥٦).

(٣) السيد محمد نعمان هو ابن حفيض الشيخ علم الله الرائي بريليوي، ونسبه هكذا نعمان بن نور بن هدى بن علم الله الحسني الحسيني، ولد في موطن الأسرة القديم (نصير آباد) بمديرية رائي بريلي، واشتغل بالعمل زماناً في بلدته، ثم سافر إلى لكتو، وقرأ على الشيخ عبد الله الأمتيهوي، ثم رجع إلى (رائي بريلي)، وبإيع السيد محمد بن علم الله بريليوي، ولازمة زماناً، ولما توفي السيد محمد المذكور لازم ولده محمد عدل، وأخذ

شخصيات هذه الأسرة هي الشيخ السيد أبي سعيد بعد وفاة الإمام الدهلوi فوراً من دهلي، وأنَّ كاتب هذه الرسالة السيد محمد نعمان هو عمَّ المجاحد الكبير الإمام أحمد بن عرفان الشهيد، والمرسل إليه السيد أبو سعيد كان جد الإمام الشهيد من قبل أمه، وقد كان الشيخ السيد أبو سعيد من مسترشيدي الإمام الدهلوi وخواص أصحابه، ويوجد عدد من رسائل الإمام الدهلوi الموجهة إليه، ونقل بعض محتويات هذه الرسالة - فيما يلي - كما جاء في مجموعة رسائل الأسرة (مكتوب المعارف) (مخطوط) :

«الحمد لله على النعماء، والرضا على القضاء، والصبر على المصيبة والبلاء، والصلة والسلام على سيد الشاكرين، وزينة الراضين، وقدوة الصابرين، وشفيع المذنبين، ورحمة العالمين، محمد وأله وصحبه الطيبين الطاهرين، وعلى ورثته العلماء الراسخين والأولياء المرشدين إلى يوم الدين .

وبعد، فإنَّ حادثَ وفاةِ إمامِ أهلِ السنةِ والجماعةِ . . . وقعَ ولهِ منِ العمرِ اثنانِ وستونَ عاماً، وأدخلَ السرورَ علىِ أهلِ البدعِ والضلالاتِ، وأصيبَ أهلَ الدينِ والصلاحِ بالحزنِ والأسى، وقد كانَ ذلكَ سلخَ محرمَ الحرامَ عامَ ١١٧٦ هـ ليومِ السبتِ وقتِ الظهرِ، فإنَّا للهِ وإنَا إِلَيْهِ راجعونَ.

.. إنَّ المجالسَ الأخيرةَ من حياتهِ كانتَ مجالسَ عجيبةَ، زاخرةَ بالفيوضِ، فكتَّنا نشرَ - بصفةِ مستمرةٍ - بتزولِ الملائكةِ والأرواحِ الطيبةِ، وكانتَ تهُبُّ نفحاتُ الأنسِ والرحمةِ، وتتنزَّلُ رشحاتُ القدسِ والبركةِ كالملطَرِ، وكانَ أكثرُ أصحابِ الصلةِ الروحيةِ يحسُّونَ بذلكَ بوجданِهمِ الصحيحِ .

عنِّهِ الطريقةُ، ثمَ ساحَ فيِ البَلَادِ، وأدركَ المشايخَ الكبارَ، منهمُ محمودُ رسنُ تابُ الغورجيُ أحدُ أصحابِ السيدِ عَلِيِّ اللهِ المذكورِ، ومنهمُ الشِّيخُ يُوسُفُ بنُ فتحِ محمدِ الأنبلويِ، ومنهمُ الشِّيخُ ولِيُ اللهِ بنُ عبدِ الرحيمِ الدهلوi، وخلقاً آخرينَ من المشايخِ، فاستفادَ منهمُ فيوضاً كثيرةً، ثمَ سافرَ إلى المحرمينِ الشريفينِ، فحجَّ وزارَ، وراحَ إلى (القدس) و(الخليل)، وتوفيَ في أثناءِ السفرِ، ودفنَ في (بيتِ المقدس) أرضَ الأنبياءِ الكرامِ، وكانَ ذلكَ عامَ ١١٩٣ هـ (نزهةُ الخواطرِ، ص ٦).

... وأحمد الله - تعالى - على أنني وجدت رضا الشيخ المرشد قدس سره عنكم ، وعن أيامه البالغة بحالكم إلى حد لا أقدر على وصفه ، فكان يسأل كثيراً عن أحوالكم ، وكان يذكر بلسانه الناطق بالجواهر والدرر معركة الأبداليين ، ومفاجأتكم بالوصول إلى مكان المعركة ، وانطفاء لهيب الفتنة بقدومكم^(١) ، ولعلَّ الشيخ المرشد كان يتمنى آخر لقاء بكم ، لأنَّه قال - ذات مرة - : ينوي السيد أبو سعيد القدوم فلو عجل بالقدوم كان خيراً .

يا سيدي ! لقد حُرِّمنا الآن صحبة الشيخ الظاهر ، ولكنَّ عدد مؤلفاته تسعون بل أكثر ، ففي علوم الدين : أي التفسير ، والأصول ، والفقه ، والكلام ، والحديث ، (حجَّة الله البالغة) ، (أسرار الفقه) ، (منصور)^(٢) ، وإزالة الخفاء عن خلافة الخلفاء) ، وترجمته للقرآن ، وكلُّ واحد من هذه الكتب يشتمل على ثمانين أو تسعين جزءاً .

وفي الحقائق والمعارف ، رسائل أخرى كـ(الطاف القدس) وـ(همعات) ، وـ(فيوض الحرمين) ، وـ(أنفاس العارفين) ، وغيرها ، وهي بدليل صحبة الشيخ المرشد والممثل عنها ، فلتهتموا بهذه الكتب ، وتعمموا على كتابتها ونشرها ، وإن هذا العمل سيتَّم بأدنى عناء ، يعلم الله هل أُفتَّ أمثال هذه الكتب سابقاً أو لا ، كما يُعْرَف بمكانتها أصحاب البصيرة ، وكل ما كتبه الشيخ المربِّي في أي موضوع من المواضيع يحتل مكانته الأصول والأساس .

والشيء الثاني أنَّ الشيخ محمد عاشق بعد أن بلغ تحياته إليك قال : اكتب إلى مير أبي سعيد أن يرسل إليك نسخَ جميع الرسائل التي وجهها الشيخ المرشد إليه حتى نضمها إلى مجموعة رسائله^(٣) (انتهى) .

كانت وفاة الإمام الدھلوي في ٢٩ محرم الحرام ١١٧٩ هـ يوم السبت ظهراً

(١) لم نطلع على هذا الحديث الذي وقعت الإشارة إليه هنا .

(٢) لم يتضح لنا ما هو مراده بهذين الكتابين .

(٣) مكتوبات المعارف ، الفارسية ، مخطوط ، ص ١٩ - ٣٠ .

(الموافق ٢١ آب - أغسطس عام ١٧٦٢ م) كما علمنا من الرسالة المذكورة
أعلاه^(١).

وجاء في مجموعة كلمات الشيخ عبد العزيز رحمه الله: «توفي في ٢٩ محرم
الحرام ظهراً»^(٢).

مدفنه:

لقد دُفِنَ الإمام الدهلوi في جانب اليسار من (دلي دروازه) (باب دهلي)
بالحـي الذي يُسمى (مهندـيـان)، ولقد كان مكان هذه المقبرة - يوماً - رباطـ الشـيخ
عبد العـزيـز شـكـرـ بـارـ أحدـ أـجـادـ الشـيخـ عبدـ الرـحـيمـ لأـمـهـ، ولاـ يـزالـ قـبـرـهـ هـنـاكـ عـلـىـ
مسـافـةـ قـلـيلـةـ، ثمـ كـانـ إـقـامـةـ الشـيخـ رـفـيعـ الدـينـ بـهـذـاـ المـكـانـ، كـماـ كـانـ بـيوـتـ أـسـرـةـ
الـإـمـامـ الـدـهـلـوـيـ أـيـضـاـ بـهـ، وـكـانـ إـلـاـمـ الـدـهـلـوـيـ تـرـكـ إـقـامـةـ هـنـاـ، وـاخـتـارـ إـقـامـةـ
داـخـلـ (شاـهـ جـهـانـ آـبـادـ) وـتـوـجـدـ فـيـ هـذـهـ مـقـبـرـةـ قـبـورـ أـبـنـاءـ إـلـاـمـ الـدـهـلـوـيـ الـأـرـبـعـةـ،
وـقـبـرـ وـالـدـهـ الشـيخـ عبدـ الرـحـيمـ أـيـضـاـ، وـقـدـ عـلـقـتـ عـلـيـهـ اللـوـحـاتـ التـيـ كـتـبـتـ فـيـهاـ
أـسـمـائـهـمـ وـتـوـارـيـخـ وـفـيـاتـهـمـ، كـماـ تـوـجـدـ بـهـاـ كـذـلـكـ قـبـورـ أـفـرـادـ أـسـرـةـ الـآـخـرـينـ
رـجـالـاـ وـنسـاءـ، وـيـقـومـ بـجـنـبـهـاـ مـسـجـدـ تـنـتـشـرـ حـوـالـيـهـ قـبـورـ كـثـيرـ مـنـ الـعـلـمـاءـ
وـالـصـالـحـينـ، وـالـمـحـبـينـ لـلـإـلـاـمـ الـدـهـلـوـيـ وـمـسـتـرـشـدـيـهـ، وـلـاـ تـرـازـ الـمـقـبـرـةـ تـسـعـ
وـتـسـتـقـبـلـ مـزـيدـاـ مـنـ الـمـوـتـىـ، غـفـرـ اللـهـ لـهـمـ وـرـحـمـهـمـ أـجـمـعـينـ.

* * *

(١) مكتوبات المعارف الفارسية، مخطوط، ص ١٩ - ٣٠.

(٢) ملفوظات الشيخ عبد العزيز، ص ٤.

الفصل الثالث

(١)

مؤلفات الإمام الذهبي

الكتب والرسائل:

نذكر - فيما يلي - قائمةً مؤلفات الإمام الذهبي الصغيرة والكبيرة،
والفارسية والعربية حسب ترتيب حروف المعجم :

(١)

- ١- الأربعين (بالعربية).
- ٢- الإرشاد إلى مهارات علم الإسناد (بالعربية).
- ٣- إزالة الخفاء عن خلافة المخلفاء (بالفارسية).
- ٤- أطيب النعم في مدح سيد العرب والمعجم (بالعربية).
- ٥- ألطاف القدس (بالفارسية).
- ٦- الإمداد في مآثر الأجداد (بالفارسية).
- ٧- الانتباه في سلاسل أولياء الله (بالفارسية).
- ٨- إنسان العين في مشايخ الحرمين (بالفارسية).
- ٩- الإنصاف في بيان أسباب الاختلاف (بالعربية).
- ١٠- أنفاس العارفين (بالفارسية).

(١) كان هذا الفصل في الطبعات السابقة في آخر الكتاب، وقدمناه إلى هنا لأنَّه كالتوطئة للباب الثالث، والله تعالى أعلم. (الناشر)

(ب)

١١ - البدور البازغة (بالعربية).

١٢ - بوارق الولاية (بالفارسية).

(ت)

١٣ - تأويل الأحاديث (بالعربية).

١٤ - تحفة الموحدين (بالفارسية).

١٥ - ترجم أمباب البخاري (بالعربية).

١٦ - التفهيمات الإلهية (بالعربية والفارسية).

(ج)

١٧ - الجزء اللطيف في ترجمة العبد الضعيف (بالفارسية).

(ح)

١٨ - حجة الله البالغة (بالعربية).

حسن العقيدة (بالفارسية) = ٣٢ - العقيدة الحسنة.

(خ)

١٩ - الخير الكثير (بالعربية).

(د)

٢٠ - الدُّرُثُ الثمين في مبشرات النبي الأمين (بالعربية).

٢١ - ديوان الشعر العربي.

(ر)

- ٢٢ - رسالة في الرد على رسالة الشيخ خواجة خور د عبد الله بن عبد الباقي .
٢٣ - رسالة الحكمة (بالفارسية) .

(ز)

- ٢٤ - الزهراوين .

(س)

- ٢٥ - سطعات (بالفارسية) .
٢٦ - سرور المحزون (بالفارسية) .

(ش)

- ٢٧ - شرح ترجم أبواب صحيح البخاري (بالعربية) .
٢٨ - شفاء القلوب (بالفارسية) .
٢٩ - شوارق المعرفة (بالفارسية) .

(ع)

- ٣٠ - العطية الصمدية في الأنفاس المحمدية (بالفارسية) .
٣١ - عقد الجيد في أحكام الاجتهاد والتقليد (بالعربية) .
٣٢ - (العقيدة الحسنة)^(١) .

(ف)

- ٣٣ - فتح الرحمن (بالفارسية) .
٣٤ - فتح الخبير (بالعربية) .

(١) طبعت في مطبعة مفید عام بأکره، انظر الحاشية ص(١٦٦) من هذا الكتاب . (الناشر)

- ٣٥- فتح الودود لمعرفة الجنود (بالعربية).
- ٣٦- الفضل المبين في المسلسل من حديث النبي الأمين عليه السلام (بالعربية).
- ٣٧- الفوز الكبير (بالفارسية).
- ٣٨- فيوض الحرمين (بالعربية).

(ق)

- ٣٩- قرة العينين في تفضيل الشيختين (بالفارسية).
- ٤٠- القول الجميل في بيان سواء السبيل (بالعربية).

(ك)

- ٤١- كشف الغين عن شرح الرباعيتين (بالفارسية).

(ل)

- ٤٢- لمعات (بالفارسية).

(م)

- ٤٣- المرأة الوضية في النصيحة والوصية (بالفارسية).
- ٤٤- المقدمة السننية في الانتصار للفرقة السنوية (بالعربية).
- ٤٥- المقدمة في قوانين الترجمة (بالفارسية).
- ٤٦- المسوى من أحاديث الموطا (بالعربية).
- ٤٧- المصقى شرح الموطا (بالفارسية).
- ٤٨- المكتوب المدني (بالعربية).
- ٤٩- مجموعة رسائل في مناقب الإمام البخاري وفضل ابن تيمية (بالفارسية والعربية).

(ن)

٥٠ - النبذة الإبريزية في اللطيفة العزيزية (بالفارسية).

٥١ - النوادر من أحاديث سيد الأول والأول والآخر (بالعربية).

٥٢ - همعات (بالفارسية).

٥٣ - هوامع شرح حزب البحر (بالفارسية).

* * *

لِلْأَبْرَارِ

مَا شَرِّعَ لِإِنَّمَاءِ الدُّهْلُوِيِّ لِتَجْبِيدِهِ

ما أثر الإمام الدهلوi التجديدي؟

تمهيد

سعة دائرة التجديد الذي قام به الإمام الدهلوi وتنوعه

إن الأعمال والمآثر الجليلة التي وفق الله تعالى الإمام الدهلوi لتحقيقها وإنجازها - من التجديد وإصلاح الأمة، وإحياء الفهم الصحيح للدين، ونشر العلوم التبوية، وإعادة الحياة والنشاط والحيوية في فكر عهده، والأمة الإسلامية وعملها وجهودها - تتسع دائرتها وتنوع شعوبها، بحيث لا يوجد له نظير لا في المعاصرين له فحسب، بل في عامة العلماء والمؤلفين في العهود السابقة أيضاً، ويمكن أن يكون سبب ذلك - عدا التوفيق والتقدير الإلهيين - يرجع إلى مقتضيات ذلك العهد الذي عاشه، وإلى ذلك الاحتواء والشمول وعلوّ الهمة، والمنهج الخاص للتعليم وال التربية الذي خصّه الله وقدره له.

وقد كان نتيجة كل ذلك أن الإمام الدهلوi قام بـمآثره التجددية والإصلاحية في مجالات متنوعة من العلم والعمل حتى إن المترجم له والكاتب في (تاريخ رجال الفكر والدعوة في الإسلام) ليواجه صعوبة في استيعابها ودراستها التحليلية والتفصيلية، والذي يريد استيعاب هذه الجوانب والمجالات كلها فإن لسانه ينشد ويشكو بهذا البيت الفارسي المعروف الذي معناه:

«إن ذيل النظر ضيق، وورود حسنك كثيرة، وإن مقتطف ربيعك يشكو من ذيله الضيق».

ولذا أردنا أن نفرقها في مواضيع مستقلة، فهي تأتي بهذه العناوين البارزة:

١ - إصلاح العقائد والدعوة إلى القرآن.

- ٢ - القيام بنشر الحديث الشريف وترويجه، والجهود الموفقة للتطبيق بين الفقه والحديث والدعوة إليه.
- ٣ - عرض الشريعة الإسلامية في صورة متناسبة مدعاة بالأدلة والبراهين والكشف عن أسرار الأحكام الشرعية ومقاصدها وحكمها.
- ٤ - بيان مكانة الخلافة، ووظيفتها في الإسلام، وشرح خصائص الخلافة الراسلة، ومميزاتها، وإثباتها بالأدلة، والرد على الروافض.
- ٥ - عمله التجديدي القيادي في عهد الاضطراب السياسي، واحتضار الدولة المغولية.
- ٦ - الحسبة على مختلف طبقات الأمة، ودعوتها إلى الإصلاح والتغيير.
- ٧ - القيام بتربية العلماء الراسخين ورجال العزيمة والكفاح وتخربيتهم حتى يقوموا - بعده - بهذا العمل التجديدي من الإصلاح، ونشر الدين الصحيح وينقلونه إلى الأجيال القادمة.

* * *

الفصل الثاني

إصلاح العقائد والدعوة إلى القرآن

ونتناول - أولاً - عنوان إصلاح العقائد والدعوة إلى القرآن، إذ إنه يحتل الدرجة الأولى، ويأتي في مقدمة الصف إذا بدأ إصلاح الأمة وتجديدها في أي عصر أو مصر، وكل جهد يبذل لإحياء الدين وإنعاش الأمة بغض النظر عن ذلك فإنه لا يعود خطأ على الماء وبناءً بغير أساس.

وقد أثبتت القرآن الكريم بخصوص الأنبياء والمرسلين ووقائعهم وحوارهم لشعوبهم، وأثبتت التاريخ الموثوق به من عمل العلماء الربانيين، وورثة الأنبياء والمرسلين ومنهجهم في الدعوة وتدرجهم فيها هذه الحقيقة الأساسية، وسوف يبقى هذا المنهج منهج كل إصلاح وتجديد إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، إذا كانا قائمين على الطبيعة النبوية والنظام القرآني.

أهمية العقائد:

يكفي المؤلف هنا بإيراد بعض كتاباته السابقة التي تشرح هذا الموضوع شرعاً وافياً، يقول:

«إن سمة هذا الدين الأولى وشعاره المميز الأول: التركيز على العقيدة أولاً وقبل كل شيء، فما زال الأنبياء من لدن آدم إلى خاتم الرسل محمد ﷺ يدعون إلى عقيدة معينة يوحى بها إليهم، يدعون إليها، ويطالبون بها، لا يقبلون عنها صرفاً ولا عدلاً، ولا يبغون بها عوضاً ولا بدلاً.

إن أفضل حياة خلقاً وسلوكاً، ورحمة وبرأ، واستقامة وسداداً، وإن أنجح إنسان في تأسيس حكومة أو إنشاء مجتمع أو إحداث انقلاب، لا قيمة له عندهم

إذا لم يقتربن كل ذلك بعقيدة جاؤوا بها، ودعوا إليها، ولم يقْمِ كل هذه الجهود على أساسها، وهذا هو الخط الفاصل الواضح العريض بين دعوة الأنبياء - على نبينا وعليهم الصلاة والسلام - وبين الزعماء والقادة القوميين والانقلابيين والثوريين والنفعيين والماديين، وكل من كان مصدر تفكيره غير تعاليم الأنبياء وسيرهم لسبب من الأسباب الأصلية أو الطارئة من التعليم والتربية، أو ردًّا من ردود الفعل، أو الحب الزائد لتحقيق التيجة المطلوبة أو قلب نظام أو انتصار وانتقام^(١).

إنَّ أَجَلَ عِلْمٍ أُخِذَ عن الأنبياء - عليهم صلوات الله وسلامه - معرفة الله، وصفاته وأفعاله، وذلك علم يختص بالأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - إذ هو علم ليست له وسائل وآلات ومعلومات أولية، وتجارب عند البشر، ولا يتناوله القياس، ولا يفيد في الذكاء والفطنة، لفقدان أساس القياس، وتعالى الله تعالى عن الأشباه والنظائر، وسموه وتقديسه وتترزه عن التشبه والتمثيل، ولبعده عن كل ما عرفه البشر وألفه وجربه في عالم الحس والمادة، لأنَّه ليس حلقة تجري فيها جياد العقول، وتسابق فيها عتاق العلم والتجربة.

وكان أَجَلَ عِلْمٍ توقف عليه سعادة البشر، إذ هو الأساس للعقائد والأعمال والأخلاق والمدنية، وهو الذي يعرف به الإنسان نفسه، ويفك لغز الكون، ويكشف عن سر الحياة، وبه يعين الإنسان مركزه في هذا العالم، وينظم علاقاته واتصالاته ببني جنسه، ويضع منهاج حياته، ويحدد غاياته في ثقة وبصيرة، ووضوح ويقين^(٢).

وإنَّ عناية الله تعالى الخاصة بهذه الأمة، ووعده المؤكَد لها بالنصر والتأييد والرضا والعزَّة والغلبة، إنَّما هو - بصفة خاصة - على أساس العقائد الصحيحة، والخصائص والصفات الإيمانية، وعقيدة التوحيد الخالصة المبرأة من كل الشوائب، يقول الله تعالى: «وَلَا تَهْنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَئُمُّ الْأَعْمَةَ إِنَّ كُفُّرَ مُؤْمِنِيْنَ» [آل عمران: ١٣٩].

(١) العقيدة والعبادة والسلوك، ص ٢٤ - ٢٥.

(٢) المصدر السابق، ص ٦٧ - ٦٨.

ويقول في صراحة ووضوح: «وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَكِلُوا الصَّلَاةَ أَنَّهُمْ لَيَسْتُخْفَفُونَ فِي الْأَرْضِ كَمَا أَسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيَمْكُثُنَّ هُنَّ دِيَمُهُمُ الَّذِينَ أَرَضَى لَهُمْ وَلَيَسْبِدُنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ حَقْوَفِهِمْ أَمْنًا يَسْبُدُونَنِي لَا يُشَرِّكُونَ فِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ» [النور: ٥٥].

إن ورثة الأنبياء بحق ، والعلماء الريانيين الذين يعرفون طبيعة هذا الدين ، وفطرته الصحيحة ، يهيوئون الأرض - قبل إقامته في مكان - ويصلحونها وينظفونها وبمهدونها ، ويستأصلون جذور الشرك والجاهلية وعروقها (سواء كانت من بقايا الوثنيات القديمة أو نتائج التأثيرات القومية والمحلية) ، ويستخرجون جميع بذورها ، ويقلبون الأرض ظهراً لبطن ، مهما اقتضى هذا العمل منهم من مدة طويلة ، ومشقة كبيرة ، فإنهم لا يستعجلون الترتيبة ، ولا يفقدون الصبر .

«إن هذه الوثنية والشرك في مختلف أشكالها وصورها ، هي الجاهلية العالمية ، التي هي أقدم أدواء البشر ، ومواقع ضعفهم وسقطتهم ، وهي باقية مع البشر في جميع مراحل حياتهم وتطوراتها ، وهي التي تثير غضب الله وغيره ، وتحول بين العبد وتقدمه الروحي والخلقي والمدني ، إنها هي الجاهلية التي تخنق القوى ، وتقتل المواهب ، وتقضى على الاعتماد على الله ، والاعتداد بالنفس ، والثقة بها ، وتصرف الإنسان عن الالتجاء إلى الله السميع البصير ، العليم القدير ، الجoward الوهاب ، الغفور الودود ، والاستفادة من صفاته التي لا تُحَدُّ ، وخزاناته التي لا تنفذ ، إلى الالتجاء إلى الضعيف الفقير ، العاجز الحقير ، الذي لا يملك شيئاً»^(١).

ال الحاجة إلى شرح عقيدة التوحيد والدعوة إليها من جديد:

لقد قال المؤلف في الجزء الثاني من (رجال الفكر والدعوة) الذي هو خاص بحياة الإمام ابن تيمية وأعماله تحت عنوان (العقائد والتقاليد الشركية في عهد الإمام ابن تيمية) ما يلي :

(١) النبوة والأنبياء في ضوء القرآن للمؤلف ، ص ٣٨-٣٩ (طبع دار القلم ، الطبعة السابعة).

«كانت العقائد والتقالييد قد نالت رواجاً بين عامة المسلمين باختلاطهم مع غير المسلمين والعمجم ونفوذ الحكومة الباطنية والإسماعيلية وتأثيرهما، وانتشار تعليمات الجهلة والضلال من الصوفية وأعمالهم، فقد وجد عدد كبير من المسلمين في ذلك الحين يعتقدون في أئمة دينهم ومشايخهم والأولياء والصالحين منهم الاعتقادات الفاسدة، ويحملون من الأفكار المشركة ما كان يعتقده اليهود والنصارى في (عزير) و(المسيح) عليهم السلام وأخبارهم ورعبانهم».

وكل ما كان يدور حول قبور الأولياء والمشايخ إنما كانت تقليداً ناجحاً للأعمال والتقالييد التي كانت تُثْرِجُ في معابد غير المسلمين وقبور المقدسين عندهم، فالاستغاثة منهم والاستعانة بهم، ومُؤْيدُ الطلب والضراعة إليهم، كلُّ ذلك كان عاماً شائعاً بينهم.

كما عمّت عادةً بناء المشاهد الفخمة على قبورهم، وجعلها مساجد، وعقد المهرجانات عليها عاماً فعاماً، وقطع المسافات الطويلة للوصول إليها، وقد كانت عبادة القبور بجرأة ووقاحة، وعدم الخشية من الله تعالى، والخوف من أصحاب القبور، والخشية منهم، والاستهزاء بذات العلي القدير، والاستهانة بشعائره، والجرأة وقلة الأدب، وتقديس الأولياء إلى حد التأله، والحج إلى المشاهد والقبور، وترجيحه - في بعض الأحيان - على الحج إلى بيت الله العتيق، وخراب المساجد وضياعها، وروعة المشاهد والأماكن الخاصة لزيارة والعنابة بها؛ كان كل ذلك من قسمات الحياة الجاهلية وعلامتها البارزة، التي لم تكن تحتاج رؤيتها إلى قطع مسافات طويلة، ولا إلى تفكير وتأمل كثير»^(١).

لقد كان هذا الوضع في بلاد كمصر والشام والعراق، التي فتحها الصحابة رضي الله عنهم بأيديهم المباركة، ثم هي أقرب البلاد وأكثرها اتصالاً بمركز الإسلام ومهبط الوحي وموطن الرسول ﷺ.

وكانت لغتها العربية التي نزل فيها القرآن، ولم تتوقف فيها يوماً واحداً

(١) انظر: (رجال الفكر والدعوة) : ٢ / ١٧٣ - ١٩٦ .

سلسلة دروس الكتاب والسنّة، وألّفت فيها كتب جليلة في علوم الحديث الشريف وشروحها.

ولا يبعد إذن أن نقدر الوضع بيازاء ذلك في الهند (لا سيما هذا القرن الثاني عشر) التي وصل إليها الإسلام بعد أن طاف بتركستان وإيران وأفغانستان وقد كثيراً من طاقته وحيويته ونضارته على أيدي أولئك الذين لم يتشرفوا بصحبة النبي ﷺ، ولم يتمتعوا بالاستفادة - مباشرةً - من مصدر النبوة الفياض، والذين كان كثيرون منهم لم يتحررُوا - كلياً - من تأثيرات شعهم وسلامتهم.

ثم إن الهند كانت تسسيطر عليها من آلاف السنين - الديانة الفلسفية والحضارة - التي عجّلت طيّتها بالشرك والوثنية، وجرياً فيها مجرى الدم، والتي كانت أكبرَ ممثلاً في هذه القرون الأخيرة - للوثنية والمحافظة الأمينة على الجاهلية القديمة، وقد انتقل عدد كبير من سكان هذه البلاد المسلمين من البرهمية والأوساط الشركية الأخرى إلى حظيرة الإسلام.

ثم لا يعزّز عن البال أنَّ هذه البلاد لم تكن لها من الصلة المباشرة (غير المدى الطويل) بالقرآن والسنّة، ما كانت - لتأثير إيران - بالعلوم الحكمية العقلية والفلسفية اليونانية، وإذا كانت لها علاقة علمية ودراسية بالعلوم الدينية، فبالفقه وأصول الفقه وعلم الكلام، العلوم التي يرجع موضوعها ومجال البحث والتحقيق فيها إلى القضايا والجزئيات الفقهية القانونية، وأصول استنباطها، والبحوث الفلسفية في العقائد، لا بإصلاح العقائد، والدعوة الأساسية إلى التوحيد الخالص.

ويمكن أن يقدّر ما خلفته ديانات الهند وفلسفاتها وتقاليدها وعاداتها من تأثير في القرن العاشر الهجري نفسه على المجتمع المسلم من إحدى وسائل الإمام السرهدني، التي كتبها إلى إحدى الصالحات من مسترشداته، ويقدّر منها ما بلغه المجتمع المسلم من تعظيم شعائر الشرك والاستعانة بغير الله، وطلب الحاجات من غير الله، وتعظيم أعياد الكفار والمرشكيين، وتقليل رسومهم وعاداتهم وطقوسهم، والتذر والذبح للأولياء والصالحين، والصياح باسماء المشايخ والصالحات، والخوف من ستيلًا (التي كانت تعتبر إلهة الجدرى) وإجلالها، وأمثال هذه الأشياء

التي تدلُّ على العقائد الهندوسية الوثنية، والخضوع للأوهام والخرافات، التي غزت عقر دار المسلمين.

ولا يتعسر تقدير ما وقع بعد مضي قرین آخر من الزمان على هذا العهد، وقد ان الصلة القوية العامة بالكتاب والسنۃ من زیغ وانحراف في العقائد، وتأثير للعقائد والأعمال غير الإسلامية، بل المعارضۃ المنافية للإسلام، على كثير من الأسر والبيوتات.

ويمكن أن يقدر أيضاً ما أنتجه تأثير غير المسلمين على المجتمع المسلم، والجهل بالكتاب والسنۃ، والبعد عنهما، والفراغ الطويل في الجهود المؤثرة المركزية (بغض النظر عن الدهماء والجماهير سخطوا أم رضوا، وإغماض العين عن التائج والأخطر) في الهند من وضع سئی، وما قام من نظام للعقائد، إزاء الدين الحنيف (الذی لم يكن فيه أي مجال لظل من ظلال الشرک والوثنية) وما نبتت في ساحة حياة المجتمع المسلم من نباتات الجاهلية وحشائشها الشيطانية، يمكن أن يقدر كل ذلك من بعض كتابات الإمام الذهلي نفسه، يقول في (التفهيمات الإلهية):

«قال رسول الله ﷺ: «لتَسْتَعِنَ شَيْئاً مِّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ شَيْئاً بِشَيْئِهِ، وَذِرَا عَابِدَرَاعِهِ، حتى لو دَخَلُوا جَهَنَّمَ ضَبَّ لِتَبْعَتْهُمْ».»

قلنا: يا رسول الله! اليهود والنصارى؟ قال: «فمن؟»^(۱).

صدق رسول الله ﷺ فقد رأينا رجالاً من المسلمين، الذي ضعف إيمانهم، يتخدون الصلحاء أرباباً من دون الله، ويجعلون قبورهم مساجد، كما كان اليهود والنصارى يفعلون.

كذلك رأينا رجالاً منهم يحرّفون الكلم عن مواضعه، ويعتمدون في ترك العمل وإرضاء الشهوات على القول المعزو إلى النبي ﷺ: «الصالحون لله،

(۱) أخرجه البخاري ومسلم.

والطالحون لي»، كما قال الذين من قبلهم: «لَنْ تَمَسَّنَا النَّكَارُ إِلَّا أَتَيْنَا مَقْدُودَةً» [البقرة: ٨٠]، وإن سألت الحق فقد فشى التحرير في كل طائفة.

فالصوفية أظهرت أقاويل لا يُذرى لها توفيق بـ(الكتاب والسنّة)، لا سيما في مسألة التوحيد (الوجودي) وظهر من ذلك أنّهم لا يحتفلون بالشرع، وليس له عندهم قيمة^(١).

ويقول في كتابه الشهير (الفوز الكبير):

«إِذَا كُنْتَ تَتَوَقَّفُ فِي التَّسْلِيمِ بِصَحَّةِ مَا يُقَالُ عَنْ عَقَائِدِ الْمُشْرِكِينَ وَأَعْمَالِهِمْ^(٢)، فَانظُرْ إِلَى الْمُحْرَفِينَ الْمُنْحَرِفِينَ فِي هَذَا الْعَصْرِ، لَا سِيَّمَا مِنْ يَقْطُنُونَ مِنْهُمْ بِأَطْرَافِ دَارِ الْإِسْلَامِ، مَا هِيَ تَصْوِرُهُمْ عَنِ الْوَلَايَةِ، وَرَغْمَ أَنَّهُمْ يَعْتَرِفُونَ بِوَلَايَةِ الْأُولَى يَاءِ الْمُتَقْدِمِينَ، يَرَوْنَ وُجُودَ الْأُولَى يَاءِ فِي عَصْرِنَا مِنِ الْمُسْتَحِيلَاتِ، وَيَؤْمِنُونَ بِالْقَبُورِ وَالْعَتَبَاتِ، وَقَدْ ابْتَلُوا بِأَنْوَاعٍ مِنِ الشَّرِكِ وَالْبَدْعِ وَالْخَرَافَاتِ.

وتمكّن منهم التحرير والتشبيه، وتغلغل في نفوسهم، حتى لم تبقَ - بحكم ما جاء في الحديث الصحيح: «الْتَّشَيْعُ سَنَنٌ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ... إِنَّهُ» - بلية من البلايا، ولا فتنَة من الفتنة إلا وطاقة من طوائف المسلمين تخوضُ فيها، وتعلق بها، عافانا الله سبحانه من ذلك^(٣).

الطريق المؤثر لعلاج هذه الأدواء وإصلاح الأوضاع نشر القرآن الكريم، والدعوة إلى فهمه:

لقد رأى الإمام الذهلي أنَّ دراسة القرآن الكريم وفهمه وتدبره هو أقوى الطرق، وأكثرها تأثيراً لعلاج هذا الداء، بل الفتنة العمياء، ولم يكن تفطنه لهذه الحقيقة مبنية على أساس الذكاء وطول الدراسة والقياس فحسب، بل كانت حقيقة

(١) الفهيمات الإلهية: ١/١٣٤-١٣٥.

(٢) وقد ذكر الإمام الذهلي قبل ذلك حقيقة إشراك المشركين في الجاهلية وأنواعها ومظاهرها.

(٣) الفوز الكبير، ص ٩-٨ (المكتبة المحمدية).

بديهية، يشهد عليها القرآن نفسه، ولا يشهد عليها تاريخ عهد البعثة والنبوة فحسب، بل تاريخ الدعوة والإصلاح والتجديد في الإسلام كله شهيدٌ عليها، ولا يتصور لإعلان حقيقة التوحيد وحقيقة الشرك وسيلة أقوى وأصرح وأوضح وأكثر تأثيراً في النفوس، وجذباً للقلوب منه.

وقد صرّح ترجمان القرآن الشّيخ عبد القادر (ابن الإمام الدهلوi) في مقدمة (موضع القرآن) وترجمته للقرآن الكريم وتحشّيته عليه (بالأردية) بهذه الحقيقة في أسلوبٍ بسيطٍ نفاذٍ بما لا مزيدٍ عليه، يقول:

«لِيَقُلُّ الْقَاتِلُونَ مَا شَاءُوا، وَلَكُنْ لَيْسَ أَحَدٌ يُسْتَطِيعُ أَنْ يَقُولَ كَمَا قَالَ اللَّهُ، وَلَا يَوْجُدُ فِي كَلَامِ أَحَدٍ مِّنَ التَّأْثِيرِ وَالنَّفَوذِ مَا يَوْجُدُ فِي كَلَامِ اللَّهِ»^(١).

ولعلّ شعور الإمام الدهلوi بهذا الوضع الديني في الهند، وبعدها عن تعاليم القرآن الكريم الحكيم، وتعاليم الإسلام - بصفة عامة - ومنافاتها لها، قد قوي واشتدّ أثناء إقامته بالحجّاج، وانبعث في قلبه الدافع القوي في ذلك الجو الروحي النوراني القرآني - الذي علا منه هتافُ التوحيد قبلَ كلّ مكان - إلى أن يقوم بنشر القرآن الكريم وتعميمه بين الناس في الهند، بوضوحٍ وقوّةٍ يمكن أن يعبر عنها بالإلهام والإشارة الغيبية التي تردد - في كلّ عصر - على النفوس الزكية لتحقيق مهمة دينية ضرورية، ويکاد يستحيلُ دفعها والتغلبُ عليها، ولذلك نرى أنَّ الإمام الدهلوi بدأ بعمل ترجمة القرآن الكريم باللغة الفارسية التي تمت وتحقّقت باسم: (فتح الرحمن) بعد عودته من الحجّاج^(٢).

(١) مقدمة (موضع القرآن) للشّيخ عبد القادر الدهلوi.

(٢) لقد ذكر مؤلف (حياة ولی) نقاًلاً عن أحد المعاصرین قصة مؤثرة شجية لتشغيب علماء السوء على الإمام الدهلوi، لارتكابه (جريمة) ترجمة القرآن الكريم، وإثارتهم الأوغاد المفسدين للحملة القاتلة عليه، ثم استنتاج من ذلك أن الإمام الدهلوi اختار السفر إلى الحجّاج تخلصاً من هذه الفتنة والشغب (انظر: ص ٤١٨ - ٤٢٣).

ولكن ذلك لا يؤيده أيُّ مصدرٍ تاريخيٍ آخر، بل يوجد في مقدمة (فتح الرحمن) نفسه تصريحٌ بأنَّ الإمام الدهلوi بدأ الترجمة في ١٠ ذي الحجه عام ١١٥٠هـ وأكمّلها عام ١١٥١هـ، ويتبّع من ذلك أنه شرع في هذا العمل المبارك بعد عودته من الحجّاج بأربعة =

وقد كان من (الحقائق) المسلم بها ليس في الهند فحسب، بل في جميع البلدان الأعجمية - تقريباً - بما فيها تركستان، وإيران، وأفغانستان، والبلدان المجاورة للهند. وكانت ميولها وزعزعتها، وأعمالها وأذواقها وحقائقها المعترف بها عندها تظلل على الأوساط العلمية والدينية في الهند، وتؤثر عليها - أن القرآن الكريم إنما هو كتاب خاصة الخاصة ليطالعوه ويدرسوه ويفهموه ويتدبروه، وأن فهمه يتوقف على معرفة أكثر من اثنى عشر علماً، وأن نشره في العامة، وتوعيتهم مباشرةً بمعانيه ومطالبه، والدعوة العامة إلى استهدافه والاستيضاء به، والاستفادة منه مباشرة خطير شديد، وضلال كبير، وفتح لباب فتن مسيطرة، وإنها دعوة إلى الاضطراب الفكري في العامة، والقول بالرأي، والاستغناء عن العلماء، بل فوق ذلك دعوة إلى الخروج عليهم، والتمرد والطغيان، وقد صرخ الإمام الذهلي بهذا التراز من التفكير، وهذا النوع من الدليل في رسالته الوجيزة (تحفة الموحدين)^(١) في أسلوب مؤثر جميل :

«يطلق بعض الناس القول بأنَّ القرآن الكريم والحديث الشريف لا يمكن أن

أو خمسة أعوام، وتوجد في خزانة أسرتنا للكتب نسخة مخطوطة لـ(فتح الرحمن) في مجلدين، وقد كان الإمام الذهلي نفسه أهدانا إلى الشيخ محمد محمد العثماني التصير آبادي، وكان الشيخ محمد أعظم تلميذ الشيخ محمد نعمان (عم الإمام أحمد بن عرفة الشهيد وخريجه) وهو الذي نشأ ورباه، وانتقلت هذه النسخة إلى ملك الشيخ قطب الهدى المحدث، تلميذ الشيخ عبد العزيز الذهلي، ولم تزل تنتقل من يد إلى يد، حتى وصلت إلى والدي العلامة عبد الحفيظ الحسني، وقد كتبت هذه النسخة عام ١١٦٥هـ أي قبل وفاة الإمام الذهلي بـ ١١ عاماً، وهذا أيضاً دليل على أنَّ مأثرة (فتح الرحمن) تتحقق بعد عودة الإمام من الحجج، وأما قبل السفر إلى الحجج فكان قد أنجز ترجمة سوريَّة للقرآن والنساء .

(١) نشرت هذه الرسالة باسم الذهلي ومنسوبة إليه، ولكن لما أنها لا تذكر في مجموعة مؤلفاته ورسائله في الكتب التي ترجمت له، ولا يرد ذكرها في فهرسة تأليفاته بصفة عامة - فلا سبيل لنا إلى القطع واليقين بأنها من مؤلفات الإمام الذهلي، إلا أنَّ الموضوع الذي اقتطعناه هنا، يعرض تلك الفكرة الخاطئة التي كانت سائدة عرضاً واضحاً صحيحاً، ثم يردد عليها ردًّا مقنعاً شافياً.

يفهمها إلا من درس العلوم الكثيرة، وقرأ الكتب التي لا تحصى، ويكون علامة عصره.

ويرد الله تعالى عليهم فيقول: «**هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمَمِكَنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتَلَوُ عَلَيْهِمْ مَا يَبَرُّهُمْ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ**» [ال الجمعة : ٢].

فقد كان النبي ﷺ أمياً وأصحابه أميين، ولكن رسول الله ﷺ لما تلا على أصحابه آيات الكتاب الحكيم تركت بها قلوبهم، وصفت بها نفوسهم، فلو كان الأمي لا يمكنه أن يفهم القرآن والسنة، ولا يملك صلاحية لفهمه وإدراكه، فكيف يمكن للصحابة أن يتذكروا بها، ويتطهروا من الشرور والمجاذيف، ويا أسفى على قوم يدعون لهم (صدراء)^(١) وعلم (القاموس)^(٢) ولكتهم يظاهرون بأنهم مجرد جهلة فيما يتعلق بفهم القرآن والحديث.

ويقول بعضهم: نحن المتأخرن زمناً، فأئن لنا برؤاث عهد النبي ﷺ، وسلامة قلوب عهد الصحابة رضي الله عنهم حتى ندرك مغزى القرآن والحديث.

ويرد الله تعالى على ذلك: «**وَمَآخِرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوْهُمْ وَهُوَ أَعْرِيزُ الْحَكِيمِ**» [ال الجمعة : ٣] أي أن المتأخرين سواء كانوا متلقين أو أميين، إذا كانوا مسلمين، وعزموا على سلوك طريق الصحابة الميامين، وأصغوا بأذانهم إلى الكتاب والستة، فإنهم كفیلان لهم أيضاً بتزكية قلوبهم، وتصفية نفوسهم.

ويقول الله تعالى: «**وَلَقَدْ يَسِّرْتُ الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُّذَكَّرٍ**» [القمر : ٢٢] فكيف يتسىء لدارسي (الكافية)^(٣) وعلماء (الشافية)^(٤) أن يظاهروا بعجزهم عن فهم

(١) المراد به (شرح هداية الحكمة) للعلامة صدر الدين الشيرازي (١٠٥٠هـ)، ويعرف (بصدراء) في الأوساط الدراسية الحكيمية، ويعتبر كتاباً نهائياً مثالياً في العلوم الحكيمية.

(٢) القاموس المعحيط، للفقيه وآبادي (٨١٧هـ).

(٣) الكافية: كتاب في النحو، للعلامة ابن الحاجب (٦٤٦هـ).

(٤) الشافية: كتاب في الصرف، للعلامة ابن حاجب.

معنى هذا الكتاب الذي كان يفهمه العرب البدو، ويدركون حقيقته ومغزاه.

ويقول الله تعالى: «أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ» [محمد: ٢٤]، فلو لم يكن القرآن ميسراً كيف يتمكن من التدبر فيه؟ «أَمْ عَلَى قُلُوبِ أَفْفَالِهِمْ» [محمد: ٢٤]، ورغم أنه ليست على قلوبهم أفالها، فلماذا لا يعمِّلون عقولهم في تدبُّره ولا يتفكرون؟^(١).

لقد قرر الإمام الذهلي - نظراً إلى فساد الذوق وانحراف الفكر وقلة التوفيق وسوء الفهم الذي كاد يصل إلى حدود: «وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ» [الأنفال: ٤٧] - أن يقوم بنقل معاني القرآن الكريم إلى اللغة الفارسية السهلة، التي كانت - منذ قيام الحكومة الإسلامية في الهند - لغة البلاد الإدارية والعلمية والتاليفية، ولغة المكاتب والمراسلات، وكل مسلم مثقف إن لم يكن يستطيع أن ينطق بها، فلا أقل من أن يفهمها، ولو كانت هناك عشرات من ترجم القرآن الكريم باللغة الفارسية في عهد سيادتها الذي يمتد إلى سبعة قرون لم يكن ذلك مما يثير العجب، ولكن الغريب أننا لا نعثر على أي محاولة لنقل القرآن الكريم إلى اللغة الفارسية قبل ترجمة الشيخ حسن بن محمد القمي المعروف بالنظام النيسابوري، ثم الدولة آبادي - الذي كان من علماء القرن الثامن - وهذه الترجمة للنисابوري مضبوطة مع تفسيره للقرآن الكريم بالعربية المعروف بـ(غرائب القرآن).^(٢).

وكانت هناك ترجمة معروفة بترجمة الشيخ سعدي، وهي وإن لم تكن سائدة متداولة كمؤلفاته الشهيرة المتداولة (كلستان) و(بستان)^(٣)، ولكنها كانت توجد في بعض المواضيع، إلا أن نسبتها إلى الشيخ سعدي غير صحيحة، والحقيقة أنها ترجمة السيد شريف علي الجرجاني (ت ٨١٦هـ)، فقد صرَّح الشيخ عبد الحق

(١) انظر: (جائزة ترجم قرآنی) (استعراض الترجمات للقرآن الكريم) طبع مجلس معارف القرآن، دار العلوم دیوبند، ص ١٣ - ١٤.

(٢) تحفة الموحدين، طبع المكتبة السلفية، شيش محل روده لاهور.

(٣) كتاب نالا من القبول في تعليم اللغة الفارسية وأدبها ما لم ينزله أي كتاب في شبه القارة الهندية.

حقاني مؤلف (التفسير الحقاني) عن مشاهدة وعيان:

«الترجمة التي ينسبها الجهلة إلى الشيخ سعدي هي في الحقيقة ترجمة السيد شريف، وقد نسبها صاحب المطبعة أمامي إلى الشيخ سعدي لنشرها وترويجها»^(١).

وعلى كلّ، فإنَّ الإمام الذهلي قد اطمأنَ بعد عودته من الحجاز بخمسة أعوام (ولعل ذلك بعد ما شاهد من نتائج الجهود المبذولة لإصلاح العقائد عن طريق التدريس للخاصة، وإلقاء الدروس العامة، والوعظ والإرشاد) إلى أنه لا طريق أبلغ وأقوى تأثيراً للإرشاد العام، وإصلاح العقائد، وتنمية الصلة بالله تعالى من نشر تعاليم القرآن الكريم، وإرشاداتاته ودعوته، وتبلیغها إلى الناس بطريقة مباشرة، وليس هناك لذلك إلا وسيلة واحدة، وهو نقل معاني القرآن الكريم باللغة الفارسية (لغة البلاد الرسمية السائدة) ونشرها، وهو الذي شاع التعبير عنه بـ(الترجمة)، واسمع عن تاريخ هذه الخطوة الجريئة والأسباب والدوافع إليها من الإمام الذهلي نفسه، يقول في مقدمة تفسير (فتح الرحمن):

«إنَّ هذا العصر الذي نعيشُه، وهذه البلاد التي نسكنُها تقتضي فيها مصلحة المسلمين ونصحح لهم أن تُنقلَ معاني (القرآن الكريم) إلى اللغة الفارسية السلسة (من دون تنميق وتحجير وتظاهر بالفضل وذكر للقصص المتعلقة ووجوه التأويل) حتى يفهمها العامة والخاصة على قدم سواء، ويدرك الصغار والكبار جميعاً معاني (القرآن الكريم) ومطالبه، وقد ألتى الدافع إلى هذا العمل في روعي، وأضطررت إليه اضطراراً.

وقد أقيمت نظرةً فاحصةً على الترجمات السابقة، حتى إذا كان بعضها على المستوى اللائق المطلوب أكتفي بنشرها وترويجها، ولا بدَّ أن تكونَ هذه الترجمة منسجمةً مع ذوق أهل هذا العصر إلى حدَ المستطاع، ولكن هذه الترجمات إما طويلة مملة، أو قصيرة مخللة.

(١) البيان في علوم القرآن (مقدمة التفسير الحقاني)، للعلامة عبد الحق حقاني، ص٥٧.

وقد تحقق لي أثناء ذلك ترجمة الزهراوين (سوري البقرة والنساء)^(١) ، ثم صادقي السفر إلى الحرمين الشريفين ، وانقطع ذلك العمل ، ثم بعد عدة أعوام بدأ بعض الأحبة يقرأ على ترجمة القرآن ، فأصبح هذا الدرس باعثاً على العزيمة الأولى ، وتقرر أن تقيد الترجمة قدر الدرس اليومي ، فلما تمت ترجمة الثالث من (القرآن الكريم) ، وقع لهذا العزيز سفر ، وتوقف عمل الترجمة ، ثم جاءت مناسبة أخرى بعد مدة من الزمن ، وعادت الإرادة القديمة من جديد ، وتمت الترجمة إلى الثنائيين .

وعهد إلى بعض الأصدقاء بتبييض المسودة ، وأن يكتبوا معها متن القرآن الكريم أيضاً ، حتى تهيا نسخة مستقلة (للقرآن الكريم مع الترجمة) ، فبدأ هذا الصديق السعيد تبييض المسودة من عيد الأضحى عام ١١٥٠ هـ ، فتحرك العزم ، وعاد الدافع ، وكملت الترجمة إلى آخر القرآن الكريم ، ووقع الفراغ من التسويد في أوائل شعبان وبيضت المسودة عام ١١٥١ هـ ، ونشرت عام ١١٥٦ هـ بعنوان الأخ العزيز الشيخ محمد أمين - أكرمه الله تعالى بشهوده - ويدئ بتدريسهها ، وتهيا لها عدد من النسخ ، واسترعت انتباه المعاصرين ، والحمد لله تعالى على أن ذلك النتش الذي نقش في قلبي ، قد ظهر - أخيراً - من وراء ستار التقدير»^(٢) .

وقد كتب الإمام الدهلوi عدا هذه الترجمة والتفسير المسمى (فتح الرحمن) مقدمة في أصول الترجمة كذلك ، وهي - رغم وجازتها وقصرها - مقدمة فاضلة تحتوي على فوائد جمة ، يقول في بدايتها :

«يقول الفقير إلى رحمة الله الكريم ، ولـي الله بن عبد الرحيم ، إنها رسالة في قواعد الترجمة وأصولها مسماة (المقدمة في قوانين الترجمة) ، وقد جرى بضبطها القلم أثناء كتابة ترجمة القرآن الكريم»^(٣) .

(الناشر)

(١) الزهراوan : البقرة وآل عمران كما في القاموس.

(٢) مقدمة فتح الرحمن ، طبع دهلي ١٢٩٤ هـ.

(٣) توجد مخطوطةها في مكتبة ندوة العلماء وتشتمل على ست صفحات بالقطع الكبير.

ويخيل إلينا أنَّ الصخرة الصلدة التي كانت تحول دون (القرآن الكريم) ونشره بين الناس أُزيحَت بهذه الخطوة الجريئة التي قامت بها شخصية جليلة كالإمام الذهلي (التي كانت طبقة أصحاب العلم والفكر الصحيح في عهده مجتمعةً كلَّها - تقريباً - على تبحره في العلم، وجمعه للفضائل والمحاسن، ومنزلته الروحية العالية وإخلاصه وتجرده) وفتح الطريق، ولم يزل يحدث، ويتسلى في التاريخ الإسلامي أنَّ شخصية كبيرة ذات شأن إذا بدأت بعمل كانت تحرم حوله الريب والظنون، تنقشع عنه بسببه سحب الريب والظنون وسوء الفهم، وينفتح الطريق العام، وإن مشاركة الإمام أبي الحسن الأشعري في البحوث الكلامية، واستخدامه الاستدلال العقلي، ودراسة الإمام الغزالى للفلسفة، وتتقىحها والرد عليها، وكثير من مثل هذه الأعمال والخطوات التي قام بها كبار العلماء والمخلصين حسب مقتضيات عهدهم للحفاظ على الإسلام أو الدفاع، كلها أمثلة رائعة في هذا الصدد.

الترجمات الأرديّة للقرآن الكريم بعد الإمام الذهلي:

وقد أمست الحاجة - سريعاً - بعد ترجمة الإمام الذهلي بالفارسية إلى ترجمة القرآن الكريم باللغة الأرديّة، إذ إنَّها كانت بدأت في الجزء الأخير من القرن الثاني عشر الهجري نفسه تحلَّ محلَّ اللغة الفارسية، ويدعى فيها بعمل الكتابة والتأليف، وقد شعر بهذه الحاجة الماسة وتغير الوضع أول ما شعر الشيخ عبد القادر الذهلي (ت ١٢٣٠ هـ) ابن الإمام الذهلي نفسه، وقام بترجمة القرآن الكريم عام ١٢٠٤ هـ إلى اللغة الأرديّة الأدبية التي يمكن أن يقال عنها: إنه ليس في علمنا أنَّ محاولة نقل معاني القرآن الكريم إلى غير العربية بلغت من النجاح والسهولة والجمال وتناولت روح الأنفاظ القرآنية إلى الحد الكبير، ما بلغته هذه الترجمة. يقول الشيخ عبد القادر في مقدمة ترجمته هذه:

«لقد جال في خاطر هذا الفقير عبد القادر أنَّ والدنا الجليل الشيخ ولی الله ابن الشيخ الكبير الشيخ عبد الرحيم العالم بال الحديث ومن أبناء الهند كما ألف ترجمة (القرآن الكريم) بالفارسية بتسهيل و تيسير (كذلك يعلم هذا العبد الفقير

بالأردية)، وأحمد الله تعالى على أن هذه الأمانة تحققت عام ١٢٠٥ هـ (الموافق ١٧٩٠^(١)).

ثم قام الشيخ رفيع الدين (ت ١٢٣٣ هـ) أخ الشيخ عبد القادر الأكابر بترجمة القرآن الكريم - مع مراعاة ترجمة كل لفظة بلفظة وحرف بحرف - التي نالت - بجوانب حيّتها البارزة، وتبصر مؤلفها في العلم وإخلاصه - قبولاً ورواجاً كبيراً، فنالت ترجمة الشيخ عبد القادر، السلسلة المتراصة، القبول والرواج في بعض الأوساط، وترجمة الشيخ رفيع الدين القبول والرجحان في أوساط أخرى.

وقد انتشرت وعمت هاتان الترجمتان في بيوت المسلمين، وعمت قراءتهما مع تلاوة القرآن الكريم انتشاراً لا مثيل له في أي كتاب ديني آخر.

أما فيما يتعلّق بتصحيح العقائد وتبلیغ عقيدة التوحيد الخالصة ونشرها، فلا يحصى كم من مستفيد ومنتفع بهاتين الترجمتين، فإنّ عددهم يتجاوز مئات الآلوف، والحق أنّ أية حكومة إسلامية بوسائلها وأسبابها لا تستطيع أن تقوم بما قامت به هذه الترجمات الثلاث في مجال الدعاة والإصلاح، وهي كلّها أغانٌ دوحة واحدة وفروع شجرة الطوبى: «ذلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتَهُ مَن يَشَاءُ» [المائدة: ٥٤].

ثم سال سيل الترجمات الأردية التي يصعب إحصاؤها واستقصاؤها، ويتطّلب بحوثاً تحقيقية علمية مستقلة^(٢).

دروس القرآن الكريم:

وعلاوة على هذه الترجمات الأردية للقرآن الكريم التي قام بها شيخان جليلان من أفراد هذه الأسرة الكريمة الشيخ عبد القادر الدهلوi والشيخ رفيع الدين الدهلوi، والتي ظلت تقرأ وتدرس في البيوت حيث كانت اللغة الأردية لغة

(١) موضع القرآن: ٢ / ١.

(٢) بين أيدينا الآن كتاب جائزة ترجم قرآنی (استعراض الترجمات القرآنية)، بلغت فيه عدد الترجمات (بعد هاتين الترجمتين للشيخ عبد القادر والشيخ رفيع الدين) التي استعرضها المؤلف وعرف بها بياجاز خمساً وخمسين ترجمة.

النطق والكتابة في الهند، كان هناك الجهد الطويل الجاد، المؤثر العميق البليغ لتصحيح العقائد وإصلاح الأعمال والأخلاق عن طريق إلقاء دروس القرآن الكريم العامة، وشرحه وتفسيره شفوياً.

وقد تحقق ذلك على يدي أكبر أبناء الإمام الدهلوi، والمسلط بآباء أعماله التجددية والإصلاحية، وتوسيع نطاقها وتمكيلها بعده الشيخ عبد العزيز الدهلوi (١٢٣٩هـ) الذي استمر اثنين وستين، أو ثلاثة وستين سنة، يلقي دروسه المؤثرة في القرآن في مدينة مركزية كالعاصمة دهلي، وفي عهد خطير كالقرن الثالث عشر الهجري، وما كسبت هذه الدروس من نجاح وقبول، وما تحقق بها من إنجازات كبيرة في تصحيح العقائد والمفاهيم لا يوجد له في علمنا أي نظير ولا مثيل.

(الفوز الكبير في أصول التفسير):

إن كتاب الإمام الدهلوi (الفوز الكبير) مأثرة تجدیدية ثورية في صدد الدعوة إلى القرآن، وإنشاء ملکة الفهم والتدبیر للقرآن الكريم في أوساط الخاصة وأصحاب العلم والمثقفين، وإيقاظ عاطفة الإصلاح للأمة الإسلامية، وإنه لكتاب فريد (في المكتبة الإسلامية العاملة حسب علمنا) في بابه.

لا يوجد في أصول التفسير شيءٌ مستقل بصفة عامة، وما هي إلا بعض القواعد والضوابط، وشيءٌ من الأصول يذكرها بعض المفسرين في مقدمة تفاسيرهم، أو لبيان منهجهم في التفسير والتأویل في بضعة سطور، وإن كان كتاب الإمام الدهلوi (الفوز الكبير في أصول التفسير) أيضاً وجيزاً مختصراً، ولكنه كلّه نقاط أساسية وكليات جامعة، وهو - في الحقيقة - مذكرة نادرة قيمة لعالم جليل عانى مشكلات القرآن، ومارسها ممارسة المجرّب الخبير.

ولا يقدّره حق قدره إلا من واجه هذه المشكلات والمسائل العويصة، وإن بعض الأصول والكليات التي سجلها الإمام الدهلوi بناءً على ذوقه ووجوداته وإدراكه لمغزى القرآن لا يمكن الحصول عليها بمطالعة مئات الصفحات في

الكتب الأخرى، وإن تصريح الإمام الذهلي في مقدمة هذا الكتاب بما يلي، صحيح منها في المئة:

«يقول الفقير إلى الله، ولِي الله بن عبد الرحيم - عاملهما الله تعالى بلطفة العظيم - إنَّه لما فتح الله تعالى عليَّ باباً من كتابه الحكيم، خطر لي أنْ أقيِّدَ الفوائد النافعة التي تنفع إخواني في تدبُّر كلام الله عزَّ وجلَّ، وأرجو أنْ مجَرَّدَ فهم هذه القواعد يفتح للطلاب طريقةً واسعاً إلى فهم معاني كتاب الله تعالى، وأنَّهم لو قصوا أعمارهم في مطالعة كتب التفسير أو قراءتها على المفسرين - على أنَّهم أقلَّ قليل في هذا الزمان - لا يغفرون بهذه القواعد الضابطة والمضامين المتراقبة»^(١).

إنَّ ما كتبه الإمام الذهلي في مقاصد القرآن الكريم وموضوعاته، وخصائص أسلوبه ومنهجه، واختلافه وتميزه عن المؤلفات البشرية، لا سيما كتب المتأخرین الدراسیة، وأسباب التزول في كلمات قليلة معدودة، يمكن أن لا يشعر فيه - اليوم - بالجدة والابتکار، ولكنها كانت في القرن الثاني عشر آراء ونظارات جديدة، ولا تزال هذه الآراء غریبة مجھولة في كثير من الأوساط.

لقد وقع هناك نقص كبير وفرق هائل - نتيجة كثرة الروایات المتعلقة بأسباب التزول، والتأكيد على أهميتها، والتركيز عليها، الذي كان أصبح شعار القرون المتأخرة - في الاستفادة من مضامين القرآن العظيم وقصصه، والانتفاع بعظاته وعبره في كل عصر ودور من أدوار التاريخ، وتطبيقاتها على ظروف العصر وأوضاعه وقضاياها.

فقد أزاح الإمام الذهلي بهذا التحقيق والتنقيح ذلك الستار الكثيف، وكشف عن جمال القرآن الكريم وبهائه ورونقه.

يقول الإمام الذهلي في الباب الأول من كتابه: (الفوز الكبير):

«وقد ربط عامة المفسرين كلَّ آيةٍ من آيات الأحكام وأيات المخصوصة بقصة تروى في سبب نزوله، وظنوا أنها هي سبب التزول.

(١) الفوز الكبير.

والحق أن نزول القرآن الكريم، إنما كان لتهذيب النفوس البشرية، وإزالة العقائد الباطلة والأعمال الفاسدة.

فالسبب الحقيقي - إذن - في نزول آيات المخاصمة هو وجود العقائد الباطلة في نفوس المخاطبين.

وبسبب نزول آيات الأحكام، إنما هو شيوع المظالم، ووجود الأعمال الفاسدة فيهم.

وبسبب نزول آيات التذكير (بلاء الله وأيامه وبالموت) إنما هو عدم تيقظهم وتنبههم بما يرون ويمرون عليه من آلاء الله وأيامه وحوادث الموت، وما سيكون بعده من وقائع هائلة.

أما الأسباب الخاصة والقصص الجزئية التي تجسّم بيانها المفسرون، فليس لها دخلٌ في ذلك إلا في بعض الآيات الكريمة التي تشتمل على تعریض بحادث من الحوادث في عهد النبي ﷺ أو قبله، بحيث يقع القارئ بعد هذا التعریض في ترقب وانتظار لما كان وراءه من قصة أو حادث أو سبب، ولا يزول ترقبه إلا ببسط القصة وبيان سبب التزول^(١).

وإنَّ بيان مواضع الضعف في الفرق التي تكفلَ القرآنُ الكريم بالردّ عليها، والتصریح بعقائدها وأفکارها وأرائهم الصحیحة الأصلیة، وأسباب ضلالها وانحرافها، وسوء فهمها للحقيقة، وتاريخ هذه الأسباب، وبيان اتفاق وتطبیق هذه الأمور على بعض طبقات المسلمين - هو الأساس الأول لفهم القرآن الكريم الذي لا يوجد - رغم الاختصار والإيجاز - بهذا الوضوح في أيٍّ من التفاسير الكبيرة كما يوجد في هذا الكتاب.

وكذلك شرح الفرق بين اصطلاحات المتقدمين والمتاخرین في النسخ والتطبيق والتوفيق بين الآيات الناسخة والمنسوخة، وحل الخلافات التفسيرية بين الصحابة والتابعین، من بحوث الإمام الذهلي الجيدة النادرة.

(١) الفوز الكبير، الباب الأول، ص ٤-٣.

وإنما ذكره الإمام الذهلي من توجيهه لعدم مطابقة بعض الآيات القرآنية مع قواعد النحو الظاهرة المعروفة وعدم موافقتها لها، يعرف قدره وأهميته من درس تاريخ تدوين النحو، وكان له اطلاع واسع على الخلافات النحوية بين مدرستي الكوفة والبصرة.

وإن من أكبر ميزات هذا الكتاب أن القارئ يطلع من خلاله على مواطن الضعف الحقيقة في الديانات السابقة، والفرق الصالحة، والشعوب والمملل، وأمراضها القديمة، وعللها الموروثة، ويوفق أجيال المسلمين، والمجتمع المسلم في كل عصر وطبقات الأمة المختلفة أن ترى وجهها في مرآة القرآن الكريم، وتحاسب نفسها، وتتفكر في أن لا تسرب أمراض الديانات والفرق القديمة ومواطن ضعفها المتواترة إليهم، ولا تدخل بخطى صامتة عليهم.

﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرٌ كُلُّ أُفَلَّاقٍ تَقْرَئُونَ﴾ [الأنياء: ١٠].

التحقيق والتنقيح العلمي لمسألة التوحيد:

لم يقتصر الإمام الذهلي في سبيل تصحيح العقائد والمفاهيم والدعوة إلى التوحيد الخالص على ترجمة القرآن الكريم وإلقاء الدروس فيه، بل درس هذا الموضوع كعالِم وباحث محقق دراسة واقعية موضوعية.

لقد كانت عقيدة التوحيد شعار الملة الإبراهيمية الأكبر، والمقصد الأعظم للدعوة سيدنا إبراهيم عليه السلام وجهده، وأساس دعوة خاتم النبيين ﷺ ومبدأه ومتنهما، يشهد عليه القرآن الكريم كله، ومجاميع السنة والسيرة النبوية، لقد أقام بين التوحيد والشرك خطأً فاصلاً، وبينَ حقيقة التوحيد بياناً واضحاً، وجاهد ضد أي شائبة من شوائب الشرك وأي ظلٌّ خفيف من ظلاله، وسد باب كل ذريعة إلى تسرب الشرك في عقائد الأمة الإسلامية، ووقوع الضعف فيها، بما لا يتصور المزيد عليه، وهذه الحقائق كلها بدهية متواترة لا تحتاج إلى إيراد الشواهد والأدلة، وكل من له أدنى إلمام بالكتاب والسنّة يضطر إلى الاعتراف بها والإذعان لها.

ثم كيف تسربت هذه الأعمال والمعتقدات الشركية بعد مضي القرون

المشهد لها بالخير، وفتح بلاد جديدة، وإقبال أهلها على الإسلام، والاختلاط بالشعوب غير الإسلامية ومجاورتها، ومضي الدهور والأعصار، إلى طبقة كبيرة من العامة، وكيف تمكنت من الحصول على مكانها مع كثير من شعائر التوحيد وعلماته في المجتمع المسلم؟

وكيف تجاسر كثير من أدباء العلم على احتمالها، وتوجيهها وتأويلها وتحليلها، وكيف وقع كثير من المسلمين المثقفين أسري هذه المغالطات، والتأويلات؟ .

إن السبب في ذلك عند الإمام الذهلي يرجع إلى عدم الإدراك والفهم لحقيقة الشرك وحقيقة معتقدات المشركين، لا سيما المشركين العرب في الجاهلية عن كون الله تعالى خالق الكون، ومدير الأمور العظام، وقد فهمت الطبقة الكبيرة من العامة حقيقة الشرك على أنه إشراك كائن (سواء كان حياً أو ميتاً) مع ذات الله تعالى على قدم سواء، وأن يجعل له ند ومتلئ، تنسب إليه جميع صفات الله تعالى وأفعاله، ويعتقد بأنه هو الخالق، الرازق، والمحبي والمميت، حقيقة وأصلاً .

أما نسبة بعض صفات الله تعالى إلى بعض عباده المقربين عنده، واعتقاد صدور بعض الأفعال (التي هي خاصة بالله تعالى) منهم، وتوليتهم بعض أمور القدرة المطلقة، وتخوילهم بعض حقوقه بإذنه ورضاه، كل ذلك لا ينافي عندهم التوحيد، ولا يرافق الشرك، كذلك كانوا يعتقدون أن تقديس أحد لمحض التزلف إلى الله تعالى تقديساً بالغاً، ومعاملته بأعمال وهيئات تدخل في حدود العبادة والتاليه، لا علاقة له بالشرك، إذ إنّه مجرد وسيلة من الوسائل للحصول على رضا الله تعالى، وطريق نافع مؤثر للوصول إلى حضرة الجلالـة (التي لا يصل إليها أيّ بشرٍ عادي) وكان الكفار العرب يقولون: «مَآتَبْدِهُمْ إِلَّا لِيُقْرِبُوْنَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى» [الزمر: ٣].

كانت هذه هي المغالطة والتلبيس الذي جرّ كثيراً من أفراد هذه الأمة إلى حمى الشرك المحرّمة، وقد تخطّوا ذلك الخط الأخير الذي هو الحد الفاصل

(line of demarcation) بين الشرك والتوحيد، ولذلك فإن أول وأهم حاجة في هذا الصدد أن يعلم ما هي تلك العقيدة التي كان يدين بها المشركون العرب والجاهليون حقيقة؟ وماذا كانوا يعتقدون في ذات الله تعالى وصفاته؟ ولماذا اعتبرهم رسول الله ﷺ مشركين رغم كونهم يعتقدون أن الله تعالى خلق الكون، وخلق الأرض والسماءات، وأنه صاحب القدرة المطلقة، وأعلن القرآن الكريم أنهم مشركون؟ .

يقول الإمام الذهلي في كتابه العديم النظير (الفوز الكبير في أصول التفسير) :

«والشرك هو إثبات الصفات الخاصة بالله تعالى لغيره، مثل إثبات التصرف المطلق في الكون، بالإرادة المطلقة، التي يعبر عنها بـ(كن فيكون) أو إثبات العلم الذاتي، الذي يحصل بالاكتساب عن طريق الحواس، والدليل العقلي والمنام والإلهام، وأمثال هذه من الوسائل المادية أو الروحية، أو إثبات إيجاد شفاء المريض، أو إثبات اللعنة على شخص، أو السخط عليه، بحيث ينقلب نتيجة هذا اللعن والسخط معدماً فقيراً، أو مريضاً أو شقياً، أو الرحمة لشخص والرضا عنه، بحيث ينقلب هو بسبب هذه الرحمة والرضا غنياً صحيحاً معافياً سعيداً».

وهو لاء المشركون لا يعرفون مع الله تعالى شريكاً في خلق الجواهر (أي أصول المادة) وتدير الأمور العظام، ويعرفون بأنه لا قدرة لأحد إذا أبرم الله تعالى شيئاً وقضى أن يمانعه، ويقف دونه، إنما كان إشراكهم في أمور خاصة ببعض العباد، إذ إنهم يظنون أن سلطاناً عظيماً من السلاطين العظام كما يرسل عبيده وأصحاب الزلفى لديه إلى بعض نواحي مملكته للقيام ببعض الأمور الجزئية، وأنه لا يقوم بشؤون الرعية وأمورهم الجزئية بنفسه، بل يكل ذلك إلى الولاة والحكام، ويقبل منهم شفاعتهم، وتزكيتهم للموظفين، الذين يعملون تحت إشرافهم، والمتصلين بهم، والمترافقين لديهم، كذلك قدخلع ملك الملوك على الإطلاق - تعالى شأنه - على بعض عباده المقربين، خلعة الألوهية، وجعل سخطهم أو رضاهم مؤثراً في عباده الآخرين .

فكانوا - لأجل ذلك - يرون من الضرورة التزلف إلى أولئك العباد المقربين حتى يكون هذا وسيلة لصلاحية القبول في حضرة الملك الحقيقى ، وتناول شفاعتهم في حقهم - عند الجزاء على الأعمال والحساب - الحظوة والقبول عند الله سبحانه .

ونظراً لهذه الملاحظة والتصور الذي رسم في نفوسهم ، حدثتهم أنفسهم بالسجود أمامهم ، والذبح لهم ، والحلف باسمائهم ، والاستعانة بقدرتهم المطلقة ، وفتح صورهم وتماثيلهم من حجر وصفر ونحاس وغير ذلك ، وجعلها قبلة للتوجه إلى أرواحهم ، وتدرج الجهلة من هذا الطريق إلى أن بدؤوا يعبدون هذه الصور والتماثيل ، ويعتقدون أنها آلهة بذاته ، وقع في المعتقدات خلط والتباس وفساد عظيم «^(١)».

ويقول أيضاً في (حجۃ الله البالغة) :

«حقيقة الشرك أن يعتقد إنسان في بعض المعتظمين من الناس أنَّ الآثار العجيبة الصادرة منه إنما صدرت لكونه متصفًا بصفة من صفات الكمال مما لم يعهد في جنس الإنسان ، بل يختص بالواجب - جل مجده - ولا يوجد في غيره إلا أن يخلع هو خلعة الألوهية على غيره ، أو يفني غيره في ذاته ، ويبيح ذاته ، أو نحو ذلك ما يظنه هذا المعتقد من أنواع الخرافات ، كما ورد في الحديث : «إنَّ المشركين كانوا يلبون بهذه الصيغة : ليك لبيك لا شريك لك إلَّا شريكًا هو لك تملكه وما ملك» فيتذرَّل عنده أقصى التذرُّل ، ويعامل معه معاملة العباد مع الله تعالى» «^(٢)».

ويقول كذلك - وهو يبين حقيقة إشراك المشركين ، ويصرح بأنه كان هناك أمور مشتركة بين المشركين وبين المسلمين ، فقد كان المشركون العرب لا ينكرون وجود الله تعالى ومكانته المتفردة ، وقدرته المطلقة ، وكانوا يرون أنَّ المقربين لديه والمحبوبين عنده يشاركونه في بعض الصفات والحقوق - وذلك أيضاً بإذنه

(١) الفرز الكبير ، ص ٧-٨ .

(٢) حجۃ الله البالغة : ٦١ / ١ ، باب أقسام الشرك .

ورضاه - ولأجل ذلك كانوا يعاملونهم معاملة العبودية والخضوع - يقول تحت (باب التوحيد):

«والمسركون وافقوا المسلمين في تدبير الأمور العظام، وفيما أبرم وجذم، ولم يترك لغيره خيرة، ولم يوافقوهم فيسائر الأمور، ذهبوا إلى أن الصالحين من قبلهم عبدوا الله تعالى وتقرّبوا إليه، فأعطاهم الله الألوهية، فاستحقوا العبادة من سائر خلق الله، كما أن ملك الملوك يخدمه عبده، فيحسن خدمته، فيعطيه خلعة الملك، ويفوض إليه تدبير بلد من بلاده، فيستحق السمع والطاعة من أهل ذلك البلد، وقالوا: لا تقبل عبادة الله تعالى إلا مضمومة بعبادتهم، بل الحق في غاية التعالي، فلا تفيد عبادته تقربا منه، بل لا بد من عبادة هؤلاء، ليقربوا إلى الله زلفى، وقالوا: هؤلاء يسمعون ويتصرون ويشفعون لعبادهم، ويدبرون أمرهم وينصرونهم، فتحتوا على أسمائهم أحجاراً، وجعلوها قبلة عند توجههم إلى هؤلاء، فخلف من بعدهم خلف، فلم يفطنوا للفرق بين الأصنام وبين من هي على صورته، فظنواها معبودات بأعيانها»^(١).

ويقول في موضع آخر:

«لقد كان المشركون يعتقدون بأنه لا شريك لله تعالى في خلق السماوات والأرض، وما فيها من الجواهر، ولا شريك له في تدبير الأمور العظام، وأنه لا رأد لحكمه، ولا مانع لقضائه إذا أبرم وجذم، وهو قوله تعالى: ﴿وَإِنْ سَأَلْتُهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لِيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [العنكبوت: ٦١]، وقوله تعالى: ﴿بَلْ إِنَّمَا تَدْعُونَ هَيْكَلَشَفَ مَا تَدْعُونَ﴾ [الأنعام: ٤١]، وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَدَعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٦٧]، لكن كان من زندقتهم قولهم: «إن هنالك من تدعون إلّا إياه»، لكن كأن من زندقتهم قولهم: «إن هنالك أشخاصاً من الملائكة والأرواح تدبّر أهل الأرض فيما دون الأمور العظام من إصلاح حال العابد فيما يرجع إلى خويصة نفسه وأولاده وأمواله» وشبهوهم بحال الملوك بالنسبة إلى ملك الملوك، وبحال الشفعاء التダメاء بالنسبة إلى السلطان المتصرف بالجبروت، ومنشأ ذلك ما نطق به الشرائع من تفويض الأمور إلى

(١) حجة الله البالغة: ١/٥٩، باب التوحيد.

الملائكة، واستجابة دعاء المقربين من الناس، فظنوا ذلك تصرفًا منهم كتصرف الملوك قياساً للغائب على الشاهد، وهو الفساد»^(١).

وهكذا توصل الإمام الدهلوi إلى جذور الأعمال والعقائد الشركية التي كان يخوض فيها العامة والخاصة الذين هم أشباه العامة، وكشف عن المغالطة التي جرّت كثيراً من الجهلة وأدعياء العلم إلى الوقوع في شرك هذه الأعمال والتقاليد وشعائر الشرك، والنذر والذبح لغير الله والصيام، بأسماء الأولياء والصالحين، ودعائهم، والسؤال منهم والالتجاء إليهم، والخوف والرجاء منهم، والاستمداد والاستعانة بهم، وتعظيم قبورهم، وكل ما يمثّل إليهم بصلة كتعظيم بيت الله تعالى، والحرم والمحرم، والالتزام بآدابه واعتقاد تصرفهم - ولو جزئياً - في الكون، وتأثيرهم في شقاء الإنسان وسعادته، وصحته ومرضه، وسعته وإقتاره، وكانوا قد حرموا من العمل لقوله تعالى: «فَأَعْبُدُ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ أَلَّيْكُنَّ» [الزمر: ٢]، وكرامة الإنابة والإيجابات والتوكّل على الله تعالى والانقطاع إليه، إذا سمع الإنسان بعض أخبارهم وشاهد بعض أعمالهم تذكر الآية الكريمة: «وَمَا يُؤْمِنُ أَكْبَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ» [يوسف: ١٠٩].

ولو لم تكن للإمام الدهلوi وأخلاقه مأثرة غير هذا التجديد لعقيدة التوحيد وتنقيحها وتوضيحها ونشرها وترويجها، وإزالة ما علق بها من سوء فهم وتصورات خاطئة، لكفى ذلك في عدّه من المجددين في هذه الأمة.

ولكن له مع ذلك أعمال وآثار، سيبأتي تفصيلها في الصفحات التالية:

بيان العقائد وشرحها في ضوء الكتاب والسنة، وعلى منهج الصحابة والسلف الصالح:

لقد كان للإمام الدهلوi - علاوةً على هذه المأثر التجددية الأساسية التي كانت تتعلق بال المسلمين - عامة - والمجتمع الإسلامي كله، والتي يشك بدونها في

(١) حجة الله البالغة: ١٢٥ / ١ ، باب (ما كان عليه أهل الجاهلية فأصلحه النبي ﷺ).

الهداية والنجاة، و تستحيل نصرة الله تعالى وتأييده، مأثرة علمية وإصلاحية جزئية، هي أنه قام ببيان العقائد الإسلامية وشرحها في ضوء الكتاب والستة، ودعا في هذا المجال إلى تطبيق منهج الصحابة والسلف الصالحين رضي الله عنهم وذوقهم ومشريهم، وقد بدأ بهذا العمل، وقدّم مثالاً عملياً.

لقد كان العالم الإسلامي في حاجة إلى أولئك النوابغ من المفكرين والمتقددين بالنصوص من المجتهدين الذين يستطيعون أن يواجهوا آراء الفلسفة وال فلاسفة ونظرياتهم (التي كان لها تأثيرٌ كليٌ على علم الكلام نفسه) مواجهة النّدّ، يؤمّنون بالقرآن كما نزل، ويعتقدون في صفات الله تعالى وأفعاله بما يقوله هو عن نفسه دون تأويل أو تحريف و تعطيل ، ويفسرون هذه الحقائق تفسيراً يؤيده العلم الصحيح والأدلة الشرعية في جانب ، ويعرف به العقل الصريح والمنطق الصحيح في جانب آخر ، ولم يكن لذلك إلا العلماء الربانيون الذين تربوا و تخرجوا في مدرسة القرآن الكريم مباشرة ، واقتبسوا النور من مشكاة النبوة الصافية ، وكانوا - مع معرفتهم الواسعة و احاطتهم بعلوم الفلسفة والبحوث والتديقات الكلامية ملتزمين في مجال العقائد بكتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ المتواترة ، و يؤمّنون بالله تعالى وصفاته وأسمائه الحسنى ، التي تكفل هو بيانها في كتابه الحكيم ، وكان يصدق عليهـ كلّياً - تعريف العلماء الربانيين الذي ورد في الحديث الشريف :

«يَنْفُونَ عَنِ هَذَا الدِّينِ تَحْرِيفَ الْغَالِينَ، وَاتْخَالَ الْمُبْطَلِينَ، وَتَأْوِيلَ الْجَاهِلِينَ»^(١).

ولم يخلُ أي عصرٍ من عصور التاريخ الإسلامي من أمثال هؤلاء العلماء الربانيين ، ومن أبرزهم شيخ الإسلام الحافظ ابن تيمية الحراني (ت ٧٢٨هـ) في القرن الثامن الهجري ، وتلميذه النابغة العلامة ابن قيم الجوزية صاحب (زاد المعاد) (ت ٧٩١هـ) وآخرون من العلماء الأجلة ، الذين ساروا على هذا الدرب ، ولن يست قائمة أسمائهم طويلة .

(١) رواه البيهقي ، ولفظ الحديث : «يَحِيلُّ هَذَا الْعِلْمَ مِنْ كُلِّ خَلْفٍ عَذْلُهُ» ، ينفون عنه تحريف الغالين ... إلخ .

وإن كان بعد الإمام ابن تيمية من يمكن أن يصرّح باسمه في هذا المجال بكل ثقة واعتقاد، وأعماله ظاهرة معروفة في أوساط العلماء، فهو الإمام (ولي الله الدهلوi)؛ فقد كان يملك المقدرة الكافية لبيان العقائد وشرحها وعرضها وفق منهج الأولين، لأنّه كان درس الفلسفة اليونانية دراسة واسعة عميقه في جانب، وكانت الشروة العلمية لعلم الكلام بين يديه، بل في متناوله، وكان مفسراً دقيقاً النظر للقرآن الكريم، وعالماً بارعاً في علوم الحديث الشريف، وعارفاً بأسرار الشريعة وحكمها ومقاصدتها في جانب آخر، ولذلك فهو يقوم على الجادة المتوسطة بين (التأويل) و(اللغظة)، وكتابه (العقيدة الحسنة)^(١) يجمع بين عمق الدراسة وسهولة العبارة وطلاقتها، وإنّه لمن المتون الجامعة المحررة لعلم التوحيد (الذي يسمى الآن علم الكلام بصفة عامة) الذي احتوى على خلاصة عقائد أهل السنة والجماعة ولبابها الذي يجب أن يطلع عليه كلّ مسلم مثقف يعده نفسه ويعتبرها في أهل السنة، ويريد أن يجعل عقائد أهل السنة شعاره ومسلكه.

يقول الإمام في رسالة (وصاياه)^(٢)، (وهي باللغة الفارسية) :

«وصية هذا الفقير الأولى أن يتمسك المسلم في العقائد والعمل بالكتاب والسنة، ويغضّ عليهم بالتواجذ، ويعمل بهما - دائمًا - ويختار في العقائد منهج المتقدمين من أهل السنة، ويفوض في باب الصفات والأيات المتشابهات التي لم

(١) طبع هذا الكتاب باسم (العقيدة الحسنة) (بالفارسية) في مطبع (مفید عام) بأکره، وقام الأستاذ الفاضل الشيخ محمد أویس الندوi - عليه رحمة الله - شيخ التفسير بدار العلوم ندوة العلماء - سابقًا - بترتيبه مع تعليقاته وحواشيه (التي اقتبس أكثرها من المؤلفات الأخرى للإمام الدهلوi) باسم (العقيدة السنّية)، وطبع بمقدمة مؤلف هذا الكتاب في مطبع دار العلوم ندوة العلماء عام ١٣٨٢هـ الموافق عام ١٩٦٢م، وقد جاءت خلاصة هذا الكتاب في كتاب المؤلف (العقيدة والعبادة والسلوك)، يوجد بحث العقيدة الحسنة كله في (التحصيمات) للإمام الدهلوi، ولعله أفرد منه ونشر في رسالة مستقلة. انظر (التحصيمات الإلهية) : ١٤٤/١ - ١٤٨.

(٢) كان الإمام الدهلوi سقى هذه الرسالة (المراة الوضيعة في النصيحة والوصية) وقد نشرت ضمن رسائله الأخرى.

يُخْضُّ السَّلْفُ فِي تَفْصِيلِهَا وَالْبَحْثُ فِيهَا عَنْهُ، وَلَا يَلْتَفِتُ إِلَى تَشْكِيكَاتِ الْعَقَلَانِينَ الْمُتَكَاسِينَ».

ويقدّر منهج الإمام الذهلي في باب الأسماء والصفات ومسلكه فيها بهذه القطعة التي نقدمها فيما يلي :

«اعلم أن الحق تعالى أجل من أن يُقاسَ بِمُعقولٍ أو محسوسٍ، أو تحلّ في صفات كحلول الأعراض في محالها، أو تعالجه العقول العامية، أو تتناوله الألفاظ العُرُفية، ولا بد من تعريفه إلى الناس ليكملوا كمالهم الممكّن لهم، فوجب أن تستعمل الصفات بمعنى وجود غایاتها، لا بمعنى وجود مبادئها، فمعنى الرحمة إفاضة النعم، لا انعطافُ القلب والرقة، وأن تستعار ألفاظ تدل على تسخير الملك لمدينته، لتسخيره لجميع الموجودات، إذ لا عبارة في هذا المعنى أفصح من هذه، وأن تستعمل تشبیهات بشرط أن لا يقصد إلى أنفسها، بل إلى معانٍ مناسبة لها في العرف...»

وقد أجمعت الملل السماوية قاطبة على بيان الصفات على هذا الوجه، وعلى أن تستعمل تلك العبارات على وجهها، ولا يبحث عنها أكثر من استعمالها، وعلى هذا مضت القرون المشهود لها بالخير^(١).

ثم خاض طائفه من المسلمين في البحث عنها، وتحقيق معانيها من غير نصٍّ ولا برهان قاطع^(٢).

لقد كان العالم الإسلامي - منذ قرون - لا سيما تلك البلدان التي كانت تحت تأثير إيران علمياً وعقلياً ودراسياً، تسود فيها تلك التدقيرات الكلامية، وشق الشعرة، والتآويلات البعيدة - التي تتجزء إلى أن تصبح الذات الإلهية معطلةً ودون معنى ووصف - والاندھاش والتهيّب للفلسفة اليونانية الذي بلغ حدّ العبودية

(١) انظر : (الأسماء والصفات نقاً وعقلاً) للشيخ محمد الأمين الجكنى الشنقيطي . (الناشر)

(٢) حجّة الله البالغة : ٦٣ / ١ . باب الإيمان بصفات الله .

العقلية، وحد الاستخفاف والاستهانة فيما يتعلق بسلوك السلف ومنهجهم، فكان من أنصفَ منهم - في زعمه - وأخذَ بالاحتياط ، قال : «مذهب السلف أسلم ومذهب الخلف أحكم».

لقد كانت هذه الخدمة العلمية والجرأة من الإمام الدهلوi نظراً إلى هذه الخلفية العلمية والتاريخية ، إحدى مآثره وأعماله التجديدية الاجتهادية .

وقد كان هذا التأييد والانتصار لمنهج السلف في باب الأسماء والصفات وعدم الانسجام مع الفلاسفة المتكلمين (الذين أبعدوا النجعة في التأويلات) ويخيل - في بعض الأحيان - أنَّ أقوالهم تصل إلى حدود التعطيل في الصفات) وجبه وإجلاله للحديث والسنة المشرفة ، حافزاً للإمام الدهلوi على الدفاع عن الإمام ابن تيمية ، والاعتراف بجلالة شأنه ، وعلق مكانه ، فقد كانت شخصيته في القرون الأخيرة تدور حولها مناقشات وخلافات حادة ، بل كانت تستهدف لل شبكات والمطاعن ، لقد أثني عليه الإمام الدهلوi ثناءً عاطراً ، ودافعَ عنه في حماس ، يقول في (التفهيمات الإلهية) :

«وليس شيء منها إلا ومعه دليله من الكتاب والسنة ، وأثار السلف ، فمثل هذا الشيخ عزيزُ الوجود في العالم ، ومن يطيقُ أن يلحق شاؤه في تحريره وتقريره؟ ، والذين ضيقوا عليه ما بلغوا معاشر ما آتاه الله تعالى»^(١).

* * *

(١) (جلاء العينين) ، ص ٤٦ ، نقلًا عن (التفهيمات الإلهية)؛ وللإمام الدهلوi رسالة مطبوعة مستقلة باسم (مناقب الإمام ابن تيمية) ، وهي رسالة وجهها إلى أحد أصحابه.

الفصل الثاني

القيام بنشر أحاديث الشرف والسبة المشرفة والدعوة إلى التوفيق بين أحاديث وآفاقه وأجهود في سبيله

أهمية الحديث الشريف والحاجة إليه في كل عصر ومصر:

لقد قام الإمام الدهلوi في شبه القارة الهندية وفي عهدها الأخير - حقيقة - (الذى يمتد من أواسط القرن الثاني عشر الهجري إلى هذا الحين) بـمأثرة عظيمة، وهي القيام بـنشر الحديث النبوi الشرف، وترويجه، وإحياء دروس الحديث والعناية بهذا الفن الجليل، ومؤلفاته في هذا الموضوع تمتاز بالدقة والاجتهاد والتحقيق، وتعتبر فضلاً مضيفاً مهماً في صحيفـة تجديده وكتاب حياته، والتي غلبت على فضائله و مجالاته العلمية وخدماته الدينية الأخرى حتى غدا (المحدث الدهلوi) جزءاً من اسمه، وعنواناً لتعريفه ووصفه، وجرى على ألسنة الناس وأقلامهم (الإمام ولـي الله المحدث الدهلوi) وأصبح ذلك علمـه المـعـرف الكامل.

ولكن قبل أن نتعرض لتاريخ هذه المأثرة الجليلة وبيانها - بتفصـيل - يلزمـنا لإدراك جلالـة هذا العمل وخطورـته أن نعلم مكانة الحديث الشرفـ في منهـج نظام الدين وإطارـ الشـريـعة الإسلامية، والجهـود المبذـولة للـحفاظ علىـ الإسلام في صورـته الصـحيـحة، وـتكوينـ المناخـ والـبيـئةـ الإسلاميةـ والـحـفـاظـ عـلـيـهاـ، وـلـمـاـ يـجـبـ القيامـ بـنشرـهـ وـصـيـانتـهـ فيـ كـلـ عـصـرـ وـكـلـ بلدـ يـعيـشـ فـيـ الـمـسـلـمـونـ؟ـ وـماـ يـحـمـلـ الـغـفـلـةـ عـنـهـ، وـالـجـهـلـ بـهـ، أوـ إـنـكـارـهـ مـنـ أـخـطـارـ وـمـاـ يـحـتـويـ عـلـيـهـ مـنـ مـضـارـ؟ـ وـماـ هـوـ الـفـرـاغـ الـهـائـلـ الـذـيـ يـحـدـثـهـ انـقـراـضـ هـذـاـ الـعـلـمـ، أوـ تـجـاهـلـهـ وـالـتـغـافـلـ عـنـهـ فـيـ أيـ بـلـدـ أـوـ فـيـ

أي عصر ، والذي لا يُملا بشيء آخر؟

سوف يقدم المؤلف - لتوضيح هذه النقاط - مقتبسات من رسالة له نفسه ، حاول فيها عرض هذه الحقيقة وإثباتها بوضوح ، ويشيء من التفصيل^(١) :

«إن الحديث ميزانٌ عادل يستطيع المصلحون في كلّ عصر أن يزنوا فيه أعمالَ هذه الأمة واتجاهاتها ، ويعرّفوا الانحراف الواقع في سير هذه الأمة ، ولا يتأتى الاعتدال الكامل في الأخلاق والأعمال إلا بالجمع بين القرآن وبين الحديث ، وهو الذي يملأ هذا الفراغ الذي وقع بانتقال الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى ، وهذه الفجوة لا بدّ منها في السنن الإلهية : «وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَقَ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ» [آل عمران: ١٤٤] ، «إِنَّكَ مَيِّتٌ وَلَهُمْ مَيْتُونَ» [الزمر: ٣٠].

فلولا الحديث الذي يمثل هذه الحياة الكاملة المترنة ، ولو لا التوجيهات النبوية الحكيمـة ، ولو لا هذه الأحكـام التي أخذـ بها الرسـول ﷺ والمجتمع الإسلامي ، لوقـعت هذه الأمة في إفراـط وتفـريط ، واحتـلـ الـازـان ، وفقدـ المـثالـ العمـليـ الذي حـثـ اللهـ علىـ الـاقـتـداءـ بـهـ بـقولـهـ : «لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أَسْوَأُ حَسَنَةً» [الأحزـابـ: ٢١] وهوـ الذيـ يـحـتـاجـ إـلـيـهـ الإـنـسـانـ ، ويـسـتمـدـ مـنـهـ الثـقـةـ والـقـوـةـ فيـ الـحـيـاةـ ، ويـقـتنـ بـأـنـ تـطـبـيقـ الـأـحـكـامـ الـدـينـيـةـ عـلـىـ الـحـيـاةـ مـيـسـورـ وـوـاقـعـ.

ثم إنـ الحديثـ زـاخـرـ بـالـحـيـاةـ وـالـقـوـةـ وـالـتـأـثـيرـ الـذـيـ لمـ يـزـلـ يـعـثـ عـلـىـ الإـصـلاحـ وـالـتـجـديـدـ ، وـلـمـ يـزـلـ باـعـثـاـ عـلـىـ مـحـارـبـةـ الـفـسـادـ وـالـبـدـعـ ، وـحـسـبـةـ الـمـجـتمـعـ ، وـلـمـ يـزـلـ يـظـهـرـ بـتـأـثـيرـهـ فيـ كـلـ عـصـرـ وـبـلـدـ ، مـنـ رـفـعـ رـاـيـةـ الـإـصـلاحـ وـالـتـجـديـدـ ، وـحـارـبـ الـبـدـعـ وـالـخـرـافـاتـ ، وـالـعـادـاتـ الـجـاهـلـيـةـ ، وـدـعـاـ إـلـيـ الـدـينـ الـخـالـصـ وـالـإـسـلـامـ الـصـحـيـحـ ،

(١) نشرت هذه الرسالة باسم (دور الحديث في تكوين المناخ الإسلامي وصيانته) ، وهو في الحقيقة مقال كان المؤلف قد أعدّه لافتتاح المحاضرات لرابطة العالم الإسلامي في موسمها الثقافي بمكة المكرمة عام ١٤٠١هـ ، وقد قرئ هذا البحث في ١٦ من ذي القعدة عام ١٤٠١هـ (الموافق ١٣ سبتمبر عام ١٩٨١م) بمكة المكرمة أمام لفيف من العلماء والمثقفين ، ونشرت هي وترجمتها بالأردية والإنجليزية في المجمع الإسلامي العلمي - لكنو - الهند .

لذلك كله كان الحديثُ من حاجات هذه الأمة الأساسية، وكان لا بدًّ من تقييده، وتسجيله وحفظه ونشره.

وقد ظلت كتب السنة والحديث - ولا تزال - مصدراً من مصادر الإصلاح والتجديف، والتفكير الإسلامي الصحيح في الأمة الإسلامية، تلقى منه المصلحون في عصورهم العلم الديني الصحيح، والفكر الإسلامي النقي، واحتجو بأحاديثه، واستندوا إليها في دعوتهم إلى الدين والإصلاح، وفي محاربهم للبدع والفتن والفساد، ولا يستغنى عن هذا المصدر كلُّ من يريد إرجاع المسلمين في عصره إلى الدين الخالص، والإسلام الكامل، ويريد أن يوجدَ صلةً بينهم وبين الحياة النبوية، والأسوة الكاملة، وكل من ثُلِجَتْ الحاجة وتطورات العصر إلى استنباط الأحكام الجديدة.

شهادة التاريخ لتأثير كتب الحديث والسنة في الإصلاح والتجديف:

ويشهدُ بهذه الحقيقة تاريخُ الإسلام والمسلمين نفسه، فكلما ضعفت صلتهم بكتب الحديث والسنة ومعرفتهم بها - على كثرة وجود الدعاة إلى الله، والمشتغلين بتزكية النفوس وتهذيب الأخلاق، والزهد في الدنيا والعمل بالسنة - وطالت هذه الفترة، غزت المجتمع الإسلامي - الزاخر بأصحاب الاختصاص في العلوم الإسلامية، المتأمرين في العلوم الحكيمية والأدبية، وفي عهد غالبة الإسلام وحكم المسلمين - بدع طريقة^(١)، وتقاليد أعمجمية، وأعراف دخيلة، حتى يكاد يكون نسخة من مجتمع جاهلي، وصدقت النبوة المحمدية والحديث الصحيح: «لتركبُنَ سُنَّةً مَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ شَيْرًا بَشَيْرًا، وَذَرَاعًا بَذَرَاعًا»^(٢)، وخفت صوتُ الإصلاح، وخبا مصباحُ العلم.

ومن شأن قليلاً عرضِ الوضع الديني وواقع حياة المسلمين في القرن العاشر الهجري في الهند، القرن الذي كادت صلة الأوساط الدينية والعلمية في شبه

(الناشر)

(١) طريقة: جديدة.

(٢) رواه الحاكم.

القاراء الهندية تقطع عن علم الحديث الشريف ومصادر السنة الصحيحة، وكانت تعيش في عزلة عن مراكز العلم الديني، وتدرس الحديث الشريف، (كالحجاج، واليمن، ومصر، والشام)، وأصبحت مقتصرة على كتب المذهب وشروحها وتدقيقاتها، وكتب الأصول، والحكمة، كيف فشت فيها البدع وعمّت المنكرات، واستحدثت أشكال متنوعة للعبادات والقربات^(١).

وقد قال مؤلف هذه السطور في الجزء الثالث من (رجال الفكر والدعوة في الإسلام)، وهو يتحدث عن كتاب (جواهر خمسة) لأحد المشايخ المعروفين في القرن العاشر الهجري، الشيخ محمد غوث الكوايلاري ما يلي:

«لقد كانت الهند لا تعرف شيئاً عن الصحاح الستة ومؤلفيها، وأئمة هذا الفن، الذين نقدوا علم الحديث ونخلوه، وميزوا بين صحيحه وسيمه، وقاوموا البدع والمحدثات، وأثبتوا أن حياة المسلمين يجب أن تقوم على أساس السنة المطهرة، وفي ضوء الأحاديث الصحيحة، ونستشني من ذلك ولاية (كجرات) التي انتشر فيها علم الحديث لنزول العلماء العرب بها، وكثرة الرحالة فيها إلى الحرمين الشريفين، ونبغ فيها العلامة (علي المتقي البرهان بوري) وتلميذه النجيب المعروف العلامة محمد طاهر الفتني (في القرن العاشر الهجري).

ويمكن الاطلاع على هذا التأثير الذي خلقته الفلسفات، والتجارب المحلية في الهند على التصوف من خلال كتاب (جواهر خمسة) للشيخ محمد غوث الكوايلاري الذي ذاع صيته في عصره، وحصل له القبول العظيم عند الناس، والكتاب يشتمل على أقوال الصوفية، وتجارب الشيخ الكوايلاري الشخصية.

ويخيل إلينا أنهم لم يروا حاجة إلى إثبات هذه الأمور بالأحاديث الصحيحة واقتباسها من كتب السيرة التبوية المعتبرة، فتجد في هذا الكتاب المذكور - آنفًا - (صلاة الأحزاب) و(صلاة العاشقين) و(صلاة تنوير القبر) والصلوات المخصوصة بالأشهر المختلفة، والأدعية الخاصة بها، التي لا أصل لها في السنة، ولا أثر لها في الحديث»^(٢).

(١) دور الحديث في تكوين المناخ الإسلامي وصيانته، ص ٢٦ - ٣٠.

(٢) انظر: رجال الفكر والدعوة في الإسلام: ٣/٢١٨.

ولم تكن هذه خصيصة (جواهر خمسة) فحسب، بل تتوفّر أمثلةً ذلك في مجاميع أقوال أمثال هؤلاء الصوفية غير المعتبرة، فقد كانت سجدة التحية للمساين شائعة، واتخذت القبور مساجداً عليناً وجهاراً، فكانت توقدُ عليها السرج، وتفرشُ عليها الأردية، وتعظمُ أطراها وحواليها كتعظيم الحرم، ويحتفل بها باسم العرس (الاحتفال الديني) وقراءة الفاتحة، وتكثر فيها النساء، وكانت (الصلوة الغوثية)، و(الصلوة المعكوسة)، والنذر لغير الله تعالى باسم الأولياء الصالحة، والذبح لابتغاء مرضاتهم، والصوم باسم غير الله، وأمثال هذه من البدع الكثيرة (التي كانت تصيل حدودها إلى الشرك) كانت شائعة في الناس، يقبلُ عليها خاصة منهم وال العامة، وكانت تعقد احتفالات إحياء أيام الولادة والوفاة للأولياء والصالحين، ويحتفل بمهرجانات وأعياد.

ولو لم تكن كتب الحديث في متناول أيدي العلماء المسلمين، ولم تيسّر لهم هذه الوسيلة المعتبرة السهلة للتفريق والتمييز بين البدع والسنن، لما كانت هذه السلسلة من عهد شيخ الإسلام ابن تيمية (ت ٧٢٨ هـ) إلى عهد الإمام الذهلي (ت ١١٧٦ هـ) للعلماء المصلحين، والدعاة إلى الدين الخالص، ولم يظهر المصلحون والمجددون حملة راية التجديد والإصلاح وتصحيح العقائد، وإزالة التقاليد الجاهلية.

اقرأ تراجمَ علماء أفغانستان (كابل وهراء وغزنة) في القرنين العاشر والحادي عشر، وألقِ نظرةً على كتبهم ومؤلفاتهم، قلماً تجدُ عليها مسحة الدفاع عن السنة، والرد على البدعة، والتحقيق والتنقيح في المسائل، وإذا بشخصية العلامة (علي بن سلطان بن محمد الهروي) (ت ١٤١٠ هـ) المعروف بملاً علي القاري - الذي سافر إلى الحجاز، وقرأ على كبار أساتذتها الأجلة كتب الحديث ونبغ فيها - تظهر على الساحة، وتتجلى هذه المسحة الظاهرة في شروحه لكتب الفقه والحديث، وترجمته للمسائل، ورده بصرامة ووضوح على بدع عصره ومحدثاته، وقد أدتْ به دراسته وبحثه وقوله بالحق، وإنصافه إلى أن دافع عن شيخ الإسلام ابن تيمية،

وشهدَ بِأَنَّهُ كَانَ مِنْ أَكَابِرِ أَهْلِ السَّنَةِ وَالْجَمَاعَةِ وَأُولَيَاءِ الْأُمَّةِ^(١).

وقد كانت هذه الحال في عدد من البلدان العربية كالعراق والشام ومصر وتونس والجزائر ومراكش^(٢).

علم الحديث والعرب:

إنَّ مِنْ حِقَائِقِ فَلْسِفَةِ التَّارِيخِ الإِسْلَامِيِّ أَنَّ الْبَلَادَ الَّتِي كَانَتُ الْعَرَبُ حَمْلَةً لِلْإِسْلَامِ إِلَيْهَا، وَإِلَيْهِمْ يَرْجِعُ الْفَضْلُ فِي انتشارِهِ فِيهَا، انتَشَرَ فِيهَا عِلْمُ الْحَدِيثِ الشَّرِيفِ مَعَ انتشارِ الإِسْلَامِ وَازْدَهَرَ، إِذْ أَنَّهُ كَانَ هَنَالِكَ صَلَةً قَوْيَةً وَمُنَاسِبَةً خَاصَّةً بَيْنَ هَذَا الْعِلْمَ وَطَبِيعَةِ الْعَرَبِ، قُوَّةٌ حَفْظُهُمْ، وَحَيَاتُهُمُ الْعَمَلِيَّةُ، وَوَاقِعِيَّتُهُمْ، وَصَلْتُهُمُ الْعُمَيقَةُ بِذَاتِ النَّبِيِّ ﷺ، فَجِئُوهُمْ حَلْوًا وَسَارُوا حَمْلًا مَعَهُمْ عِلْمَ الْحَدِيثِ، وَظَهَرَتُ الْعُنَيْةُ بِهِ فِي عَهْدِ سِيَادَتِهِمْ، وَتَأْثِيرُهُمْ وَنَفْوذُهُمْ فِي قُوَّةٍ وَوَضُوحٍ، وَكَانَتْ حَرْكَةُ تَدْرِيسِهِ وَالتَّصْنِيفِ وَالتَّأْلِيفِ فِي مُخْتَلَفِ جُوَانِبِهِ قَائِمَةً عَلَى قَدْمٍ وَسَاقٍ.

لَقِدْ كَانَ هَذَا حَالُ الْيَمِنِ وَحَضْرَمُوتِ وَمَصْرُ وَالشَّامِ وَالْعَرَقِ، وَشَمَالِ أَفْرِيَقِيَّةِ وَالْأَنْدَلُسِ، وَوَلَاءِيَّةِ كَجْرَاتِ فِي الْهَنْدِ نَفْسُهَا، وَهُوَ مَثَلٌ وَدَلِيلٌ عَلَى مَا ذَكَرْنَا هُوَ فِي صَلَةِ الْعَرَبِ بِالْحَدِيثِ، فَقَدْ أَنْتَجَتْ كَجْرَاتِ أَمْثَالِ الشَّيْخِ (عَلِيِّ الْمُتَقَى الْبَرْهَانِبُورِيِّ) مُؤْلِفَ (كَنزُ الْعَمَالِ) (ت ٩٧٥ هـ)، وَالْعَلَمَةِ مُحَمَّدِ طَاهِرِ الْفَتَنِيِّ صَاحِبِ (مَجْمُوعِ بَحَارِ الْأَنُورِ) (ت ٩٨٦ هـ) مِنَ الْمُحَدِّثِينَ الْأَجْلَةِ الْكَبَارِ، وَذَلِكَ كَمَا سَبَقَ، لَأَنَّ صَلَةَ كَجْرَاتِ بِالْحِجَازِ كَانَتْ أَقْوَى وَأَكْثَرَ بِالنَّسْبَةِ إِلَى سَائِرِ الْوَلَايَاتِ الْهَنْدِيَّةِ، وَكَانَ الْعُلَمَاءُ الْعَرَبُ - دَائِمًا - يَؤْمِنُونَهَا وَيَتَرَدَّدُونَ إِلَيْهَا.

أَمَّا الْبَلَادُ الَّتِي انتَشَرَ فِيهَا الإِسْلَامُ بِأَيْدِيِّ الْعِجمِ، فَلَيْسَ شَائُنُها فِي هَذَا الْأَمْرِ ذَلِكَ، فَقَدْ حَكَمَتْ فِي الْهَنْدِ أَسْرُ تَرْكِيَّةُ الْأَصْلِ، أَوْ أَفْغَانِيَّةُ الْأَصْلِ، وَقَامَ فِيهَا بِنَشَرِ الإِسْلَامِ وَتَبْلِيغِهِ وَالدُّعْوَةِ إِلَيْهِ أُولَئِكَ الْمُشَايخُ وَالْعُلَمَاءُ الدُّعَاءُ الذِّينَ كَانُوا

(١) انظر: (المرقاة شرح المشكاة) : ٤ / ٢٧.

(٢) انظر: رسالة المؤلف (دور الحديث في تكوين المناخ الإسلامي وصيانته).

معظمُهم من أصولٍ أعمجية، أو من أبناءِ البلاد الأعمجية، لا سيما من إيران وتركستان، ثم لَمَّا جاءَ عهد التدريس ولِنشاء المدارس، وترتيب المناهج الدراسية في الهند، كانت هي قد تأثرت - كُلُّياً - بالفضلاء العجم، وحكماء إيران، وطبعت بطبعهم، وقد قدمنا في الباب الأول^(١) أنَّ إيران التي أنجبت أساطين الحديث ولما قامت فيها الحكومة الصفوية، وأعلنت المذهب الشيعي مذهبها الرسمي فيها (وقد وقع ذلك في بداية القرن العاشر الهجري) انقطعت صلتها بالحديث الشريف، لذلك لم يكن في الهند - بعد النفوذ الإيراني الثقافي - مجالٌ للشعور بأهمية الحديث، وجلاة خطره وعظمته، والمسابقة في القيام بنشره، بل بالعكس من ذلك كلَّما كان تأثير إيران يتضاعف على الأوساط العلمية في الهند، تزداد معها قلة العناية واللامبالاة بالحديث الشريف، وقد بلغ ذلك في عهد الإمام الذهلي أوجه وقته.

ازدهار علم الحديث وانحطاطه في الهند:

نقدم هنا - لاستعراض تاريخ الازدهار والانحطاط الذي مرّ به علم الحديث في الهند باختصار - مقتطفاتٍ من كتاب العلامة عبد الحي الحسني رحمة الله (الثقافة الإسلامية في الهند)، وقد جاءت فيها عصارة الدراسة لمئات الصفحات وخلاصة هذا الموضوع: يقول المؤلف :

«ولما انقضت دولة العرب من بلاد السندي، وتغلبت عليها الملوك الغزنوية والغورية، وتتابع الناس من خراسان وما وراء النهر، صار الحديث فيها غريباً كالكبيريت الأحمر، وعديماً كعنقاء المغرب، وغلب على الناس الشعر والنجمون والفنون الرياضية، وفي العلوم الدينية الفقه والأصول».

ومضت على ذلك قرون متطلولة حتى صارت صناعة أهل الهند حكمة اليونان، والإضراب عن علوم السنة والقرآن، إلا ما يذكر في الفقه على القلة.

(١) ص ٥١.

وكان قصارى نظرهم في الحديث في (مشارق الأنوار) للصغاني ، فإن ترفعَ أحدُ إلى (مصالحِ السنة) للبغوي أو إلى (مشكاةِ المصالح) ظنَّ أنه وصل إلى درجة المحدثين ، وما ذلك إلا لجهلهم بالحديث ، ولذلك تراهم لا يذكرون هذا العلم ، ولا يقرؤونه ولا يحثون عليه ، ولا يجذبون إليه ، ولا يعرفون كتبه ، ولا يعلمون أهله ، والقليل منهم كانوا يقرؤون (المشكاة) لا غير ، وهذا على طريقة البركة لا للعمل به والفهم له ، وعده بضاعته من الفقه على طريقة التقليد دون التحقيق إلا ما شاء الله تعالى في أفراد منهم ، ولذلك كثرت فيهم الفتاوي والروايات ، وتركت النصوص المحكمات ، ورفض عرض الفقه على الحديث ، وتطبيق المجتهدات بالسنن المأثورة عن النبي المعصوم المأمون عليه السلام .

حتى من الله تعالى على الهند يفاضة هذا العلم ، فورد به بعض العلماء في القرن العاشر ، كالشيخ عبد المعطي بن الحسن بن عبد الله باكثير المكي المتوفى بأحمد آباد سنة ٩٨٩ هـ ، والشيخ الشهاب أحمد بن بدر الدين المصري المتوفى بأحمد آباد سنة ٩٩٢ هـ ، والشيخ محمد بن أحمد بن علي الفاكهي الحنبلي المتوفى بأحمد آباد سنة ٩٩٢ هـ ، والشيخ محمد بن محمد عبد الرحمن المالكي المصري المتوفى بأحمد آباد سنة ٩١٩ هـ ، والشيخ رفيع الدين الجشتى الشيرازي المتوفى بأكبر آباد سنة ٩٥٤ هـ ، والشيخ إبراهيم بن أحمد بن الحسن البغدادي ، والشيخ ضياء الدين المدنى المدفون بكاكورى ، والشيخ بهلول البدخشى ، والخواجة مير كلان الھروي المتوفى بأكبر آباد سنة ٩٨١ هـ ، وخلق آخرون .

ثم وفق الله سبحانه وتعالى بعض العلماء من أهل الهند أن رحلوا إلى الحرمين الشريفين ، وأخذوا الحديث ، وجاؤوا به إلى الهند ، وانتفع بهم خلق كثير ؛ كالشيخ عبد الله بن سعد الله السندي ، والشيخ رحمة الله بن عبد الله بن إبراهيم السندي المهاجر إلى الحجاز ، فإنهما قدما الهند ، ودرساً بكرجرات مدة طويلة ، ثم رجعا إلى الحجاز ، والشيخ يعقوب بن الحسن الكشميري المتوفى سنة ١٠٠٣ هـ ، والشيخ جوهر الكشميري المتوفى سنة ١٠٢٦ هـ ، والشيخ عبد النبي بن أحمد الكنکوھي ، والشيخ عبد الله بن شمس الدين السلطانبورى ، والشيخ

قطب الدين العباسي الكجراطي، والشيخ أحمد بن إسماعيل المندوي، والشيخ راجح بن داود الكجراطي، والشيخ عليم الدين المندوي، والشيخ المعمر إبراهيم ابن داود المنكوري المدفون بأكير آباد، والشيخ محمد بن طاهر بن علي الفتنى صاحب (مجمع بحار الأنوار) والسيد عبد الأول بن علي بن العلاء الحسيني وغيرهم^(١).

وبيزيد مؤلف (الثقافة الإسلامية في الهند) قائلاً:

مأثرة الشيخ عبد الحق الدهلوى:

«ثم جاء الله سبحانه وتعالى بالشيخ عبد الحق بن سيف الدين البخاري الدهلوى المتوفى سنة ١٠٥٢هـ، وهو أول من أفاده على سكان الهند، وتصدى للدرس والإفادة بدار الملك دهلي، وقصر همه على ذلك، ونصف وخرج، ونشر هذا العلم على قدم وساق، فنفع الله به وبعلومه كثيراً من عباده المؤمنين، حتى قيل: إنه أول من جاء بالحديث بالهند، وذلك غلط كما علمت.

ثم تصدى للحديث الشريف ولده الشيخ نور الحق المتوفى سنة ١٠٧٣هـ وكذلك بعض تلامذته وأولاده كشيخ الإسلام شارح البخاري، وولده سلام الله صاحب (المحلى) و(الكمالين)^(٢).

وقد أصاب البروفسور (خليل أحمد نظامي) في قوله:

«وعلى كلِّ فإنَّ العهد الذي بدأ فيه الشيخ عبد الحق المحدث الدهلوى دروسه في الحديث الشريف، كان قد طُويَ - إذ ذاك - بساط هذا العلم الشريف في شمالي الهند، وإنَّه قد أشعلَ في هذا الوسط المظلم الضيق شمعة جذبت إليها الناس من أنحاء نائية بعيدة، فالتفوا حولها، وتهافتوا عليها تهافت الفراش على النور، وبدأ نشاطُ جديدٍ، لدروسِ الحديث الشريف في شمالي الهند، وانتقل بذلك مركزُ العلوم الدينية لا سيما الحديث الشريف من كجرات إلى دهلي»^(٣).

(١) ص ١٣٥-١٣٧.

(٢) الثقافة الإسلامية في الهند، ص ١٣٧ (الطبعة الثانية، مجمع اللغة العربية دمشق).

(٣) حياة الشيخ عبد الحق المحدث الدهلوى، ص ٤٣.

الحاجة إلى مجدد:

لقد صرفت العناية إلى الحديث الشريف بإخلاص الشیخ عبد الحق المحدث الدهلوی وصدقه وجهوده المباركة، وقد أثار رغبة قوية، وحركة جديدة إلى مطالعته ودراسته وتدریسه، وشرحه وتحشیته، وكان من المتوقع أن أخلاقه وأفراد أسرته، - الذين كانوا بدورهم محدثین ومدرسین ومؤلفین - يستمرون بهذه الجهود حتى يأخذ هذا الفن الشريف مكانه اللائق في الأنظمة التعليمية، والمناهج والمقررات الدراسية والنشاطات العلمية والتألیفیة.

وقد كان ابنه الفاضل العلامة المفتی نور الحق الدهلوی (ت ١٠٧٣ھ) الذي شرح (صحيح البخاري) في ستة مجلدات، وله شرح أيضاً على (شمائل الترمذی)، يستطيع أن يقوم بتكميل تلك الجهود والأعمال التي بدأ بها والده، ولكن لعله لم يتمكن كثيراً بسبب توليه منصب القضاء في مدينة مركزية كأكابر آباد (آكره حالياً) من القيام بتدريس الحديث الشريف ونشره، وكان ابنه الشیخ شیخ الإسلام الدهلوی أيضاً من كبار المحدثین، وله شرح مبسوط لصحيح البخاري بالفارسية.

والحقيقة أنه لأسباب معلومة وأسباب أخرى غير معلومة، لم تستطع جهود هؤلاء المشايخ الفردية أن تحدث ما كان متوقعاً من الإقبال العام على الحديث الشريف والاهتمام اللائق به، والنشاط والحيوية في نشره وتدریسه وتعیمه، ولعل من بعض العوامل لذلك أن هؤلاء كانت تغلب عليهم نزعة تأييد المذهب الحنفي بالحديث الشريف، والسبب الثاني أن مركز التعليم والثقافة من أواسط القرن الثاني عشر نفسه بدأ ينتقل من دہلی إلى لکنٹو، وبدأ منهج دراسي جديد (على أيدي أستاذ العلماء الشیخ نظام الدین السہالوی (ت ١٦١ھ) المبارکة القوية) في التكوین، ولم تكن قد قامت صلة هؤلاء الواضعین والمكونین لهذا المنهج الدراسي الجديد العلمية والثقافية بالحرمین الشریفین، والأماكن التي كانت مركزاً للدراسة الحديث الشريف وتدریسه وخدمته ونشره، وكانت تغلب عليهم - كما يتضح ذلك من تاريخ (المنهج النظامي) وكتب التراث وطبعات -

العلوم الحكمية، ومن العلوم الدينية علمُ أصول الفقه.

وعلى كلٍّ فإنَّ الأوساط العلمية والدينية في الهند كانت في حاجة وانتظار لتلك الشخصية التي تكون صلتها بال الحديث صلة الحب والغرام، والتي جعلت نشر الحديث الشريف وتعديمه أول أهدافها ومقاصدها في الحياة، لقد وجدت الهند هذه الشخصية في أواسط القرن الثاني عشر الهجري في شخص الإمام ولی الله الدهلوی، الذي طبق بمعنى اللفظ هذا الشعر الفارسي الذي معناه:

«لقد نسينا كلَّ ما قرأنا وتركتناه إلَّا حديثَ الحبيبِ الذي لا نملُّ من ترداده
وتكراره».

لقد ذكر مؤلف (الثقافة الإسلامية في الهند) بعد ذكره لأولئك الذين أسهموا في أوائل القرن الحادى عشر في خدمة الحديث ونشره في الهند، خدمة الإمام الدهلوى للحديث، التي تمتاز ليس في هذه البلاد فحسب، بل في هذا العهد الأخير بمكانتها التجددية والاجتهادية، وصيغتها في الإصلاح والإحياء، والتي أدت إلى سيادة الحديث وازدهاره في هذه البلاد، فأصبح جزءاً ضرورياً من المقررات الدراسية، ومقاييساً للفضيلة والكمال، وقامت حلقات مستقلة لدورس الحديث الشريف، وعمَّ تدريس الصحاح الستة لا سيما الكتب الأربعية بعد: (صحیح البخاری) و(صحیح مسلم) و(سنن أبي داود) و(سنن الترمذی) بالبحث والتحقيق في المدارس (الأمر الذي لا يوجد الآن في البلدان العربية نفسها).

ويبدأ عهد جديد لشرح كتب الحديث والتعليقات عليها حتى لم تثبت أن تكونت منها مكتبة ضخمة كبيرة لا يوجد مثيلها في البلاد العربية نفسها^(۱)، وترجمت كتب الحديث، التي استفاد منها عامة المسلمين والذين لا يعرفون

(۱) إنَّ الجماعة الكبيرة لأساتذة الحديث وشراحه ومؤلفيه التي ظهرت في الهند بتأثير دعوة الإمام الدهلوى وحركته وتعليميه وتراثه، وما أنتجت من مكتبة عظيمة واسعة في الحديث وعلومه، يلزم تقدير سمعتها وتنوعها مراجعة كتاب العلامة عبد الحي الحسني (الثقافة الإسلامية الهند)، الفصل الرابع من الباب الثاني، بعنوان (صفات أهل الهند في الحديث)، ص ۱۴۲، ۱۶۰.

العربية؛ وكذلك السيدات المسلمات استفادة عظيمة، وكان ذلك دافعاً إلى الجد والعمل، شائقاً لاتباع السنة والاهتمام بها، ومرغباً في الأسانيد وإجازات الحديث، وأصبحت الهند مركزاً لهذا العلم الشريف، حتى صدرت من قلم عالم مصرى جليل كالعلامة السيد رشيد رضا منشئ مجلة (المنار) الغراء، هذه الكلمات التالية:

«ولولا عنابة إخواننا علماء الهند بعلوم الحديث في هذا العصر، لقضى عليها بالزوال من أمصار الشرق، فقد ضعفت في مصر والشام والعراق والحبجاز منذ القرن العاشر للهجرة، حتى بلغت متتهي الضعف في أوائل القرن الرابع عشر»^(١).

مشاعر الإمام الذهلي وأراؤه في الحديث:

ما هي تلك العاطفة القوية التي دفعت الإمام الذهلي إلى الاستغال بالحديث، ثم بالنشاط في نشره والدعوة إليه، ونذر حياته وصلاحاته له، ينبغي لمعرفتها وإداركها الرجوع إلى كتابات الإمام الذهلي نفسه، إذ إنها المرأة الصديحة الوضيئه لأرائه ونحواظره، يقول في الصفحة الأولى من مقدمته لـ(حجۃ الله البالغة):

«إن عمدة العلوم اليقينية ورؤسها؛ ومبني الفنون الدينية وأساسها، هو علم الحديث، الذي يذكر فيه ما صدر من أفضل المرسلين ﷺ وأصحابه أجمعين، من قول، أو فعل، أو تقرير، فهي مصابيح الدجى، ومعالم الهدى، ويمتلئ الدر المنير، من انقاد لها ووعى، فقد رشدَ واهتدى، وأوتى الخير الكثير، ومن أعرض وتولى فقد غوى وهوى، وما زاد نفسه إلا التخسير، فإنه ﷺ نهى وأمر، وأنذر وبشر، وضرب الأمثال وذكر، وإنها لمثل القرآن أو أكثر»^(٢).

(١) مقدمة مفتاح كنوز السنة.

(٢) مقدمة حجۃ الله البالغة، ص ٢.

ويقول في موضع من بعض كتاباته :

«إنَّ أول شيء يوجبه العقلُ على نفسه، هو تتبعُ أحوال النبيِّ ﷺ وأقواله، ماذا قال فيما يتعلق بالأحكام الإلهية؟ وكيف عمل بها؟ ثم يقتدي بهذه الأقوال والأحوال بالقلب والقلب، فإنَّ حديثنا عن شخص قد سلم بأنَّ الله تعالى قد كلف عباده بِأحكامه، وقد عزم هو على أداء مسؤوليته الناشئة من هذا التكليف الشرعي»^(١).

الشكوى من قلة العناية بالحديث الشريف في الهند:

لقد كان الدافعُ الثاني للإمام الذهلي إلى إحياء الحديث ونشره وترويجه في الهند، هو ذلك الوضعُ السائد في الهند، الذي تقدم الحديث عنه في الباب الأول^(٢) من الكتاب، لقد كان يغشى الأوساط الدينية حينذاك ضبابٌ كثيفٌ من البدع وتقاليد الجاهلية، وطقوس غير المسلمين، وتقليلهم فيها، والشعائر غير الإسلامية، التي كان من العسير من خلالها رؤية طلعة الإسلام البهية، وكانت تسود في الأوساط العلمية والدراسية تلك العلوم المستوردة من اليونان، التي كانوا يسمونها (فنون الحكمة) والعلوم الآلية، وفنون البلاغة وعلم الكلام، ولم يكن للعلوم الشرعية، - لا سيما علم الحديث الشريف - نصيبٌ لائقٌ في هذه الأوساط العلمية والدراسية، وإذا صرف شيءٌ من العناية إلى العلوم الشرعية، فلم يكن الأمر يتعدى حدودَ الفقه وأصول الفقه ودقائقها وشق الشعرة فيها، يقول الإمام الذهلي - وهو يشاهد هذا الوضع - في أسف شديد وحزن بالغ :

«وأقول لطلبة العلم: أيها السفهاء المسمون أنفسكم بالعلماء! اشتغلتم بعلوم اليونانيين وبالصرف والنحو والمعاني، وظننتم أنَّ هذا هو العلم، إنما العلم آية محكمة من كتاب الله تعالى، أن تتعلّموها بتفسير غريبها، وسبب نزولها،

(١) كلمات طيبات، ص ١٧٣.

(٢) الفصل الرابع، ص ٣٧.

وتأويل معضلها، أو سنة قائمة من رسول الله ﷺ، أن تحفظوا كيف صلى النبي ﷺ؟ وكيف توضأ؟ وكيف كان يذهب لحاجته؟ وكيف يصوم؟ وكيف يحج؟ وكيف يجاهد؟ وكيف كان كلامه وحفظه للسانه؟ وكيف كانت أخلاقه؟

فاتبعوا هديه، واعملوا بسته على أنها هدى وسنة، لا على أنها فرضٌ ومكتوب عليكم، أو فريضة عادلة. أتعلمون ما هي أركان الوضوء، وما هي أركان الصلاة، وما نصاب الزكاة، وما قدر الواجب، وما سهام فرائض الميت، أما السير وما يرغّب في الآخرة من حكایات الصحابة والتبعين فهو فضلٌ⁽¹⁾.

إنَّ ما اشتغلتم به، وما يهتم به، فليس من علوم الآخرة، إنما هي من علوم الدنيا، خضتم كلَّ الخوض في استحسانات الفقهاء من قبلكم وتفریعاتهم، أما تعرفون أنَّ الحكم ما حكمه الله ورسوله ﷺ، وربَّ إنسان منكم يبلغه حديث من أحاديث نبيكم فلا يعمل به، ويقول: إنما عملي على مذهب فلان لا على الحديث، ثم تخيل بأنَّ فهم الحديث والقضاء به من شأن الكمل المهرة، وأنَّ الأئمَّة لم يكونوا من يخفى عليهم هذا الحديث، فما ترکوه إلا لوجه ظهر لهم في الدين من نسخٍ أو مرجوحيةٍ.

اعلموا أنه ليس هذا من الدين في شيءٍ، إنَّ أممتم بنبيكم فاتبعوه، خالف مذهبنا أو وافقه، كان مرضيُّ الحق أن تشغلو بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ ابتداءً، فإنَّ سهل عليكم العمل بهما، فيها ونعمت، وإن قصرت أفهمكم فاستعينوا برأي من مضى من العلماء، ما تروه أحق وأصرح وأوفق بالسنة، وأن لا تشغلو بالعلوم الآلية إلا بأنها آلة، لا بأنها أمور مستقلة، أما أوجب الله عليكم أن تشيعوا العلم حتى تظهرَ شعائر الإسلام في بلاد المسلمين؟ فلم تظهروا الشعائر، وأمرتم الناس أن يشتغلوا بالزوائد، واستكثرتم في أعينهم طلب الحق والدين، أما ترون البلاد العظيمة تخلو من العلماء، وإن كانوا فهم دون ظهور الشعائر⁽¹⁾.

وإن حال الإمام الذهلي عند اللهج بذكر الحديث من سرور ولذة غامرة،

(1) التفہیمات الالہیہ: ۱/۲۱۴-۲۱۵.

وحب وإجلال لأئمة الحديث، يمكن أن ترى بعض نماذجه في رسالته التي كتبها إلى أحد مسترشديه في مناقب الإمام البخاري - رحمه الله -^(١).

نشاط الإمام الذهلي في خدمة الحديث الشريف ونشره:

تقدم - فيما سبق - أنَّ الإمام الذهليَّ لما ذهبَ يودعُ أستاذَه الشَّيخَ أبا طاهر المدْنِيَّ، أَشَّدَّه شِيخُهُ هَذَا الْبَيْتَ مِنَ الشِّعْرِ :

نسِيَّتْ كُلَّ طَرِيقٍ كَنْتُ أَعْرِفُهُ إِلَّا طَرِيقًا يَؤْدِينِي لِرَبِّكُمْ
فَقَالَ الْإِمَامُ الْدَّهْلِيُّ كَذَلِكَ : « نَسِيَّتْ كُلَّ مَا قَرَأْتُ سُوِّي عِلْمُ الْحَدِيثِ
الشَّرِيفِ ». .

وتشهدُ حياةُ الإمام الذهليَّ كُلُّها على أَنَّهُ كَانَ مُنْصَرِفًا اِنْصَرَافًا كَلِيًّا إِلَى
خَدْمَةِ الْحَدِيثِ الشَّرِيفِ، شِرْحِهِ وَتَفْهِيمِهِ، وَتَدْرِيسِهِ وَتَعْلِيمِهِ، وَنَشْرِهِ وَتَعْمِيمِهِ،
﴿ يَجَأُ صَدَقَوْا مَا عَاهَدُوا اللَّهُ عَلَيْهِ ﴾ [الأحزاب: ٢٣].

وقد شمر عن ساعده الجد بعد عودته من الحججاز إلى الهند لخدمة الحديث الشريف ونشره، ولم تلبث (مدرسة الرحيمية) أن أصبحت أكبر مؤسسة تعليمية في طول الهند وعرضها، وتهافت عليها طلابُ علم الحديث من أنحاء الهند وأقصاؤها تهافت الفراش على النور، وقد كان هذا في الأصقاع مثل (السندي)^(٢)، و(كشمير)^(٣) من المناطق البعيدة، أما دهلي ونواحيها وشمالي الهند فلا تسأل عنه.

(١) انظر: (كلمات طيبات)، ص ١٦٨ - ١٧١.

(٢) لقد ورد الشَّيخُ مُحَمَّدُ مُعَيْنُ الْمُسْنَدِ إِلَى دَهْلِيٍّ، وَدَرَسَ الْحَدِيثَ عَلَى الْإِمَامِ الْدَّهْلِيِّ، وَاسْتَفَادَ مِنْهُ، وَكَتَبَهُ (دِرَاسَاتُ الْلَّيْبِ فِي الْأَسْوَةِ الْحَسْنَةِ بِالْحَبِيبِ) مَعْرُوفٌ، يَتَجَلَّ فِيهِ ذُوقُ الْإِمَامِ الْدَّهْلِيِّ، وَمَنْهَجُ بَحْثِهِ وَتَحْقِيقِهِ، تَوْفَى عَام ١١٦١هـ، انظر: (نَزَهَةُ الْخَوَاطِرِ)، ص ٦.

(٣) كان الشَّيخُ خواجَهُ مُحَمَّدُ أَمِينُ الْكَشْمِيرِيِّ مِنْ خَواصِ تلاميذِ الْإِمَامِ الْدَّهْلِيِّ، وَمِنْ جَمْلَةِ الدُّعَاءِ لِمُشَرِّبِهِ وَبِحُوَثِهِ وَتَحْقِيقَاتِهِ، وَهُوَ مَعْرُوفٌ بِمُحَمَّدِ أَمِينِ الْوَلِيِّ الْلَّهِيِّ، وَقَدْ كَانَ الشَّيخُ عَبْدُ الْعَزِيزِ أَحَدُ تلاميذِهِ، وَقَدْ أَلَّفَ الْإِمَامُ الْدَّهْلِيُّ بَعْضَ رِسَالَتِهِ لَهُ، انظر: (نَزَهَةُ الْخَوَاطِرِ)، ص ٦.

وقد كان من المستفیدین من هذه الدرسos سوی مستند الهند الشیخ عبد العزیز الدھلوي (الذی کان ابne الأکبر الفاضل والقائم بتکمیل أعماله وجھووده توسيع نطاقها) مفخرة الهند العلامہ السيد مرتضى البکرامي المعروف بالرَّبیدي (١٤٤٥ - ١٢٠٥ھ) صاحب (تاج العروس شرح القاموس) و(إتحاف السادة المتقین بشرح إحياء علوم الدين) الذی دوى صیتُ تبحره في العلم وتحدیثه في العالم العربي، وكان مجلسُه بالقاهرة يضاھي مجالسَ الملوك والسلطانین.

وكان من خريجي هذه المدرسة بیهقي عصره القاضی الشیخ ثناء الله البانی بتی (ت ١٢٢٥ھ) خلیفة الشیخ الجلیل میرزا مظہر جان جانان، ومؤلف (التفسیر المظہري) و(ما لا بد منه)^(١).

وهكذا أصبح علم الحديث في الهند - بعد قرون، ولعله لأول مرة - قد نفقت سوقه، وقامت دولته، وأقبلَ عليه الناس إقبالاً عظیماً، حتى ظلت الهند تباهي اليمن المیمون، وبدأت نفحاتُها الرخیةُ المنعشةُ تصلُ إلى أرضِ الحجاز نفسها^(٢).

وقد أنشد النواب العلامہ السيد صدیق حسن خان في ذکر الإمام الدھلوي وخدمته للحادیث الشریف، ونشاطاته في القيام بنشره، بیتین من الشعر البليغ، يصوّر انہ تصویراً حقيقیاً:

من زارَ بائِكَ لِمْ تَرِحْ جَوَارِحُه
تروي أحادیثَ ما أُولَئِنَّ مِنْ مِنَّ
فالعینُ عَنْ قُرَّةِ، والکفُّ عَنْ صِلَةِ
والقلبُ عَنْ جَابِرِ، والسَّمْعُ عَنْ حَسَنِ
ومن الطریف أنَّ المتن التي ذکرتها هذه الجوارح وأشادت بها، والأسماء
التي أشارت إليها في هذا الصدد، كُلُّها أسماء رواة الحديث والشیوخ المحدثین،

(١) نزهة الخواطر، ص ٧.

(٢) وقد أقام الشیخ إسحاق الدھلوي والشیخ عبد الغنی المجددی من خريجي هذه المدرسة، وتلامذة الإمام الدھلوي حلقات دروس الحديث الشریف في المحرمين الشریفين، وانتفع بهم خلاائق من العرب والعجم. انظر للتفصیل: نزهة الخواطر، ص ٧.

مثل قرة بن خالد السدوسي، وصلة بن أشيم العدوبي، وسيلنا جابر بن عبد الله رضي الله عنه، والحسن البصري رحمهم الله أجمعين.

خدمات الإمام الذهلي التأليفية في علوم الحديث:

إن المؤلفات التي خلفها الإمام الذهلي في الحديث وعلوم الحديث، نورٌ أسماءً لها فيما يلي :

١ - (المصنفى شرح الموطأ) بالفارسية.

٢ - (المسوى شرح الموطأ) المختصر بالعربية.

إن المنهج الذي كان الإمام الذهلي يريده ترويجه في فقه الحديث و دروسه يمثله هذان الكتابان خير تمثيل ، وتنجلى فيهما مكانة الإمام الذهلي الاجتهادية ، وطول باعه في فقه الحديث ، وعلومه ، إنّه كان يضع (الموطأ) على الدرجة الأولى من الكتب الستة ، وكان مُعجبًا بالموطأ غاية الإعجاب ، وكان يدعوه - بحماس وقوة - إلى العناية اللائقة به ، وتقديمه في البدء بتدريس الحديث^(١) .

يقول الإمام الذهلي في (وصاياته) :

«عندما يحصل التمكّن من العربية ، فليدرس (الموطأ) برواية يحيى بن يحيى المصمودي ، ولا يعرضن عنه أبداً ، فإنه أصل علم الحديث ، وتدریسُه يحمل فوائد جمة ، وقد حصل لناسِمَاع (الموطأ) كله بالرواية المتصلة»^(٢) .

٣ - (شرح تراجم الأبواب ل صحيح البخاري) هذه رسالة في شرح تراجم أبواب البخاري التي اعتبرت - دائمًا - أدق شيء وألطفه في دروس البخاري ، وقدّم شرّاح (صحيح البخاري) ومدرسوه - في كل عصر - أمثلةً لذكائهم ودقتهم

(١) انظر : مقدمة (المصنفى)؛ ومقدمة (أوجز المسالك) (الفائدة الثانية في درجة الموطأ من بين كتب الحديث) ، للشيخ محمد زكريا الكاندھلوي ، ص ٣٢ - ٣٣ ، طبع مطبعة السعادة بمصر (١٣٩٣هـ).

(٢) الوصايا (بالفارسية) ، ص ١١ .

وتعتمدهم فيه ، وهذه الرسالة بالعربية ، كانت طبعت أولاً عام ١٣٢٣ هـ بـ(دائرة المعارف العثمانية ، حيدر آباد) ، ثم ضمت - كمقدمة - إلى نسخة (صحيح البخاري) التي طبعت بأصل المطابع بدھلی^(١).

مجموعة الرسائل الأربعية: تشتمل على :

٤ - (الإرشاد إلى مهمات الإسناد).

٥ - (ترجم البخاري) ، وهي غير (شرح ترجم الأبواب للبخاري) وجاءت في ورقة واحدة.

٦ - (الفضل المبين في المسلسل من حديث النبي الأمين).

٧ - (النراذر من حديث سيد الأول والأولى).

٨ - (الأربعين) ، وقد ألف الإمام الذهلي هذه الأربعين لما ورد في فضل حفظها وتبلیغها إلى الناس من أحاديث ، وعمل بها العلماء في مختلف العصور ، والأحاديث التي اختارها الإمام ينطبق عليها أنها قليلة المبنى كثيرة المعنى ، وهي جديرة بأن تحفظ عن ظهر قلب ، وتقرر دراستها في المدارس .

٩ - (المسلسلات).

* * *

وأما الكتب التي ليست في فن الحديث رأساً وأساساً ، ولكن لها علاقة بعلم الحديث ، وينبغي أن تدرس كمقدمة لفقه الحديث ، ويقدر منها ما كان يمتاز به الإمام الذهلي من نظرية عميقة فاحصة في علم الحديث ، وتوافق بين الحديث والفقه ، وإنصاف ورحابة صدر في المقارنة بين المذاهب ، وسعة نظر في طبقات المحدثين ، وطبقات كتب الحديث ، واتزان وتوسط واعتدال في عامة الأحوال والصفات التي وهبها الله إياه ، فهذه الكتب حسب ما يلي :

(١) وهي موجودة في رسالة (ترجم أبواب البخاري) أيضاً ، للشيخ العلامة محمد زكريا الكاندھلوي م ١٤٠٢ هـ.

١ - (الإنصاف في بيان أسباب الاختلاف): جاءت محتويات هذا الكتاب في عدّة مباحث بعنوان التتمة الثانية في (حجۃ الله البالغة)، وتمتد من صفحة (١٤٠) إلى صفحة (١٦٢)^(١)، وتشتمل التتمة على أربعة أبواب.

وقد حقق ناشرُ الكتاب أنَّ هذه التتمة لم توجد إلا في نسخة واحدة من نسخ (حجۃ الله البالغة)، ويقول الإمام الذهلي في آخر هذه الأبواب:

«... فعزمت على تأليف كتاب أسميه (غاية الإنصاف في بيان أسباب الاختلاف)، وأبيّن فيه هذه المطالب بياناً شافياً، وأكثر فيه من ذكر الشواهد والأمثال، والتفریعات، مع المحافظة على الاقتصاد بين الإفراط والتفریط في كلِّ مقام، والإحاطة بجوانب الكلام، وأصول المقصود والمرام، ثم أتفرّغ له إلى هذا الحين، فلما انجرَ الكلام إلى مأخذ الاختلاف حملني ما أجدُ على أن أبين بعضَ ما تيسر من ذلك»^(٢).

ويبدو أنَّ الإمام الذهلي وجد الفرصة بعد ذلك، فأفردَ هذا الموضوع في رسالة مستقلة باسم (الإنصاف في بيان أسباب الاختلاف)، ولذلك يوجد بين هذه الرسالة و(حجۃ الله البالغة) اختلاف يسير، وحذف وتغيير في بعض المواضع.

وقد طبعت هذه الرسالة في الهند وخارجها عدة مرات، وتوجد بين هذه النسخ بعض الاختلافات في بعض الألفاظ، فكانت طبعتها الأولى في الخارج صادرة من (شركة المطبوعات العلمية) عام ١٣٢٧هـ، ثم نشرته (مكتبة المنصورة) ثانية، وبين أيدينا الآن نسخة جيدة من طبع (دار النفائس) بيروت، وقد جاءت في مئة وإحدى عشرة صفحة بالقطع الصغير، وقد قام المحدث الجليل في عصرنا الحاضر الشيخ عبد الفتاح أبو غدة بمقابلته وتصحيحه والتعليق عليه.

٢ - (عقد الجيد في أحكام الاجتهاد والتقليد).

(١) انظر نسخة المكتبة السلفية - لاهور.

(٢) حجۃ الله البالغة، ص ١٦١.

٣- المبحث السابع^(١) من (حجۃ الله البالغة).

والحقيقة أنه من القسم الثاني في بيان أسرار ما جاء عن النبي ﷺ تفصيلاً في الجزء الأول من (حجۃ الله البالغة)، إلى نهاية الجزء الثاني منه ليس إلا شرحاً كلامياً حكماً للحديث الشريف، ومحاولاً اجتهادية موقفة للكشف عن أسراره وحكمه، وتطبيقه العملي، الذي لم يكن إلا نصيبي الإمام الذهلي، وقد حاز فيها قصب السبق، ونال القدر المعلى، ومن المؤسف أنَّ الدارسين، لحجۃ الله البالغة، والمدرسين له - على أنهم أقل [من] قليل - يغفلون هذه المباحث، ولا يتفطنون لأهميتها و شأنها .

التوفيق بين الفقه والحديث:

لقد كان الفقه والحديث في كثيرٍ من الأوساط العلمية والدراسية والتاليفية في العالم الإسلامي ينتقلان منذ عصر طويل في سلسلتين متوازيتين، وكان كل واحد منها في محله (من حين ظهوره واستداد سعادته) يقطع طريقه في غنى وانصراف عن الآخر، وكانا بعد هذا الفراق في كثيرٍ من الأحيان لا يجتمعان عند أيّ نقطةٍ من النقاط، ولم يكن يبحثُ في الحديث في كثيرٍ من المذاهب الفقهية إلا إذا كانت مسألة فقهية تحتاج إلى تأييد من حديثٍ، أو كانت لها حاجةٌ إلى دفعٍ اعتراضٍ من اعتراضاتِ علماء المذهب الفقهي الثاني، وتصريحهم بأنَّ هذه المسألة مخالفةٌ للحديث، أو إذا كانت القصد ترجيح مذهب على مذهب.

وكانوا في دروس الصحاح الستة إما أن يتأولوا تلك الأحاديث التي تخالف مذهبهم، أو يقدموا الأحاديث الأخرى من الكتب الأخرى التي تؤيد مذهبهم، وإذا كان هناك استدلالٌ في واحدٍ من كتب المذاهب الفقهية المعتمدة بالأحاديث فإنَّ العلماء الذين قاموا - ممن لهم اطلاعٌ واسعٌ على علوم الحديث، ويملكون ذوقَ المحدثين - بمحاولة تخریج هذه الأحاديث والكلام عليها كالمحذفين النقاد^(٢)، فهذه المحاولة الطيبة كذلك كانت إحدى الطرق والوسائل لتأييد ذلك

(١) حجۃ الله البالغة، ص ١٢٨ - ١٥٤ .

(٢) من أمثلته الرائعة كتاب العلامة الرزاعي : «نصب الرایة في تخریج أحادیث الهدایة» .

المذهب الفقهي والانتصار له، وإثبات أنه موافق للأحاديث، وخدمة علمية وتحقيقية لذلك المذهب، وهي تستحق الشكر والتقدير، ولكنها لم تكن محاولة لإعادة النظر في المسائل نفسها والتوفيق بين الفقه والحديث.

وقد تكونت للمذاهب الفقهية قوالب من حديد، كان من الممكن كسرها^(١)، ومن المستحيل مدتها ويسطعها، وكان أتباع كلّ مذهب قد اعتقادوا في أنفسهم أنّ صحة مذهبهم مئة في المئة، وهي الحقيقة الأصلية، وأما إمكان الخطأ البشري فمحتمل، وقد عبر بعضُهم عن هذه النظرية بهذه الألفاظ البليغة: «مذهبنا صوابٌ يحتملُ الخطأ، ومذهبُ غيرنا خطأً يحتملُ الصواب».

وقد كان من نتيجة وجهة النظر هذه أن المذاهب الأربع (الحنفي والمالكي، والشافعي والحنبلني) التي أجمعَت على قبولها الأمة، وسلم - أصولياً - بين أهل الحق وأهل العلم من أول عهودها فيما يتعلق بها بأنَّ الحق دائمٌ فيها، وأنَّ ثمتها ومؤسساتها إنما هم أئمَّة الهدى وقادة الأمة، وأنَّ هذه المذاهب حقٌّ، تتسع بينها الهوة وتعمق، وينجر الخلاف بين أتباعها إلى التبغض، و[يتحول] البحث والنقاش في بعض الأحيان إلى المخاصمة والمقاتلة، وكان أدهى من ذلك وأمرٌ معاملتهم مع أولئك العلماء الذين يبذلون العمل بالحديث - كلياً أو جزئياً - في العبادات.

ومن أمثلة هؤلاء أحد علماء القرن الثاني عشر، العالم السلفي المحدث الشيخ محمد فاخر الإله آبادي (١١٦٤ - ١١٢٠هـ) الذي تعرضَ (حسب رواية بعض المؤلفين) لسخط العامة وغضبهِم لسلفيته واتباعه للحديث^(٢).

(١) أي أنه توجد أمثلة للانتقال من مذهب إلى مذهب من الحنفية إلى الشافعية أو العكس، أو اختيار مذهب العمل بالحديث في كل عصر، أما العدول عن بعض المسائل جزئياً مع البقاء في نطاق المذهب وحدوده، واختيار مسألة أخرى من مذهب آخر، أو العمل بالحديث، فامتثاله قليلة جداً، وذلك لأنَّ كثيراً من العلماء يرون تجزؤ التقليد غير جائز، أي إذا عمل إنسان بمسألة من مذهب فقهي، ثم عمل بأخرى من مذهب فقهي آخر، فإنه يخرج عن تقليد الأول، وذلك عندهم غير صحيح [ويسمى هذا تلنيقاً].

(٢) انظر ترجمة الشيخ فاخر الإله آبادي: (نَزَهَةُ الْخَوَاطِر)، ص ٦.

لقد كانت هذه مأثرةٌ من مآثر الإمام الذهلي التجديدية، وحلقة ذهبية رائعة في سلسلة خدمته للحديث الشريف، وانتصاره للسنة السنية أن قام بمحاولة التوفيق بين الفقه والحديث، ثم محاولة الجمع والتأليف بين المذاهب الأربع، وهذا يدلُّ على صدق تلك البشارة التي تلقاها الإمام الذهلي وقيل فيها:

«إنَّ مرادَ الحقِّ فيكَ أَنْ يَجْمِعَ شَمْلًاً مِّنْ شَمْلِ الْأُمَّةِ الْمَرْحُومَةِ بِكَ»^(١).

أما فيما يتعلق بشبه القارة الهندية، فإننا لا نعثرُ قبلَ الإمام الذهلي على محاولة للجمع والتوفيق بين الفقه والحديث، والجمع بين المذاهب على أساس الحديث، ويرجعُ ذلك إلى أسبابٍ تاريخيةٍ وعلميةٍ.

إنَّ شبه القارة الهندية ظلت من أول عهودها الإسلامية تحت سلطة أولئك الفاتحين والمؤسسين للحكومات والدول الذين كانوا أتراك الأصل أو أفغان الأصل، وكلما الشعرين من عهد اعتمادهما للإسلام - تقريباً - يحتضنان المذهب الحنفي، ويتحمسان ويشطان للدفاع عنه ونشره، وإنَّ لم يقدر هنا للمذهب المالكي والمذهب الحنفي في التاريخ الإسلامي الممتد على ثمانية قرون أن يدخلان في هذه البلاد.

أما المذهب الشافعي فكان لا يعدو بعض المدن الساحلية أو جنوب الهند بـ(مدارس) أو طرفه الشمالي (كرناتك) حالياً ببعض أجزائه كـ(هتكل) وغيرها، وكثيراً، ولم يبنغ فيهم - في حدود علمنا - باستثناء (مالابار) (بلاد المغير قديماً) التي وفدت إليها دعوة الإسلام من التجار والمشايخ والعلماء والفقهاء، الذين كانوا من أتباع المذهب الشافعي فقهاءً ومحدثون شافعيون مرموقون، عدا الشيخ المخدوم الفقيه علي المهاجمي (ت ٨٣٥ هـ) مؤلف تفسير (تبصير الرحمن وتيسير المنان)، وشيخ (مالابار) المخدوم إسماعيل الفقيه السكري الصديقي (٩٤٩ هـ)، كذلك المخدوم الشيخ زين الدين المليباري (ت ٩٢٨ هـ) مؤلف (فتح العين)^(٢)،

(١) فيوض الحرمين، ص ٦٢.

(٢) انظر للتفصيل كتاب: (عرب وديار هند) للشيخ خواجة بهاء الدين الأكرومى الندوى البهتكتلى، والكتاب في أردو.

الذين يتربكون تأثيرهم على الأوساط العلمية في الهند (لا سيما شمالي الهند) ويحملون العلماء الأحناف على دراسة الفقه الشافعي دراسة عميقه، والاستفادة منه.

وأما العلماء وطلاب علوم الحديث والفقه الذين كانوا يرحلون من الهند إلى الحجاز (الذي كان تحت إدارة الدولة التركية، والأتراء لا يزالون - في كل عصر - سنيين وحنفيين مئة في المئة) فكانوا أيضاً يتصلون بالعلماء الذين هم على مذهبهم، وخاصة بأساتذة الفقه والحديث من مواطنـي بلادـهم، الذين هاجروا إليها من الهند وأفغانستان، وكان تلامـذـهم عدـداً كـبـيراً^(١).

لقد كان الإمام الدهلوـي أول شخص تـلـمـذـ في الحرمين الشريفين على محدثـ شافـعـي جـلـيلـ كالـشـيخـ أبي طـاهـرـ الـكـرـديـ الـمـدـنـيـ، واستفادـ منه استفـادـةـ كبيرةـ، وكان مـعـجـباـ بـعلـمـهـ وـشـخصـيـتـهـ، وـكـمالـهـ الـبـاطـنـيـ، وـسـعـةـ نـظـرـهـ، وـرـحـابـةـ صـدـرـهـ، وـتأـثـرـ بـهـ فـيـ هـذـهـ النـوـاـحـيـ، وإنـ شـيـوخـ الـإـمـامـ الـدـهـلـوـيـ فـيـ الـحرـمـينـ الشـرـيفـينـ الـذـيـنـ تـرـجـمـ لـهـمـ فـيـ كـتـابـ (إـنـسـانـ الـعـيـنـ) لمـ يـكـنـ فـيـهـمـ مـعـذـلـاـ مـعـذـلـاـ، وـكـانـ مـنـ هـؤـلـاءـ الشـيـوخـ الشـيـخـ محمدـ وـفـدـ اللهـ بـنـ الشـيـخـ مـحـمـدـ بـنـ سـلـيـمانـ مـنـ الـمـالـكـيـةـ.

إنـ العـهـدـ الـذـيـ عـاـشـ الـإـمـامـ الـدـهـلـوـيـ فـيـ الـحرـمـينـ الشـرـيفـينـ كـانـ فـيـهـ الـقـيـادـةـ الـعـلـمـيـةـ وـالـسـيـادـةـ وـالـرـيـادـةـ فـيـ مـجـالـ التـعـلـيمـ وـالـتـدـرـيـسـ (لاـ سـيـماـ فـيـ تـدـرـيـسـ فـنـ الـحـدـيـثـ الشـرـيفـ) بـأـيـدـيـ الـعـلـمـاءـ وـالـمـحـدـثـيـنـ الـيـمـنـيـنـ أـوـ الـمـحـدـثـيـنـ الـأـكـرـادـ، وـكـانـواـ بـصـفـةـ عـامـةـ شـافـعـيـةـ، لأـجـلـ هـذـهـ العـوـاـمـ كـلـهـاـ، تـهـيـأـتـ الفـرـصـةـ السـانـحةـ لـلـإـمـامـ الـدـهـلـوـيـ لـلـلـاطـلـاعـ عـلـىـ أـصـوـلـ الـفـقـهـ الشـافـعـيـ وـقـوـاعـدـهـ، وـخـصـائـصـهـ وـمـمـيـزـاتـهـ، كـمـاـ قـيـضـ لـهـ أـنـ يـتـعـرـفـ عـلـىـ الـفـقـهـ الـمـالـكـيـ وـالـفـقـهـ الـحـنـبـلـيـ مـنـ عـلـمـائـهـمـ، الـأـمـرـ الـذـيـ لـمـ يـتـيـسـرـ لـعـلـمـاءـ الـهـنـدـ منـذـ مـدـةـ طـوـيـلةـ (الـأـسـبـابـ تـارـيـخـيـةـ وـسـيـاسـيـةـ

(١) أمـثالـ الـعـلـمـةـ الشـيـخـ عـلـيـ الـمـتـقـيـ الـبـرـهـانـ بـورـيـ صـاحـبـ (كتـنـ العـمـالـ)، وـالـعـلـمـةـ قـطـبـ الدـينـ الـنـهـرـوـالـيـ، وـمـلـاـ عـلـيـ الـقـارـيـ الـهـرـوـيـ الـمـكـيـ، وـالـشـيـخـ عـبـدـ الـوـهـابـ الـمـتـقـيـ، وـالـشـيـخـ مـحـمـدـ حـيـاةـ السـنـدـيـ . . . وـغـيـرـهـ.

وجغرافية ومدنية) كما أمكن له الدراسة المقارنة للمذاهب الأربع التي لم تكن تيسير لأولئك العلماء الذين لم توافهم هذه الفرص السانحة.

لقد رحل الإمام الذهلي إلى الحجاز عام ١١٤٣هـ وهو في الثلاثين من عمره، وكان قد درس في الهند الثاني عشر عاماً، ولكن لما أودع الله تعالى في طبعه من جامعية واتزان، وسعة في الأفق، ورحابة في الصدر، ونزعةٌ تطبيقية توفيقية موهوبة، وميلٌ طبيعيٌ إلى الجمع والوصل، لا الفرق والفصل، لذلك فإنه قبل رحلته إلى الحجاز أيضاً كان يحمل الاتجاه إلى التطبيق والتوفيق بين الفقه والحديث، وكان قد عزمَ على ترجيح مسلك المحدثين الفقهاء، و اختياره مسلكه وطريقه في الحياة، يقول في (الجزء اللطيف في ترجمة العبد الضعيف):

«و بعد ما طالعتُ كتب المذاهب الأربع وأصولها، ونظرت في الأحاديث التي يتمسكون بها، اعتمدت على اتباع طريق الفقهاء المحدثين بإشارة نور الغيب وإيحائه»^(١).

وقد انتقد الإمام الذهلي طريقة الفقهاء الغلاة في مذهبهم (الذين لا يستطيعون أن ينحرفوا عن مذهبهم قيد شعرة)، والفرقة الظاهرية (التي تنكر الفقه المذهبى رأساً، وتطلق لسانها في أولئك الفقهاء الأجلاء، الذي هم رأس العلماء وأئمة أهل الهدى وقادة أهل الدين) انتقاداً شديداً، وأبدى سخطه ونفوره من مغالاة الطبقتين وشدتهم وتطفهم، وصرح بكل وضوح (بأنَّ الحق أمرٌ بين بين) لا الفريق الأول على الحق الصرف، ولا الثاني على الحق المبين.

يقول الإمام الذهلي في كتابه (حجۃ الله البالغة):

«إن التخريج على كلام الفقهاء وتبني لفظ الحديث لكلٍّ منهم أصلٌ أصيلٌ في الدين، ولا يزال المحققون من العلماء في كلٍّ عصرٍ يأخذون بهما، فمنهم من يقلُّ من ذا ويكتُّ من ذاك، ومنهم من يكثر من هذا ويقلُّ من ذاك، فلا ينبغي أن يهمل أمر واحد منهم بالمرة كما يفعله عامة الفريقين، وإنما الحق البحث أن

(١) الجزء اللطيف في ترجمة العبد الضعيف، ص ٤.

يطابق أحدهما بالآخر، وأن يجبرَ خللُ كُلٍّ بالآخر، وذلك قولُ الحسن البصري^(١)
ويقول في (وصاياه):

«ينبغي في المسائل الفرعية اتباع أولئك العلماء المحدثين، الذين يجمعون
بين الفقه والحديث، ولا بد من عرض المسائل الفقهية على كلام الله تعالى
وحديث رسول الله ﷺ».

ويزيدُ قائلاً: «ولا غنى للأمة في أي عصرٍ من العصور، عن عرض المسائل
الاجتهادية على الكتاب والسنة»^(٢).

لقد كانت نشأة الإمام الذهلي وتربيته في بيته يسود فيها الفقه وأصول الفقه
الحنفي، وكان مطلاً على خصائص المذهب الحنفي، ومعترفاً بها كأي عالم حنفي
كبير، وكان يعرف هذه الحقيقة، ويصرّح بها في كثير من الموضع بأن الخدمة التي
قام بها العلماء للمذهب الحنفي (كذلك للمذهب الشافعي) - لأسباب وعوامل
تاريخية وعلمية، وسياسية ومدنية متعددة - وما بذلوه من جهود في تهذيبه وتنقيحه
وشرح مtonه، والتفریع على أصوله، لم يتيسر لمذهب آخر.

يقول عن الإمام أبي حنيفة رحمه الله تعالى :

«كانَ عظيمَ الشأنَ في التخريج على مذهب إبراهيم وأقرانه، دقيقَ النظرِ في
وجوه التخريجات، مقبلاً على الفروع أتمَ إقبالاً»^(٣).

ولكنه مع ذلك يعترف بعظمية الإمام مالك وجلالة شأنه، ويصححة كتابه
(الموطأ)، ومتزلته الرفيعة العالية، وفوائد الغالية، ويدعو إلى الاعتراف بها،
ويرى أنه من الكتب الأساسية الأولى في الحديث^(٤)، كما يصف - في جانب

(١) حجة الله البالغة: ١٥٦/١، وانظر للتفصيل: مبحث (حكایة حال الناس قبل المئة
الرابعة وiederها).

(٢) الوصايا بالفارسية، ص ٢ - ٣.

(٣) الإنصاف في بيان أسباب الاختلاف، طبع دار التفاصي - بيروت، ص ٣٩.

(٤) انظر: مقدمة (مصنفى).

آخر - المذهب الشافعي بأنه مصفي ومنقح، وأقرب إلى الحديث، في ثناء وإطراء، ويعرف بدقة نظر الإمام الشافعي أتىما اعتراف^(١)، ثم يذكر الإمام أحمد بن حنبل فيقول في (حجۃ الله البالغة):

«وكان أعظمهم شأناً، وأوسعهم رواية، وأعرفهم للحديث مرتبة، وأعمقهم فقهًا، أحمد بن حنبل، ثم إسحاق بن راهويه»^(٢).

لقد كان الإمام الذهلي - لاطلاعه المباشر على مكانة هؤلاء الأئمة الأربعة، وجلالة شأنهم، وسعة علمهم، ودقة نظرهم، ومتهم الجليلة على الأمة (عن طريق كتبهم وكتب التاريخ والتراجم) وحبهم وإجلالهم من أعماق القلب، - من الجامعية والتبحر والاتزان والتوسط في الدراسة المقارنة لفقهه والحديث، ما لا يتوقع - بطبيعة الحال - من أولئك العلماء والمؤلفين الذين انحصرت دراستهم وصلتهم العقلية والفكرية في تطابق مذهب فقهى واحد، ويواضعه ومؤسسه الأول، ولا تتيسر لهم أي فرصة للخروج - لأسباب طبيعية وشخصية كثيرة - من هذه الدائرة المحددة.

نقطة التوسط والاعتدال بين التقليد والاجتهاد:

إنَّ من فضائل الإمام الذهلي المohoبة، ومميزاته التجددية، التي خصَّه الله تعالى بها، هو ذلك المسلك المترن المتوسط، وتلك النقطة المتوسطة التي اختارها بين الاجتهاد والتقليد، والتي هي دليلٌ ساطعٌ رائعٌ على طبيعته السليمة المترنة، وذوقه الصحيح وواقعيته، فقد كان هناك فريق يكلف كل مسلم - سواء كان عامياً أو عالماً - بالعمل وفق الكتاب والسنَّة، واستفادَة الأحكام والمسائل الشرعية منها مباشرة، ويحرِّمُ التقليدَ تحريماً مطلقاً، وهم إنْ كان كلامهم لا يصرخُ بهذا الموقف، فإنَّ منهجهم في العمل وكتاباتهم تؤدي - طبعاً - إلى هذه النتيجة.

(١) انظر: (الخير الكبير)، ص ١٢٤؛ (وقرة العين)، ص ٢٤٢، للإمام الذهلي.

(٢) حجۃ الله البالغة: ١/ ١٥٠.

وقد كان في المتقدمين من هذا الفريق والمتهمسين لهذا الموقف العلامة ابن حزم، ولكن هذا الموقف غير عملي وغير واقعي، وإن تكليف كل مسلم بذلك تكليف بما لا يطاق.

وكان - في جانب آخر - فريق آخر يوجب على جميع المسلمين التقليد، ويصف من يخلع ريقته من التقليد بهذه الأحكام الفقهية الشديدة بالفاسق والضال (كما يصف الفريق الأول بذلك جماعة المقلدين والمتبعين لمذهب فقهي خاص) وكان هذا الفريق يتناهى أن التقليد إنما هو طريقة تنظيمية إدارية لصيانة العامة من الناس من اتباع النفس والهوى، والقول بالرأي، وحماية المجتمع المسلم من الفوضى والاضطراب، ووسيلة لإيجاد الوحدة والنظام في الحياة الدينية العملية، وتيسير العمل بالأحكام الشرعية، ولكتهم جعلوا هذا العمل التنظيمي في منزلة العلم التشريعي، وألحوا عليه بشدة وتأكد غليظ، نقله من كونه مذهبًا فقهياً ومسألة اجتهاادية فحسب إلى كونه نصاً ظاهراً، وعملاً قطعياً، وأمراً دينياً مستقلأً.

إن المنهج الذي اختاره الإمام الذهلي، وما عبر به عن ذلك، هو أقرب إلى روح الشريعة، وأكثر انسجاماً مع منهج القرن الأول، وأوفق بالفطرة البشرية، وأمس بالحياة العملية.

ويذكر الإمام الذهلي - في هذا الصدد - طريقة العمل السائدة قبل القرن الرابع الهجري، ويشرّح كيف كان الناس يحلّون مسائلهم الجديدة الطريفة ومشاكلهم العارضة في حياتهم الدينية وعبادتهم ومعاملاتهم، وما هو الطريق الذي كانوا يختارونه ويسلكونه، يقول في باب (حكاية حال الناس قبل المئة الرابعة وبعدها) من (حجّة الله البالغة) :

منهج المسلمين في القرون الأولى:

«اعلم أن الناس كانوا قبل المئة الرابعة غير مجمعين على التقليد الخالص لمذهب واحد بعينه، قال أبو طالب المكي في (قوت القلوب) : إن الكتب

والمجموعات محدثة، والقول بمقالات الناس، والفتيا بمذهب الواحد من الناس واتخاذ قوله، والحكاية له في كل شيء، والتference على مذهبة، لم يكن الناس قدّيماً على ذلك في القرنين الأول والثاني».

أقول: وبعد القرنين حدثَ فيهم شيءٌ من التحريرِ، غير أنَّ أهل المئة الرابعة لم يكونوا مجتمعين على التقليد الخالص على مذهب واحد والتference له، والحكاية لقوله كما يظهر من التبيع، بل كان فيهم العلماء وال العامة، وكان من خبر العامة أنَّهم كانوا في المسائل الاجتماعية التي لا اختلاف فيها بين المسلمين أو جمهور المجتهدين لا يقلدون إلا صاحب الشرع، وكانوا يتعلمون صفة الوضوء والغسل والصلوة والزكاة ونحو ذلك من آباءهم أو معلمي بلدانهم، فيمشون حسبَ ذلك، وإذا وقعت لهم واقعة استفتوها فيها أيٌّ مفتٍ وجدوا، من غير تعين مذهب.

وكان من خبر الخاصة أنَّ أهل الحديث منهم يشتغلون بالحديث، فيخلص إليهم من أحاديث النبي ﷺ وأثار الصحابة ما لا يحتاجون معه إلى شيء آخر في المسألة من حديث مستفيض أو صحيح قد عمل به بعض الفقهاء، ولا عذر لتارك العمل به، أو أقوال متظاهرة لجمهور الصحابة والتابعين مما لا يحسن مخالفتها، فإن لم يجد في المسألة ما يطمئن به قلبه، لتعارض النقل، وعدم وضوح الترجيح، ونحو ذلك، رجع إلى كلام بعض من مضى من الفقهاء، فإن وجد قولين اختار أو ثقهما، سواء كان من أهل المدينة، أو من أهل الكوفة.

وكان أهل التحرير منهم يخرجون فيما لا يجدونه مصراً، ويجهدون في المذهب، وكان هؤلاء ينسبون إلى مذهب أصحابهم فيقال: فلان شافعي، وفلان حنفي، وكان صاحبُ الحديث أيضاً قد ينسب إلى أحد المذاهب لكثره موافقته له، كالنسائي والبيهقي ينسبان إلى الشافعي، فكان لا يتولى القضاء ولا الإفتاء إلا مجتهد، ولا يسمى الفقيه إلا مجتهدًا، ثم بعد هذه القرون كان ناس آخرن ذهبوا يميناً وشمالاً.

الصورة الطبيعية المشروعة للتقليد:

ويرى الإمام الذهلي - لغاية إنصافه وواقعيته - أنَّ الشخص الذي يقلُّد مذهبًا فقهياً خاصاً، أو إماماً معيناً، ولكنه لا ينوي إلا اتباع صاحب الشريعة - عليه الصلاة والسلام - والاقتداء به، إلا أنه لا يجدر في نفسه من القدرة ما يتوصل بها إلى الحكم الشرعي، وما ثبت بالكتاب والسنة مباشرة، فله العذر في التقليد، ويكون لعدم توصله إلى الحكم - مباشرة - عدة أسباب: مثل أن يكون عامياً، أو لا تيسِّر له الفرص للبحث والتحقيق - مباشرة - أو لا تتوفر له وسائل العلم والبحث والتحقيق، التي يستطيع أن يطلع بها على النصوص، أو يستنبط من النصوص المسائل.

ويقول الإمام الذهلي بعد إيراد قول ابن حزم: إنَّ التقليد حرام، ولا يجوز لأيٍ مسلم أن يقلُّد أحداً دون رسول الله ﷺ من غير دليل ولا برهان:

«وليس محل (قول ابن حزم) فيمن لا يدينُ إلا بقول النبي ﷺ، ولا يعتقد حلالاً إلا ما أحله الله ورسوله، ولا حراماً إلا ما حرمَه الله ورسوله ﷺ، ولكن لما لم يكن له علم بما قاله النبي ﷺ ولا بطريق الجمع بين المخلفات من كلامه، ولا بطريق الاستنباط من كلامه، اتبع عالماً راشداً على أنه مصيب فيما يقول ويفتي ظاهراً، متبع سنة رسول الله ﷺ، فإن خالف ما يظنه أقطع من ساعته من غير جدال ولا إصرار، فهذا كيف ينكِّره أحد، مع أنَّ الاستفتاء والإفتاء لا يزالان بين المسلمين من عهد النبي ﷺ، ولا فرق بين أن يستفتني هذا دائماً، أو يستفتني هذا حيناً وذلك حيناً، بعد أن يكون مجمعاً على ما ذكرناه، كيف لا ولِم نؤمِّن بفقهي أيًّا كان أنه أوحى الله إليه الفقه، وفرض علينا طاعته، وأنه معمصوم، فإن اقتدينا بوحدة منهم فذلك لعلمنا بأنه عالم بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فلا يخلو قوله من أن يكون من صريح الكتاب والسنة، أو مستنبطاً منها بنحو من الاستنباط، أو عرف بالقرائن أنَّ الحكمَ في صورة ما متوطِّن بعلة كذا، واطمأنَّ قلبه بذلك، ففاس غير المنصوص على المنصوص، فكانه يقول: ظنتُ أنَّ رسول الله ﷺ قال: كلَّما وُجدتْ هذه العلة فالحكم ثمة هكذا.

والمقيس مندرج في هذا العموم، فهذا أيضاً معزولاً إلى النبي ﷺ، ولكن في طريقه ظنون، ولو لا ذلك لما قدّم مؤمن مجتهداً، فإن بلغنا حديث من الرسول المعصوم ﷺ، الذي فرض الله علينا طاعته بسند صالح يدل على خلاف مذهبه تركنا حديثه، واتبعنا ذلك التخمين، فمن أظلمُ منا، وما عذرنا **﴿يَوْمَ يَقُولُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾** [المطففين : ٦] ^(١).

ميزات المذاهب الأربعة:

يقول الإمام الذهلي بعد هذا التحليل المنصف الباحث عن هذه المذاهب الفقهية الأربعة، التي يُعمل بها في العالم الإسلامي - بصفة عامة - في رسالته: **«عِتْدُ الْجَيْدِ فِي أَحْكَامِ الْاجْتِهادِ وَالتَّقْلِيدِ»** (التي هي رغم صغر حجمها ووجازتها كبيرة القيمة) ما يلي :

«أعلم أنَّ في الأخذ بهذه المذاهب الأربعة مصلحةٌ عظيمةٌ، وفي الإعراض عنها كلها مفسدةٌ كبيرةٌ، ونحن نبين ذلك بوجهه :

أحدهما: أنَّ الأمة اجتمعت على أن يعتمدو على السلف في معرفة الشريعة، فالتابعون اعتمدوا في ذلك على الصحابة، وتبعُ التابعين اعتمدوا على التابعين، وهكذا في كل طبقة، اعتمد العلماء على من قبلهم.

والعقل يدل على حسن ذلك، لأنَّ الشريعة لا تعرف إلا بالنقل والاستنباط، والنقل لا يستقيم إلا بأن تأخذ كل طبقة عَمَّن قبلها بالاتصال.

ولا بد في الاستنباط أن تعرف مذاهب المتقدمين، لئلا يخرج عن أقوالهم فيُخرج الإجماع، وبينى عليها، ويستعين في ذلك كُلُّ بمَنْ سبقة، لأن جمِيع الصناعات كالصرف والنحو والطب والشعر، والحدادة والنじارة والصياغة لم تتبسر لأحد إلا بملازمة أهلها، وغير ذلك نادر بعيد، لم يقع، وإن كان جائزًا في العقل.

(١) حجة الله البالغة: ١٥٦ - ١٥٥ / ١.

وإذا تعين الاعتماد على أقوال السلف، فلا بد من أن تكون أقوالهم التي يعتمد عليها مرويّة بالإسناد الصحيح، أو مدونة في كتب مشهورة، وأن تكون مخدومةً بأن يبين الراجح من محتملاتها، ويخصص عمومها في بعض الموضع، ويقيّد مطلقها في بعض الموضع، ويجمع المختلف، ويبين علل أحکامها، وإن لم يصح الاعتماد عليها، وليس مذهبٌ في هذه الأزمنة المتأخرة بهذه الصفة إلا هذه المذاهب الأربعه^(١).

وهكذا اختار الإمام الذهلي ذلك الموقف المعتدل المتزن بين الاجتهاد والتقليد، الذي يوافق مقاصد الشريعة والفطرة البشرية وعالم الحقائق، وينسجم معها انسجاماً كلياً، وإنَّه قد اشتَرطَ في التقليد أن يكونَ الغرضُ منه - مع العقلية الواضحة والنية الصالحة - اتباعَ صاحبِ الشرع عليه السلام، والالتزام بالكتاب والسنة، وذلك لهذه الثقة الكاملة بأنَّ من نجعَله واسطةً بيننا وبين الكتاب والسنة هو عالم بهذين الأصلين، وليس إلا ممثلاً عنهما، وترجماناً لهما، ثم لا بدَّ أن يكونَ فيه استعدادٌ كلَّ حين (ولو لم يقع ذلك إلا بعد مدة طويلة) بأنه إذا وثق واطمأنَّ بأنَّ الشأنَ غيرَ ذلك، وأنَّ الحكمَ الشرعيَّ الثابتَ بالكتاب والسنة ليس ما قررَه ذلك الإمام فلا يتَرددُ المؤمنُ في قبوله والخضوع له.

﴿فَلَا وَرِيكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا سَلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

ال الحاجة إلى الاجتهاد في كل عصر:

يرى الإمام الذهلي - مع الاعتراف بخصائص المذاهب الأربعه وميزاتها، وخدمات الفقهاء المحدثين الجليلة، وعلو منزلتهم، والاعتراف بأنَّ هذه الثروة الفقهية والحديثية ثروة عظيمة قيمة، يستفاد منها، ويتتفع بها، وأنَّ الاستغناء والإعراض عنها من أسباب الخسران والحرمان. أنَّ الاجتهاد مع شروطه وتحفظاته

(١) عقد الجيد، ص ٣٦-٣٨.

الضرورية حاجةٌ كلّ عصر، ومقتضى طبيعي للتطورات الحادثة في الحياة الإنسانية والمجتمع والمدنية، وصلاحية النشوء والارتقاء، وال حاجات البشرية، وتسلسل الحوادث والواقع إثبات لسعة الشريعة الإسلامية، وأنها من الله الحكيم، وأنها تملك صلاحية قضاء جميع المتطلبات المشروعة للمجتمع البشري، وهداية الناس وإرشادهم، الأمر الذي لا بدّ من إثباته، والتظاهر به في كلّ عصر، وهو واجب من واجبات حملة الشريعة الأمانة، يقول الإمام الذهلي في مقدمة (المصفي) :

«إنَّ الاجتِهاد فرضٌ كفايةٌ في كلّ عصر، وليس المراد بالاجتِهاد هنا الاجتِهاد المستقل كاجتِهاد الإمام الشافعي - مثلاً - الذي لم يكن في الجرح والتعديل والعربية وغيرها في حاجةٍ إلى غيره، كما لم يكن تابعاً لأحدٍ في درايته الاجتِهادية (بجميع أنواعها وأقسامها) بل المراد الاجتِهاد المتسبُّب، وهو عبارة عن معرفة الأحكام الشرعية بأدلة التفصيلية، وتفريع المسائل وترتيبها على طريقة المجتهدین، ولو كان ذلك بإرشادٍ من إمام من الأئمَّة».

والذي نقوله: إنَّ الاجتِهاد في عصرنا هذا واجبٌ (وهي مسألة إجماعية بين العلماء المحققين) فوجّهه أنَّ المسائل كثيرةُ الواقع، ولا يمكنُ حصرُها واستيعابها، ولا بدّ من معرفة حكم الله تعالى فيها، والذي دخل في حيز التحرير والتدوين لا يكفي، والخلافاتُ فيه كثيرةٌ، ولا يمكن حلها إلا بالرجوع إلى الدلائل، والروايات المتنقلة للمسائل عن الأئمَّة في أكثرها انقطاع، بحيث لا يثقُ بها القلبُ بطمأنينة، ولذلك فلا مناصَ من عرضها على قواعد الاجتِهاد وأصوله والبحث فيها»^(۱).

* * *

(۱) مقدمة (المصفي) بالفارسية، ص ۱۲، طبع المطبع الفاروقى، بدھلی.

الكتاب الثالث

عرض الشرعية الإسلامية عرضًا مبهرًا منسقاً والكشفُ عنَّ مَقاصِدِ الْحُكْمِ الشَّرِيعيَّةِ وَأَسْرَارِهَا وَحِكْمَتِهَا في ضوء (حجۃ اللہ البالغة)

ميزة (حجۃ اللہ البالغة) وتقدیمه:

إنَّ كتابَ (حجۃ اللہ البالغة) للإمام الدهلوi يعدُّ من جلائلِ أعمالِه العظيمة، وتأثيرِه العلمية الكبیرى، التي عُرِضَت فيها الشريعةُ الإسلامية والدين الحنيف في صورةٍ جامعَةٍ متناسقةٍ مدعمةٍ بالحجج والدلائل الناصعة القوية، وقدمت فيها أبواب الإيمان والعبادات والمعاملات والأخلاق والمجتمع والمدنية والسياسة والإحسان بترتيبٍ وترتبطُ ونظامٍ، وفي تناصقٍ واتزانٍ، بحيث يخيّلُ إليك كأنَّها لآلئُ العقد المنظوم، أو حلقاتُ سلسلة متراقبة، مع توضيح الفروق بين الأصول والفروع، والمقاصد والغايات، والوسائل والألات، وبين الم الحقائق الدائمة المستقلة، والأمور العارضة المؤقتة، بحيث لا يغيبُ ذلك لحظةً عن الأنظار، وكثيراً ما يختلط الأمر بينهما في كثير من البحوث والمؤلفات، بل هي علة قديمة شائعة في تلك الكتب والمؤلفات - بصفة خاصة - التي أُلفت نتيجةً رد فعل لتعسف أو مغالاة، أو في فورة عاطفة وحماس.

ويرجعُ السببُ في هذا الترابط والتناصق - عدا ما وهب الإمام الدهلوi من اتزانٍ وتوسيطٍ وسلامةٍ فطرة - إلى دراسته العميقَة الواسعة لعلم الحديث الشريف، وتلك الطبيعةُ الخاصةُ التي تتكونُ عن طريق الاشتغال والاهتمام بالسيرة النبوية والحديث النبوي، أو عن طريق صحبة العلماء الربانيين وتراثهم

الذين تربوا في المدرسة النبوية، وقطرت عليهم رشحات من السيرة العطرة، على صاحبها الصلاة والسلام.

إنَّ هذا العرضَ الجامعَ المتسبقَ المترابطَ الذي نشاهدُه في صفحاتِ (حجَّةُ اللهُ البالغةُ) ينذرُ نظيرِه في المؤلفاتِ الدينيَّةِ، ويذلِّكُ ظلَّ كتابَ (حجَّةُ اللهُ البالغةُ)^(١) علمَ الكلَّامِ الجديِّدِ، الذي يجذُّبُ فيه أيُّ إنسانٍ يريُّدُ الحقَّ مع سلامةِ الفطرةِ وطيبِ القصدِ (وقد أُوتِيَ شيئاً من الكفاءةِ العلميَّةِ ودقَّةِ النظرِ وعمقِ التفكيرِ) إرواءً كاملاً لغليلهِ، وزادَأً كافياً لقناعتهِ وطمأننتهِ، ولم يؤلِّفْ كتاباً -في حدودِ علمِ المؤلفِ، وفي اللغاتِ التي يعرِفُها- في تأييدِ أيِّ ديانةٍ من الدياناتِ وتفسيرِها للبقِ الحكيمِ، وفلسفتها الجامعةِ المتناسقةِ كهذا الكتابِ في منزلتهِ ومكانتهِ، وإنْ كان قد أُلفَ، فإنَّهُ ليسَ بينَ ظهرانيِ العلماءِ والباحثينِ في الدنياِ العلميَّةِ المعاصرةِ.

إنَّ عهَدَ العقلانيةِ الخاصَّةِ، الذي كانَ بعدَ القرنِ الثاني عشرَ الهجريِ بقليلٍ، قدْ أُوشِكَ -لأسبابِ تعليميَّةٍ وتربيويَّةٍ، ومدنيةٍ وعقليةٍ وعلميَّةٍ وفكريَّةٍ- على الظهورِ في الهندِ وفي العالمِ الإسلاميِّ كلهُ، فترزَّعَ البحثُ والتَّفتيشُ عن مصالحِ الشريعةِ الإسلاميَّةِ وحكَمِها وأسراَرِها التي كادَتْ تعمُّ وتسودُ، والتي كانتْ تتهيأً بسبِبِها عقولٌ كثيرةً للضلالِ والانحرافِ، وأقلامٌ كثيرةً للزيغِ والانطلاقِ، وكانَ الحديثُ والسنةُ النبويةُ -بصفةِ خاصَّةٍ- لأسبابِ خاصَّةٍ -مستهدفةً للشبهاتِ والاعتراضاتِ^(٢)، إنَّهُ لم يكنْ يُستطِيعُ أنْ يواجهَ هذهِ التحدِّياتِ ويلبِّي هذهِ المقتضياتِ إلَّا مَنْ يكونَ على علمٍ واطلاعٍ واسعٍ على الكتابِ والسنةِ، وعلومِ الحكمةِ، وعلمِ الكلَّامِ، وعلمِ الأخلاقِ، وعلمِ النفسِ، وعلمِ الاقتصادِ، وعلمِ

(١) لقد وجدَ كاتبُ هذهِ السطورِ زعيمُ المغربِ العلامةُ عَلَّالُ الفاسيُّ المغربيُّ رحمةُ اللهِ تعالىُ مؤلفَ (مقاصيدُ الشريعةِ الإسلاميَّةِ ومكارمُها)، ومعاليُ الأستاذُ محمدُ المباركُ رحمةُ اللهِ تعالىُ من بينِ العلماءِ والباحثينِ المعاصرِينِ العربِ، يشيدونَ بكتابَ (حجَّةُ اللهُ البالغةُ) أيما إشادةً، ويلهجونَ بالثناءِ عليهِ، وقدْ كانوا معجبينَ بهذهِ الناحيةِ بصفةِ خاصَّةٍ: أنَّ هذا الكتابَ يجمعُ بينَ شعبِ الدينِ كلِّها حتى إنَّهُ يمثلُ تهذيبَ الأخلاقِ وتزكيةَ النفسِ والإحسانِ أيضاً تمثيلاً كاملاً رائعاً.

(٢) يراجعُ للتَّفصيل: رسالةُ المؤلفِ (دورُ الحديثِ في تكوينِ المناخِ الإسلاميِّ وصيانتِه).

السياسة (في حدود عصره على الأقل) ثم يكون عارفاً بباب فن التزكية والإحسان وجوهره وحقيقة، بل يمكن من درجة الاجتهد فيه.

لقد كان كل ذلك يتطلب أن يصدر من قلم إمام القرن الثاني عشر كتاب يفي بهذه الحاجات والمتضييات، ولا يمكن أن يصدر مثل هذا إلا من قلم إنسان، هو إنسان - على كل حال - وليس معصوماً، وليس له علم يحيط بجميع العصور والأمكنة والمعلومات، ولا يخلو - وإن كان أقل قليل - عن طابع عصره، وتأثير منهج التعليم والتربية الذي نشأ وتربي فيه، ولكنه رغم كل ذلك تلميذ المدرسة القرآنية، وخريج معهد الحديث والسنّة، وترجمانهما المبين.

يقول الإمام الدهلوi وهو يذكر دوافع تأليف هذا الكتاب وعوامله:

«إن أدقَّ الفنون الحدِيثية بأسِرِها عندي وأعمقَها محتدأً، وأرفعها مناراً، وأولى العلوم الشرعية عن آخرِها فيما أرى، وأعلاها منزلةً، وأعظمها مقداراً، هو علم أسرارِ الدين، الباحث عن حكم الأحكام وكيمياتها، وأسرار خواص الأعمال ونكتاتها... إذ به يصيرُ الإنسانُ على بصيرةٍ فيما جاء به الشرع»^(١).

دقة الموضوع وخطورته:

ولكنَّ الموضوع الذي يعالج حكم الأحكام الدينية، ويتعرض لمصالحها وأسبابها وعللها موضوع جدُّ دقيق وخطير، فإنَّ أدنى ميل أو إفراط وتغريط فيه، أو سيطرة نزعة خاصة، أو تأثير عصر خاص، ينأى بذهن القارئ وعقليته بعيداً عن جادة التعليم النبوية، والشرع السماوية - التي يقصد بها أصلًاً وبالذات رضا الله تعالى، والتقرُّب إلى جنابه الأعلى، والنجاة في الآخرة - ويتقلَّ به إلى طريق المصالح المادية، والمنافع المدنية والأغراض والغايات السياسية، وتخرج روح الإيمان والاحتساب^(٢) من هيكل الجهود والمساعي المبذولة كلياً، أو تضعف

(١) حجَّةُ اللهِ البالغة، ص ٣.

(٢) الإيمان: هو اليقين الكامل بموعد الله تعالى، والاحتساب: هو نية الحصول على رضا الله تعالى وثوابه، وهو مصطلحان دينيان، ورد في أحاديث كثيرة، منها قوله ﷺ: «من =

وتنكمش وتبقى من غير تأثير ملحوظ.

فعلى سبيل المثال يمكن أن يقال: إن المحكمة في مشروعية الصلاة أنها تربية عسكرية جيدة، وأنها تساعد على التنظيم والطاعة للأمير، وإقامة الحكومة الإسلامية، وأن الصوم من أنجح الوسائل للصحة البدنية، وأن الزكاة ضريبة واجبة في أموال أهل الثراء للقراء، ولها القيمة الاقتصادية والاجتماعية فقط، وأن الحج مؤتمر سنوي عالمي، ينظر فيه في المسائل المشاكل التي يواجهها المسلمون والتوصيل إلى حلها فحسب.

نظراً إلى هذه الأخطار والأخطاء (التي تجاوزت حدود الممكنتات والمحتملات إلى وقائع وأمثلة حية عملية) لم يكن يستطيع أن يقوم بهذه المهمة الدقيقة الخطيرة إلا من يمسك بيده أصول الدين الحنيف والشريعة الإسلامية، ويكون عالماً بغاية نزول الشرائع الإلهية، وبعثة الأنبياء والمرسلين - عليهم الصلوات والتسليم - وقد تغلغلت في أحشائه روح الإيمان والاحتساب، وجرت في عروقه ودمائه، وتكونت عقليته وتربيته العلمية في بيته الكتاب والسنة والإيمان والاحتساب، وفي ظلالها الفيحاء، ولقد كان الإمام الذهلي - كما علمنا مما مضى في ترجمة حياته - أجدل شخصية وأقدرها على الكتابة في هذا الموضوع الدقيق الخطير.

الحاجة إلى كتاب مستقل وجهود العلماء المتقدمين:

يدرك الإمام الذهلي ما بذله العلماء المتقدمون من جهود في هذا الموضوع فيقول:

«وانتهى إمعان المجتهدين إلى تبيان المصالح المرعية في كل باب من الأبواب الشرعية، وأبرز المحققون من أتباعهم نكتاً جليلة، وأظهر المدققون من أشياعهم جملًاً جزيلة، وخرجَ بحمد الله تعالى من أن يكون التكلُّم فيه خرقاً لِجماع الأمة، أو اقتحاماً في عمي وغمة، لكن قلًّا من صفت فيه، أو خاضَ في

تأسيس مبانيه، أو رتّب منه الأصول والفروع»^(١).

وقد أشار الإمام الذهلي - في هذا الصدد - إلى الإمام الغزالى والعلامة الخطابي وشيخ الإسلام عز الدين بن عبد السلام - الذين تحتوى كتاباتهم وممؤلفاتهم في مختلف الموضوعات على هذه المحتويات والإشارات^(٢).

وقد استدلَ الإمام الذهلي في الرد على دعوى أنَ الأحكام الشرعية لا تشتملُ على المصالح، وأنَه ليس بين الأعمال وما جعلَ الله تعالى جزاء لها مناسبة بتلك الآيات والأحاديث النبوية التي تدلُ على الصلة والمناسبة بين الأعمال ونتائجها، وتشيرُ إلى علل بعض الأحكام ومصالحها، كما ذكر أيضًا تلك الأحاديث التي تتضمنُ بيانَ الأسباب لشرعية قربة من القرب، أو عمل من الأعمال، أو تكشفُ عن أسرار تعينها وتحديدها، كما قدَمَ أمثلةً لأسباب بعض المحرمات والمحظورات، وحكمها التي أثرت عن عمر رضي الله عنه وعن غيره من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين^(٣).

وفندَ تلك المزاعم والظنون الخاطئة، وردَ على المزاعم التي تصف تدوين هذا العلم الدقيق وأداء المهمة الجليلة إما مستحيلًا، أو غيرَ نافع، أو صنعاً جديداً لم يسبق إليه، وبينَ - بكلٍّ وضوحٍ - ما هي تلك الأسباب والعوامل التي حالت دون العناية اللاققة بهذا الموضوع في تلك الآونة^(٤).

وقد صرَحَ الإمام الذهلي، وهو يبيِّن الحاجة إلى تدوين هذا العلم وحكمته ومصلحته، بأنَ جماعةً من الفقهاء زعموا أنَه يجوزُ ردُّ حديثٍ يخالفُ القياس من كلٍّ وجهٍ، فلزمَ بيانَ أنَّ الأحاديثَ الصحيحةَ كلَّها توافقُ العقل والقياس^(٥) وأنَ المناهج المتعارضة في مختلف طبقات الأمة، وتغاضي بعضهم عن العقل

(١) حجة الله البالغة، ص ٣.

(٢) المرجع السابق، ص ٦.

(٣) المرجع السابق، ص ٥-٦.

(٤) المرجع السابق، ص ٧.

(٥) المرجع السابق، ص ٩.

والقياس كلياً، وتجاسر بعضهم على التأويل والصرف عن الظاهر، حيث خالفت الأصول العقلية، وعدم التوسط والازان عند كثير من الجماعات والطبقات في هذا الصدد لا يجعل التدوين الجديد لهذا الفن الدقيق مشروعاً نافعاً فحسب، بل يقرره خدمة جليلة للدين، وحاجة ماسة من حاجات العصر.

وعدا هذا الشعور بالحاجة، والتجارب العلمية ومتضييات العصر كان الإمام الدهلوi تلقى بشاراتٍ غيبيةً لإنجاز هذا العمل، وإشارة من حضرة صاحب الرسالة ﷺ إلى نوع بيان الدين، يقول الإمام الدهلوi:

«ووُجِدْتُ عِنْدَ ذَلِكَ فِي صِدْرِي نُورًا لَمْ يَزُلْ يَنْفَسُخُ كُلَّ حِينٍ . . ثُمَّ رَأَيْتُ الْإِمَامِيْنَ الْحَسَنَ وَالْحَسِينَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - فِي مَنَامٍ، وَأَنَا يَوْمَئِذٍ بِمَكَّةَ، كَأَنَّهُمَا أُعْطَيَانِي قَلْمَانًا، وَقَالَا: «هَذَا قَلْمَانٌ جَدَّنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ»^(١) .

وقد كان ابنُ خال الإمام الدهلوi، وأخوه زوجته، ومرافقه في السفر والحضر، وأخصُّ تلامذته الشيخ محمد عاشق الفلتي، الذي كان أعرف الناس بعلوم الإمام الدهلوi ومعارفه وفضائله يلُّحُّ - من بين أصحابه وتلامذته - على الإمام الدهلوi، ويصرُّ عليه لإنجازِ هذا العمل وتحقيقه^(٢).

وبالجملة فإنَّ الله - تبارك وتعالى - وفقَ الإمام الدهلوi للقيام بهذه المهمة

(١) طبع كتاب (حجۃ الله البالغة) أولاً بإرشاد من وزير بوفال ومديرها العالم التقى (مدار المهام) الشيخ جمال الدين (م ١٢٩٩هـ) وعلى نفقةه، وبعنایة الشيخ محمد أحسن الصدیقی (م ١٣١٢هـ) فی المطبع الصدیقی ببریلی عام ١٢٨٦هـ، ثم طبع ثانية بأمر النواب أمیر الملک العلامہ السيد صدیق حسن خان (م ١٣٠٧هـ) فی مطبع بولاق بمصر عام ١٢٩٦هـ، وصدرت له فی مصر طبعتان أخرىان، ثم صدرت طبعة مصورة عن الطبعة المصرية بعنایة الشيخ عطاء الله حنفی من المکتبة السلفیة بلاہور عام ١٣٩٠هـ الموافق ١٩٧٨م، وقد صدرت أخيراً فی مصر طبعته الرابعة ونشرت بتحقيق الفاضل المصری المعروف وأحد القادة الإخوانیین السيد سابق ومراجعته، ومقدمته، وترجمة المؤلف الدهلوi من دار الكتب الحدیثة بالقاهرة ومکتبة المثنی ببغداد، ولكن الكتاب لم يحظَ حتى الآن بما يستحقه من خدمة علمیة من التصحیح والتعلیق، وتخریج الأحادیث، وبيان الإشارات.

(٢) حجۃ الله البالغة، ص ٤.

العظيمة، وصدرَ من قلمِه هذا الكتابُ الجليلُ، ووصلَ إلى أيدي العلماء والمحققين.

الموضوعات الأساسية التمهيدية: التكليف والمجازاة:

لقد تناول الإمام الذهلي في بداية الكتاب تلك البحوث الموضوعات التمهيدية الأساسية التي ثبتت الحاجة إلى الهدایة الربانية وال تعاليم السماوية وبعثة الأنبياء والمرسلين، وتعليمهم وتربيتهم وتزكيتهم.

والمبحث الأساسي والأصولي الأكبر فيه، هو المبحث الذي ذكره بعنوان (باب سر التكليف) الذي أثبتَ فيه أن التكليف^(١) إنما هو إحدى المقتضيات الطبيعية للنوع البشري، فإنَّ الإنسانَ يسألُ بلسان استعداده وصلاحيته أن يفرضَ عليه ما يناسبُ قوته الخاصة، ثم يثابُ عليه، ويحرمُ عليه الاستغراق في القوة البهيمية التي أودعت فيه، ويعاقبُ عليه^(٢).

وتتجلى في هذا الصدد دراسة الإمام الذهلي الدقيقة الواسعة للنوع الإنساني والحيوانات والنباتات، كما تتجلى معرفته بعلوم الطبيعة والطب وعلم النباتات، وقد أثبتَ الإمام الذهلي - عقلياً - أنَّ ما يمتاز به الإنسان عن الحيوانات والنباتات، وما أودع فيه من الاستعدادات والصلاحيات والمقتضيات الفطرية، كلها تطلب - بلسان حالها - التكليف الشرعي، والهدایة الربانية، ويعبر الإمام الذهلي عن ذلك بالفاظ (التكفف^(٣) الحالي) البليغة ويزيد عليها (التكفف العلمي).

إنه يرى أنَّ الإنسان يملُكُ - عدا قوته العقل والنطق - شيئاً آخرين وهما:

(١) أي تكليف الله تعالى عباده بالعمل بأحكامه وأوامره والاجتناب عن محرماته ونواهيه، وقد عبر عنه في القرآن الكريم بالأمانة «إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى أَنْسَابِكُمْ...» [الأحزاب: ٧٢]، وانظر تفسيرها في (حجۃ الله البالغة)، ص ١٩.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٠.

(الناشر)

(٣) الطلب والسؤال.

(زيادة القوة العقلية) و(براعة القوة العملية)، فليس الإنسان يمتاز عن غيره بوجود القوة العقلية والقوة العملية فيه [فحسب]، بل إن طبيعته تتطلب - كذلك - التقدم والرقي وعلو الهمة وتسعى نحو الكمال، ولا تشبع من شيء.

ويرى الإمام الدهلوi أن خلق الملائكة، ووقوع الحوادث العظيمة، وإرسال الرسل نتيجة لهذه المطالب الفطرية، وهي مظهر رائع للعناية بهذا النوع والاهتمام به، الذي يشمل نوع البشر كلّهم، وهي من تجليات الربوبية والرحمة الإلهية، إنه يرى أن العبادات والقراءات والعمل بالشائع كل ذلك من المقتضيات النوعية للنوع البشري كأكل السباع للحوم، ورعى البهائم للحشيش، واتباع النحل لليعسوب، إلا أن الحيوانات استوجب تلقي علومها إلهاماً جبلياً، واستوجب الإنسان كسب علومه كسباً ونظرأً أو وحياً وتقليداً^(١).

ثم يصرّح الإمام الدهلوi بأن المجازاة على الأعمال كذلك من مقتضيات التكليف، ويرى لذلك أربعة أسباب:

١ - مقتضي الصورة النوعية.

٢ - جهة الملا الأعلى^(٢).

٣ - مقتضي الشريعة المكتوبة عليهم.

٤ - مقتضي بعثة الأنبياء و نتيجتها، ولازم قضاء الله تعالى بالنصر لهم والتأييد^(٣).

ثم إنه يوجد لأجل اختلاف الجبلة والطبايع في بني البشر اختلاف وتفاوت في الأعمال والأخلاق، ودرجات الفضل والكمال، وقد ذكر الإمام الدهلوi في هذه

(١) المرجع السابق، باب انشقاق التكليف من التقدير، ص ٢٠ - ٢٤.

(٢) لقد تحدث الإمام الدهلوi في مبدأ الكتاب عن عالم المثال والملا الأعلى، إذ إنه تذكر الإحاله والإشارة إليهما في كلامه كثيراً، ويصعب فهم كثير من الآيات والأحاديث دون التعرف عليهما، انظر، ص ١٣ - ١٥.

(٣) المرجع السابق، ص ٢٥.

المناسبة ثمانية صور لاجتماع (المملكة) و(البهيمية) ونسبتها في الغلبة والضعف، ونوعية العلاقة بينها، التي يعيّرُ عنها بمصطلحي (التجاذب) و(الاصطلاح) وخصائصها، وذكر ما يرجحُ منها، وإنَّ هذا البحث والتفریع من أمثلة ذكاء الإمام البالغ، وقوه استقرائيه، ودقته، ومن خصائص هذا الكتاب وميزاته^(١)، وتجلّى فيه الدراسة العميقه الدقيقة للفطرة الإنسانية وأوضاعها وأحوالها.

أهمية الأعمال وأثارها:

يتناول الإمام الدهلوi مبحث (أهمية الأعمال)^(٢) وتأثيرها على الملوكات الإنسانية، والأشكال التي ترتب آثارها فيها في الدنيا والآخرة، يقول: «وبالجملة فتؤثر الأعمال حينئذ تأثير العزائم والرقى المأثورة عن السلف بهيئتها وصفتها، والله أعلم»^(٣).

وهكذا تُعدُّ هذه المباحث الأولية التمهيدية ذهن القارئ للنظر في المباحث التالية، التي تقوم على أساس إدراك المقتضيات النوعية، وأسباب التكاليف الشرعية، وما يترتب عليها من مجازاة ونتائج ومقتضيات الريبوية والرحمة، وأهمية الأعمال، وصلتها بهيئه الناس الاجتماعية، وعلاقتها بالحياة البشرية، والاعتراف بهذه الحقائق الغبية والعوالم والأشياء غير المرئية.

الارتفاعات:

يخليل إلينا من دراسة كتاب (حجۃ الله البالغة) أنَّ نظرَ الإمام الدهلوi البعيدة الغور، ودراسته العميقه الموضوعية للأوضاع المتطرفة؛ والظروف المتغيرة؛ تفطنت (بفضل التأييد الإلهي) إلى أنه قد أظلَّ ذلك العهد الذي سوف يحاوِلُ فيه الناسُ الكشفَ عن أسرار الأحكام الشرعية، لا سيما تعاليم السنة

(١) حجۃ الله البالغة، ص ٢٥.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٩ - ٣٢.

(٣) المرجع السابق، ص ٣٠.

النبوية وإرشاداتها، وحكمها ومصالحها، ويستطيعون فوائدها العملية والاجتماعية والمدنية، ويبيغون - في الجانب الآخر - التعرف على الصلة الحقيقة بين الدين والحياة، ويحاولون فهم التعاليم الدينية والهداية السماوية في المحيط الواسع للحياة، وفي سياق العلاقات المشتركة بين الناس، وصلة الأسباب بالنتائج، والاطلاع على منافعها وفوائدها.

لذلك بدأ الإمام الذهلي كتابه (حججة الله البالغة) الذي ألف أصلاً وبالذات لبيان حكم الشريعة الإسلامية وأسرارها، وشرح الحديث والسنّة شرحاً عقلياً علمياً - قبل بيته بالحديث عن النظام التشريعي، الذي يشتمل على تلك الأوامر والنواهي، التي تتعلق أصلاً بالثواب والعقاب، والنجاة والفلاح في الآخرة، والتي عبر عنها الإمام الذهلي في اصطلاحه بـ(مبحث البر والإثم).

بدأ كتابه بتلك المباحث والمواضيعات التي تتعلق بالنظام التكويني في العالم والحياة البشرية، والتي تتكون بالالتزام بها هيئة اجتماعية، ومدنية صالحة.

وقد استخدم الإمام الذهلي لذلك مصطلح (الارتفاعات)^(١)، الذي لم يستخدمه قبله - في حدود علمي - المتكلمون وال فلاسفة وعلماء الاجتماع المسلمين بهذا الوضوح والتسلسل والاستمرار على الأقل.

أهمية الارتفاع:

يراد بالارتفاع - عند الإمام الذهلي - اشتراك أفراد الناس في الارتفاع بعضهم من بعض، والتعاون فيما بينهم، والمشاركة في العمل والتدارير النافعة، لإنشاء حياة مدنية معتدلة متزنة.

(١) جاء في (لسان العرب) تحت أصل (رفق): يقال للمتطيب مترفق ورفيق، والرفق والمرفق ما استعين به، وقد ترقى به وارتყى، وفي التنزيل: «وَيَهْبِئُ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مُرْفَقاً» [الكهف: ١٦] وهو ما ارتفقت وانتفعت به، وقد ترقى عليه وارتყى: توأماً، وقال عزّوجلّ: «لَمَّا أَتَوْا بِهِ وَحَسْنَتْ مُرْفَقاً» [الكهف: ٣١]، وترافق القوم وارتتقوا: صاروا رفقاء، انظر: (لسان العرب) (رفق).

وهكذا عالج الإمام الذهلي ناحيتي السعادة البشرية الفردية والاجتماعية، والحياتين الدنيوية والأخروية.

ويرى الإمام الذهلي أنَّ هذا النظام التكويني لا يلزم أن يوافق النظم التشريعي الذي يبعث به الأنبياء فحسب، بل يلزم أن يمده ويعاون معه، ويخدم أغراضه ومقاصده، وهو أول من أثبتَ - من بين علماء الأخلاق والمتخصصين في علم الاقتصاد - صلة عميقة قوية بين علم الأخلاق وعلم الاقتصاد، وأنَّه عندما تنقطع هذه الصلة فإنَّ الاقتصاد والأخلاق يعني كلُّ منها أزمة شديدة تترك آثارها على الدين والأخلاق، والحياة المطمئنة الآمنة، والعلاقات الطيبة القائمة بين أفراد الناس والمدنية والحضارة.

ويرى أنَّ أخلاق الناس الاجتماعية تعاني من الهبوط والفساد عندما يؤدي بهم الجور والعَسْفُ إلى ضيافة اقتصادية، أو أزمة اقتصادية، وعندهُ يظل الإنسان - الذي أودعَ الله فيه الملائكة الروحية السامية، وإمكانات الرقي الكثيرة - في حيرة واضطرابٍ للحصول على لقمة عيش شأن الثور والحمار، ويحرم من جميع السعادات ومدارج الرقي والكمال.

أهمية الحياة المدنية والاجتماعية وأشكالها:

يعرف الإمام الذهلي بالحياة المدنية والاجتماعية - التي يصفُ مركزها بالمدنية - تعرِيفاً علمياً، لم يسبق إلى أفضل وأجمع منه لدى الحكماء والمؤلفين إلى هذا العصر، يقول في باب (سياسة المدنية) :

«وأعني بالمدنية جماعة متقاربة تجري بينهم المعاملات، ويكونون أهلَ منازلٍ شتى»^(١).

ويعرف بسياسة المدنية بما يلي:

(١) حجة الله البالغة، ص ٤٥.

«هي الحكمة الباحثة عن كيفية حفظ الربط الواقع بين أهل المدينة»^(١).

ثم يزيدُ تعريف هذه الحياة المدنية أو (المدينة) بياناً، فيقول: «المدينة شخصٌ واحدٌ من جهة ذلك الربط، مركبٌ من أجزاء وهيئات اجتماعية»^(٢).

وينقسم (الارتفاق) عنده إلى قسمين:

١- الارتفاق البدائي الضروري الذي يتمكّن منه أهل البدائية أيضاً.

٢- الارتفاق الاجتماعي أو الراقي الذي يحصل لأهل مصر (أهل المدينة).

ويأتي بعد هذين القسمين القسم الثالث، وهو قسم السياسة والإدارة، ثم ينتج عن ذلك قسم رابع وهو قسم الخلافة العامة.

ويؤكّد الإمام الذهلي في (الارتفاق الرابع) على حفظ العلاقات المشتركة بين أهل الأقاليم (أي مناطق البلاد النائية البعيدة) وال الحاجة إلى هذه العلاقة (بين مختلف المناطق)، ك حاجة العلاقة بين أفراد مدينة واحدة في حالتها البدائية المحدودة^(٣).

صور المكاسب ووجوه المعاش المحمودة والمذمومة:

ولا يغفل الإمام الذهلي أثناء تعرّضه لبيان وجوه المعاش ووسائل الكسب المختلفة ذكر الوسائل المنافية للأخلاق والفتورة السليمة، يقول:

«وبقيت نفوسُ أعيت بهم المذاهب الصالحة، فانحدروا إلى أكساب ضارة بالمدينة كالسرقة والقمار والتكمي»^(٤).

وقد صدرت من قلم الإمام الذهلي في صدد موضوع الارتفاعات حقائق

(١) حجّة الله البالغة، ص ٤٤.

(٢) المرجع السابق.

(٣) المرجع السابق، ص ٤٧.

(٤) المرجع السابق، ص ٤٣.

تشير إلى عمق تفكيره وبعد نظره في تاريخ رقي البشرية والمجتمع والمدنية وازدهارها وتطورها وانحطاطها، يقول:

«كَلَمَا رَقَّتِ النُّفُوسُ وَأَمْعَنَتِ فِي حُبِّ الْلَّذَّةِ وَالرُّفَاهِيَّةِ تَفَرَّعَتِ حُوَاشِيِّ
الْمَكَابِسِ، وَانخَصَّ كُلُّ رَجُلٍ بِكَسْبٍ»^(١).

ويذكر الإمام الذهلي في ما يضر بالحياة المدنية أن يتفق أهل المدينة على وسيلة واحدة للكسب، مثل أن يشتغل كلهم بالتجارة، ويدعوا الزراعة، أو يكسبوا قوتهم عن طريق الحروب والغارات، إن الزراعة - عنده - كالطعام، والصناعة والتجارة والنظام والإدارة كلها كالملح، وقد صرّح في هذا الصدد بحقيقة لطيفة دقيقة، يقول:

«وَغَالِبُ سَبِّبِ خَرَابِ الْبَلَدَانِ فِي هَذَا الزَّمَانِ شَيْئَانٌ:

١ - أحدهما: تضييقهم على بيت المال.

٢ - والثاني: ضرب الضرائب الثقيلة على الزراعة والتجار والمتحرفـة^(٢) والتشديد عليهم.

ثم يقول في آخر هذا المبحث: «فَلَيْسَ بِهِ أَهْلُ الزَّمَانِ لِهَذِهِ النِّكْتَةِ»^(٣).

ويذكر الإمام الذهلي في ضمن العوامل التي تؤدي إلى الفساد في المجتمع والمدنية، كثرة أسباب اللهو والتسلية، التي تجر إلى الغفلة عن المعاش والمعاد

(١) وقد ذكر الإمام الذهلي - في هؤلاء المضيئين الذين يصبحون كلاً على بيت المال ويتغذون على التكسب بالأخذ منه، ويملكون الإقطاعات، ويعتادون الجوازات والصلات والكسب المجاني دون أي خدمة للدولة في البلاد - الغزاة والعلماء والزهاد والشعراء الذين يدعون حقوقهم في بيت المال دون القيام بمصلحة البلاد، وقد دخل في ذلك النظام الإقطاعي الذي كان قد أجحف بمالية البلاد، وأوجد جنداً من الطاعمين الكاسرين الذين يأكلون ويعيشون دون مقابل من جهد، ويقدّرُ مِنْ ذَلِكَ بِصِرَةِ الإمام الذهلي السياسية ومعرفته العميقـة لأسباب سقوط الدولة المغولـية.

(٢) العرفـيون.

(٣) حجـة الله البالـغـةـ، ص ٤٥.

كليهما، ومن أمثلة ذلك: الانصراف إلى لعب الشطرنج، والإكثار من القنص والصيد، واقتناء الحمام... وغير ذلك^(١)، كذلك الغفلة عن الجرائم الخلقية والتغاضي عنها، واحتمال تلك الأفعال التي لا يتحملها أصحاب الفطرة السليمية لأنفسهم تلحق الأضرار البالغة بالمدينة، وتكون سبباً من أسباب سقوط الدول والحكومات^(٢).

السعادة وأصولها الأربع:

والمبحث الرابع في الكتاب هو (مبحث السعادة)، وقد شرح فيه أن الحصول على السعادة من أهم حاجات البشر، بل هي أهمها على الإطلاق، وأنها لا تتحقق إلا بتهذيب النفس وإخضاع القوة البهيمية للقوة الملكية^(٣).

وللسعادة - عند الإمام الذهلي - أربعة أصول، وقد بعث لها الأنبياء والرسل ، وتفصيلها وبيانها هي الشرائع السماوية، وإنها - في الحقيقة - عناوين جامعة لشعب الأديان والشرع الأساسية، ومباحثها الأولية وسائل مؤثرة قوية لتحقيق مقاصد البعثة، وتمكيل غاياتها.

وهذه الأصول الأربع كما يلي:

١ - الطهارة (وهي الطهارة البدنية التي تعدُّ الإنسان للتوجه إلى الله - تعالى -
والعلاقة به).

٢ - الإن Bapt إلى الله تعالى.

٣ - السماحة (وهي مكارم الأخلاق ومعالي الأمور).

٤ - العدالة^(٤)، وهي ملكة في النفس تصدر عنها الأفعال التي يقام بها نظام المدينة والحي بسهولة.

(١) حجَّةُ اللهِ البالغة، ص ٤٩.

(٢) المرجع السابق، ص ٥٠.

(٣) المرجع السابق، ص ٥١.

(٤) يراجع تعريف هذه الأصول في ص ٥٤ من الكتاب.

وهكذا ألقى الإمام الذهلي ضوءاً كافياً على أساس كمال الشخصية الإنسانية، وعلاقتها مع الله تعالى وتكوين مجتمع صالح متضامن، وهي من مقاصد الشرائع السماوية، وبيعة الأنبياء والرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

ثم شرح كيفية الحصول على هذه الخصال الأربع وطريق التحلي بها^(١)، ثمن تناول بيان الحجب التي تمنع وتحول دون ظهور الفطرة الأصلية، وقسمها ثلاثة أقسام:

١- حجاب الطبع: (أي غلبة الأهواء والمتطلبات البشرية النفسانية).

٢- حجاب الرسم: (تأثير البيئة والظروف الخارجية الضارة).

٣- حجاب سوء المعرفة^(٢): (تأثير التعليم والتربية والعقائد الفاسدة).

ثم يبيان كيفية معالجة هذه الحجب ورفعها وإزالتها^(٣).

العقائد والعبادات:

يبدأ الموضوع الحقيقي للكتاب، وهو المبحث الخامس منه بمبحث البر والإثم، وهو في حقيقة الأمر موضوع الكتاب الأصيل وغايته التي ألف لها^(٤).

وقد تناول الإمام الذهلي - أولاً - التوحيد من (أصول البر)، لأنه أصل الإيمان والإنابة التي هي أكبر وسيلة للحصول على السعادة، وقد ذكر الإمام الذهلي - في هذا الصدد - أربع مراتب للتوحيد، وبين حقيقة إشراك المشركين العرب^(٥).

(١) حجۃ الله البالغة، ص ٥٥-٥٦.

(٢) انظر لتفصيل، ص ٥٦، من المصدر السابق.

(٣) انظر شرح هذه الحجب وطرق إزالتها في، ص ٥٧-٥٨.

(٤) المرجع السابق، ص ٥٨.

(٥) مز هذا البحث في الباب الثالث، الفصل الأول من هذا الكتاب، ص ١٦٢.

وينتقل بعد الحديث عن التوحيد إلى الإيمان بصفات الله - تعالى - والإيمان بالقدر، وتعظيم شعائر الله، وأهم هذه الشعائر وأبياتها - عند الإمام الذهلي - القرآن الحكيم، والكعبة المشرفة، والنبي الكريم عليه الصلاة والتسليم، والصلوة، ثم يتحدث عن العبادات، والفرائض، والأركان، ويبحث عن أسرار الوضوء والغسل، وأسرار الصلاة، وأسرار الزكاة، وأسرار الصوم، وأسرار الحج بصورة إجمالية^(١)، وهذه المباحث - رغم أنها كلية إجمالية - تحتوي على نكاتٍ ولطائف لا تُفهَّمُ بها في أي كتاب آخر.

وعلى سبيل المثال يقول في أسرار الصلاة:

«أحسن الصلاة ما كان جامعاً بين الأوضاع الثلاثة (القيام، والركوع، والسجود) مترياً من الأدنى إلى الأعلى، ليحصل الترقي في استشعار الخضوع والتذلل، وهو ينسجم مع العقل والفترة».

ثم ذكر الإمام الذهلي وجاه عدم الاقتصار في العبادة على التفكير في عظمة الله، والمراقبة لجلاله، ودوام ذكره (الذي هو طريق الحكماء والرهبان الهاනدك، وجرى عليه بعض الصوفية المنحرفين)، وبين أنَّ هذا التفكير والمراقبة كانت تيسِّر للذين يتلقون ذلك وطبيعتهم الخاصة وتنفعهم، وكان بإمكانهم أن يتقدموها ويترقوا عن طريقها.

أما الصلاة، فهي المعجون المركب من الفكر المتصوف تلقاء عظمة الله بالقصد، وهي نافعة لعامة الناس وخاصتهم، تزيقاً قوئَ الأثر، ولا شيء أفعَّ علاجاً لغوائل الرسوم (تأثيرات البيئة الفاسدة) منها، ولا شيء في تمرير النفس على انقياد الطبيعة للعقل وجريانها في حكمه مثل الصلاة^(٢).

(١) وقد جاء تفصيل هذه الحكم وأسرار في الجزء الثاني من الكتاب، حيث بحث فيها في ضوء الأحاديث الواردة في هذه الأبواب.

(٢) حجة الله البالغة، ص ٧٣.

أما الصوم والحج، فقد جاءت عنهما إشارات في هذا المبحث، ولكن ما سجله الإمام الذهلي في الجزء الثاني من الكتاب من مقاصده وأسراره وحكمه، لم أقف على مثيله قبل ذلك في أي كتاب، وسيأتي ذكرها في موضعها في الصفحات القادمة.

السياسات المثلية وال الحاجة إلى هداة السبيل و مقيمي الملل:

عنون الإمام الذهلي المبحث السادس بمبحث (السياسات المثلية)، وهو من أهم المباحث في الكتاب^(١)، وقد صرّح الإمام الذهلي في الباب الأول منه، في بلاغة ودقة وواقعية - بوجوه حاجة الناس وأسبابها إلى هداة السبيل و مقيمي الملل (الأنبياء والرسل)، ولماذا لا تكفيهم في هذا الصدد عقولهم العامة وفطرتهم السليمة؟ .

ثم يبحث في صفات هؤلاء الهداء المرسلين ، والشروط التي لا بدّ من توفرها فيهم ، وكيف ومتى يستطيعون أن يتحققوا مقاصدهم ، وينجحوا فيها.

ويمتاز هذا الباب عن عامة البحوث والكتابات في كتب علم الكلام حول إثبات النبوة، ويشتمل على الزاد الكافي لإقناع العقول السليمة، الذي لا يتوفّر في عامة كتب العقائد وعلم الكلام .

والباب الذي يبحث في مكانة النبوة ودورها وخصائصها في هذا المبحث، يدل - دلالة واضحة - على معرفة الإمام الذهلي بروح الشريعة وحقيقة طبيعة النبوة، ودراسته العميقه للنفس البشرية، واطلاعه الدقيق على منابع الأخلاق الباطنة، وقد جاء في هذا الباب بحث مفصل عن أسباب بعثة الأنبياء والرسل أيضاً.

البعثة المقرونة:

يقول الإمام الذهلي : «وأعظم الأنبياء شأنًا مَنْ له نوع آخر من البعثة،

(١) حجة الله بالغة، ص ٨٣-٨٤.

فتكون بعثته مقرونةً ببعثة أخرى، أي أن شعباً بل أمّة بأسرها تبعث مع بعثته، ويناط بها واجب الدعوة والتبلیغ، وتتلقى منه، و تستعد بين يديه، لتكون واسطةً ووسيلةً لتعليم الآخرين من الناس، وتربيتهم وتزكيتهم، ف تكون بعثة النبي بالأسالة، وهي التي تسمى (النبوة) وتكون بعثة الأمة وتوليها لخدمة الدعوة بالنيابة والواسطة، وقد كانت بعثة سيدنا محمد ﷺ هذه البعثة الجامحة المقرونة، التي أقامت أمّة بأسرها لتكون الله وجارحة تشتعل في خدمة مسؤولية النبوة ونشر دعوتها ورسالتها، وقد استعمل لذلك ألفاظ البعثة أو ما في معناها من التعبيرات؛ يقول الله تعالى :

﴿كُلْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أَخْرِجْتَ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَاوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾
[آل عمران: ١١٠].

وجاء لفظ البعثة - صريحاً - في الأحاديث النبوية، فقد خاطب النبي ﷺ أصحابه الكرام بقوله :

«إِنَّمَا يُعَثِّمُ مُيَسِّرِينَ، وَلَمْ يُبَعِّثُوا مُعَسِّرِينَ»^(١).

وأنصث مباحث هذا الباب هو المبحث الذي تناول فيه الإمام الدهلوi سيرة الأنبياء والرسل - عليهم الصلوات والتسليمات - وذوقهم وطبيعتهم ومنهج دعوتهم، وأسلوب تبينهم وخطابهم، ويقدر منه دقة نظر الإمام الدهلوi، و دراسته العميقه لخصائص النبوة والأنبياء، وتدبره الغاصل العميق للقرآن الحكيم^(٢).

إهادار القيم الخلقيّة والإيمانية وبؤس الإنسانية في المدنيتين الرومية والإيرانية:

لم يكن عهد الجاهلية مختصاً بالعرب الجاهليين، بل كانت هي أزمة

(١) انظر : (حجّة الله البالغة)، ص ٨٤.

(٢) المرجع السابق، ص ٨٦.

اعتقادية وخلقية واجتماعية واقتصادية وسياسية عالمية شديدة، أخذت بالدنيا كلها، وشملت بسيط الأرض، ولكن الإيرانيين والروم كانوا قادة هذه الأزمة، والمسؤولين الأولين عنها، لأن مدنیتهم كانت المدنية الراقية التي تعتبر المقياس في عالمهم المعاصر، وكان الناس يحذون حذوها، ويقلدونها في كل مكان، وكانت بلادهم ومدنهم الرئيسية الكبيرة، ومجتمعهم نفسه - أولًا وقبل كل شيء - عرضة لهذه الأزمة والفساد.

إن تصوير الإمام الذهلي لهذا الوضع الجاهلي، وأسبابه التي أشار إليها لم نجد تصويراً أكثر منه وأدق في أي كتاب من كتب التاريخ والسيرة، ولم نجد أي ريشة بارعة لأي عالم من علماء فلسفة التاريخ والعلوم العمرانية ترسم مثل هذا التصوير الصادق الدقيق، وهنا يسطر قلم الإمام الذهلي من روائع البيان، ما يدل على أنه بلغ الذروة العليا في جزالة التعبير وقوة الأداء وحسن الإنشاء.

وننقل فيما يلي قطعة مما قاله الإمام الذهلي في هذا الصدد، إذ إنه يقدر منها ما امتاز به من نظرية عميقة في التاريخ، وصلاحية التوصل إلى لب الحقيقة، والاستعداد الموهوب للتحليل الصحيح الدقيق للأوضاع والظروف، يقول الإمام الذهلي^(١) :

«اعلم أن العجم والروم لما توارثوا الخلافة قرorna كثيرة، ونخاضوا في لذة الدنيا، ونسوا الدار الآخرة، واستحوذ عليهم الشيطان، تعمقوا في مراقبة المعيشة، وتباهوا بها، وورد عليهم حكماء الآفاق، يستبطون لهم دقائق المعاش ومرافقه، فما زالوا يعملون بها، ويزيد بعضهم على بعض، ويتباهون بها، حتى قيل: إنهم كانوا يعيرون من كان يلبس من صناديدهم منطقة أو تاجاً قيمتها دون مئة ألف درهم، أو لا يكون له قصر شامخ وأبزر وحمام ويساتين، ولا يكون له دواب فارهة، وغلمان حسان، ولا يكون له توسيع في المطعم، وتجمّل في الملابس،

(١) هذه القطعة نموذج رائع لقوية البيان وسلامة التعبير وجمال الأداء، ولذلك اختارها المؤلف (لمنتخاراته في الأدب العربي) وضئلاً كنموذج رائع إلى مجموعة القطع الأدبية.

وذكر ذلك يطول، وما تراه من ملوك بلادك يغنىك عن حكاياتهم، فدخل كل ذلك في أصول معاشهم، وصار لا يخرج من قلوبهم إلا أن تمزع.

وتولّد من ذلك داء عضال، دخل في جميع أعضاء المدينة، وآفة عظيمة، لم يبق منهم أحد من أسواقهم ورستاقهم، وغنيهم وفقيرهم إلا قد استولت عليه، وأخذت بتلابيه، وأعجزته في نفسه، وأهاجت عليه غموماً وهموماً لا أرجاء لها، وذلك أن تلك الأشياء لم تكن لتحصل إلا ببذل أموال خطيرة، ولا تحصل تلك الأموال إلا بتضييف الضرائب على الفلاحين والتجار وأشباههم، والتضييق عليهم، فإن امتنعواقاتلواهم وعذبوهم، وإن أطاعوا جعلوهم بمنزلة الحمير والبقر يستعمل في النضح والدياس والحداد، ولا تقتني إلا ليستعان بها في الحاجات، ثم لا تترك ساعة من العنا، حتى صاروا لا يرفعون رؤوسهم إلى السعادة الأخروية أصلاً، ولا يستطيعون ذلك، وربما كان إقليم واسع ليس فيه أحد يهمه دينه^(١).

مباحث ثاقفة أخرى:

ثم يأتي ببحث أن أصل الدين واحد، وأن اختلاف المناهج والشائع إنما هو مراعاة لعصر خاص، وقوم بعينهم، ثم يشرح أسباب المؤاخذة على المناهج رغم أن أصل الدين واحد.

وبعد مباحث جانبية في أسرار التيسير والترغيب والترهيب وغيرهما، يثبت الإمام الدهلوi الحاجة إلى دين ينسخ جميع الأديان والشائع السابقة، وأنه كيف يمكن حفظ هذا الدين من التحريف، وما هي المنافذ والأبواب التي يدخل منها التحريف، وما هي الصور والأشكال التي يتجلّى فيها، وما هي القوالب التي تتقمصها، وما هي الطرق التي اختارت بها الشريعة لسد ذرائعه والгинولة دونه، وما هي التدابير والأحكام التي أصدرتها لأجل ذلك، ثم بين - في تفصيل ووضوح - ما كانت عليه الجahiliyah في عهد البشّرة التي قام نبينا ﷺ بإصلاحها وإقامة أعروجها.

(١) حجة الله البالغة، باب إقامة الارتفاعات وإصلاح الرسوم: ١٠٤ - ١٠٧.

مكانة الحديث والسنّة وموقف الأمة منهمما:

يأتي المبحث السابع في الكتاب بعنوان: (مبحث الشرائع من حديث النبي ﷺ) وترد فيه أبحاث تتعلق - مباشرة - بفهم الحديث الشريف، والسنّة النبوية المشرفة، واستنباط المسائل منها، وأقسام العلوم النبوية، وكيفية تلقي الشريعة من النبي ﷺ وطرقها، وطبقات كتب الحديث، وطرق استفادة المطالب والمعانى الشرعية من الكتاب والسنّة، والقضاء في الأحاديث المختلفة جمعاً وتطبيقاً وترجحأً وغير ذلك.

ويبحث الإمام الذهلي - في هذا الصدد - في غاية من الدقة والإتقان في اختلاف الصحابة والتابعين في المسائل والفروع، ويدرك أمثلة لذلك ، ثم يتعرض لاختلاف المذاهب الفقهية، واختلاف أهل الحديث وأصحاب الرأي ، والفرق بينهما، ثم يشرح موقف الناس خاصتهم وعامتهم، - قبل القرن الرابع وبعده - من الاستفتاء في المسائل ، وسؤال العلماء ، والعمل بالأحكام الشرعية ، ويفيض في هذا المبحث ويوضحه في تفصيل ، وهو يشتمل على أبحاث دقيقة عميقه ، يصعب العثور عليها في أي كتاب آخر من كتب أصول الفقه أو علم الكلام .

أسرار الفرائض والأركان وحكمها:

لقد بحث الإمام الذهلي في الأحاديث الواردة في أبواب العقائد، والعبادات والمعاملات، والإحسان والتزكية، والمقامات والأحوال، وطرق كسب المعاش، والتبرّع والتعاون، وتدبیر المنزل، والخلافة، والقضاء، والجهاد، والأطعمة، والأشربة، واللباس والزينة، وآداب الصحبة والمجتمع.

ويبحث أخيراً في الفتن والملاحم، وأشرطة الساعة، وقد عرض - في هذا الصدد - خلاصة طيبة للسيرة النبوية - صلی الله علی صاحبها وسلم - وقد شرح أسرار هذه الأبواب المختلفة بأسلوب لا تنتهي فيه صلة هذه المسائل والأحكام بالحياة والمدنية وعلم الأخلاق، وهذا هو - في الحقيقة - الموضوع الأساسي المحوري للكتاب.

وقد كان الإمام الدهلوi يهدف إلى أن تدرس الأحاديث الشريفة في ضوء هذه الأسرار والحكم، مع ربطها وإحكام صلتها بالأعمال والأخلاق والمدنية والمجتمع، والسعادة الإنسانية، والعلاقات المشتركة بين بني البشر، حتى يكون لها تأثير مطلوب على الحياة والعمل والأخلاق والمدنية والمجتمع، ويثبت موافقة العقل الصريح للنقل الصحيح، وحتى لا تهيا أي فرصة للمعترضين المتنقصين لاعتراضهم على الأحاديث، والحط من شأنها، وتقليل قيمتها وفائتها، وانتقاد أهميتها وال الحاجة إليها، وهو الذي كانت تفرسته بصيرة الإمام الدهلوi، وتفطن لها، وأنّ ما سطره الإمام الدهلوi في موضوع الأركان الأربع لا يجاري فيه أحد من المؤلفين، وهو من خصائص كتاب (حجـة الله البالـغة) ومزايـاه.

ونورد فيما يلي شيئاً مما قاله الإمام الدهلوi فيما يتعلق بمقاصد الصوم والحج وأسرارهما، وأشكالهما الشرعية الإسلامية وحكمهما ولطائفهما.

يقول وهو يتحدث عن الصوم وحكمـة المقدار المحدد له؛ وتحـديد أعداد الصيام (وهو ما يختص بالشـريعة الإسلامية) وأحكـامه ومسائلـه الشرعـية:

«لم يخبر الناس في عدد الصوم ومقداره، لأن في ذلك فتحاً لباب الاعتذـار والتسلـل، وسدـاً لباب الأمر بالـمعروف والـنهـي عن المنـكر، وإخـمالـاً لما هو من أعـظم طاعـات الإسـلام»^(١).

ثم يقول وهو يذكر مقداره وعددـه:

«ثم وجـب تعـيـين مـقدارـه لـثلا يـفرـط أحـد، فيـستـعملـ منهـ ما لا يـنـفعـهـ، وـيـنـجـعـ فيهـ، أو يـفـرـطـ مـفـرـطـ فيـسـتـعـملـ منهـ ما يـوهـنـ أـركـانـهـ، وـيـذـهـبـ نـشـاطـهـ، وـيـتـلـفـ نـفـسـهـ، وـيـزـيرـهـ الـقـبـورـ، وـإـنـما الصـومـ تـرـيـاـقـ يـسـتـعـملـ لـدـفـعـ السـمـومـ التـفـسـانـيـةـ، معـ ماـفـيـهـ نـكـاـيـةـ بـمـطـيـةـ الـلـطـيـفـةـ الـإـنـسـانـيـةـ وـمـنـصـتـهـ، فـلـابـدـ مـنـ أـنـ يـتـقـدـرـ بـقـدـرـ الـضـرـورةـ»^(٢).

(١) حـجـةـ اللهـ الـبـالـغـةـ: ٤٩/٢ - ٥٠.

(٢) المرـجـعـ السـابـقـ: ٤٩/٢.

ثم يقارن بين قسمين من الصوم: «قسمٌ يمسك فيه عن كل الطعام والشراب وكل ما ينافي الصوم اجتناباً كلياً، وقسم لا يترك فيه إلا بعض الأشياء»، ويرجح القسم الأول منه، ويبيّن فضله في ضوء التجربة النفسية والتحليل العلمي وعلم النفس فيقول:

«إنَّ تقليلَ الأكل والشرب له طرائقان:

أحدُهما: أن لا يتناولُ منها إلَّا قدرًا يسيراً.

والثاني: أن تكون المدة المتخللة بين الأكلات زائدة على القدر المعتمد.

والمعتبر في الشرائع هو الثاني، لأنَّه يخفف وينفع وينقي بالفعل مذاق الجوع والعطش، ويحلق البهيمية حيرة ودهشة، ويأتي عليها إ titanًا محسوساً.

والأول إنما يضعف ضعفاً يمُرُّ به، ولا يجد بالآ حتَّى يدنفه، وأيضاً فإنَّ الأول لا يأتي تحت التشريع العام إلَّا بجهد، فإنَّ الناس على منازل مختلفة جدًا، يأكل الواحد منهم رطلاً، والآخر رطلين. والذِّي يحصلُ به وفاءُ الأول هو إيجاحُ الثاني»^(۱).

إنه يصرُّحُ بأنه لابدَّ في هذا التعيين وتحديد المواعيد من التوسط والاعتدال، يقول:

«ثُمَّ يجبُ أن تكونَ تلك المدة المتخللة غيرَ مجحفةٍ ولا مستأصلةٍ كثلاثة أيام بلياليها، لأنَّ ذلك خلافُ موضوعِ الشرع، ولا يعملُ به جمهورُ المكلفين»^(۲).

وما قاله الإمام الذهلي عن الحج يعتبر بحثاً ممتازاً فريداً، يقول:

«ومنها (أي من مقاصد الحج وغاياته) موافقةُ ما توارثَ الناس عن سيدنا إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، فإنَّهما إماماً للملة الحنيفية ومشرعاً لها للعرب،

(۱) حجة الله البالغة: ۴۹/۲

(۲) المرجع السابق.

والنبي ﷺ بعثَ لظهورِهَ بِالملةِ الحنيفيةِ، وتعلوُ بهَ كلمتها، وهو قوله تعالى: «قَمْلَةٌ أَيْكُمْ إِنَّهُمْ هُمُ الظَّاهِرُونَ» [الحج: ٧٨].

فمن الواجب المحافظة على ما استفاض عن إماميها كخصال الفطرة^(١)، ومناسك الحج، وهو قوله ﷺ: «قفوا على مشاعرِكم، فإنكم على إرثِ أبيكم إبراهيم»^(٢).

ويذكر لها حكمة أخرى، فيقول:

«كما أنَّ الدولة تحتاجُ إلى عَرْضةٍ بعد كل مدة، ليتميَّز الناصح من الغاش والمتقاد من المتمرد، وليرتفع الصيت وتعلو الكلمة، ويتعارف أهلها فيما بينهم. فكذلكَ الملة تحتاجُ إلى حجَّ ليتميَّز الموفق من المنافق، ولاظهر دخول الناس في دين الله أَفْواجاً، وليري بعضهم بعضاً، فيستفيدَ كُلُّ واحدٍ ما ليس عنده، إذ الرغائب إنما تكتسب بالمصاحبة والتراكي»^(٣).

ويقول:

«وإذا جُعل الحج رسمًا مشهورًا نفع من غواصي الرسوم، ولا شيءٌ مثله في تذكر الحالة التي كان فيها أئمة الملة والتحضير على الأخذ بها»^(٤).

ويقول في موضع آخر:

«ومنها (أي من مقاصد الحج) تحقيقُ معنى العرضة، فإنَّ لكل دولة أو ملةٍ

(١) والمراد بخصال الفطرة الخصال العشر، وهي: قص الشارب، وإعفاء اللحية، والسواك والاستنشاق بالماء، وقص الأظفار، وغسل البراجم، وتنفس الإبط، وحلق العانة، وانتقاص الماء يعني الاستنجاء، أخرجه أبو داود برواية عائشة رضي الله عنها، قال الراوي: ونسىت العاشرة إلا أن تكون المضمضة، وقد صرَّح القاضي عياض والإمام الترمي أنها الختان.

(٢) حجَّةُ اللهِ البالغة: ٥٦/٢.

(٣) المرجع السابق: ٧٦/١.

(٤) المرجع السابق نفسه.

اجتماعاً يتوارده الأقصاص والأداني، ليعرف فيه بعضُهم بعضاً، ويستفيدوا أحكام الملة، ويعظموا شعائرها، والحج عرضة المسلمين، وظهور شوكتهم، واجتماع جنودهم، وتنويه ملتهم، وهو قوله تعالى: «وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَكَابِهَ لِلنَّاسِ وَأَمْنًا» [البقرة: ١٢٥].

شمول الكتاب وإحاطته:

إنّ من مزايا هذا الكتاب وخصائصه أنّه يشتملُ - عدا المباحث المتعلقة بالفقه والحديث والعبادات والمعاملات - على أبواب تدبير المنزل والخلافة والقضاء وأبواب المعيشة وآداب الصحابة التي تتعلق بالأخلاق والمجتمع والمدنية والاقتصاد، ولا يتوقع مثل هذا البحث فيها في عامة الكتب الفقهية والكلامية.

الإحسان والتزكية:

زد على ذلك أن الإمام الذهلي قدّم فيه نظاماً مرتبًا منقحاً للإحسان والتزكية، يستطيع الإنسان بسلوكه على دربه والعمل به أن يبلغ أعلى مدارج الرقي والكمال، ومراتب الولاية وغاية الأحوال والمقامات.

وقد امتدّ هذا الباب من الكتاب على الصفحات من (ص ٦٦ إلى ص ١٠١) وقد بحثَ فيه الإمام الذهلي عن تلك الطرق والوسائل للإحسان التي وردت في الأحاديث الصحيحة، واكتفى بمجرد التأكيد على روح الاحتساب والاستحضار، والنية والعزمية والكيفيات الباطنية القلبية والاهتمام بها، واقتصرَ علاج الأمراض والعلل الروحية بتلك الطرق المشروعة والفرائض والعبادات والأدعية والأذكار التي صحّ نقلُها، كما بين طرق العلاج للأخلاق المذمومة الرذيلة، وطرق اكتساب الأخلاق المحمودة الفاضلة بالنصوص الثابتة في الكتاب والسنة.

وقد أورد في هذا المبحث صيغ الأذكار والأدعية المأثورة، وشرحَ طريق الدعاء المقبول، وكيفيته وشروطه وآدابه، وقد أكدَ فيه على القيام بتلبية المقتضيات الطبيعية، و حاجات الحياة الإنسانية، والأعمال الدينية، بالاحتساب، واستحضار النية الصالحة، ووضع الفرق بين تأثيرها وكيفيتها

بالاحتساب، ويبيّن ذلك مع الغفلة عن الاحتساب. يقول:

«اعلم أنَّ الْيَةَ رُوحٌ، وَالْعِبَادَةُ جَسْدٌ، وَلَا حِيَاةً لِلْجَسْدِ بِدُونِ الرُّوْحِ،
وَالرُّوْحُ لَهَا حِيَاةً بَعْدَ مِفَارِقَةِ الْبَدْنِ، وَلَكِنْ لَا تَظَهُرُ آثَارُ الْحِيَاةِ كَامِلَةً بِدُونِهِ،
وَلِذَلِكَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَنْ يَتَأَلَّ اللَّهُ لَحُومُهُمْ وَلَا دِمَاؤُهُمْ وَلَكِنْ يَتَأَلَّ اللَّهُ الْفَقْوَىٰ مِنْكُمْ﴾
[الحج: ٣٧]، وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَاتِ»^(١).

ثم يعرف النية بهذه الألفاظ الجامعة:

«وَأَعْنِي بِالنِّيَةِ الْمُعْنَى الْبَاعِثُ عَلَى الْعَمَلِ مِنَ التَّصْدِيقِ بِمَا أُخْبِرَ بِهِ اللَّهُ تَعَالَى
عَلَى أَلْسُنَةِ الرَّسُولِ مِنْ ثَوَابِ الْمُطِيعِ وَعِقَابِ الْعَاصِيِّ، أَوْ حُبِّ امْتِشَالِ حُكْمِ اللَّهِ فِيمَا
أَمْرَ وَنَهَى»^(٢).

وقد أورد الإمام الذهلي في آخر هذا الباب أحاديث متنقة تتعلق بالتحلي
بِالأخلاقيات الفاضلة وأداء حقوق العباد، وحسن الصحبة والجوار، التي يستطيع
الإنسان بالعمل بها أن يصل إلى أقصى درجات التزكية والإحسان.

ثم تناولَ بيان تلك الأحوال والمقامات التي تحصل للسائل نتيجة التركة
والإحسان، كما أنها تكون نتيجة النور في الباطن، وصحوة القلب وصلاحه،
وزكاء النفس وظهورها ومرضاه الله تعالى، وتأييدَ الملاَّةِ الأُعْلَى واستبشارهم.

الجهاد:

ويشتمل هذا الكتاب على بابٍ مستقلٍ حولَ الجهاد^(٣)، وقد بدأه الإمام
الذهلي بهذه الكلمات المشيرة المنبهة، التي لا يقولها إلا عارفٌ خبيرٌ، يملك
 بصيرةً نافذةً، ونظرةً ثاقبةً في تاريخ الديانات والمملل، وأهداف خلق الكائن
الإنساني وغاياته، والنظام المطلوب لدى خالق الكون، يقول:

(١) متفق عليه.

(٢) حجة الله البالغة: ٢/٨٣-٨٤.

(٣) المرجع السابق: ٢/١٧٠-١٧٨.

«اعلم أن أتم الشرائع وأكمل النواميس هو الشرع الذي يؤمر فيه بالجهاد».

ثم شرح ذلك وبيته وأثبته بالعقل والنقل، ثم ذكر أسباب فضل الجهاد، وأصوله وضوابطه^(١).

وبالجملة فإن هذا الكتاب بشموله وعمقه، وتمثيله الواسع المتراoib للدين والشريعة، ولمئات من النكبات واللطائف والتحقيقات النادرة - التي تثبت في مواضع متفرقة من الكتاب - يحتل مكانة ممتازة فريدة في المكتبة الإسلامية الراخة، ويصدق فيه ما قيل : «كم ترك الأول للآخر».

وقد صدق العلامة شibli النعmani إذ قال في كتابه : (علم الكلام) :

«إن الانحطاط العقلي الذي أصيَّب به المسلمون بعد ابن تيمية وابن رشد بل في عهدهما كذلك، لم يكن قد بقي أملٌ - نظراً إلى الانحطاط العام - في ظهور نابغة يملك القلب البصير والعقل الذكي، ولكن أبُت القدرة الإلهية إلا أن تتجلّى، فإذا بالإمام (ولي الله الدهلوi) يولد في العهد الأخير، الذي كان الإسلام فيه في محنة وأزمة عقلية علمية، وقد تضاءلت أمام دقائقه ونكاته مآثر الغزالى والرازى وابن رشد».

ويزيدُ قائلاً :

«لم يؤلف الإمام الدهلوi في علم الكلام كتاباً مستقلاً، ولذلك فلا يناسب عدّه في زمرة المتكلّمين، ولكن كتابه (حجّة الله البالغة) الذي كشف فيه عن أسرار الشريعة وحقائقها - هو روح علم الكلام ومحوره»^(٢).

ويقول المحقق الفاضل الشيخ عبد الحق الحقاني في مقدمة ترجمته لـ(حجّة الله البالغة) المسمّاة بـ(نعمـة الله السابـحة) :

(١) حجّة الله البالغة : ٢ / ١٧٠ .

(٢) علم الكلام ، ص ١٠٩ - ١١١ .

«إِنَّ الْفَنَّ الَّذِي أَلْفَ فِيهِ الْكِتَابُ، لَمْ يُؤَلِّفْ فِيهِ قَبْلَهُ شَيْءٌ، وَلَمْ يَدْوَنْ فِي مَكَانٍ».

فموضع هذا الفن: هو النظام التشريعي المحمدي من حيث المصلحة المفيدة.

وغايتها: أن يعلم الإنسان أن أحكام الله تعالى ورسوله ﷺ لا عُشَرَ فيها ولا ضِيق، ولا تخالفُ الفطرة السليمة حتى يطمئن بها الإنسان، وينجذب إليها قلبه، ثقةً منه بأنها أحكام توافقُ الفطرة، وتبني عليها، ولا يقع بتشكيك المشككين في الشبهات.

وحده: الله العلم الذي تعرَّفُ به حكم الأصول الدينية وأحكام الشريعة ومبادئ جميع العلوم (المتعلقة بالحياة البشرية)»^(١).

* * *

(١) مقدمة (نعمـة الله السابـقة).

الحاجة إلى نظر المخالف وقواته
وإثبات خلافه الخلفاء الرشدين وعظمتهم على الأمة
في صورة كتاب (إزالة الخفاء عن خلافة الخلفاء)

أهمية كتاب (إزالة الخفاء) وامتيازه وتفرد़ه:

إنَّ الكتابَ الذي يليَّ كتابَ (حجَّةُ اللهِ البالغة) في القيمة والأهمية، والذي هو مأثُورٌ الإمام الذهلي الفريدة هو كتابُ (إزالة الخفاء عن خلافة الخلفاء).

ولأنَّه لكثيرٍ من خصائصه ومزاياه كتابٌ فريدٌ في موضوعه، ويُزخر هذا الكتاب كلَّه بالنكات العلمية المثيرة، والإشارات النادرة اللطيفة، وتتوفر فيه نماذج كثيرة تدلُّ على تدبر الإمام الذهلي الطويل، وتفكيره العميق في كتاب الله تعالى، وتجاوبيه الموهوب معه، وفهمه الغاصل الدقيق، وسرعة البديهة والتفطن لمكونات الآيات وإشاراتها الدقيقة، وعمق الاستنباط ودقته، ووفرة الذكاء، وتوقُّد الذهن، بحيث يتوصل به كُلُّ منصف سليم الفكر إلى أنَّ هذا العلم ليس كسيباً وكتابياً صرفاً، وأنَّ مؤلف هذا الكتاب ليس صنيع المناهج الدراسية المتداولة، وكتب التفسير وأصول الفقه وعلم الكلام الشائعة في عصره، يقتطف منها، ويجمع فئات مائتها فحسب، بل إنَّ علمه نابعٌ من الموهبة الربانية والفيوض الإلهية الخاصة.

وقد صدرت من قلم الإمام الذهلي نفسه عفواً، هذه الكلمات التالية في مبدأ الكتاب:

«والواقع أنّ نور التوفيق الإلهي ألقى في روع هذا العبد الضعيف علماً مستقلّاً بكلّ وضوحٍ وتفصيلٍ، حتى علم علم اليقين أنَّ إثبات خلافة (الخلفاء الراشدين) أصلٌ من أصول الدين عظيم، وما لم يتمسّك الإنسان بهذا الأصل تمسكاً قوياً، ولم يغضّ عليه بالتواجذ، بقيت كلُّ مسألةٍ من مسائل الشريعة معرَّضةً للشك والضعف»^(١).

حتى إنَّ العلماء الكبار الذين كانت لهم خلافاتٌ مع الإمام الذهلي، وكانوا متوجلين في العلوم العقلية، ومنهمكين فيها، بل كانوا يحتلون مكانة الإمامة فيها، لما وقع بصرُّهم على هذا الكتاب لم يتمالكوه أنْ أثروا على مؤلفه، واعترفوا بتبحر علمه، وسعَّة معرفته ودقَّة نظرِه، يقول الشيخ محسن بن يحيى الترهتي صاحب (*البيان الجنبي*) :

«إنَّ العلامة فضل حُقَّ بن فضل إمام الخير آبادي^(٢) وقعت في يده نسخة من كتاب (*إزالة الخفاء*)، فكان أولع بها، ويكثر النظر فيها أوان فراغه من دروسه وسائل ما يشغله من شأنه، فلما وقفَ على كثيَر منها قال في محاضرٍ من الناس : إنَّ الذي صنَّفَ هذا الكتاب لبحِر زخارٍ لا يُرى له ساحل»^(٣).

وقد وصفَ العلامة فخر المتأخرین أبو الحسنات عبد الحي الكنوي (ت ٤١٣٠ هـ) - الذي يعترفُ بتبحر علمه ونبوغه وسعة نظره القاصي والداني - في كتابه (*التعليق الممجد على موطأ الإمام محمد*) كتاب (*إزالة الخفاء*) بأنه كتاب عديم النظير في بابه^(٤).

(١) *إزالة الخفاء*، ص ٤٥ ، طبع أكاديمية سهيل ، لاهور.

(٢) اقرأ ترجمته في (*نزهة الخواطر*) ، ج ٧ ، وقد وقعت بينه وبين أبناء الإمام الذهلي والذين كانوا على طريقه مطاراتٍ علمية ، ومناقشاتٍ دينية ، لذلك كانت لشهادته قيمة كبيرة .

(٣) انظر : (*البيان الجنبي*) ، ص ٩٣ ، المطبوع مع رجال الطحاوي ؛ و(*نزهة الخواطر*) : ٦/٤٠٦ ، ترجمة الإمام الذهلي .

(٤) *التعليق الممجد* ، ص ٢٥ ، طبع المطبع اليوسفى .

الصلةُ بينَ (حجَّةُ اللهِ البالغةِ) وَ(إِزْالَةِ الْخَفَاءِ):

لقد كانت الحاجةُ بعد تأليف كتاب (حجَّةُ اللهِ البالغةِ) الذي عرضَ فيه نظامُ الإسلامِ الجامع الشامل المتناسق بطريقٍ يثبتُ علاقته بالحياةِ والمجتمعِ والمدنيةِ، ويوضحُ أنه دون تنفيذ الأحكامِ الإسلاميةِ المتعلقة بالعقائدِ والعباداتِ والحياةِ الاجتماعيةِ، لا يبقى أيُّ أملٍ في قيام مجتمع صالحٍ رشيدٍ، ومدنيةٍ صالحةٍ، وحياةٍ اجتماعيةٍ متزنةٍ عادلةٍ، كانت الحاجةُ لبيان هذه المقاصد والأهدافِ وتكاملها والقيام بهذه المرحلة بطريقة علمية تحقيقية (تروي غليلَ الأذهانِ والطبعَ العقلانيةِ لعهد الشورة العقلية التي كان قد أظلَ زمانها) إلى الكتابة في خصائصِ النظامِ الاجتماعيِ في الإسلامِ وطبيعتهِ، وأهدافهِ وغاياتهِ ونطاقِ عملهِ، وعن (الخلافة) (الهيئة الإدارية العالمية الدائمة)، الصريحة المنصوصة لهاً (نظام) بهذا البسطِ والتفصيلِ، والأدلة من العقلِ والنقلِ، وشواهدِ التاريخِ، وفوق كلِ ذلك في ضوءِ الكتابِ المبينِ والسنَةِ الواضحةِ، وتفضحِ الفضلاتِ والظنونِ الخاطئةِ التي ظهرت في هذا الصددِ منذ زمنِ قديمٍ، والتي نشأت بناءً عليها فرقةٌ جديدةٌ^(١)، كانت قد أحدثت لسيطرة العناصر الإيرانية في عهد الإمام الذهلي نفسه - بصفةٍ خاصةٍ - من الإضطرابِ الفكريِ والبلبلة العقلية ما تخطى حدودَ المعتقداتِ والأعمالِ إلى نظامِ الحكومةِ وسلطةِ المسلمين العلية في الهندِ، وجعلت مستقبلَ المسلمين في الهندِ في خطرٍ تحومُ حولهِ الشكوكُ والشبهاتُ.

إنَّ شأنَ هذهِ الفرقةِ (في نظرِ أولئكِ الذين يعرفونَ تاريخَ مذهبها ومتقداتها الأساسيةِ، وفهمها وتصورها للدينِ، والذين درسوا كتبها المعتبرةِ ومصادرها المعتمدة لدى أهلها دراسةً مباشرةً) ليسَ شأنَ خلافٍ في الاجتهادِ والقياسِ، أو فرقَةً جانبيةً لا تخرجُ عن نطاقِ الشريعةِ الإسلاميةِ، بل إنَّها تحملُ إزاءَ التصورِ الصحيحِ للدينِ الذي يبنيُ أساسَه على الكتابِ والسنَةِ وعظمةِ مكانةِ النبوةِ وعقيدةِ ختمِ النبوةِ، تفكيراً مستقلأً، وتصوراً دينياً مُقاولاً، ويمكنُ أن يقدرُ ذلكَ -

(١) المراد بها الفرقة الإمامية الشيعية.

إلى حد ما - من عقيدة (الإمامية) لدى الفرقـة الـاثـنـيـعـشـرـيةـ،ـ التـيـ تـعـتـقـدـ أـنـ الإـمامـةـ نـظـيرـ النـبـوـةـ،ـ بلـ تـفـضـلـهاـ وـتـفـوقـهاـ فـيـ جـوـانـبـ كـثـيرـةـ^(١)ـ.

يقول الإمام الدهلوـيـ وـهـوـ يـبـيـنـ الغـرـضـ الأـسـاسـيـ مـنـ هـذـاـ الكـتـابـ وـغـايـتـهـ الأـولـىـ:

«يـقـولـ الفـقـيرـ وـلـيـ اللهـ عـفـاـ اللهـ عـنـهـ:ـ إـنـ بـدـعـةـ التـشـيـعـ رـاجـتـ فـيـ هـذـاـ العـهـدـ وـأـنـتـشـرـتـ،ـ وـتـأـثـرـتـ طـبـائـعـ الـعـامـةـ بـشـبـهـاتـهـمـ التـيـ أـرـادـهـاـ تـأـثـرـأـعـمـيقـاـ،ـ وـنـشـأـتـ فـيـ قـلـوبـ مـعـظـمـ أـهـلـ هـذـهـ الـمـنـطـقـةـ شـكـوكـ وـشـبـهـاتـ كـثـيرـةـ فـيـ مـوـضـعـ ثـبـوتـ خـلـافـةـ الـخـلـفـاءـ الرـاشـدـيـنـ»^(٢)ـ.

لم يكن نظر الإمام الدهلوـيـ إـلـىـ السـطـحـ الـظـاهـرـ مـنـ هـذـهـ الـفـتـنـةـ التـشـكـيـكـيـةـ الـمـدـبـرـةـ،ـ بلـ كـانـ يـنـظـرـ بـبـصـيرـتـهـ الثـاقـبةــ إـلـىـ أـعـماـقـ تـلـكـ المـؤـامـرـةـ الـخـطـيرـةـ التـيـ كـانـتـ تـرـسـبـ فـيـ دـاخـلـهـاـ،ـ وـالـتـيـ كـانـتـ سـتـظـهـرـ نـتـائـجـهـاـ الـبعـيـدةـ الـخـطـيرـةـ (ـمـثـلـ خـيـبةـ الـإـسـلـامـ وـإـخـفـاقـهـ فـيـ عـهـدـ الـأـوـلـ الزـاهـرـ،ـ وـأـنـ صـحـبـةـ النـبـيـ ﷺـ لـمـ تـشـرـ وـلـمـ تـفـعـلـ فـعـلـهـاـ فـيـ تـكـوـينـ مـجـتمـعـ صـالـحـ فـاضـلـ يـوـثـقـ بـهـ،ـ وـمـنـ نـتـائـجـ هـذـاـ التـوـعـ مـنـ التـفـكـيرـ وـالـاعـقـادـ الـطـبـعـيـةـ وـجـوـدـ عـدـمـ الثـقـةـ بـصـيـانـةـ الـقـرـآنـ الـكـرـيمـ،ـ وـبـقـائـهـ عـلـىـ أـصـالـتـهـ مـبـاـشـرـةـ،ـ وـذـلـكـ فـيـ خـيـرـ الـقـرـونـ،ـ وـذـلـكـ الـاضـطـرـابـ فـيـ صـحـقـةـ الـأـحـادـيـثـ وـنـقـلـ الـسـنـةـ الـنـبـوـيـةـ،ـ وـجـمـيعـ الـأـمـورـ التـيـ اـتـقـنـ عـلـيـهـاـ الـمـسـلـمـونـ)ـ وـذـلـكـ يـقـولـ إـلـيـهـ

الـدـهـلـوـيـ:

(١) وـقـعـ إـلـيـناـ أـخـيـراـ كـتـابـ (ـالـحـكـومـةـ إـلـاسـلامـيـةـ)ـ لـقـائـدـ الثـورـةـ إـلـيـرانـيـةـ رـوحـ اللهـ الخـمـنـيـ الـذـيـ يـعـرـفـ بـآـيـةـ اللهـ الـعـظـيـمـ الـخـمـنـيـ،ـ فـقـدـ جـاءـ فـيـ صـ5ـ2ـ بـعـنـوانـ (ـالـولاـيـةـ التـكـوـنـيـةـ)ـ بـعـدـ التـصـرـيـحـ بـأـنـ الـأـئـمـةـ يـمـلـكـونـ الـخـلـافـةـ التـكـوـنـيـةـ،ـ وـتـخـضـعـ لـحـكـمـهـمـ وـسـلـطـهـمـ جـمـيعـ ذـرـاتـ هـذـاـ الـكـونـ،ـ مـاـ يـلـيـ:

«إـنـ مـنـ خـصـورـيـاتـ مـذـهـبـنـاـ أـنـ لـأـتـمـتـاـ مـقـاماـ لـاـ يـلـغـهـ مـلـكـ مـقـرـبـ،ـ وـلـاـ نـبـيـ مـرـسلـ،ـ وـبـمـوجـبـ مـاـ لـدـيـنـاـ مـنـ الـرـوـاـيـاتـ وـالـأـحـادـيـثـ،ـ فـإـنـ الرـوـسـوـلـ الـأـعـظـمـ صـلـىـ اللهـ عـلـيـهـ وـآـلـهـ وـسـلـمـ وـالـأـئـمـةـ (ـعـ)ـ كـانـواـ قـبـلـ هـذـاـ الـعـالـمـ أـنـوارـاـ،ـ فـجـعـلـهـمـ اللهـ يـعـرـشـهـ مـحـدـقـيـنـ،ـ وـجـعـلـهـمـ منـ الـمـنـزـلـةـ وـالـزـلـفـيـ مـاـ لـاـ يـعـلـمـهـ إـلـاـ اللهـ.ـ ((ـالـحـكـومـةـ إـلـاسـلامـيـةـ))ـ،ـ طـبـعـ كـتـبـخـانـهـ بـزـرـكـ إـسـلـامـيــ إـلـيـرانـ).

(٢) إـزـالـةـ الـخـفـاءـ:ـ ١ـ/ـ ١ـ.

«كلٌّ من يحاول هدم هذا الأصل (ثبوت الخلافة الراشدة وصحتها) وينكرُ هذا الأصل الأصيل من الدين إنما يحاول هدم جميع الشعب الدينية»^(١).

ويزيد قائلاً:

«إنَّ الخلفاء الراشدين هم الواسطةُ بين رسول الله وبين أُمته في أحدِ القرآن الكريم وتلقِيه»^(٢).

ثم يدرج الإمام الذهلي في هذه الدائرة تلك الشعب والعلوم التي حصلت ثروتها للأمة عن طريق الخلفاء الراشدين، كعلم الحديث وعلم الفقه والإجماع على المسائل المجتهد فيها، والقضاء على اختلاف الأمة وعلم الإحسان (الذي سُميَ -أخيراً- بعلم السلوك)، وتوضيح الفرق بين مراتب علوم الحكمة والأخلاق الفاضلة والأخلاق المذمومة، وتدبير المنزل، وسياسة المدينة، كل هذه العلوم والفنون والشعب الدينية انتقلت إلى الأمة عن طريق الخلفاء الراشدين ويتعلمهم ومنهج عملهم، وتدين لهم الأمة كلها في ذلك»^(٣).

ولذلك كان من المناسب - جداً - أن يشرح - بعد تأليف (حججة الله البالغة) الذي هو تفسير علمي ونظري للإسلام - كيف طبقت هذه الأصول والتعاليم الإسلامية بعد عهد النبوة - مباشرة - في عالم الواقع بنجاح منقطع النظير، وكيف ظهرت في صورة عملية، وطبقت على الحياة بطريقة رائعة، وما هي الآثار التي تربت بها على المجتمع البشري، وكيف قضت على مدينتين عتيقتين جبارتين تملكان أزمة السلطة والسيطرة حتى اقتسمتا العالم المتمدن كله، ويرجع تاريخهما إلى قرون عريقة في القدم، وكانتا تزدهران وتتقدمان تحت ظل الحكومات (الساسانية والرومية) وفي قيادتها، وتوثران على الحياة الإنسانية وتطبعانها بطريقهما، كيف انتهى دورهما، وذهبتا أدراج الرياح!؟^(٤).

(١) إزالة المخاء: ١/١.

(٢) المرجع السابق: ٤/٢.

(٣) انظر للتفصيل: (إزالة المخاء): ٦/٢.

(٤) انظر للتفصيل: (إزالة المخاء): ٥/٤ عنوان (تحطيم الدولة الساسانية); و٢/٥٩ - ٦٣ =

مؤلفات قديمة أخرى في الموضوع:

لم نعثر في مجموعة الكتب القديمة في موضوع النظام الاجتماعي والسلطة الحاكمة ودائرتها نفوذها وعملها إلا على كتب معدودة (بغض النظر عن درجتها وكيفيتها، بل في عددها وكميتها كذلك) ويحتل كتاب الإمام أبي يوسف (١١٣ - ١٨٢ هـ) تلميذ الإمام الأعظم أبي حنيفة (ت ١٥٠ هـ) وقاضي القضاة في الخلافة العباسية المعروف بـ(كتاب الخراج) مكانة أولية وأساسية في هذا الموضوع، إلّا أنّ نطاق البحث فيه لا يخرج عن وسائل الدخل للدولة الإسلامية وماليتها ونظام المحاصيل والخارج فيها.

وأول كتاب بسيط يجدر بالذكر في هذا الموضوع هو كتاب (الأحكام السلطانية والولايات الدينية) لقاضي القضاة العلامة أبي الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي (٣٦٤ - ٤٤٥ هـ)، وقد جاء في ٢٥٩ صفحة من القطع المتوسط، ويدور الكتاب حول موضوع الإمامة وحكمها الشرعي وشروطها، وكيفية انعقادها، والمناصب التي تتولى تفويضها، وتعيين المسؤولين عليها، وواجبات الإمام ومسؤولياته، وأحكام تعيين القضاة والأئمة، وولاية الصدقات، والجزية والخارج وغير ذلك من الأحكام، وكذلك إقامة الحدود، والحسبة، وغيرها، ولم يرد فيه أي بحث في ثبوت خلافة الخلفاء الراشدين وصحتها ومآثرهم ومناقبهم ومكانتهم في الدين.

ومن أضخم الكتب في هذا الموضوع (الغينائي) واسمها الكامل (غياب الأمم في التياث الظلم)^(١)، وهو تأليف شيخ الإمام الغزالى المعروف، وأستاذ الأستاذة في عصره، إمام الحرمين أبي المعالى عبد الملك الجويني (٤١٩ - ٤٧٨ هـ)، وقد ألف هذا الكتاب بإشارة من وزير الدولة السلجوقي الفاضل

= عنوان (تحطيم الدولة الرومية).

(١) طبع هذا الكتاب بتحقيق الدكتور عبد العظيم الديب وبعنوان الشيخ عبد الله بن إبراهيم الأنصارى على نفقه الشؤون الدينية لحكومة قطر عام ١٤٠٠ هـ، ويشتمل الكتاب على ٦١١ صفحة من القطع الكبير.

المعروف نظام الملك الطوسي (٤٠٨ - ٤٨٥ هـ) (مؤسس المدرسة النظامية ببغداد ونيسابور) ولمطالعته ومراجعته، وقد كان هو في الحقيقة وزير الملك ألب أرسلان، وملك شاه السلجوقي ومعتمده، ولكنه كان في الوقت نفسه رجل هذه الدولة العظيمة، بل الإمبراطورية الكبيرة الوحيدة، وشخصيتها المركزية^(١).

وهذا الكتاب يدور حول الأحكام الشرعية للإمامية وصفاتها وواجباتها، فقد ذكر في القسم الأول منه صفات الأئمة والولاة والقضاة، كما جاء فيه البحث في أنه إذا لم يوجد للمسلمين إماماً فماذا يجب عليهم عند ذلك؟ كما ذكر فيه صفات المفتين والأمراء وفضلهم، وما هي الواجبات العائدة على الأئمة عند غيابهم؟ وماذا يجب على المسلمين إذا تسلط عليهم حاكم فقد الأهلية بالسيف والقوة؟ وإذا خلا عصر من العصور من أصحاب الإفتاء فكيف تعمل الأئمة، وما هي مسؤوليتها؟ وما هي الأسباب التي توجب خلع الإمام وعزله؟

ثم جاء في تفصيل ذكر الأحكام الفقهية التي يفرض على الأئمة معرفتها والعمل بها عند فقدان المفتين.

ومن هنا يتحول الكتاب إلى كتاب في الفقه الشافعي، وليس في الكتاب أي مبحث في موضوع ثبوت خلافة الخلفاء الراشدين وأهميتها، إذ إنَّ الكتاب يعالج - في الحقيقة - موضوع الأحكام الشرعية للإمامية وصفاتها وواجباتها، وترد في الكتاب في مواضع كثيرة تعریضاتُ بكتاب (الأحكام السلطانية) للماوردي وانتقادات على مؤلفه.

والكتاب الثالث الجدير بالذكر في هذا الموضوع هو (السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية) لشیخ الإسلام ابن تيمية (٦٦١ - ٧٢٨ هـ)، وقد صرَّح المؤلف العلامة في مقدمة كتابه هذا بأنه رسالة مختصرة اشتغلت على أصول السياسة الإلهية والنيابة النبوية وأحكامها التي لا يستغني عنها الراعي ولا الرعية، والكتاب - في الأصل - تفسير وتفصيل للأية الكريمة:

(١) انظر لترجمته: (وفيات الأعيان) لابن خلkan؛ و(طبقات الشافعية).

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤْذِنَا الْأَمْنَىٰ إِنَّ أَهْلَهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ إِن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ - إلى قوله تعالى - ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء : ٥٨ - ٥٩].

فعنوان الباب الأول من القسم الأول (الولايات)، وعنوان الباب الثاني (الأموال)، وجاء البحث في القسم الثاني أولاً عن حدود الله تعالى وحقوقه، ثم حقوق العباد، واشتمل الكتاب على ١٦٨ صفحة من القطع المتوسط^(١).

ولم يتعرض المؤلف في هذا الكتاب للمباحث التاريخية والأصولية والكلامية المتعلقة بالخلافة الرشيدة، والخلفاء الراشدين، التي يحتلُّ فيها مؤلف الكتاب الجليل مكانة الثقة والإمامنة والاجتهاد، ولو اعتنى بهذه الناحية ل كانت زيادة قيمة في المكتبة الإسلامية العلمية والبحوث الموضوعية، ولكنه كتب بقلمه السياق وعلِّمه الزائر في هذا الموضوع على صفحات (منهج السنة) الذي يتجلّى فيه نموذج بحره العلمي الزاخر، وجولان قلمه القوي السلسال^(٢).

مكانة الخلافة ومنزلتها في الإسلام:

يتجلّى في القرآن الكريم والسنّة النبوية المشرفة تصور اعتناق الدعوة الإسلامية والدين الحنيف والمؤمنين به في صورة جماعة منظمة متضامنة متراصة، وكلمات (الأمة) و(الملة) و(الجماعة) التي استخدمت لهم كلُّها تدلُّ على هذه الحقيقة دلالةً واضحةً، ويعرف أصحاب العلم وال بصيرة أنَّ هذه الكلمات المستخدمة في لغة الكتاب والسنّة، واصطلاحهما، لم تستخدم -إطلاقاً- لمحض التصور السطحي للكثرة العددية والتجمع البشري العام، الذي لا يملك أيَّ وزن أو تأثير في تاريخ الأديان والمملل، ولا في مقادير الشعوب والحضارات، بل لقد زخر القرآن الكريم كله في صدد بيان وقائع الأمم السابقة حيناً، وفي التعرض لبيان أسباب القوة والضعف والهزيمة والغلبة حيناً آخر -بعدم تأثير الكثرة العددية،

(١) بين أيدينا طبعة رابعة للكتاب صدرت من دار الكتاب العربي بمصر عام ١٩٦٩.

(٢) راجع: (رجال الفكر والدعوة في الإسلام) : ٢٤٩ - ٢٧١ ، دار القلم بدمشق.

وخفة الجموع البشرية، وفقدانها لأي وزن واعتبار، وغلبة الشر والفساد رغم وجود الأفراد الصالحين الآخيار، وشقاء الإنسانية وبؤسها، وضعف الحق - وخذلانه، كل ذلك مما يؤكد على أنَّ الأفراد المتفقين - مهما كان عددهم - لا يحملون في ميزان العقل والعدالة أهمية كبيرة وفائدة مرجوة عامة.

إنَّ الأهداف التي يرمي إليها الإسلام تشملُ على إصلاح العلاقة وتنظيمها وتنقيتها بين العبد والعبود، ثم توسيع نطاقها وعميمها، ومحاولة سبك الحياة الإنسانية في قالبها، وتصحيح العلاقات وتطبيقها بين أفراد الجماعة وأعضائها، وتهيئة الجو والمناخ الصالح لحياة آمنة وادعة مطمئنة، مهنية جميلة زاهية، تتوفَّر فيها الفرص الكاملة لأداء حقوق العباد ورب العباد، والبلوغ إلى غايات الكمال ومدارج الرقي والفضل التي أودعت صلاحيتها في فطرة الإنسان.

لقد حاول الإسلام أن لا تضييع العبرية البشرية وقوتها العملية في مقاومة تلك الأخطار، والتوقى من تلك الخسائر والأضرار، وإزالة تلك المفاسد والأمراض التي تنجم - تارة - نتيجة الحياة الممزقة غير المنظمة، ومن القوانين الوضعية ثارة أخرى، وتشاء حيناً كذلك من السلطة المطلقة، والحرص الزائد على الحياة والسلطان، ولا بدًّ لذلك من خلافة وإمارة تبني على الاعتقاد بقانونٍ نازلٍ من السماء، وشريعة ربانية، وحاكمية الإله الواحد وألوهيته وربوبيته.

أما الشريعة الإلهية فإنه يلزم الاعتقاد فيها بأنها منزلةٌ من الله العليم الحكيم، وأنها بريئةٌ من الأخطاء والمصالح الشخصية والأغراض، وأنها فوق العصبيات والمحسوبيات وال العلاقات .

وأما الخلافة والإمارة فإنه يجب عليها أن تكون ترجمانًا صالحًا، وممثلة صادقة للشريعة الربانية، بعيدةٌ إلى حد المستطاع البشري والإرادة الإنسانية - عن التمييز والعصبية بغير حق، بريئة عن عدم المساواة بين الناس، والمحاباة والمداهنة في الدين .

وقد أصدر الشارعُ عليه الصلة والسلام لتكميل هذه الأهداف وتحقيقها وظهور نتائجها وثمارها - من أول الأمر - تعاليم وإرشادات يضطر المسلمين -

بناءً عليها - أن يكونوا جماعة منظمة متراقبة، تخضع لأحكامولي الأمر وإداراته الذي يمتاز عنهم - بصفة عامة - بكثير من الخصائص، ويحافظ على مصالحهم ومنافعهم وحاجاتهم، وقد اختاروه في ضوء أصول الشريعة السمحنة المرنة العادلة، فإذا كان ذلك يتولى (الإمام الكبرى) فإنه يُدعى (الخليفة المسلمين) و(أمير المؤمنين) أو (الإمام) أما إذا كان نائباً عنه أو مرشحاً منه أو اختاره المسلمون لتنفيذ أحكام الشريعة وفصل الخصومات وتنظيم الحياة الدينية الاجتماعية - بشكل جزئي محلي - فهو (الأمير).

لقد كان اختيار الخليفة وترسيمه من تلك الواجبات الأساسية على المسلمين [فكان] أن قدم أكبر المجبن للرسول ﷺ وصاحبُه الصادق الوفي المستimit دونه، سيدنا أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - وجماعةُ صحابته الكرام الذين كانوا يقدونه بالمهج والأرواح، ويفضلونه على الأنفس والأبناء والآباء - رضي الله عنهم وأرضاهم - مع أهل البيت الطيبين الأطهار - فصلَ هذه القضية، وترسيخ خليفة المسلمين وتعيينه؛ على دفن الجسد الطاهر ﷺ ولا يزال هذا - تقريباً - دين المسلمين وطريقهم عند وفاة أي خليفة و اختيار خليفة آخر.

ولم يحرم العالم الإسلامي من يوم اختيار سيدنا أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - خليفة المسلمين عام ١١هـ إلى عهد الخليفة المستعصم بالله العباسى (ت ٦٥٦هـ) من الخليفة المسلم، ويقي العالم الإسلامي - في أثناء ذلك - دون خليفة أيام غياب الخليفة المسترشد بالله ووقوعه في الأسر ، الذي اعتقله السلطان مسعود السلجوقي في العاشر من رمضان عام ٥٢٩هـ وذلك لمدة قليلة لا تتجاوز ثلاثة أشهر وسبعين ليل ، وقد كان هذا حادثاً أليماً وتجربة جديدةً قاسيةً، غشّى بسيبها على العالم الإسلامي السوداء ، وعلاه الحزن والكآبة ، وقامت لها بغداد وقعدت ، وفي تعبير المؤرخ ابن كثير :

«انزعج الناس لذلك ، وزلزلوا زلزاً شديداً صورةً ومعنى ، وجاءت العامة إلى المنابر فكسروها ، وامتنعوا من حضور الجماعات ، وخرج النساء في البلد حاسراتٍ ينحرن على الخليفة ، وما جرى عليه من الأسر ، وتأسى بأهل بغداد في

ذلك خلق كثير من أهل البلاد، وتمت فتنه كثيرة، وانتشرت في الأقاليم، واستمر الحال على ذلك شهر ذي القعدة، والشناعة في الأقاليم منتشرة، فكتب الملك سنجر إلى ابن أخيه يحدّره غبًّا ذلك عاقبة ما وقع فيه من الأمر العظيم، ويأمره أن يعيد الخليفة إلى مكانه ودار خلافته، فامثل الملك مسعود ذلك»^(١).

ولإن القصيدة المأساوية الحزينة المفطرة للقلوب والأكباد التي قالها الشيخ سعدي - الذي كان بعيداً عن مركز الخلافة في شيراز - على حدث استشهاد الخليفة المستعصم بالله، التي يقول في مطلعها ما ترجمته بالعربية:

«لقد حَقَ للسماء أن تمطرَ على الأرض الدماءَ على سقوط المستعصم أمير المؤمنين».

تصريح بنظرية المسلمين إلى الخليفة والخلافة، ما هو تصورهم لها؟ وما هي عواطفهم التي لا يملكون حبسها وكتتها على حرمان العالم الإسلامي منها؟^(٢).

التعريف الجامع المانع للخلافة:

لقد عرف الإمام الدهلوi - الذي كان يملك بصيرة نافذة ودراسة عميقه واسعة للكتاب والسنة والفقه، والعقائد والكلام والسيرة والتاريخ، وكان عارفاً بأسرار الشريعة وحقائقها - الخلافة تعريفاً جاماً مانعاً، يصعب أن يعرف بأفضل وأدق منه، وإن كل لفظة من لفظاته هذا التعريف تحيل في طياتها سجلاً من المعاني والحقائق والأمثلة، يقول:

«الخلافة هي الرئاسة العامة في التصدّي لإقامة الدين بإحياء العلوم الدينية، وإقامة أركان الإسلام، والقيام بالجهاد، وما يتعلّق به من ترتيب الجيوش والفرض للمقاتل، وإعطائهم من الفيء، والقيام بالقضاء، وإقامة الحدود، ورفع

(١) البداية والنهاية لأبي كثير: ٢٠٨/١٢.

(٢) انظر في هذا الباب قصائد أحمد شوقي وحافظ إبراهيم وغيرهما من شعراء العصر في رثاء الخليفة العثماني التي أبطلها فرنج اليهود كمال أتاورك عام ١٩٢٤ م. (الناشر)

المظالم، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، نيابةً عن النبي ﷺ^(١).

ثم يقول مبيناً معنى (إقامة الدين) وزيادةً لإيضاح له :

«عندما ننظر إلى الأمور نظرةً استقراءً، وننتقل من الجزئيات إلى الكليات، ومن الكليات إلى الكلية الواحدة الشاملة للجميع، نصل إلى نتيجة أن الجنس الأعلى لهذه الأمور من الجزئيات المتشتتة والكليات المتشربة الكثيرة (وكانها كلية الكليات) هي تلك الحقيقة (الكلية الجامعة) التي عناها (إقامة الدين) والتي تدرج تحتها أنواع وأجناس أخرى، منها: إحياء العلوم الدينية التي تشتمل على تعليم الكتاب والسنة والتذكير والموعظة، يقول الله تعالى:

﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأَرْضِ إِنْسَانًا رَسُولًا مَّمْهُومًا يَتَلَوَّ عَلَيْهِمْ كَايَنِيهِ وَيُرَدِّكُهُمْ وَيَعْلَمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَافَرُوا مِنْ قَبْلِ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة : ٢]^(٢).

الاستدلال بالقرآن الكريم على خلافة الخلفاء الراشدين:

إنَّ أروعَ ما يحتوي عليه هذا الكتاب وأشوّقه للمتدوّقين لمعاني القرآن الكريم، هو ما استدلَّ به الإمام الذهلي على انعقاد خلافة الخلفاء الراشدين، وأنَّهم أصحابُ الخلافة الراشدة الحقة، وأنَّه تحقق بهم الأمر التكويني الرباني والمشيئة الإلهية، بأياتٍ كريماتٍ من القرآن الحكيم، ولفتَ الأنظار إلى تلك الإشارات بل التصریحات في الآيات البينات التي تثبتُ بداعها—بل في صورة نتائج رياضية قطعية في بعض المواقف—أنَّ هذه الآيات لا تصدقُ ولا تنطبقُ إلا عليهم،

(١) إزالة المخفاء : ٢/١ . [قال كاتب الإسلام الأكبر مصطفى صادق الرافعي : إمارة المؤمنين هي ارتفاع نفس من التفوس العظيمة إلى أثر النبوة، كان القرآن عرض المؤمنين جميـعاً، ثم رضي منهم رجالاً لـلـزـمـنـ الذي هو فيه، ومتى أصـيبـ هذاـ الرـجـلـ القرـآنـيـ، فـذـاكـ وـارـثـ النبي ﷺ فيـ أـمـتـهـ وـخـلـيـفـتـهـ عـلـيـهـاـ، وـهـوـ يـوـمـذـ أـمـيـرـ المـؤـمـنـينـ لـاـ مـنـ إـمـارـةـ الـمـلـكـ وـالـتـرـفـ، بلـ مـنـ إـمـارـةـ الشـرـعـ وـالـتـدـبـيرـ وـالـعـلـمـ وـالـسـيـاسـةـ . (بدائع الحكم من وحي القلم، ص ٤١ ، طـ. دار القلمـ).]

(٢) إزالة المخفاء : ٢/٣ .

ولا يمكن أن يرآها غيرُهم، وأنَّ هذه النبوءات الواردة في الآيات لا ترجعُ إلى غير أشخاصهم، وأنَّ الوعود التي انطوت عليها تلك الآيات لم تتحقق في عهد غير عهد خلافتهم، فلو سحبنا - من الوسط - شخصياتهم وعهودهم، لظلت هذه الأوصاف دون ما تصدق عليه، ولباتت هذه الوعود تتضرَّر التتحقق والواقع.

نختار من بين الآيات التي أوردها الإمام الذهلي آيتين كنموذج، منها آية من سورة النور، يقول رب عز وجل:

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ مَأْمَنُوا وَنَكِرُوا وَعَمِلُوا أَصْنَاعَهُدُوتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخَلَفُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ دِيْنُ الَّذِي أَنْصَنَى لَهُمْ وَلَمْ يَبْدُلْنَاهُمْ إِنَّمَا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَنَسِّرُونَ﴾ [النور: ٥٥].

يقول الإمام الذهلي: إنَّ هذا الوعد بالاستخلاف في الأرض، وتمكين الدين، والأمن بعد الخوف، إنما كان مع أولئك الذين كانوا موجودين وقت نزول سورة النور، وقد تشرفوا بالإسلام وصحبة النبي عليه الصلاة والسلام، وشاركوا في تأييد الدين الحنيف ونصره. يقول الإمام الذهلي بصرامة ووضوح: إنَّ هذا الوعد لم يكن مع سيدنا معاوية رضي الله عنه، ولا معبني أمية وبني العباس الذين لم يكونوا - حينذاك - قد دخلوا في الإسلام، ولا كانوا موجودين في المدينة المنورة.

ثم يقول: إنَّه ليس من الممكن ولا من المعقول أن تولى جماعة المسلمين كلها الخلافة في الأرض، ويتبؤون كلهم في وقت واحد منصب الخلافة، فلا يمكن أن يرآد بذلك إلا بعض الأفراد المعدودين.

يقول: ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ﴾: أي ليستخلفنَّ جمِيعَهم، والطاعة والانقياد من لوازم ذلك، ثم عندما يتحقق هذا الوعد يظهر الدين كله، وتحصل له السلطة والسيطرة الكاملة، وليس كما يقول الإثنان عشرة: إنَّ الدين المرتضى عند الله يبقى - دوماً - متسراً مختفيًّا، ولذلك اتَّخذ أئمَّةُ أهل البيت التقة شعاراتهم، ولم يقدِّر لهم أن يعلموا دينهم ويظهروه جهاراً وعلانية.

﴿وَلَيَمْكُنَنَّ لَهُمْ دِينُهُمُ الَّذِي أَتَضَى لَهُمْ﴾ : أفادت هذه الآية أن ذلك الدين الذي لا يقدر على إظهاره في زمن هذه الخلافة الموعودة ليس ديناً مرضياً مختاراً عند الله تعالى^(١).

كذلك يقول الله تعالى : ﴿وَلَيَعْبُدُنَّهُمْ مَنْ يَقْدِرُ خَوْفَهُمْ أَمْنًا﴾ : أي أن الله - تعالى - يخلق في عهد هذه الخلافة (الموعودة) جوًّا من الأمن والطمأنينة والسلام بدلاً من جوًّا الخوف والفزع ، ويثبت ذلك أنَّ هؤلاء المستخلفين وسائر المسلمين يعيشون وقت تتحقق هذا الوعد في أمن وسلام ، لا يرهبهم الكفار ذوي الديانات المختلفة ، ولا تخيفهم جماعةٌ أو قوة .

وبالعكس من ذلك يقول الإماميون : إنَّ أئمة أهل البيت ما زالوا في خوف ومطاردة وفزع ، وأنهم استخدمو (النقية) ، وأنهم واجهتهم - دائمًا - من قبل المسلمين أنفسهم محنٌ وبلايا ، وعانتوا من الذلة والإهانة ، ولم يعشوا يوماً مؤيدين منصوريين^(٢) .

وقد تحقق وعد الاستخلاف والتسلكين في الأرض على أيدي هؤلاء المهاجرين الأولين والحاضرين وقت نزول آية الاستخلاف ، فإذا لم يكن هؤلاء خلفاء ، فقد بقي هذا الوعد غير متحقق ، ولن يتحقق إلى قيام الساعة ، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيراً^(٣) .

والآية الثانية هي آية (سورة الفتح رقم : ١٧) يقول - تعالى - : ﴿قُلْ لِلْمُتَخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ . . .﴾ ، وقد بحث الإمام الذهلي في هذه الآية بحثاً مفصلاً ، وخلاصته أنَّ نبيَّ الله ﷺ خرج عام ٦ هـ مع جماعة كبيرة من أصحابه بناء على رؤيا رأها ، إلى مكة المكرمة ، قاصدين أداء العمرة ، وقد خرج معه ﷺ عدد كبير من أصحابه لخطورة الحادث ، وظروف مكة المكرمة ، وخطر قيام قريش بالمعارضة

(١) إزالة الخفاء : ٢٠ / ١.

(٢) المرجع السابق نفسه.

(٣) المرجع السابق : ٢٣ / ١.

والغارة، ولكن لم يخرج معه الأعراب (سكان البوادي) لخوفهم ونفاقهم، وقد وقع في الحديبية ذلك الحادث التاريخي (التحلل من الإحرام)، ومعاهدة الصلح مع قريش (الذي ذكر في كتب السيرة بتفصيل)^(١)، ووّقعت هناك بيعة الرضوان التي أعلنت الله تعالى للمشاركين فيها بنعمة رضاه ونشرهم بالفتح القريب^(٢).

ثم أُعلن في سورة الفتح هذه أنَّ الأعراب - الذين لم يكونوا حاضرين وقت صلح الحديبية، والذين انصرفوا عن الزمالة والمشاركة في هذه المهمة العسيرة الخطيرة - لا يصحبون ولا يشاركون في هذا الفتح القريب (فتح خير) (الذي وقع في شهر محرم الحرام عام ٧هـ)، يقول الله تعالى:

**﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا أَنْظَلَفُتُمْ إِلَى أَنْفَاقِكُمْ لَتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّعَمُكُمْ
يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلِمَاتَ اللَّهِ أَوْ أَنْ تَأْتِيَنَا كَمَّا نَأْتُكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلٍ فَسَيَقُولُونَ بَلْ
نَحْمَدُ وَنَتَّابِلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ لِلْأَقْلِيلَ﴾ [الفتح: ١٥].**

ثم قيل بعد ذلك لهؤلاء المخلفين: إنَّه لا يؤذن لكم بالمشاركة في الفتح القريب (فتح خير) والاستمتاع بمعانمه، ولكنكم ستُدعون إلى حرب مع أناس أولي بأس شديد، من صفاتهم أنهم أصحاب قوة وشجاعة وبأس، ومن خصائصهم أنهم إما أن يقاتلوا أو يدخلوا في الإسلام، وليس هناك حل وسط (كالجزية مثلاً) وأنَّ هذه الدعوة والنداء إلى هذه الحرب والقتال يكون لها من الحب والقبول عند الله تعالى وأن الداعي إليها يكون له من الوزن والاعتبار، ويكون له من وجوب طاعته على الناس أنكم إذا قبّلتم دعوته وأطعتموه يؤتكم الله أجراً حسناً، وإن توليتم وانصرفتم كما توليتمن قبل يعلّبكم الله عذاباً أليماً.

يقول الله تعالى: **﴿قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُنَدَّعُونَ إِلَى قَوْمٍ أُولَئِكَ يَأْسِ شَدِيدٍ
لَقَاتَلُوكُمْ أَوْ يُسْلِمُوكُمْ فَإِنْ ظَطِيعُوكُمْ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَنْوِلُوكُمْ كَمَا تَوَلَّتُمْ مِنْ قَبْلٍ
يَعْلَمُ بِكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفتح: ١٦].**

(الناشر)

(١) انظر: السيرة النبوية للمؤلف، ص ٢٧٥ ط. دار القلم بدمشق.

(٢) انظر: سورة الفتح الآية: ٢٧.

يقول الإمام الذهلي : «يُبَتِّئُ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿سَتُنْدَعُونَ﴾ بِالْإِقْتَضَاءِ أَنَّهُ يَكُونُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ دَاعٌ بِوَجْهِ الدُّعَوَةِ لِلأَعْرَابِ (سَكَانِ الْبَادِيَةِ الَّذِينَ لَمْ يَخْرُجُوا مَعَ الْجَيُوشِ إِلَيْهِمْ بِمُنَاسِبَةِ صَلْحِ الْحَدِيبِيَّةِ) إِلَى حَرْبٍ مَعَ قَوْمٍ لَيْسَ لَهَا إِلَّا صُورَتَانِ اثْنَتَانِ : إِمَّا الْقَتَالُ أَوِ الْإِسْلَامُ، وَلَا يَصِدُّ ذَلِكَ إِلَّا عَلَى الْمُرْتَدِينَ مِنْ قَبَائِلِ الْعَرَبِ، الَّذِينَ لَمْ يَكُنْ يَحْلِ أَخْذَ الْجُزِيَّةَ مِنْهُمْ، فَهُمْ إِمَّا أَنْ يَقْاتِلُوْا فَيُقْتَلُوْا فِي الْحَرْبِ، أَوْ يَسْلِمُوْا وَيَعُودُوْا إِلَى حَظِيرَةِ الدِّينِ .

ولم يتحقق هذا إلا في عهد أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - الذي قاتل المرتدین من العرب، وكان حکمهم الشرعي ذلك لغيره، وليس من الممكن أن يراد به الروم ولا الإیرانيون، الذين كانت لهم ثلاثة صور، إما القتال أو الجزية أو الإسلام، ويشبت بذلك - بدهاهة - خلافة أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - الذي بعث جيوشه تحت قيادة سيف الله خالد بن الوليد - رضي الله عنه - لمقاتلة هؤلاء المرتدین، ووجه الدعوة إلى الأعراب، ثم إن الوعد بالأجر الحسن على قبول هذه الدعوة، والوعيد بالعذاب الأليم على الإعراض عنها، ليس إلا حق الخليفة الراشد ومنصبه ومكانته^(۱).

محتويات قيمة أخرى في الكتاب:

ويشتمل هذا الكتاب - علاوة على الأدلة والبراهين على إثبات خلافة الخلفاء الراشدين ، وذكر مناقبهم ومآثرهم وإنجازات عهودهم ، ومجموعة قيمة صالحة

(۱) انظر للتفصيل : إزالة الخفاء : ۱ / ۳۸-۳۹؛ وقد جاء تأييد هذا الاستدلال في تفسير العلامة شهاب الدين محمود الألوسي (م ۱۲۷۰ھـ) المعروف بـ(روح المعاني)، ص ۱۰۱ - ۱۰۴ . يقول الألوسي :

«المراد بالمعانيم مفاصم خير كما عليه عامَة المفسرين ﴿سَتُنْدَعُونَ إِنَّ قَوْمَ أُولَئِكَ شَدِيدُونَ﴾ وهم على ما أخرجَ ابنُ المتنِّ والطبراني عن الزهرِيِّ : بنو حنيفة ، مسلِمة وقومه أهل اليمامة ، وعن رافعِ بنِ خديجٍ : إِنَّا كَنَّا نَقْرَأُ هَذِهِ الْآيَةَ فِيمَا مَضِيَّ وَلَا نَعْلَمُ مِنْهُمْ ، حَتَّى دَعَا أَبُو بَكْرٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - إِلَى قَتْلِ بَنِي حَنْيَةَ ، فَعَلِمَنَا أَنَّهُمْ أَرِيدُوا بِهَا ، وَشَاعَ الْإِسْتَدَالَلُ بِالْآيَةِ عَلَى صِحَّةِ إِمَامَةِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ» .

من كلماتهم وتوجيهاتهم - على فوائد غالبة ، وتحقيقات نادرة ، ونكات لطيفة ، ومواد قيمة لا تتوفر في كتب العقائد وعلم الكلام - بصفة عامة - ولا في كتب التاريخ والسير ، منها تحديد القرون الثلاثة^(١) ، وبيان الفرق بين الخلافة والملك ، وتفاصيلهما^(٢) ، وشرح الملك العضوض ، والتصریح بأنّ دولة بنی أمیة وسلطتهم المطلقة لم تكن خلافة راشدة ، وهو وإن كان يرى أنّ الخلافة الراشدة انقضت مع سیدنا علي - رضي الله عنه - لكنه يتتجنب الطعن والحقيقة وإساءة الظن بسیدنا معاوية - رضي الله عنه - وينصح به ، بناءً على ما ورد في فضله ومناقبه من أحاديث وأثار^(٣) ، أما خلفاء بنی أمیة بعده فيقول في حقهم بكل صراحة :

«لما تسلّط عبدُ الملك بن مروان على الحكومة زالت الفوضى والاضطراب ، وظهرت أمور الخلافة الجائرة التي بيّنها الرسول ﷺ في أحاديث متعددة على مسرح الوجود»^(٤) .

ومن خصائص هذا الكتاب احتواه على مادةٍ زاخرة في المنهج الفقهي لسیدنا عمر الفاروق - رضي الله عنه - وفتواه وأحكامه وأقضيته ، وقد تكون منها ظهر فقه الفاروق - رضي الله عنه -^(٥) .

ولعل هذه الخطوة نحو عرض (فقه الفاروق) - رضي الله عنه - بصورة متميزة فريدة ، وجمع اجتهاداته وأقيسته وفتواه كانت الخطوة المباركة الأولى التي أنجزها الإمام الذهلي مع أولياته وسوابقه العديدة ، ولم يؤلف - إلى الآن - في هذا الموضوع أي كتاب مستقل جامع ، إلا أن الدكتور محمد رواس قلعة جي

(١) إزالة الخفاء : ١٢١ / ١ - ١٢٢ .

(٢) المرجع السابق : ١٢٦ / ١ .

(٣) المرجع السابق : ١٤٦ / ١ .

(٤) المرجع السابق : ١٤٣ / ١ ; ويقول المؤلف عن يزيد بكل صراحة : «دعاة الضلال : يزيد بالشام ، والمختار بالعراق» حجة الله البالغة : ٢١٣ / ٢ ; وكذلك وصفه في بحث المناقب بقوله : «كان منافقاً أو فاسقاً» ، ص ٢١٥ .

(٥) راجع : (إزالة الخفاء) : ١٤٢ - ٨٥ / ٢ .

رتب كتاباً ضخماً كبيراً باسم (موسوعة عمر بن الخطاب) - رضي الله عنه - قامت بنشرها مكتبة الفلاح بالكويت، ويشتمل الكتاب على (٦٨٧) صفحة من القطع الكبير.

ومع إثبات خلافة الخلفاء الراشدين رضي الله تعالى عنهم أجمعين وذكر فضلهم ومناقبهم ومازالتهم العظيمة بإسهاب وتفصيل، يتجلّى فيه تذوق الإمام الذهلي للموضوع، وحماسه واندفاعة نحو الإشادة بجليل أثرهم، والذي كان تلبيةً لحاجة ماسة كانت من مقتضيات عصره، ومن العوامل والدافع القوية إلى تأليف هذا الكتاب، لم يتحفظ الإمام الذهلي في ذكر مناقب سيدنا علي بن أبي طالب وجلالـ أعمـاله ومازـره، ولم يضـن في ذلك بشـيء، بل يذكرـ سيدنا عليـ بنـ أبيـ طالـبـ - كـرـمـ اللهـ وـجـهـهـ - بـكـلـ حـبـ وـإـجـالـ وـاعـتـارـيفـ بـحـقـوقـهـ وـمـكـانـتـهـ الجـليلـةـ، وـعـاـطـفـ الـحـبـ وـالـشـوـقـ نـحـوـ أـهـلـ الـبـيـتـ الـكـرـامـ، بـتـفـصـيلـ وـإـفـاضـةـ، وـقـدـ بدـأـ منـاقـبـ سـيـدـنـاـ عـلـيـ بنـ أـبـيـ طـالـبـ - رـضـيـ اللـهـ عـنـهـ - وـمـاـزـرـهـ بـقـوـلـهـ:

«مازـرـ أـمـيرـ المـؤـمـنـينـ وـإـمـامـ الـأـشـجـعـينـ أـسـدـ اللـهـ الـغالـبـ عـلـيـ بنـ أـبـيـ طـالـبـ - رـضـيـ اللـهـ عـنـهـ -».

كـذـلـكـ يـذـكـرـ السـيـدـيـنـ الـحـسـنـ وـالـحـسـيـنـ - رـضـيـ اللـهـ تـعـالـىـ عـنـهـمـاـ - بـحـبـ وإـجـالـ إـكـبـارـ، وـيـعـدـ فيـ الـوـقـائـعـ الـهـاهـلـةـ الـعـظـيمـ بـعـدـ وـفـاةـ النـبـيـ ﷺـ شـهـادـةـ سـيـدـنـاـ عـثـمـانـ - رـضـيـ اللـهـ عـنـهـ - الـفـتـنـةـ الـأـوـلـىـ التـيـ وـقـعـتـ فـيـ إـسـلـامـ^(١)ـ، وـشـهـادـةـ بـضـعـةـ الرـسـولـ سـيـدـنـاـ الـحـسـيـنـ - رـضـيـ اللـهـ عـنـهـ - الـفـتـنـةـ الـثـانـيـةـ، وـأـورـدـ حـدـيـثـاـ مـنـ (مشـكـاةـ المصـابـيـحـ) بـرـوـايـةـ الـبـيـهـقـيـ، يـفـيـدـ أـنـ نـسـبـةـ سـيـدـنـاـ الـحـسـيـنـ - رـضـيـ اللـهـ عـنـهـ - إـلـىـ الرـسـولـ كـنـتـنـيـةـ مـضـغـةـ مـنـ الـلـحـمـ إـلـىـ الـجـسـمـ، وـأـنـ نـبـيـ اللـهـ ﷺـ قـدـ تـبـأـ باـشـهـادـ سـيـدـنـاـ الـحـسـيـنـ - رـضـيـ اللـهـ عـنـهـ - عـلـىـ أـيـديـ أـفـرـادـ مـنـ أـمـتـهـ^(٢)ـ.

وـقـدـ عـدـ مـنـ هـذـهـ الـفـتـنـ وـاقـعـةـ الـحـرـةـ الـعـظـيمـةـ، التـيـ اـنـتـهـكـتـ فـيـهـ حـرـمةـ الـمـدـيـنـةـ

(١) انظر (إزالـةـ الـخـفـاءـ): ١/١٥٤.

(٢) المرجـعـ السـابـقـ نفسهـ.

المتوررة في عهد يزيد، ووقع من القتل والنهب والسلب ما يندى له الجبين، وتعرّضت المدينة وأهلها للامتهان والذلة وانتهاك الحرمات^(١)، وقد انتقد الإمام الدهلوi بنـي أمـية في مواضعـ كثـيرة منـ الكـتاب^(٢)، وهـكـذا جاءـ الكتابـ مـيزـاناً عـادـلاً وـسطـاً، لا يـمـيل نـحو الإـفـراـط وـلا التـفـريـط، وـهـذـا هو شـعارـ أـهـلـ السـنةـ وـالـجـمـاعـةـ، وـمـوـقـفـهـمـ المـتـرـنـ الصـحـيـحـ.

الدلالة على الفتن والتغيرات الحادثة بعد وفاة النبي ﷺ:

إنّ من أكبر خصائص هذا الكتاب أنه تتجلى فيه صورة بارزة مجسدة لتاريخ الإسلام الديني، والتغيرات الدينية والعلقانية والفكـرـية التي طـرأـتـ عـلـيـهـ، إنـ كـتبـ التاريخـ العـلـمـيـ وـالـسـيـاسـيـ لـلـإـسـلـامـ كـثـيرـاً لـا تـحـصـىـ، ولـكـنـاـ لـا نـعـشـ عـلـىـ كـتـابـ يـشـيرـ إـلـىـ مـعـالـمـ التـغـيـرـاتـ الـخـلـقـيـةـ وـالـعـلـمـيـةـ وـالـعـقـلـيـةـ فـيـ أـلـثـاءـ تـسـلـسـلـ التـارـيـخـ الـمـدـنـيـ وـالـسـيـاسـيـ لـلـإـسـلـامـ (ـمـهـمـاـ كـانـتـ هـذـهـ التـغـيـرـاتـ الـحـادـثـةـ خـفـيـةـ قـلـيـلـةـ باـهـتـةـ اللـونـ لـاـ تـكـشـفـ إـلـاـ بـمـجـهـرـ الـمـعـرـفـةـ الـدـقـيـقـةـ لـلـطـبـيـعـةـ الـإـسـلـامـيـةـ)، وـكـلـ ماـ يـوـجـدـ فـيـ عـامـةـ الـكـتـبـ بـهـذـاـ الصـدـدـ لـاـ يـعـدـوـ مـادـةـ مـتـفـرـقـةـ مـنـتـشـرـةـ، وـلـمـ يـخـترـ أـحـدـ مـنـ الـمـؤـلـفـينـ هـذـاـ الـمـوـضـوعـ عـنـوانـاًـ لـبـحـثـهـ الـمـسـتـقـلـ، أـمـاـ الـإـمـامـ الـدـهـلـوـيـ، فـإـنـهـ يـذـكـرـ الـفـتـنـ الـحـادـثـةـ فـيـ الـقـرـونـ الـمـشـهـودـ لـهـاـ بـالـخـيـرـ، وـالـفـتـنـ الـتـيـ حـدـثـتـ بـعـدـهـ^(٣)، وـاـخـتـلـافـ الـأـحـكـامـ بـيـنـ خـيـرـ الـقـرـونـ وـشـرـ الـقـرـونـ^(٤)، وـالـتـغـيـرـاتـ الـفـكـرـيـةـ وـالـمـعـنـوـيـةـ الـتـيـ طـرأـتـ ضـمـنـ التـغـيـرـاتـ الـكـلـيـةـ، وـالـتـيـ وـقـعـتـ فـيـ عـهـدـ الرـسـالـةـ، وـبـعـدـ خـيـرـ الـقـرـونـ، وـقـدـ جـاءـتـ عـنـاوـينـ هـذـهـ الـمـبـاحـثـ كـمـاـ يـلـيـ:

ظهور الكذب، التعمّر والمغالاة فيما يتعلق بقراءة القرآن الكريم وتجويده، الاكتفاء بقراءة القرآن الكريم وتلاوته، وقلة التدبر والتفقه فيه، التعمير وشق الشعـرـةـ فـيـ الـمـسـائـلـ الـفـقـهـيـةـ، الـبـحـثـ وـالـجـدـالـ فـيـ الـمـسـائـلـ الـفـرـضـيـةـ الـتـيـ لـمـ تـقـعـ

(١) إـزـالـةـ الـخـفـاءـ: ١٥٤/١.

(٢) المرجـعـ السـابـقـ: ١/١٥٤-١٥٥.

(٣) المرجـعـ السـابـقـ: ١/١٢٢.

(٤) المرجـعـ السـابـقـ: ١/١٣٦.

أصلاً، تأويل متشابهات القرآن وإبعاد النجعة فيه، توليد الأسئلة الطريفة في العقائد والإلهيات، إحداث الأوراد والأحزاب بنية التقرب إلى الله تعالى التي لا توجد في السنة المأثورة، الالتزام بالمستحبات كالالتزام بالواجبات، انقراض الشورى الاجتماعية، ومراجعة العلماء الصالحين في الإفتاء، نشوء فرق جديدة كالقدريّة والمرجئة وغيرهما، رفع الثقة المتبادلة بين المسلمين، وعدم أمن بعضهم بعضاً، سيطرة أولئك على الدولة الذين لا يتأهلون لها أصلاً، أو هم من رجال الدرجة الثانية أو الثالثة، الكسل والتواني في إقامة أركان الإسلام^(١).

ظهور الكتاب ونشره:

طبع هذه الكتاب - لأول مرة - بإشارة من الشيخ جمال الدين خان وزير بوفال، وبعنابة الشيخ محمد أحسن الصديقي عام ١٢٨٦هـ بالمطبع الصديقي ببريللي، وكانت عنده ثلاثة نسخ من الكتاب، قام بالمقابلة بينها وتصحيحها؛ نسخة الشيخ جمال الدين ببوفال، ونسخة ثانية للشيخ أحمد حسن الأمروري، ونسخة ثالثة للشيخ نور الحسن، وهناك من القرائن ما يدل على أن المؤلف الإمام لم يعد النظر في الكتاب.

وصدرت الطبعة الثانية للكتاب من أكاديمية سهيل، لاهور، باكستان، عام ١٣٩٦هـ الموافق ١٩٧٦م، وهي صورة للطبعة الأولى^(٢)، ونقل الكتاب إلى العربية بعناية المجلس العلمي بدابهيل، ولكنه لم ينتشر في العالم العربي كما ينبغي، ونقل إمام أهل السنة الشيخ عبد الشكور الفاروقي اللكتنوي هذا الكتاب إلى الأردية، ولكن هذه الترجمة تنتهي إلى الفصل الخامس، وأسماؤها (كشف الغطاء عن السنة البيضاء) ويشتمل ما طبع منها على ٣٣٦ صفحة، وتم طبعها في عمدة المطبع بلكتنوا عام ١٣٢٩هـ.

* * *

(١) إزالة الخفاء: ١ / ١٣٣.

(٢) وكانت هذه الطبعة بين أيدينا عند كتابة هذا الباب، وقد أحلاها فيه إلى صفحاتها.

الفصل السادس

دور الإمام الذهبي في انتدابي

في عهده الفوضى السياسية واحتضار الدولة المغولية

ثلاث قوى مقاتلة ناشئة:

لقد تقدم في الباب الأول من الكتاب أنَّ الهند - في القرن الثاني عشر الهجري - كانت قد بلغت من الانحطاط السياسي والإداري والأخلاقي، وفساد النظام، وملوك الطوائف، والقلق والاضطراب، ما يصُحُّ أن يعبر عنه بحالة احتضار لأي مجتمع ونظام.

لقد أصبحت الدولة المغولية رمزاً للسلطة الطويلة القوية لأسرة مسلمة حاكمة، ولم تعد وراءها قوة مساندة، ولا إدارة حازمة، ولا همة عالية.

وكانت هناك عندئذ - في ظاهر الأمر - ثلاث قوى مقاتلة ناشئة تحكم لا في مصير الدولة المغولية فحسب، بل في مصير البلاد كلها، وهي كما يلي: المرهنة، المسيح، والمجت (الزط).

المرهنة:

لقد تحولت المرهنة - الذين كانت تتحصِّر نشاطاتهم وتحركاتهم في الجنوب (دكن)، وكان شأنهم شأن فريق المحتاجين المتظاهرين (Agitators) وشأن قوة حرب العصابات (Guerrilla) ضد الحكومة المنظمة الشرعية - بسبب ضعف الحكومة المركزية الذي يزداد كل يوم، ومنازعات القادة الطامحين الذين كانوا يجربون حظوظهم، وقصر نظر الأمراء والولاة - الذين كانوا يستجدون

بالمراهقة للحاق الهزيمة بأعدائهم ومناوئهم أو إخضاعهم - إلى قوة بارزة شاملة للهند كلها، وظلت تحلم بالسيطرة على عرض دهلي، وملاً ذلك الفراغ الذي أحدثه ضعف القوة العسكرية المغولية، وسوء إدارتهم وعدم جدارتهم.

وقد عزم (ملهار راؤ هولكر) و(ركوناتهراو) عام ١٧٧٠هـ الموافق ١٧٥٦م^(١) على السيطرة على شمال الهند، وحملوا بمعونة النزط على دهلي عام ١٧٧١هـ الموافق ١٧٥٧م واخضطوا نجيب الدولة إلى المصالحة، ثم توجها إلى بنجاب، التي كانت باباً لتلك المنطقة الحربية الخطيرة، التي لم يزل يدخل منها الفاتحون إلى الهند، ولم تكن قد خضعت من قبل لأيّ قوة غير إسلامية، واستوليا في نيسان - أبريل عام ١٧٥٨م على لاهور، وعينا (آدينه بيغ) من قبلهما حاكماً لبنجاب، ثم وليا - بعد وفاة آدينه بيغ - (سباجي سندھيا) حاكماً لبنجاب.

وقد دخل المراهقة بإشارة من صدر جنك (الوزير الشيعي) ومناصريه إلى (دوابه)^(٢) - التي كانت مركزاً لأولئك العلماء والمشايخ الذين كانت تتجمل بهم دهلي نفسها - ثم قرر (داتاجي سندھيا) عام ١٧٧١هـ - بعد مقدمه من دكنا أن يفتح الهند كلها، وتوجه أولاً إلى (روهيلكھنڈ) و(أودھ) عام ١٧٥٨م، وعبر نهر (جمنا) بهذه النية، وفي عام ١٧٧٢هـ الموافق ١٧٥٩م عندما كان النهر يمكن العبور منه، أمر (كوبيند رائي بنديله) بعبور النهر مع عشرين ألفاً من الجنود إلى (روهيلكھنڈ) الذي قام بعد نزوله من (رام كنکا) بالنهب والسلب في البلاد إلى مدينة (أمر وہ) - التي ليست على مسافة طويلة من دهلي - .

ودخل المراهقة في ٢٤ حزيران - يونيو عام ١٧٦٠م (الموافق ٩ ذي الحجة عام ١٧٧٣هـ) إلى دهلي عاصمة البلاد، واستسلم لهم يعقوب علي خان حارس القلعة، وفوض (بهاؤ) حراسة القلعة إلى (شنكر راؤ) الذي خلع السقف الفضي للديوان الخاص (البلاط الخاص للملك) وأرسل به إلى دار الضرب، وأخذ كل

(١) قبل وفاة الإمام الدهلوi بـ ٥ - ٦ سنين.

(٢) وهي المناطق الواقعة بين نهري كنکا وجمنا.

ما كان من أثاث الذهب والفضة في (قديم شريف)، ورباط الشيخ نظام الدين أولياء، وعزل (شاهجهان الثاني) في ١٠ تشرين الثاني - نوفمبر عام ١٧٦٠ م الموافق ٢٩ صفر عام ١٧٤ هـ، وأجلسَ (ميرزا جوان بخت) ابن الشاه عالم على العرش، وكان يريده أن يتربع على العرش التيموري، وكان ذلك بوسعي، إلا أن عقلاه جيشه أشاروا عليه بالكف عن هذه العزيمة، لأنها ثثيرٌ فتنٌ وفوضى في البلاد، ولا تتحمل الرعية جلوس أي قائد من قادة المرهنة على العرش التيموري - بيسر وسهولة -، وقد اتسعت حكومة المرهنة - حينئذ - ما لم تتسع من قبل ولا من بعد، فقد كانت حدودها الشمالية تصل إلى (أتك) وجبال همالايا، وفي الجنوب كانت تمتد هذه الحكومة إلى الطرف الأخير من شبه جزيرة دكن أي إلى حدود سواحل البحر، والمناطق التي كانت حرة مستقلة داخل هذه الحكومة، كانت تؤدي إليها الخراج، وقد كان لديها قادة عسكريون محنكون، كما كان عندها جيش إفرينجي مدرب، مكون من عشرة آلاف نسمة، وكان جيشه في حرب (باني بت) مكوناً من خمسين ألف من الفرسان، وخمسة عشر ألف من المشاة، وكان في [حوزتهم] مائتا مدفعية (عدا المدافع المحطمة للقلاع) وقد صحبهم وتعاون معهم جيش (الراجبوت) كذلك، وهكذا كان مجموع عدد الجيش الذي كان يقاتل تحت لواءهم وفي قيادتهم ثلاثة ألف مقاتل.

ولكن رغم كل ذلك، لم تكن طبيعة المرهنة طبيعة ملوكية تشعر بمسؤوليتها، وفي تعبير أحد المؤرخين الهنود: «القد كانوا أنصاف ملوك، وأنصاف قطاع الطرق»^(١) وقد كان فقدان الشرف منهم على الرعایا، والاهتمام بهم ومواساتهم والتقاليد الوراثية القديمة للحفاظ على الأنفس والأرواح والأموال والأعراض (التي كانت تحمي السلاطين والملوك الجبارية - إلى حد ما - رغم كبرياتهم وأنانيتهم وكانت تأخذ بزمامهم) وكذلك فقدان الخلافية التاريخية الرائعة (Back Grouhd)، والأهداف السياسية البناء الواضحة، وفوق كل ذلك عواطفهم الجامحة نحو إحياء الديانة الهندوسية وحضارتها (Hindu Revivalism) أحدثَ فيهم عنفاً

(١) تاريخ هندوستان (تاريخ الهند) للشيخ ذكاء الله الدهلوبي : ٣٠٤ / ٩.

وإرهاباً، وتسرعاً في الأحكام وقلة مسامحة ومراعاة، فكانت أموال النهب والسلب والحرص عليها والشغف بها من أدواتهم ومماضي ضعفهم القومية.

وقد تأثر المسلمون والهندوسيون جميعاً بفوضى المرهنة وغاراتهم، فكانت الغارات الوحشية على القرى، وأعمال النهب والسلب بقسوة وعنف، وقطع أيدي الناس وأرجلهم وأنوفهم أمراً عادياً، وكانت النساء -بغض النظر عن دينهن وجنسيتهم- تتعرضن لوحشيتهم، وزرواتهم الشهوانية، وكانوا يتتجاوزون في ذلك كلَّ الحدود، ويتظاهرون بأعمال وحشية بهيمية، وقد أبدى شاعر بنغال المعروف (كتكارام) مثل هذه الانطباعات، وهو يعلق على غاراتهم وحملاتهم على بنغال^(١).

وقد أبدى المؤلفون البرتغاليون حيرتهم وعجبهم على أفاعيل المرهنة التي يندى لها جبين الحياة^(٢)، وقد كان لسيطرة المرهنة وسلطتهم آثار اقتصادية سيئة على الناس، وحسب تصريح الشيخ (غلام علي آزاد البلاكمي) أنهم ينwoon - في حدود قدرتهم واستطاعتهم - أن يسدوا أبواب الرزق على الناس، ويعكموا قبضتهم على جميع وسائل المعيشة، وكان المرهنة يجبرون من تلك المناطق البعيدة النائية التي كانت تحت حكمهم وسلطاتهم ربع حاصلاتهم وغالباً^(٣).

ولم تقف غارات المرهنة عند الحدود العسكرية واستغلال الجماهير، بل لقد كانت مؤسسة على إحياء الديانة الهندوسية، وإقامة حضارتها من جديد، يقول (ماونت ستوارت الفنسن) حاكم ولاية (بمباي) في تاريخه للهند عن (شيواجي) القائد الأول لهذه الحركة:

«لقد اختبرت طبيعته وتربت على العصبية الهندوسية... ولأجل هذه الطبيعة المستحكمة فيه كان يكره المسلمين وتقاليدهم وطقوسهم كراهية شديدة،

(١) انظر للتفصيل: كتاب (Fall of the moghal empire p. 87) تأليف جادوناته سركار.

(٢) pissurlen: portuguese, ii, p. 49

(٣) كان أول من جبي ربع الحاصلات (شيواجي)، وكانوا يأخذون ذلك من الولايات الأخرى مقابل حمايتهم وعدم الغارة عليهم، على حين كانوا يأخذون من الفلاحين في مملكتهم ٤٪ من حاصلاتهم، وقد زاد ذلك أخيراً إلى ٦٪ من حاصلاتهم.

ويحبّ الهندوس، ويرغب في رسومهم وتقاليدهم رغبة شديدة، وكان هذا الموقف منه يزداد - كل يوم - شدة، وقد وافقت هذه الطبيعة فيه تدبير الشؤون الملكية، حتى تصور بصورة الرهبان والمشائخ الهنادك، وادعى كرامات الأولياء المؤلهين وأنصاف الآلهة المعبودين»^(١).

لقد حاول المرهطة قبل المعركة الخامسة في ساحة (بني بت) واستشعاراً منهم لدقّة الأوضاع وخطورتها عن طريق النواب شجاع الدولة (الذي كان يحمل في قلبه شيئاً من التعاطف مع المرهطة قبل ذلك) أن توقع الهدنة مع الشاه الأبدالي، وما ردد به شجاع الدولة عليهم - بناءً على هذه التجارب المتواصلة والحقائق المرة - يلقي ضوءاً كافياً على طبيعة المرهطة القومية، وتأثير فتوحهم وانتصارتهم ونتائجها، لقد كان رد النواب شجاع الدولة أن قال:

«إنَّ براهمة الدكن يسيطرُون على الهند منذ مدة طويلة، وقد نزلت على رؤوسهم - بسبب شدة حرصهم وطمعهم وغدرهم ونكثهم للعهود - هذه البلاية من الشاه الدراني، فكيف يصالح هؤلاء الذين لا يرعن إلاّ ولا ذمة، ولا يحافظون على عرض ولا عافية، ويرون أنَّ جميع الأشياء ملك لهم ولقومهم، وقد قلق الناس وضجروا مما لقوا منهم، حتى أحوالاً - لحفظ أعراضهم ومكانتهم ورفاهية الخلق وأمنهم - على الشاه الأبدالي، ودعوه من بلاده، ورأوا حملاته ونكباته أهون عليهم وأسهل من إيداعات المرهطة ونكباتهم»^(٢).

وأخيراً لقيت المرهطة هزيمةً نكراء بتاريخ ١٤ كانون الثاني - يناير عام ١٧٦١ الموافق ٦ جمادى الآخرة ١١٧٤هـ في ساحة (بني بت) على أيدي القوة الموحدة لجيوش أحمد شاه الأبدالي الأفغانية، وجنود النواب نجيب الدولة الروهيلية، وجيش النواب شجاع الدولة، وكما يقول أحد المؤرخين: «لقد طارت قوة المرهطة في لمح البصر كالكافور».

(١) انظر: تاريخ هند، ص ١٠٤ (طبع عام ١٨٦٧م عليكته).

(٢) تاريخ هندوستان (تاريخ الهند): ٩/٣٥٥.

وسوف تأتي التفاصيل الأخرى لهذه الحرب الخامسة وعوامل مقدم أحمد شاه الأبدالي وخليفة، والتي غيرت مجرى التاريخ، في صدد ذكر مآثر الإمام الدهلوi القيادية في الصفحات التالية.

السيخ:

لقد كانت السيخ فرقة دينية في بنجاب، وضع أساسها في القرن الخامس عشر المسيحي على أيدي (كرويابانانك) (١٤٦٩ - ١٥٣٩م) الذي يقوم بنشر تعاليمه الخلقية، ويبحث على الصدق وتهذيب النفس، وكان قد قرأ - حسب تصريح (سير المتأخرین) - اللغة الفارسية والمبادئ الدينية على الشيخ السيد حسن، وكانت له به عنایة خاصة^(١)، وقد قام القائد الثالث للشيخ (أمر داس) بالخطوة الأولى في صد التنظيم الديني والاجتماعي للشيخ، وزاره الملك (أكبر) في بيته، وأقطعه أرضاً واسعةً كبيرة، وقد حافظ هو على روح تعاليم (كرويابانانك) الخلقية، وعارضَ أوهام الهنادك وخرافاتهم، ولا سيما تقليدهم المعروف بـ(ستي) وهو انتشار الزوجة بعد موت الزوج، وأصدر أوامره بزواج الأيامى، وأقطعه الملك (أكبر) عام ١٥٧٧م أراضٍ واسعةً، وفي عهده قام مركزهم الديني في (أمر تسر)، وهكذا تكونَ مركز روحي ديني لحياة السيخ الاجتماعية.

وخلف (كروارجن) والده عام ١٥١٨م، وقد بذل مزيداً من الجهد والمحاولات لتنظيم السيخ كفرقة مستقلة، ودون (كرنته) - الكتاب المقدس لديهم - ولقب (كروارجن) نفسه بالملك الصادق، الذي يشير إلى حرصه على السلطة السياسية، وقد اعتقل (كروارجن) بأمر الملك (جهانكير) بلاهور، لأنَّه

(١) تفيد بعض الروايات التاريخية أن (كرويابانانك) جالسَ عدداً من الدراويش والصوفية المسلمين، وصحبهم مدة من الزمن، نخص بالذكر منهم: بير جلال، وميان منها، والشيخ شرف الدين، والشيخ فريد الثاني، والشيخ إبراهيم، كما تفيد بعض الروايات الأخرى أن بابانانك زار بغداد والحرمين الشريفين، وكانت له صلة خاصة بـ(بات بتن) مدفن الشيخ الكبير فريد الدين الأجوهري.

كان قد تعاون مع ابنه الأمير (خسرو) الذي كان خرج عليه، وأهدى إليه الأموال، وقتل في الحبس^(١)، واحتار خلفه (هركرونن) طريق الدفاع والمقاومة العملية.

ويذلك بدأت حياة السيخ العسكرية، ولم يلبث أن تبوأ المنصب الملوكى، وقد كان يحمل عواطف العداء والكراءة ضد الملك (جهانكير) ويلقى عليه تبعة قتل والده، وقد بني قلعة حصينة في (هركروننبور) وكانوا يغيرون على المناطق السهلية، وحمسه (جهانكير) في قلعة (كواليار) ثم أطلق سراحه بعد مدة قليلة، وأكرمه وأبدى له حفاوة بالغة، وخرج فور جلوس السلطان (شاه جهان) على العرش على الدولة، وقام بالثورة عليناً وجهاً، ولجاً أخيراً إلى الجبال، ومات هناك عام ١٦٤٥ م.

واختير (تیغ بهادر) بن (هركرونن) قائدأ عام ١٦٦٤ م في عهد (أورنك زيب) الذي أعطى حق اللجوء للفارين والخارجين على قانون البلاد، وقد حالت سلطة هؤلاء دون رقي البلاد^(٢)، فزحفت إليها الفرق العسكرية الملكية، واعتقلته وجاءت به إلى دلهي، حيث حكم عليه بأمر الملك أورنك زيب بالإعدام عام ١٦٧٥ م^(٣).

وعينَ بعد قتله ابنه (كروند رائي) قائداً، وهو الذي حول فرقة السيخ - التي كانت في البداية جماعة دينية محضة - إلى شعب مسلح مقاتل، وأثار فيهم عواطف المساواة وعمل - جهده - على تنظيمهم في صورة شعب مستقل، ولم يزل على قيد الحياة إلى وفاة الملك (أورنك زيب)، وحاول خلف (أورنك زيب) الملك (بهادر شاه) أن يتقاهم مع (كروند رائي) ويصالحه، وولاه قيادة الجيش بدق肯،

(١) وقد ثبت تاريخياً أن الذي أشار على (جهانكير) بقتله هو أحد الأمراء الهنادك (جندو لال) الذي كان يتمتع بتفوّذ على الإمبراطور، وذلك لغرض شخصي.

(٢) انظر : 1918. p.64. a history of the sikhs guard. j.d.cunninghaum. مؤلفه :

(٣) ليست تبعة قتل القائد تیغ بهادر على السلطان أورنك زيب وحده، بل فيه يد لمخالفيه ومعارضيه الهنادك أيضاً. (انظر: نهيلك سنك سنديس ٢٥ كانون الأول - ديسمبر عام ١٩٥١ م).

ولكته مات على يدي موظف أفغاني بجرح لم يبرا منه في تشرين الأول - أكتوبر عام ١٧٠٨م ولم يرشع بعده أي واحد لخلافته، وأوصى أتباعه أن يعتقدوا (كرنته) - الكتاب المقدس لديهم - قائدتهم، ويعتبروا الله تعالى وحده نصيرهم وحارسهم.

وخلف (هركوند) (بنده بيراكي) الذي كان في الحقيقة قائدًا عسكريًا للسيخ، وكان هو أصلًا من الراجبوت الكشمیريين، وقد اعتنق ديانة المسيح، فبدأ في بنجاح عمليات النهب والسلب وقطع الطريق على نطاق واسع.

وكانت الدولة المغولية بعد وفاة الملك (أورنك زيب) تسير - بسرعة - نحو السقوط والانهيار، ونشبت حروب متواصلة بين أبناءه وأحفاده على عرش البلاد، أتاحت الفرصة للسيخ أن يضاعفوا قوتهم - علناً - فكان (بنده بيراكي) يُعمل السيف في الألوف من المسلمين، ويقتلهم بقسوة ووحشية، ويدخل القرى وينهبها حتى وصل إلى قرب دلهي، وأغار في أيار - مايو عام ١٧١٠م على (سرهند) وفتح أبوابها للقتل والنهب والسلب، وعامل سكان القرية - من دون تمييز بين صغير وكبير، وقوى وضعيف - بظلم فظيع، وقسوة رهيبة.

وتوجه (بهادر شاه) إلى بنجاح، وهزمت الجيوش السلطانية (بنده بيراكي) ولكنها لجأ إلى الجبال، ثم قام مستغلًا الفوضى السياسية والحروب الأهلية بين الأسرة الملكية بعد جلوس (فرخ سير) على عرش البلاد بالعنف والإرهاب مرة ثانية، وأخيراً جاء به إلى دلهي عام ١٧١٦م وقتل هناك، ولم تكن له شخصية محترمة محية لدى المسيح أنفسهم، وقد أحدث تغييرات طفيفة في عقائد الديانة السيخية وعباداتها وأصبح المسيح تحت قيادته قوة عسكرية.

واستمر الحكم المغولي (معين الملك) ببنجاح (الذي يعرف بمير منو) في عهد الملك (فرخ سير) على سياسته التعزيرية، ولكن سقوط الدولة المغولية كان يسير بخطى حثيثة، وكانت قد ضعفت حكومة بنجاح وتضعضعت نتيجة حملات أحمد شاه الأبدالي المتكررة، وسنحت الفرصة مرة ثانية لقيام المسيح وهو ضدهم، ولم ينجحوا - هذه المرة - في إخراج ابن أحمد شاه الأبدالي الأمير (تيمور) الذي كان والي بنجاح حينئذ - والذي هدم (هرمندر) - أقدس معابدهم - وملا البركة

المقدسة لديهم بالأنقاض والركام - فحسب، بل استولوا كذلك - مؤقتاً - على (لاهور) وضُرِبَت باسم قائد़هم (جسا سنغ كلال) العمدة، إلا أنهم اضطروا للخروج من لاهور بمقدِّم المرهنة إليها عام ١٧٥٨ م تحت قيادة (ركهوبيا).

وتوجهَ أحمد شاه الأبدالي إلى بنجاب للمرة الخامسة، وبعد حرب (بابي بت) التي قصمت ظهر المرهنة، وفور ما غادر بنجاب إذا بالشيخ عادوا للثورة والخروج، واستعادوا مملكتهم المفقودة، وعادَ أحمد شاه، وهزم الشيخ في (لديهانة) عام ١٧٦٢ م هزيمةً نكراء، ولكنَّ الشيخ بعد مغادرته عام ١٧٦٣ م أغروا على (سرهند) ودمروها وخربوها، واستولوا على (لاهور) مرة أخرى، وأعلنوا قيام حكومة (خالصة) ثم تفرقَ الشيخ بعد ذلك في مختلف الولايات، وانقسموا إلى مختلف الفرق التي كانت تدعى (مسلمين) ولم يكن هناك حاكم أعلى يحكمهم، ولم يبق لديهم أمر مشترك إلا دينهم.

وبعد ثلاثين عاماً من هذه الأوضاع المضطربة علا في بنجاب نجم (رنجيت سنغ) الذي نظم هذه الفرق المختلفة في صورة مستقلة ووحَد صفوفهم.

لقد كان هدف ديانة الشيخ تصحيح العقائد الدينية في الهند، وما من شك في أن (بابانانك) كان متأثراً بالتعاليم الإسلامية، ولذلك فإنَّ عقيدته في التوحيد، ومساواته بين الناس، واجتنابه عبادة الأصنام والأوثان وغيرها، كل ذلك من آثار الإسلام ونتائجِ^(١).

وقد أثرت اللغة الفارسية على لغة الأدب الديني عند الشيخ تأثيراً بالغاً، لاسيما (ادي كرنته) - من الكتب المقدسة لديهم - يتجلّ فيه تأثير الألفاظ الفارسية والإسلامية، والمصطلحات الدينية والصوفية إلى حد كبير^(٢).

وقد كانت هناك من القرائن ما يتوقع بها أن تقوم هذه الحركة الإصلاحية -

(١) انظر: جب جي؛ و macauliffe: ٢/٣٤٧.

(٢) اقتبسنا الجزء الأساسي من هذه المعلومات والمادة التاريخية من (دائرة المعارف الإسلامية) (الأردية)، ج ١١، من مقال (الشيخ) بقلم البروفسور محمد إقبال.

إذا كانت متمسكة بأصولها، ولم تذب في الديانة الهندوسية وحضارتها - بخدمة ثورية كبيرة، وظلت السيخ فرقة مستقلة متميزة عن الهنادك، تقوم على أساس التوحيد للرب والمساواة بين الناس، وكانت بذلك فرقاً قريبة إلى المسلمين، ولكن صدامها مع الحكومات المعاصرة، ودوره الفعل ورد الفعل السياسي التي فقدت القلب والضمير، والتي تحقق مصالح الجماعات ومقتضيات العصر، بعض النظر عن التائج الدينية والخلقية، أورثت السيخ البغض والإكراء لا للحكومات المسلمة فحسب، بل لعامة المسلمين، ووقفتهم موقف الحرب والنضال ضد المسلمين، وحوّلتهم - بصفة خاصة - في أواسط القرن الثاني عشر الهجري والقرن الثامن عشر المسيحي إلى قوة إرهابية مخيفة مزيلة لسكان المدن الكبيرة الآمنة، وزيادة خطيرة في القوى الهدامة المثيرة للأضطرابات في الهند، وقد تعرضت المساجد والمقابر في عهد حكوماتهم - بصفة عامة - وفي عهد مهاراجه (رنجيست سنغ) - بصفة خاصة -^(١) لانتهاك حرماتها، ودوس كراماتها ووضعت عراقيل في سبيل أداء العبادات، ونشأ ذلك الوضع الحالك الذي عبر عنه الدكتور محمد إقبال في بيت من شعره، يقول فيه:

«لقد ذهب (خالصة) بالسيف والقرآن، وقضت على المسلمين والإسلام
في دولتها وسلطانها».

وقد رفع ضد الوضع المكفر في منتصف القرن الثالث عشر الهجري - تقريباً - وفي الثلث الأول من القرن التاسع عشر المسيحي - الإمام أحمد بن عرفان الشهيد (استشهد ١٢٤٦ هـ الموافق ١٨٣٠ م) والشيخ إسماعيل الشهيد (استشهد ١٢٤٦ هـ - ١٨٣٠ م) اللذين كانا خريجي مدرسة الإمام الدھلوی، وتربئاً على يدي ابنه الأكبر الشيخ عبد العزیز الدھلوی - رفعاً لواء الجهاد ضد حکومة (رنجيست سنغ) العسكرية، وبدأ بذلك مخططهما الواسع العميق ومهماً العظيمة التي قامت لتحرير الهند من السلطة الخارجية المستعمرة، وتأسيس الحكومة الشرعية،

(١) انظر للتفصيل: الباب ١٧ من: (سيرة السيد أحمد الشهيد) (الأردية) للمؤلف بعنوان (وضع المسلمين في بنجاب)، ص ٤١٣ - ٤١٩.

وإصلاح المجتمع المسلم، وإحياء الدين وإظهاره^(١).

الجَتْ (الرُّزْطُ):

لم تكن الجَتْ فرقة منظمة كالمرهنة، ولا فرقة دينية كالسيخ، بل إنَّ ضيغف الدولة المغولية والفوقي السياسي والشعور بعدم حماية عامة السكان، أنشأ فيهم تنظيمًا يقوم على أساس العنف والسلبية، وأصبحوا قوة هدامية مثيرة للفتن والاضطرابات، لم تكن تهدف إلى إقامة مملكة أو ثورة سياسية، بل إلى مجرد استغلال للأوضاع المنحرفة وتحقيق للأغراض الاقتصادية.

يقول البروفيسور خليلق أحمد نظامي في كتابه (الرسائل السياسية للإمام الدهلوi):

«لقد كان الجَتْ يسكنون المنطقة الجنوبيَّة لجمتنا من آكره إلى دهلي، وكانت حدودهم في الشرق إلى (جبل) وقد بلغت ثوراتهم في هذه المنطقة أنْ ضاقت بهم الحكومة المركزية ذرعاً، وحسب ما يقول (سركار): لم يكن هناك مجال لقبول هذه الشوكة الشائكة في شوارع دهلي وآكره^(٢)، وكانت المواصلات بين دهلي وآكره تسير بحِيطَة باللغة وحدَرَ كبير، وكانت الجيوش التي تقصد الدكَن عن طريق أجمير، تمر بهذه المنطقة.

ولما مرَّ الممثلون الهولنديون بهذه المنطقة عام ١٧١٢ م شاهدوا هذه الأضطرابات والثورات^(٣).

وقد مرَّ جون سرمن (John Surman) عام ١٧١٥ م بهذه المنطقة، وسجل في مذكرة أعمال الجَتْ المهددة للأمن والسلام^(٤).

(١) انظر: (سيرة السيد أحمد الشهيد) (الأردية)، ج ١ - ٢.

(٢) هما مدیستان رئیستان تبادلنا کون العاصمه في أدوار مختلفه. (fall,vol i p.369).

(٣) (Later Mughals, I, p321).

(٤) (Collection, p. 1694 Orme)

وقد قام الجت في عهد (شاه جهان) بثورة عارمة، وقتل عام ١٦٤٧ هـ الموافق ١٦٣٧ م (مرشد قلي خان) قائد الجيش بمتهرأ على أيديهم في حرب معهم.

يقول سرجاد وناهيرس كار في كتابه (تاريخ أورنوك زيب) ٢٩٦ / ٥ :

«لقد استغلَّ غياب أورنوك زيب من شمال الهند قائدان جديدان من الجت (راجه رام) و(رام جهره)، ولم يستطع حاكم آكره (خافي خان) أن يضع حداً لتحركات راجه رام ضد القانون، وقد سد الجت الطرق، ونهبوا كثيراً من المناطق، وتوجهوا إلى (سكندرة) لنهب مقبرة الملك (أكبر)، ولكن المير أبي الفضل الذي كان قائداً العسكري بها قاتلهم بشجاعة، ولم يدع الثوار ليتقىموا أمامهم، ونهب (راجه رام) متاع الضابط التركي المعروف أصغر خان... . وقتل أصغر خان في هذه الحرب مع الجت»^(١).

ويقول هرجون داس مؤلف (جهاز كلزار) : «إنَّ الجت لما بدؤوا ينهبون دهلي خرج سكان دهلي - خائفين فزعين - من بيوتهم، فكانوا يهيمون على وجوههم، ويتبعون في الأزقة والسكك، كسفينة محطمة تكون تحت رحمة الأمواج الطاغية، وكان يُرى كل شخص كالمحجون يعدو فرعاً مضطرباً (النسخة المخطوطة ص ٤١٠)»^(٢).

ويقول الشيخ ذكاء الله في ذكر وقائع عام ١٧٦٥ م :

«كان الجت متسلطيين على قلعة (آكره) وكانت لهم جولة وصولة على بعد (١٠٠) ميل من دهلي، وقد طرد (راجه سورمل) الذي كان ذكياً فطناً بارعاً في المنازلة، ماهراً في القيادة والحكم - قائد المرهنة من آكره، واستولى على میوات، وبين أربع قلاع حصينة قوية، وبدأ يطلب من حكومة دهلي تلك الطلبات، التي لا تبقى على اسم الدولة إطلاقاً، وقد هزم نجيب الدولة بحسن تدبيره وحيلته

(١) انظر : الرسائل السياسية للإمام الدهلوi ، تأليف البروفيسور خليلق أحمد نظامي ، ص ١٧٥

(٢) الرسائل السياسية للإمام الدهلوi ، ص ١٧٧ .

وبمساعدة من البلوشيين الجت، وقتل (راجه سورمل) في مناضلته لنجيب الدولة.

ثم نجمت في ولاية الجت نزاعات، وقتل اثنان من أبناء (سورج مل) وخلفها ابن الثالث (رنجييت سنغ) وقد بلغ الجت في عهده أوج التقدم والازدهار، والمنطقة التي كانوا يحكمونها تقع في شمال غربها (الور)، وفي جنوب غربها (أكره)، وكان دخل هذه الدولة عشرين مليون روبيه، وكان لديهم جيش مكون من ستين ألف جندي^(١).

الوضع في دهلي:

لقد أصبحت دهلي نتيجة حملات المرهنة والسيخ والجت المتابعة عليها - والتي ظلت عادة يومية، وحرمانها من أي نوع من القوة والصلاحية للصيانة والدفاع - شجرة مثمرة سائبة، تحمل عليها الحشود الوحشية من الطيور الكاسرة، وتجردها من الشمار والأوراق، وأصبح سكان دهلي - الذين كان ينظر إليهم نظرة تقدير واحترام في كل مكان، بل كانوا يعتبرون النموذج والمثل الكامل في العلم واللغة والحضارة، وفي العادات والأخلاق، وكرم المحتد، وطيب الأصل - لقمة سائغة للمغيرين الزاحفين.

ويقدر من رسائل علماء هذا العصر ومشايخه - الذين كان شعارهم الانقطاع والتبتل إلى الله تعالى ، والرضا بما تجري به المقادير - التي كتبوا إلى أصحابهم وأحبابهم ، ما كان يسود هناك من قلة الأمان والفوضى والقلق .

ونكتفي هنا بإيراد بعض مقتطفات من رسائل أحد المعاصرين المعروفين للإمام الذهلي ، وهو الشيخ الجليل في السلسلة النقشبندية المجددية الشيخ ميرزا مظہر جان جانان (١١١١-٥٩١١هـ) يقول في إحدى رسائله :

«لقد ضاقت ذرعاً بالاضطرابات اليومية والقلق الزائد في دهلي»^(٢).

(١) مقتبس من (تاريخ هندوستان) ، للشيخ ذكاء الله الذهلي ، باختصار ، انظر : ٣٦٦ / ٩ . ٣١٨ .

(٢) (كلمات طيبات) ، الرسالة رقم : ٤٠ .

ويقول في رسالة أخرى:

«تؤم الفتنة من كل حدب وصوب مدينة دهلي»^(١).

ويقول في رسالة أخرى، وهو يذكر قلة الأمن والفوضى في العاصمة، وقلق سكانها واضطراهم:

«إلى من نكتب حال اضطراب السكان في المدينة بسبب قلة الأمن والأوبيه العامة؟ اللهم أخرجنا من هذه المدينة التي أصبحت محيطاً لغضب الله - تعالى - وسخطه، فقد أصبحت المملكة فوضى بغير نظام، اللهم فضلوك ورحمتك»^(٢).

حملة نادر شاه:

عاد الإمام الدهلوي من الحجاز إلى دهلي عام ١١٤٥هـ ولم تمض على ذلك إلا خمس سنوات حتى وقعت في عام ١١٥١هـ الموافق ١٧٤٨م تلك الحملة النادرة، التي ضعفت ما بقي من كيان الدولة المغولية، وخربت دهلي، ومزقتها شر ممزق، وقد أثرت هذه الحملة في عقول الغيارات من سكان دهلي، والأسر والبيوتات الكريمة، وصدمت قلوبها صدمة عنيفة حتى بغضت إليهم الحياة، وسادهم الخجل والحياء إلى حد أنهم كانوا كأنهم يعدون العدة لقتلهم وانتخارهم، وقد ذكر الشيخ عبد العزيز الدهلوي أنه بمناسبة هذه المقتلة الرهيبة العامة، وضياع الأموال والأعراض، كان أشراف دهلي قد قرروا، وعزموا على تنفيذ تقليد (جوهر)^(٣) على طريقة (الراجبوت) القدماء، فذكّرهم الوالد الكريم (الإمام الدهلوي) بمحادث كربلاء، ومصاب سيدنا الحسين - رضي الله عنه -، ومنعهم من هذا القرار للانتحار، فاختاروا طريق الصبر والرضا بالقضاء رغم هذه المحن والبلايا التي تتشعر منها الجلود وتشيب منها الولدان، ولا يتصور أشد منها وأفتك، وكفوا عن إرادة الانتحار وقتل أنفسهم.

(١) (كلمات طيبات)، الرسالة رقم: ٥٤.

(٢) المرجع السابق، الرسالة رقم: ٨٦.

(٣) كان أشراف راجبوت عند ما يحاط بهم من كل جانب، ولا تبقى أي إمكانية لحياة الشرف يقدمون على قتل أهليهم وعيالهم، ثم يقذفون بأنفسهم في النار ويحرقون.

الانقطاع إلى التدريس والتأليف في أثناء الأوضاع المضطربة والظروف المضادة:

وفي أثناء هذه الحملات والغارات من قبل المرهبة والسيخ والجت، ونادر شاه، وهذه القلاقل والمحن والمأساة المذهلة التي كانت تجعل عالي دهلي سافلها وتدميرها تدميراً، والتي اضطر فيها الإمام الدهلوi بعض الأحيان إلى الانتقال من بيت إلى بيت آخر.

ويُستفاد من (القول الجلي) أنَّ الإمام الدهلوi انتقل أيام الفتنة الدرانية عام ١١٧٣ هـ (على دعوة وإلحاح من أصحابه وخدمه) من وطنه مع أهله وذويه إلى قرية (بدهانة)، ولما حل شهر رمضان اعتكف على عادته القديمة أربعين يوماً^(١).

لقد كان الإمام الدهلوi أثناء كل ذلك منصراً بكليته وعناته التامة إلى التدريس والتأليف، والدعوة إلى الله، وتركية النفوس، و التربية المسترشدين، بجمعية قلب وطمأنينة، حتى كأنما تسود هناك، ليس في دهلي فحسب، بل في البلاد كلها، الأوضاع الآمنة المترنة، والظروف الهدئة المطمئنة، وأنه منقطع - كلياً - في زاوية العافية والطمأنينة إلى البحث العلمي والقيادة الفكرية والتربية الخلقية، وإحياء الملة الإسلامية، وقد أشار العلامة السيد سليمان الندوi إلى هذه الحقيقة - في بلاغة وروعة وجمال - يقول:

«لقد كانت قلة قليلة من المؤلفين ممن لا تشيع في مؤلفاتهم روح عصرهم، أو لا تتجلّى فيها مسحة عهدهم وبيلادهم، أو يأتي فيها ذكر نكران أهل عصرهم وعدم تقديرهم للعلم، واضطراب أوضاعهم على الأقل، ولكن مؤلفات الإمام الدهلوi طلقة من قيود الزمان والمكان، بريئة من الشكوى واللام، وقصص الهجران والنكران، فلا يجدون منها أنها ألفت في عصر كان الأمن والطمأنينة قد انفتحت فيه من صفة هذه البلاد كالخطأ الذي يزال، وكانت البلاد كلها تعاني من

(١) القول الجلي (المخطوط).

ملوك الطوائف ، والحروب الداخلية والفوضى السياسية ، وكلّ نوع من أنواع الشر والفساد .

وكان قد قضى على المركز السياسي في دهلي ، وكان كل من يحمل السيف يحمل بالملك والسلطان ، فالسيخ في جانب ، والمرهنة في جانب آخر ، والجت في جانب ثالث ، والروهيلة في الجانب الرابع ، كل هؤلاء كانوا يعيشون في البلاد تخريراً وفساداً ، وكان أمثال نادر شاه ، وأحمد شاه من القادة الطامحين المتحمسين وقوفاً على باب خير ، كلّما أرادوا أو غلوا في البلاد كالعاصفة العاتية ، وخرجوا كالسيل العرم ، فكم من مرة في أثناء ذلك خربت دهلي ودمّرت ، ونهبت ، ثم أعيدت وبنيت .

ولكن عجباً لطمانينة سلطان العلم والفضل في دهلي وهدوئه ، فكان يشاهد كل ذلك برأي العين ، ولكن لا سيل للقلق والاضطراب إلى قلبه ، ولا للشعش الببلة إلى فكره ، ولا للحزن والجفاف إلى قلمه ، ولا شكوى على اللسان ، ولا إبداء أي قلق وضجر بالقلم ، فكأنما يخيّل إليك أنّ سماء العلو التي كان يتمكّن منها ، أو سمو الصبر والرضا الذي ارتفع إليه ، لا تصل إليه عواصف الأرض الهوجاء ، ولا تعمل فيه تقلبات الزمان والمكان ، وبهذا يعلم كم تكون منزلة أهل العلم من العلو والارتفاع ، ومنصب أهل الرضا والتسليم بالقضاء من السمو والارتفاع «**أَلَا يُنْكِرِ اللَّهُ تَعَالَى مَنْ تَقْبَلَ مِنَ الْقُلُوبُ**» [الرعد: ٢٨] .

إنّ الخدمة الصالحة للعلم الصحيح صورة أخرى لذكر الله تعالى ، فلو كان يورث القلب الطمانينة ويملاً الروح بالسکينة فلا عجب ولا استغراب ، اقرأ آلاًف من صفحات مؤلفات الإمام الدهلوi لا تشعر فيها بأنها كتبت في عهد القرن العاشر المليء بالفتنة ، الذي كان كله شيء فيه عرضة للاضطراب وفقدان الأمان والسلام ، بل سوف ترى بحراً من العلم والفضل يجري في هدوء وسکينة ، دون ضوخاء ولجمب ، بريئاً من وصمات ألواث الزمان والمكان^(١) .

(١) انظر: مجلة (الفرقان) ، العدد الخاص بالإمام الدهلوi ، ص ٣٤٨ - ٣٤٩ .

الدور القيادي للمجاهد في عهد الفوضى السياسية واحتضار الدولة المغولية:

لم يكن الإمام الذهلي خلال العجاج المتراكם من هذه الحوادث والأزمات؛ بل في أمطارها الغزيرة الهاطلة جالساً تحت السماء، منصراً إلى البحث والتأليف، والتدريس والتصنيف، بحيث لا تقلّب نفحات الرياح العاتية أيّ ورقة من كتابه، ولا تمحو قطرةً من قطرات هذا المطر الغزير أيّ حرف من حروفه فحسب، بل كان يعمل -في جد ونشاط وحزم وجهاد- لتغيير هذه الأوضاع واستعادة السلطة الإسلامية في هذه البلاد، وإقامة مملكة قوية موطدة الأركان تشعر بمسؤوليتها، وتعترف بالواقع، وتنفذ الأحكام الشرعية، وتحافظ على أعراض الناس وأموالهم وأنفسهم، وتقتضي على القوى الهدامة التي تعيث في الأرض فساداً، وتنشر الخير والرخاء، فقد كان يقوم في هذا الصدد بالدور القيادي الذي يمكن أن يقوم به أكبر سياسي بصير لا يماثل إلى التأليف والتصنيف والبحث والتدريس بأيّ صلة.

وإذا كنا نجد له مثيلاً في حياة الدعاة والمجددين، والباحثين المحققين، والمؤلفين والمصنفين، ففي حياة شيخ الإسلام ابن تيمية الحراني، الذي دعا مسلمي الشام عام ٧٠٠هـ للوقوف صفاً واحداً ضد التتار الوحش، وثبتَ أقدامهم المتزللة، ولما ألغى السلطان محمد بن قلاوون بعد مقدمه إلى الشام عزيمته على قتال التتار، وأحدثَ ذلك الفوضى والاضطراب في أهل الشام، غادر شيخ الإسلام نفسه إلى مصر، وحرّضَ السلطان على حماية الشام ومقاومة التتار، وشارك السلطان في الجهاد، فكانت النتيجة أن انهزم التتار هزيمةً ساحقةً قلَّ أن تجد لها مثيلاً في التاريخ^(١).

وقد استخدم الإمام الذهلي أيضاً مع أشغاله العلمية؛ وجهوده الإصلاحية

(١) انظر للتفصيل: رجال الفكر والدعوة في الإسلام، الحافظ أحمد ابن تيمية: ٦٨-٦٧/٢

التتجديدية؛ حكمته السياسية، وذكاءه البالغ، وعلو نظره، بحيث لو كان في المغول بقية من صلاحية، وفي أمراء الدولة وأعيانها [بقية] من علو همة وحنكة سياسية، ل كانت الهند في مأمن من الطامحين المفسدين من الأهللين القصيري النظر، ولم تطأها أقدام الإنكليز، ولا استحکمت فيها سلطتهم، ولما وجدت الهند في أواسط القرن التاسع عشر مهلهلة ضعيفة، والميدان فارغاً خالياً، فنشبت أظافرها، وأرست قواعدها، ولم تضمنها إلى المملكة البريطانية فحسب، بل استغلت قواها وسائلها الثرية الوفيرة التي أثرت على سياسة العالم كله، وأحکمت بذلك سلطتها على البلاد العربية والإسلامية.

ونظراً إلى استقامة الإمام الدهلوi، وحمية خاطره، وعلو همته، وبعد نظره، ومضاء عزيمته، وبإزار ذلك الجو الخائق في البلاد، والقلائل والفساد - الذي لا مجال فيه لأي جهد عميق متواصل جاد، ولارجاء فيه لانقلاب الأحوال وتغيير الأوضاع - يبدو هذا البيت من شعر الدكتور محمد إقبال صورةً صادقةً لحقيقة الحال، يقول فيه ما معناه:

«رغم العواصف الهوجاء يُشعل ذلك الرجلُ البطلُ الذي وهبه الله - تعالى -
عزّة الملوك وإباءَ السلاطين ، سراجَه المثير» .

شهر الإمام الدهلوi وثورته:

لقد كان الإمام الدهلوi - الذي شاهد في إيان شعوره وسنّه المبكرة آثار حکومة السلطان (أورنث زيب) العظيمة، وشوكتها وازدهارها، وسمع القصص والحكايات عن العهود السابقة - التي كان نجم المملكة المغولية فيها لاماً عالياً، وكانت لها مهابة وجلال، والذي صدر من قلمه في كتابه (إزاله الخفاء في ذكر مآثر الخلفاء الراشدين والأثار الزاهرة في العهود الذهبية لتأريخ الإسلام، وواجبات الحكومة الإسلامية ومسؤولياتها، فيما تستحق به نصرة الله تعالى وتائيده) لم ترأى بأم عينيه في عهد سقوط الدولة المغولية، وعهد الملك (فترخ سير) والملك (محمد شاه) هذه الفوضى، وملوك الطوائف، وسوء الإدارة والنظام، وفقدان الأمن في الطرق، وتعريض الأنفس والأعراض والأموال من دون تمييز بين دين ودين،

وشعب وآخر، للانهاك والضياع، ورخص الدماء الإنسانية، وانهاك الشعائر والحرمات الإسلامية، ويؤس المسلمين وشقيائهم، الذين كانوا يحكمون هذه البلاد من ستة قرون - بكى قلبُه الحزين المتقطع المرهف الحسن دموعاً من دماء، وقطرت من قلمه السياں هذه القطرات من الدماء على صفحات تلك الرسائل التي كتبها إلى بعض أعيان الدولة ووجهائها، وسوف نورده هنا بعض النماذج منها:

يقول في رسالتٍ كتبها إلى ملكٍ معاصر^(١) يشكو فيها صولة (سورة مل) وجولته وشوكته، وغربة الإسلام وبؤسه:

«ومن بعد ذلك ظهرت شوكة (سورة مل) وقويت، فقد استولى (سورة مل) على مسافة ٦ أميال من دهلي إلى أواخر حدود آكرا طولاً، ومن حدود ميوات إلى فيروزآباد، وشكوه آباد عرضياً، فلا يقدر أحد أن يؤذن هناك ويقيم الصلاة»^(٢).

ويذكر في هذه الرسالة خرابَ مدينة (بيانة) التي كانت عامرةً مخصوصةً، فيقول:

«لقد أخرجَ المسلمين - كرهاً وقساً وباهانة وإذلال - من مدينة (بيانة) التي كانت مدينة إسلامية قديمة، لم يزل يسكنها العلماء والمشايخ من سبعة قرون»^(٣).

ويذكر فقر الموظفين الرسميين، وسوء حالهم، وقد تجاوز عددهم مئة ألف، فيقول:

«الّمَا انتهت خزانةُ الملك، توّقفت التّنّود أیضاً، حتّى تفرّق الموظفوون شذوذ، وبدؤوا يتکفّفون ويستجذبون، ولم يبق للّدولة إلا الاسم»^(٤).

(١) كما سيأتي فيما بعد، وهناك جمیع القرائین على أنّ هذه الرسالة وُجهت إلى أحمد شاه الأبدالی.

(٢) الرسالة التي كتب إلى بعض السلاطین. انظر: الرسائل السياسية للإمام الدھلوی، ص ١٥.

(٣) المرجع السابق، ص ٩.

(٤) المرجع السابق، ص ١١.

وقد صدرت من قلمه - وهو يذكر وضع عامة المسلمين - هذه الكلمة المؤثرة المُشجية:

«وبالجملة فإن جماعة المسلمين تستحق العطف والرحمة»^(١).

ويقول في رسالته كتبها إلى النواب نجيب الدولة:

«لقد لقي المسلمون - سواء كانوا سكان دهلي أو أي مكان آخر - صدمات عديدة، ووقعوا - مراراً - فريسةَ السلب والنهب، لقد بلغ السكينُ العظمَ، إنه لمقام الرحمة والعطف»^(٢).

ويتبنا الإمام الدهلوi - نظراً إلى الحقائق والواقع والأسباب القوية المؤثرة - بالنتائج الحاسمة وواقع المستقبل القريب بما لا دخل فيه للقياس والذكاء بل هو نتيجة الدراسة الواقعية غير المحايدة.

«فلو بقيت غلبة الكفر وظهوره على هذا الوضع، فيخشى على المسلمين أن يتناسوا الإسلام، ولا تمضي إلا أيام وسنون حتى يظل الشعبُ المسلم شعباً لا يقدر على التمييز بين الإسلام وغير الإسلام»^(٣).

نصيحته للسلاطين المغول، وأركان الدولة ورجال الحل والعقد:

لقد درس الإمام الدهلوi تقدم السلاطين المغول واحتياطهم وعواملهما دراسةً ممعنة - كما يبدو ذلك من المبحث الذي مضى في الباب السابع من (حججة الله البالغة) - وقد درس - عدا الدولة المغولية - تاريخ الدول الإسلامية الأخرى بنظرية دقيقة فاحصة، واستنتاج منه تلك النتائج الحكيمية التي لا يطلع عليها إلا من أكرمه الله بحمل القرآن الكريم وفقهه، الذي يعرف قانون الله تعالى وسته في المجازاة، ولم يكن خافياً عليه أنَّ طبيعة هذه الأسرة الملكية قد انحرفت وفسدت - للسلطة

(١) الرسائل السياسية للإمام الدهلوi ، ص ١١.

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٢ - ٢٣ .

(٣) المرجع السابق ، ص ١٢ .

الوراثية الطويلة، وكثرة وسائل الترف والتسلية، وصحبة الندماء المغرضين، وقصر نظر المستشارين - واستحکمت في جسمها الأدواء، وتأصلت الأمراض، وقد كان خبيباً بهذه الكلمة الحكيمية للفيلسوف المؤرخ العلامة ابن خلدون: «إنَّ الهرم إذا نزل بالدولة لا يرتفع»^(١).

ولكنَّ الهم الصادق، والطلب الملح، ونداء القلب والضمير، يحمل الإنسان في مثل هذه الأوضاع أيضاً على المغامرة - التي لا يبقى فيها أمل النجاح إلا وهما من الأوهام، فإنه إذا اشتدَّ الظُّلمُ بِراحل، وبلغ قلبه الحناجر، فإنه - رغم العقل والذكاء والحكمة والتجارب - يخطو تلقائياً رجاء الحصول على الماء إلى منبع السراب، فإنَّ اندفاع العقل دليلاً على العطش الصادق، وما أحسنَ ما قال الشاعر الفارسي عرفي، يقول ما معناه:

«ظنَّ بنفسك قلة الظُّلمُ الصادق، ولا تُدْلِي بعقلك، ولا تفخر به، إذا كان عقلك - على علم ووعي - لم ينخدع بلمعان السراب الظاهر ويريقه الجذاب».

ولكنَّ الإنسان ولا سيما أسرة كهذه التي حكمت - قروناً طوالاً - بشوكة وعزَّة وجلال، تختلفُ طبعاً عن سراب جامد لا روح فيه ولا حياة، وليس هذا الرجاء منها ببعيد أن يولد فيها رجل عصامي، صاحب عزيمة وحمية وغيره، يغير تيار الأحداث، وينفع في الدولة المتحضرة روحًا جديدة من الحياة.

لقد كان الإمام الذهلي أَكْبَرَ العارفين - في عهده - بالقرآن الكريم، والغوaciين في معانيه وحقائقه، وكانت بين يديه هذه الآية الكريمة:

«تُولِّي أَيْدِكَ فِي النَّهَارِ وَتُولِّي النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيْتِ وَتُغْرِي الْمَيْتَ مِنَ الْحَيِّ وَتُرْفَقُ مَنْ تَشَاءُ بِتَرْيَحِكَابِ» [آل عمران: ٢٧].

ولذلك كتب الإمام الذهلي - رغم معرفته بأوضاع القلعة المعللة معرفة جيدة - إلى أحد^(٢) ملوك المغول من معاصريه رسالة نصيحة فيها بإصلاح الحال،

(١) انظر: مقدمة ابن خلدون، فصل (إنَّ الهرم إذا نزل بالدولة لا يرتفع)، ص ٣٠٦.

(٢) ومن المؤسف أننا لم نطلع على اسم هذا الملك المغولي (الذي كُتِبَ إليه هذه الرسالة المهمة).

وتقوية الدولة ، واستدعاء رحمة الله - تعالى - ونصره وتأييده إليه - وضميتها توجيهات ونصائح حكيمية عالية ، تقوم على أساس الحكمـةـ العـالـيـة ، والـبـصـيرـةـ النـافـذـةـ فيـ الدـيـن ، والـدـرـاسـةـ العـمـيقـةـ الـوـاسـعـةـ لـلـتـارـيخـ وـالـسـيـاسـةـ وـنـظـمـ الـدـولـةـ ، لقد قال في بدايتها :

«أرجو من فضل الله تعالى ورحمته أنه إذا صَحَّ العمل ، وتحقَّق بموجب هذه الكلمات ، فسوف تظهر القوة والحزم في شؤون الدولة وبقاء الحكومة ، وتعلو الكلمة ، يقول الشاعر ما معناه :

«لقد وضعوني كالبيغاء وراء المرأة ، فلا أقول إلا ما لقنتي المعلم الأزلي (الأبدى)»^(١).

وقد أشار في آخر هذه الرسالة - التي أرسلها إلى الملك المعاشر وأمرائه وزرائه - بعد تقديم توجيهات ناصحة حكيمـةـ ، سياسـيةـ وإدارـيةـ - لا يمكن أن تقوم الدولة بغيرها ، ولا تعود الرفاهـيةـ إلى الناس ، و تستـحـكـمـ الثـقـةـ فيما بينـهمـ - بأن يولي على الحسبة والقضاء أولئـكـ العلمـاءـ الذين لم يتهـمـوا بـرـشـوـةـ ، ويـكـونـونـ منـ أـهـلـ السـنـةـ وـالـجـمـاعـةـ ، وأنـ تعـطـيـ لـأـثـمـةـ المسـاجـدـ رـوـاتـبـ محـترـمـةـ ، وـيـؤـكـدـ عـلـىـ أـدـاءـ الـصـلـوـاتـ بـالـجـمـاعـةـ ، وـيـعـلـنـ بـاـهـتـمـامـ بـالـخـلـقـاتـ - أنـ لاـ يـتـهـكـ أـحـدـ حـرـمـةـ شـهـرـ رـمـضـانـ ، وـأـخـيـرـ أـنـ لـاـ يـنـهـمـكـ (ملكـ الإـسـلامـ) وـ(الـأـمـرـاءـ الـعـظـامـ) فيـ العـيـشـةـ الـبـادـخـةـ الـمـحـرـمـةـ ، وـيـتـوبـواـ مـاـ سـلـفـ مـنـهـمـ مـنـ الذـنـوبـ توـبـةـ نـصـوـحـاـ ، وـيـتـوـقـفـواـ مـنـ الذـنـوبـ فيـ الـحـيـاةـ الـمـقـبـلـةـ ، فـلـوـ عـلـمـ بـذـلـكـ فـإـنـيـ آمـلـ بـقـاءـ الـدـوـلـةـ ، وـتـأـيـيـدـ اللهـ تـعـالـيـ وـنـصـرـتـهـ ، «وـمـاـ تـوـفـيـقـيـ إـلـاـ بـالـلـهـ ، عـلـيـهـ تـوـكـلـتـ وـإـلـيـهـ أـنـيـبـ»^(٢).

وهكـذاـ اـقـامـ الإـمامـ الـدـهـلـوـيـ بـأـدـاءـ وـاجـبـهـ وـمـسـؤـولـيـتـهـ التـيـ كـانـ يـجـبـ عـلـىـ الـعـالـمـ الـجـلـيلـ بـالـدـيـنـ وـشـارـحـ الـكـتـابـ وـالـسـنـةـ ، وـمـصـلـحـ عـصـرـهـ وـمـجـدـهـ أـنـ يـقـومـ بـأـدـائـهـ ،

(١) انظر : (الرسائل السياسية للإمام الذهلي)، الرسالة رقم: ١ ، إلى الملك ووزرائه وأمرائه.

(٢) المرجع السابق، ص ٨٠ - ٨١.

وهكذا يفعل من يعرف مسؤولياته وواجباته، ويطلع على تلك الأخطار المحدقة التي كانت كالسيف المصلت ليس على رؤوس الأسرة الحاكمة فحسب بل على رؤوس جميع سكان البلاد، ولم تكن للإمام الدهلوi - في اتباعه لسلفه الأكرمين وحسب منهجه العلماء الربانيين - علاقات وصلات مباشرة بالبلاط والدولة، بل كان متبوئاً على حصیر (الفقر) الغني، ولكن قلبه كان مشغولاً - كالشيخ نظام الدين البدواني الدهلوi وخليفه السيد نصیر الدين الدهلوi - بالدعاء للحكومة وهايتها وصلاحها. ولم يكن يضُن على مَنْ يتصل بمركزه العلمي والروحي بتوجيهات ناصحة نافعة مشافهة وكتابة، وقد وقع بعض المرات أنْ فاجأ الملك بزيارة الإمام الدهلوi، وطلب منه الدعاء، يقول في رسالة كتبها إلى معتمده، الحبيب ومستشاره وأخيه ابن خاله الشيخ محمد عاشق الفلتاني :

«لقد ركب الملك يوم الخميس لزيارة مقابر الشيخ نظام الدين والمشايخ الآخرين^(١) ودخل إلى بيتي - بدون إشعار سابق - من الباب الكابلي، راكباً على أريكة ساذجة، ولم يكن لي بذلك سابق علم، فدخل المسجد، وجلس على البواري^(٢)، فرأيت توقير السلطان من اللازم إلى حد أن فرشت سجادتي التي أجلس وأصلّي عليها بطريقه، جلست في جانب منها، وجلس الملك في الجانب الآخر، وصافحني الملك أولاً بإياه وإنجلال، ثم قال : كنت في شوق إلى زيارتكم منذ مدة طويلة، ولكنني وصلت اليوم بدلالة هذا الشاب (وكان الإشارة إلى الوزير)، ثم قال : إنّ غلبة الكفر والفرقة والفوضى في الرعایا وصلت ما وصلت إليه مما يعلمه الجميع، فقد شقّ علي النوم والطعام والشراب، وأسألكم الدعاء، فقلت : كنت لا أزال أشتغل بالدعاء مِنْ قبل، وسوف أزيد من الآن أشتغال بالدعاء إن شاء الله تعالى .»

وقال لي الوزير - في أثناء ذلك - إنّ جلالته الملك يحافظ على الصلوات الخميس باهتمام .

(١) ومن المؤسف أنّ اسم هذا السلطان لم يذكر في هذه الرسالة، ولا عندنا مراجع نرجع إليها في الكشف عنه .

(٢) البواري : الخصر .

فقلت: الحمد لله، هذا ما نسمعه بعد زمن طويل، وإنما فإنه لم يسمع عن الملوك السابقين في الماضي القريب هذه المحافظة على الصلوات^(١).

ثم حكى الإمام الذهلي للملك -أخيراً- تلك الوصية التي أوصى بها سيدنا أبو بكر الصديق رضي الله عنه سيدنا عمر الفاروق رضي الله عنه عند استخلافه، قال:

«تَعْرِضُ لِلخَلِيفَةِ مَشَاكِلٌ طَرِيقَةً غَرِيبَةً مِنْ قَبْلِ أَعْدَاءِ الدِّينِ وَأَتَبَاعِهِ أَيْضًا، فَلَا عَلاجٌ لِهَذِهِ الْمَشَاكِلِ إِلَّا الْعَلَاجُ الْوَاحِدُ، وَهُوَ أَنْ تَجْعَلَ مَرْضَاتَ اللَّهِ تَعَالَى نَصْبَ عَيْنِكَ، وَتَسْتَعِينَ بِهِ، وَتَصْرِفَ النَّظَرَ عَنْ سُواهٍ»^(٢).

ويقول في رسالة أخرى كتبها إلى الشيخ محمد عاشق:

« جاءني الملك والدته^(٣) ، وكان غرض الملك من المجيء بهذه الصورة أن يجلس عندي دون كلفة وحرج ، وقد جلس ثلاث أو أربع ساعات تقريباً ، وتناول الطعام كذلك ، وكان أكثر كلامه فيما يتعلق بالاستعانة في سبيل الخير والرفاهية للناس »^(٤).

ولكن الحقيقة الظاهرة هي أن انحطاط الأسرة الحاكمة ، وأثار السلطة الوراثية ، والمناوآت والمؤامرات الخارجية والداخلية ، كانت قد بلغت إلى حد أن أي سلطان كبير قوي صاحب عزيمة وقوة إرادة لم يكن يستطيع أن يغير هذا الانحطاط بالازدهار ، والضعف والوهن بالقوة الجديدة والحيوية الجديدة ، ويحدث ثورة في أوضاع البلاد كلها .

وقد أثبتت التاريخ أن أي دولة من الدول إذا وصل انحطاطها وتردىها إلى آخر

(١) الرسائل السياسية للإمام الذهلي ، ص ١٣٥ - ١٣٦.

(٢) المرجع السابق ، ص ١٣٦ - ١٣٧.

(٣) والمراد بالملك هنا الملك أحمد شاه الذي كان ابن محمد شاه وخلفه على عرشه عام ١١٦١هـ.

(٤) انظر: الرسائل السياسية ، ص ١١١.

حدوده، وكانت ألغام المؤامرات والمعارضات متهدية لتتسفسف كيان الدولة كلها، فلا ينجُح أقوى الملوك إرادةً، وأمضواهم عزيمةً، وأشدهم صبراً وبلاءً، وأصلحُهم حالاً، في إعادة الحياة إلى جسد الدولة الهامد، ونفع الروح فيه من جديد، وقد وقع مراراً أنَّ الرجل الأخير في الأسرة الحاكمة، الذي سقطت في عهده الدولة وانقرضت، كان أصلحَ بكثيرٍ من كثيرٍ من سلفه وسابقيه، وأنَّه حاول جهده المستحبث في حماية الدولة من السقوط، ولكنه لم يلقُ أيَّ نجاحٍ، وخابت مساعيه، فقد كان مروان بن محمد المعروف بمروان الحمار (ت ١٣٢هـ) في آخر الدولة الأموية والأسرة المروانية وأخْر الخلفاء العباسيين المستعصم بالله (ت ٦٥٦هـ)، وكذلك آخر ملوك الأسرة التيمورية - إلى حد ما - أبو ظفر بهادر شاه (ت ١٢٧٩هـ الموافق ١٨٦٢م) من الأمثلة العديدة على ذلك.

ولذلك كانت الحاجة ماسةً إلى أن لا يقتصر المصلح الناضج، والمُؤرَّخ البصير، وصاحب الفراسة الإيمانية كالأمام الذهلي، على إقامة الصلات بالملوك المغول - اسماءً - وأمراء بلاطهم، وإيقاظ الحمية الدينية والغيرة الإسلامية فيهم، وتحريضهم على مقاومة الأوضاع المنحرفة، والقوى الهدامة المغربية، فقد خرج هو من نطاق أمراء البلاط الضيق المحدود، وراسل أولئك الأمراء وقادة الجيوش والأبطال الطامحين، الذين أحسنَ في داخلهم بجمرة الحمية الدينية والإباء القومي، كان فيهم هؤلاء الأمراء والقادة الكبار الذين يلي ذكرهم:

١- وزير المملكة آصف جاه^(١).

٢- النائب فiroz جناك نظام الملك أحمد شاهي^(٢).

٣- الوزير عماد الملك.

٤- تاج محمد خان بلوج.

(١) انظر: (مجموعة الرسائل) للشيخ عبد الرحيم والإمام الذهلي، (مخطوط) في مكتبة الجامعة العثمانية بحيدر آباد، قسم المخطوطات، ص ٢١٤.

(٢) المرجع السابق نفسه.

- ٥-النواب مجد الدولة بهادر^(١).
- ٦-النواب عبيد الله خان الكشميري.
- ٧-ميان نياز كل خان.
- ٨-السيد أحمد روهيلا.
- إلا أن اختيار الإمام الدهلوi - الذي كان يرافقه الإلهام الرباني والفراسة الإيمانية - وقع منهم على شخصيتين عظيمتين في ذلك العهد، كان أحدهما في داخل الهند، والأخر في خارجها، أعني بذلك أمير الأمراء النواب نجيب الدولة، وأحمد شاه الأبدالي حاكم أفغانستان إذ ذاك.

النواب نجيب الدولة:

لقد كانت تتوفر في النواب نجيب الدولة جميعُ الصفات والخصائص التي هي من خصائص مؤسسي الدول والحكومات في العهد القديم، الذين قاموا بدور مهم بارز في عهد ازدهار الدول الشخصية، والأسر المالكة وتقديرها - الذي كان يكفي فيه توفر الجوهر الذاتي، والخصائص الذاتية الازمة، واجتماع الأولياء والمخلصين للفتوح وإقامة الدول والحكومات - والذين ظهرت على أيديهم كل مأثرة من مآثر الفتح والانتصار، والذين كان يمكن منهم جوهر الوفاء بولي نعمتهم، وعادة الإحسان والكرم مع أصحابهم ومن تحت أيديهم، وخصيصة الفروسية والشجاعة وصلاحية القيادية تمكناً راسخاً، ولكن التجارب التاريخية تفيد أن هذه الصفات والخصائص إن كانت تتوجه في هزيمة القوى العسكرية وفتح البلاد والأمصار.

ولكتها في البيئة التي يعتبر فيها الغدر والخيانة فناً شريفاً، وتعتبر مخالفه الأصول والضوابط وإساءة الأخلاق والأعمال سياسة حكيمه عاليه، واستغلال الفرص عقلأً وبصراً وكياسةً، تحول - بدل أن تكون مفيدة نافعة - إلى عوائق في

(١) وجهت إليه أربع رسائل، انظر: (الرسائل السياسية للإمام الدهلوi)، ص ٦٦ - ٧٠.

سبيل النجاح، ودواتع إلى إيجاد المشاكل والمصاعب، ولقد صادفت النواب نجيب الدولة وأصف جاه - لسوء الحظ - مثل هذه البيئة الفاسدة العفنة، وقد اتفق المؤرخون على سمو خلقه، وصلاحيته للجنديه والقيادية والإشادة بها، يقول (سرجاد وناته سركار):

«يختار المؤرخ فيما يختار من حسناته للإشادة بها والثناء عليها، أقيادته المحيرة في ساحة الحرب، أم صواب رأيه، وحدة نظره في المشاكل، أم صلاحيته الفطرية التي كانت تثير له في الفوضى والاضطراب تلك الطريق التي كانت تؤدي إلى نتائج تحالفه وتوافق هواه؟!»^(١).

ويقول الشيخ ذكاء الله في (تاريخ الهند):

«لقد كان نجيب الدولة عاقلاً ذكياً، فطناً حكيماً، قلّ من يكون مثله، فقد انتهت إليه في عهده الأمانة والديانة، فكان لا يكفي عن طاعة أسياده القدماء النواب (دوندي خان روهيلا) والنواب شجاع الدولة، كما كان له تحالف مع (ملهراو هلكر) ولعلك تذكر أنّ هذا المرهفة كان قد فرّ من حرب (باتي بات) تاركاً أهل وطنه وراءه، وبالجملة فقد كان هذا الرجل الشجاع يداري - بطريقة أو بأخرى - هذه الدولة المحتضمة المكسرة»^(٢).

ويقول الشيخ عبد العزيز الدهلوبي:

«كان لدى نجيب الدولة تسعمئة عالم، يتتقاضى أدناهم منزلة خمس روبيات وأعلاهم (٥٠٠) روبية شهرياً»^(٣).

وكان هو - حسب تصريح البروفيسور خليلي أحمد نظامي - أكبر شخصية في دلهي في الفترة ما بين ١٧٦١م - ١٧٧٠م، فكان هو القطب الذي تدور حوله

(١) sarkar: tall of the mughal empire, vol. ii p.416. وقد اقتبسنا ذلك من (الرسائل السياسية للإمام الدهلوبي)، ص ٢٣٢.

(٢) تاريخ هندوستان (تاريخ الهند): ٣١٥/٩.

(٣) (مجموع الكلمات)، للشيخ عبد العزيز، ص ٨١.

رحي السياسة كلها، وكان يتحمّل عاتّقه أعباءً إدارة الحكومة كلها^(١).

لقد اختار الإمام الذهلي - الذي وهبه الله تعالى ملكرة خاصةً لمعرفة الرجال، والاعتراف بالواقع، والتي لا تُعطى إلا لأولئك الرجال، الذين يقومون في تاريخ الإصلاح والتجديد وصناعة الرجال وتربية الأفراد بأعمال جليلة بارزة - لتحقيق آماله وتكمل مهمته في هذا العهد من أزمة الرجال وندرة الأفراد - النواب نجيب الدولة ، وقد تفّرس بعد نظره ودقته ما أودع الله تعالى من جوهر صالح، وحمية دينية، فبدأ الإمام الذهلي مراساته، وحاول إشعال تلك الجمرات الكامنة تحت الرماد، يقول في رسالة إليه :

«ندعوا الله - تعالى - أن يشرف أمير المجاهدين بالنصر الظاهر ، والتأييد المبين ، ويبلغ هذا العمل إلى منزلة القبول ، وينزل عليه بركات ورحمات كبيرة».

«ليبلغ من الفقير ولـي الله - عـفا الله عنـه - بعد التسليمات العطرة بالمحبة أنـنا نـشتغل هـنا بالـدعاـء لنـصرة المسلمين ، وـتلوـح لـنا منـ الغـيب آثارـ القـبول ، وـنـأمل أـنـ اللهـ تعالىـ سـيـحـيـ علىـ أـيـديـكـمـ الجـهـدـ وـالـجـهـادـ الـدـينـيـ ، وـيعـطـيـ بـرـكـاتـهـ وـثـمـارـهـ فيـ الدـنـيـاـ وـفـيـ الـآـخـرـةـ ، إـنـهـ قـرـيبـ مـجـيـبـ»^(٢).

ويدعوه في رسالة أخرى بـ(أـمـيرـ الغـزـاةـ وـرـئـيـسـ المـجـاهـدـينـ)^(٣).

ويقول في رسالة أخرى :

«يـخيـيلـ إـلـيـنـاـ أـنـ عـمـلـ تـأـيـيدـ الـمـلـةـ إـلـيـسـ إـلـامـيـةـ وـنـصـرـةـ الـأـمـةـ الـمـرـحـومـةـ فـيـ هـذـاـ عـصـرـ ؛ـ سـوـفـ يـتـحـقـقـ عـلـىـ أـيـديـكـمـ ،ـ الـذـيـ هـوـ مـصـدـرـ هـذـهـ الـأـعـمـالـ الـخـيـرـةـ وـوـسـيـلـتـهـ ،ـ فـلـاـ تـدـأـعـواـ الـوـسـاوـسـ وـالـهـوـاجـسـ تـتـمـكـنـ مـنـ قـلـوبـكـمـ ،ـ وـسـتـتـحـقـقـ إـنـ شـاءـ اللهـ تـعـالـىـ جـمـيـعـ إـنـجـازـاتـ وـفـقـ رـغـبـةـ الـأـحـبـابـ وـرـضـاـهـمـ»^(٤).

(١) الرسائل السياسية، ص ٢٣٢.

(٢) المرجع السابق، ص ١٩.

(٣) المرجع السابق، ص ٢٠.

(٤) المرجع السابق، ص ٢٨.

ولا يكتفي الإمام الدهلوi في رسائله إلى التواب نجيب الدولة بكلمات التهنة والدعاء، بل يشير عليه بوصايا سياسية نافعة، وينصحه بالحيطة والجتناب العودة إلى تلك الأخطاء والواقع التي ظهرت على أيدي الغزاة السابقين والجيوش الإسلامية من قبل، والتي تحول دون تأييد الله تعالى ونصره، يقول في إحدى رسائله:

«عندما تمرُّ الجيوش الملكية بدلهلي فليراعَ بدقةٍ ونظامٍ أن لا تداسَ كرامَةُ هذه المدينة بالظلم والعدوان كما سبق من قبلُ، لقد شهدَ أهلُ دلهلي - مراراً - حوادثَ النهبِ والسلبِ، وانتهاكَ الحرماتِ والأعراضِ، وهذا هو سببِ التأجيل في تحققِ المقصودِ والأهدافِ، فإنَّ آنَةَ المظلومِ لا تذهبُ هكذا سُذْيَ، فإذا كتمْ تریدونَ هذه المرةَ أنْ يتحققَ لكم ما لمْ يتحققْ بعدُ، فليؤكِّدْ تأكيداً بالغاً، وليلتزمُ التزاماً قوياً بأنَّ لا يتعرَّضَ أيُّ جنديٍ للMuslimين في دلهلي وغير المسلمين أيضاً، الذين يدعونَ أهلَ الذمة»^(١).

ويلفتُ الإمام الدهلوi الأنظارَ - مرَّةً بعد مرَّةٍ - في عددٍ من رسائله إلى حمايةِ البلادِ من خطرِ هذه القوى المقاتلةِ الهدامةِ الثلاثَ - التي مضى ذكرُها في بداية هذا الفصل^(٢) - وحفظها من أضرارِهم وعدوانِهم، إذ بدونَ ذلك لا تقومُ للنظام والإدارة في البلادِ قائمةً، ولا يسودُ الأمنُ والسلامُ، ولا تبقىُ الشعائرُ الدينية ومساجدُ المسلمين آمنةً مصونةً، ولا أملَ في عيشةِ عادية متزنة، فقد أصبحتُ البلادُ كلُّها بسببِ هذه القوى العاثة في الأرضِ الفسادَ تعيشُ حالةَ حربٍ دائمةً، وفي صورةِ جبهةٍ عسكريةٍ مستقلة^(٣).

لقد بلغَ الإمامُ الدهلوi من حُبِّه للتواب نجيب الدولة وإشادته به، وما يعلق عليه من الآمالِ الجسمان أن يكرر عليه ويؤكِّدْ - مراراً - أنه إذا قام وتووجهَ لهذه

(١) الرسائل السياسية للإمام الدهلوi، ص ٢١.

(٢) وهي: المرهنة والسيفون والجنة.

(٣) الرسائل السياسية، ص ٢١-٢٢.

المهمة فلابد أن يشعر الإمام الدهلوىً بذلك حتى يتصرف إلى الدعاء^(١).

كما يؤكد عليه - مرة بعد مرة - رجاءه الفتح والانتصار على يديه - ويتبناً بذلك. يقول في رسالة إليه: «لا يشك هذا الفقير في هذا الأمر، ولا يرتاب فيه»^(٢).

وقد اتخد الإمام الدهلوىً النواب نجيب الدولة نفسه واسطه، خاصةً لدعوة أحمد شاه الأبدالى إلى الهند، وأمره بالكتابة إليه - عدا مراسلاته معه مباشرة التي سيأتي ذكرها في الصفحات القادمة - وأكَّد عليه بذلك عدة مرات، وتوفي النواب نجيب الدولة بعد وفاة الإمام الدهلوى بشهاري سنوات في رجب عام ١١٨٤ هـ الموافق ٣١ تشرين الأول - أكتوبر عام ١٧٧٠ م.

يقول البروفيسور خليلي أحمد نظامي:

«إنَّ هذا الحادث الذي يدلُّ على عدله وبعده نظره سوف يبقى ذكرى دائمة في التاريخ، إذ إنَّه حال احتضاره وإشرافه على الموت على فراشه أصدر أمره إلى جيوشة (التي كانت مقيمةً - إذ ذاك - في هابور^(٣) وكان بها العيد والاحتفال السنوي للهندوس) أن يحافظ على أموال الزوار الهنود المشاركين في هذا الاحتفال وأعراضهم وأنفسهم»^(٤).

أحمد شاه الأبدالى:

لقد أدرك الإمام الدهلوى - ببعده نظره، ودراسته الواقعية لأوضاع الهند، وبالنظر إلى بطاله أركان الدولة وأمراء البلاد، وسوء تصرفاتهم، وانحطاط الأسرة الحاكمة، وعدم كفاءتها وصلاحيتها - حقيقتين ظاهرتين:

إحداهما: أن الحاجة الملحة الأولى لهذه البلاد هي القضاء على ملوك

(١) الرسائل السياسية، ص ٢٥-٢٧.

(٢) المرجع السابق، ص ٣٤-٣٩.

(٣) مدينة قريبة من دہلی في الولاية الشمالية.

(٤) الرسائل السياسية، ص ٢٣٤؛ نقلًا عن (سرکار) : ٤١٥ / ٢.

الطوائف، والفووضى والاضطراب، الذى لا يدع مجالاً لأى عمل بناء، وإدارة حازمة، ونظام أفضل، ولا أمنٌ فيه لأنفس أهل البلاد وأعراضهم وأموالهم كما تقدم في الصفحات الماضية.

وتعود مسؤولية هذه الفوضى والاضطراب وقلة الأمن، وحاله الفزع والإرهاب المستقلة، إلى هذه القوى الفوضوية المقاتلة الثلاث التي لم تكن لها خلفيات كريمة، وتجارب سابقة للحكم، في بلاد تعيش فيها الشعوب المختلفة والحضارات والديانات المتعددة، ويحتاج تحمل مسؤولية الإدارة فيها إلى شعور كبير بالمسؤولية، وقوة زاخرة بالتحمل والضبط، وتملك الأعصاب، وسعة النظر، ورحابة الصدر، ولم تكن هذه القوى تملك تصميمًا أو تخطيطًا لنشر العدل والطمأنينة في البلاد، وإعادة الثقة في النفوس، وإصلاح الإدارة والنظام، ولم يكن لها أيّ تصور وتفكير فيه.

ولأجل ذلك كانت المهمة الأولى هي حماية البلاد من خطر هذه القوى، لاستيما من غلبة (المرهنة) واستيلائهم، الذي لم يدع هذا الجزء المركزي، الذي لم يزل عاصمة الحكومات، أي هذه المنطقة من لا هور إلى دهلي، والولايات المتحدة الشمالية يعيش - لحظة - في أمن وطمأنينة، فلا يدرى متى تتحول هذه المنطقة كلها إلى ساحة حرب وقتل، وتحول المدن العاشرة الزاهرة إلى غابة حرة مفتوحة، يعطى فيها السماح للصياديين والقانصين أن يصطادوا السكان الآمنين، ويذبحوهم كالطير والمواشي، ويقضوا على ثرواتهم التي توارثوها كابراً عن كابر، وجيلاً بعد جيل، في دقائق وثوان.

وكان الخطر الثاني في صورة (السيخ) و(الجت)، الذي كانت تتعرض له مراكز المدينة والحضارة والثروة واليسار، وكان يدهمها ويفاجئها كآفة سماوية، وبلية نازلة.

والحقيقة الثانية: أن القضاء على هذا الخطر كان يحتاج إلى قائد عسكري محنك، وجيش قوي مدرب، يكون زاخراً بالقوة العسكرية، ولكن لا يكون ثملاً بها سكران، ويتصف - علاوة على صفات الفروسية والشجاعة والبطولة - بالغيرة

الإيمانية، والحمية الدينية، كذلك مع البراءة من الخلافات الجزئية، والحزارات الجانبيّة، والأحتقاد القديمة، والعداوات الموروثة، التي كانت تُنخرّ عاصمة البلاد وأصحاب السياسة كالدود، والتي لا يُرجى في وجودها تحقيق تلك الأهداف العالية، التي ينظر فيها إلى مصالح الملة الإسلامية، وتأييد الدين الحنيف، وحفظ البلاد وتأمّنها بدلاً من مصالح العناصر السلالية، والفرق الدينية الخاصة، أو المصالح الشخصية والانتصار للذات.

وقد كان الإمام الدهلوi ينظر إلى أمير الأمراء النواب نجيب الدولة كواسطة ووسيلة، ولكنه كان يعرف أنه لا يكفي نظرًا لخطورة الأوضاع وشدتّها، ولم يكن من المستطاع أن يحدّ به - وحده - من سلطة تلك القوى ويكسر شوكتها، التي كانت قد ضاعفت قوتها العسكرية إلى حد أن أيّ قوة عسكرية واحدة في البلاد لم تكن تقدِّر على كسرها، وإلحاق الهزيمة بها، بل كانت الحاجةً لذلك ماسةً إلى قائد عسكري خارجي دافق بالحياة والنشاط، ولا يكون - في نفس الوقت - أجنبياً غريباً في هذه البلاد تماماً، بل يكون على معرفة وإلمام بوهاد هذه البلاد ونجدتها، وتقاليد أهلها وعاداتهم، وطبيعة الفرق المناوئة والمقاتلين المقاومين ومواقع ضعفهم وسقطتهم، ويمتلك من على الهمة والطموح ما يستطيع به أن ينقذ هذه البلاد من الأنطرار الملممة الواقع، ثم يفوتض السلطة إلى أحد الأكفاء القديرين من أفراد الأسرة الحاكمة القديمة، أو إلى أمير أو وزير صالح وفي، إذ كان ذلك هو المقتصى الحقيقي للواقعية والمصالح الملية، وحب الوطن.

وقد وقع اختيار الإمام الدهلوi - لهذه المهمة الخطيرة العسيرة الدقيقة - التي تحمل ككل مهمة دقيقة خطيرة جوانب النفع والضرر؛ والربح والخسارة - على أحمد شاه الأبدالي (١١٣٦ - ١١٨٦ هـ الموافق ١٧٢٣ - ١٧٧٢ م) والتي قندهار، الذي لم يكن أجنبياً عن الهند، ولا غريباً فيها، فقد ولد في (مليتان)^(١)، ولا يزال فيها شارع يسمى (شارع الأبدالي) وقد غزا الهندَ لمختلف أهدافه

(١) انظر: دائرة المعارف الإسلامية encyclopaedia of islam مقال .c. collin davies

وأغراضه تسع مرات من عام ١٧٤٧م إلى عام ١٧٦٩م، وكان قد ورد الهند - قبل دعوة الإمام الدهلوi ونجيب الدولة له - ست مرات.

وكان يعرف وهاد البلاد ونجادها، وأساليب الحرب فيها، ونسبة القوى العسكرية بها، وميول الأمراء وأركان الدولة وبنزاعاتهم، وقد كان من أولئك القادة العسكريين الممتازين في منتصف القرن الثامن عشر المسيحي والقرن الثاني عشر الهجري الذين لا يولدون إلا بعد آماد وأحقاب طويلة، ويؤسسون دولًا وحكومات مستقلة، إنه جمع شمل الأفغانيين المترافقين بتوافق ونجاح، ونفذ القوانين العادلة، وأقام الحسبة، وكان يجمع بين صفات الفروسية، والأخلاق الفاضلة، وشرف النفس، وكرم الأصل، ويتذوق العلم والأدب، ويعنى بهما، وكان محبياً أنيساً في قومه، متدينًا، متقيداً بالفراشض والأداب الدينية، يحب مجالسة العلماء والصالحين، ويتأدب مع الأشراف والمشايخ ويكرمهما، ويرغب - دائمًا - في زيادة معلوماته، وتبادل الآراء في الأمور العلمية.

وكان رقيق القلب رحيمًا سخياً كريماً، يتمسك بأصول المساواة والمسامحة الدينية، وقد أحياناً بعض السنن التي كان التكلم بها في البيئة الأفغانية - إذ ذاك - من الصعوبة بمكان، مثل الزواج بالأيامى، وقد كان هو نفسه مثقفاً وكاتباً قديراً، وكان يهتم بتقدمة الروحي، ويتمثل ذلك^(١)، يقول فيرير:

«لقد كان أحمد شاه بريئاً من كثير من السيئات ومواضع الضعف الشرقية، فكان يتتجنب - كلية - شرب الخمور وتناول الأفيون، نزيهاً سامياً على أفاعيل النهامة والنفاق، ملتزماً بالدين أيما التزام، وكانت عاداته وأخلاقه الساذجة - ولكن المترنة الرزينة - تحبه إلى كل شخص، كان الوصول إليه سهلاً ميسوراً، فقد كان يراعي العدل والنصفة، ولم يشك أحدٌ قط في حكمه وقضاءه»^(٢).

كان أحمد شاه الأبدالي قدم الهند في عهد الإمام الدهلوi سِتَّ مرات من

(١) انظر للتفصيل: Ahmad shah durrani-father of modern afghanistah-asia publishing house, 1949 by dr. g. singh.

(٢) انظر: history of the afghans وقد اقتطفنا ذلك من الرسائل السياسية، ص ٣٣٥ - ٣٣٦.

قبل، وقضى حاجاته المحلية المؤقتة، ثم رجع إلى بلاده، ولم يقم هو- في هذه الحملات سوى التظاهر بقوته العسكرية المدعاة، وتحقيق بعض مآربه المؤقتة- بمهمة مفيدة، ولم يحقق مصلحة كبيرة، كما لم يلتزم جيشه- أناء حملاته- بتلك الآداب والتعاليم الإسلامية التي يتوقع العمل بها من شخص مسلم متقييد بالشريعة.

وقد عانى الإمام الدهلوi وأصحابه أيضاً من جراء بعض حملاته، من مصائب وصعوبات، ولكنّه رغم هذه المواطن من الضعف فيه والتجارب المرة السابقة عنه كان هو الأملُ الوحيدُ الذي يلمعُ في الأفق، يصرّح الشيخ محمد عاشق الفلتي بأنَّ الإمام الدهلوi بعد كلِّ ذلك كان يقول: «إنه سيغلب على هذه الديار»، وقال مرّة رداً على سؤال من (بهادر خان بلوج): «سوف تستحكم سيطرته على هذه البلاد»، وشاع - ذات مرّة - نبأً وفاته، فلما استفسر الشيخ محمد عاشق الفلتي عنه قال:

«الذي يخيل إلى هو أنَّ أَحمد شاه الأَبْدَالِي سُوفَ يعودُ إلى هَذِهِ الْبَلَادِ، وَيُقْلِبُ هُؤُلَاءِ الْكُفَّارَ ظَهِيرًا لِبَطْنَ، وَيَجْعَلُ عَالِيهِمْ سَافِلَهُمْ، وَإِنَّهُ - رَغْمَ جُورِهِ وَطُغْيَانِهِ قَدْ حَفَظَهُ اللَّهُ تَعَالَى لِأَجْلِ هَذِهِ الْمَهْمَةِ»^(١).

لقد كان الإمام الذهلي يتوقع أنَّ الله تعالى سوف يصلحُ أحوالَ الْأَبْدَالِيِّ، ويهديه إلى الرشاد، ويستعمله في خدمته - ليست - في ظاهر الأمر - في وسع أيّ أمير أو قائِدٍ آخر، قال للحاكم أبي الوفاء الكشميري ذات مرّة: إنَّ الصعوبات التي يلاقيها الْأَبْدَالِيُّ في تحقيق أهدافه هي لأجل ما ارتكبه من ظُلْمٍ وجُورٍ (في حملاته السابقة) على مدن الهند، وسوف تصلحُ أحواله فيما بعد^(٢).

كان الإمام الذهلي ي يريد من أحمد شاه الأبدالي أداء دوره في صيانة هذه البلاد من هذه الأوضاع القلقة والفووضى العامة، وأن يعهد بالدولة إلى شخص كفء صالح - إلى حد ما - من أفراد الأسرة الحاكمة، وكان الإمام الذهلي قد تنبأ

(١) الرسائل السياسية، ص ٢٦-٢٧.

(٢) المترجم السابق، ص ٣٠.

قبل مقدمه بأنه لا يلبيث هنا، بل يولي أمر الدولة أحد الأفراد من أولاد الملوك^(١).

وأخيراً طلب الإمام الذهلي من نجيب الدولة كتابة الرسائل - بهذه الصدد -

إلى أحمد الأبدالي، ثم كتب إليه - مباشرة - رسالة مؤثرة بليغة تكشف عن بصيرة الإمام الذهلي السياسية، وحمىّته الدينية، وجرأته الخلقة^(٢)، وقد ذكر في هذه الرسالة الأوضاع الراهنة في البلاد، وأساليب حكمها القديمة، وإدارة مختلف الولايات ونظمها المختلفة، وعدد الفرق الدينية والسلالية المختلفة في البلاد، ونسبة قواها، وأخطاء الملك السياسي، وقصر نظرهم فيما يتعلق بهم، واستحكامهم، وتبؤّهم مكانة القوة والسلطة - بصفة تدريجية، وذكر المرهنة والبحث في هذا الصدد - بصفة خاصة - وصور غربة الإسلام ويوسّ المسلمين بتأثير حملاتهم المتكررة بصورة مشجّعة مذيبة للقلوب، وحرّضَ هذه القائد المسلم - الذي كان يملك في ذلك العهد من الهند إلى إيران - أكبر قوة عسكرية منظمة - على مقاومة هذه الأوضاع، وتثبيت دعائم الدولة المغولية، وتوسيعها أركانها، وتحمّل مسؤولية البلاد على عاتقها من جديد، وصارحه بقوله:

«إنه لا يوجد - في هذا العهد - ملك يملك من القوة والشوكـة ما يستطيع أن يهزم بهما جيوش الأعداء، مع بـعـد النـظر والـحنـكة العسكريـة إلا سـيـادـتـكـم».

ويزيد قائلاً:

«إنـا عـبـاد الله نـسـتـشـفـع بـرـسـول الله ﷺ، وـنـسـأـلـ بالـله - تـعـالـى - أـنـ تـصـرـفـوا هـمـتـكـمـ المـبارـكـةـ العـالـيـةـ إـلـىـ هـذـهـ الجـهـةـ، وـتـقاـمـواـ الأـعـدـاءـ، حـتـىـ يـكـتـبـ لـكـمـ عـنـدـ اللهـ - تـعـالـىـ - فـيـ صـحـيـفـتـكـمـ ثـوابـ عـظـيمـ، وـيـسـجـلـ اـسـمـكـمـ فـيـ صـفـحةـ الـمجـاهـدـينـ فـيـ سـبـيلـ اللهـ، وـتـنـالـكـمـ فـيـ الدـنـيـاـ مـخـانـمـ كـثـيرـةـ لـاـ تـحـصـىـ، وـيـتـخلـصـ الـمـسـلـمـونـ مـنـ مـخـالـبـ الـكـفـارـ وـقـبـضـتـهـمـ»^(٣).

(١) الرسائل السياسية، ص ٣٠.

(٢) انظر: الرسالة المفصلة في (الرسائل السياسية)، الرسالة رقم: ٢، ص ٦ - ١٧.

(٣) المرجع السابق، ص ١٢.

وقد عرض الإمام الدهلوi في هذه الرسالة - نفسها - ببصيرته السياسية واطلاعه العميق على الظروف والأوضاع، عن هذه القوى الناشئة البارزة التي كانت لها - لفقدان أي قوة منظمة مجاهاة - هييتها ورعبها في النفوس ، وكان يعتقد أنّ لا قدرة لأحد على هزيمتها، تقديرًا صحيحةً دقیقاً لا يقدمه إلا قائد محنك أو سياسي بارع ، يقول عن (المرهنة) :

«إنَّ هزيمةَ (المرهنة) هيئَةٌ سهلةٌ ، شريطة أن يشترى غزاةُ الإسلام عن ساعد الجد والجهاد ، الواقع أنَّ عنصر المرهنة قليلُ العدد ، ولكنَّ جمِعاً كبيراً يساندهم ويحالفهم ، فلو فُرِّقَ صفُّ واحد من صفوفهم لتبدلت هذه الجماعة وتفرقت ، وأصبحت بالهزيمة والضعف والفتور ، وبما أنَّ هؤلاء القوم ليسوا أصحاب قوة وشوكة ، لذلك فإنه تتحضر كلُّ مهاراتهم في جمع العدد الكبير ، والجيش الكبير ، الذي يكون أكثر من النمل والجراد ، أما البطولة والشجاعة وكثرة وسائل الحرب فليست فيهم»^(١).

إنَّ هذه الرسائل التي كتبها النواب نجيب الدولة - بتوجيهه من الإمام الدهلوi إلى أحمد شاه الأبدالي ، ثم الرسالة المؤثرة البليغة المفصلة التي كتبها الإمام نفسه إليه - وقد تقدمت بعض مقتطفاتها - لم تذهب سدى ، فقد توجهَ أحمد شاه الأبدالي عام ١١٧٣هـ - الموافق ١٧٥٩م لكسر شوكة المرهنة ، وتحطيم قوتهم ، ومساعدة نجيب الدولة وشجاع الدولة - اللذين كانا قد أثبتتا وعيهما السياسي ، ووحدتهما الإسلامية إلى الهند ، ومضى عامٌ كامل في الحروب والاشتباكات الجانبيَّة ، أخيراً وقعت بين المرهنة وبين الأفغانيين والجبهة الإسلامية الهندية الموحدة عام ١١٧٤هـ - الموافق ١٤ كانون الثاني - يناير عام ١٧٦١م تلك المعركة الحاسمة التي غيرت في الهند مجرى التاريخ ، وأخرجت المرهنة من الخريطة السياسية الناشئة في الهند ، ونوردُ فيما يلي قصة هذه الحرب و نتيجتها ، بإيجاز حسبما يحكىها الشيخ ذكاء الله في كتابه (تاريخ الهند)^(٢) يقول :

(١) الرسائل السياسية ، ص ٨٦.

(٢) انظر للتفصيل : (تاريخ الهند) للشيخ ذكاء الله : ٩/٣٠٥ - ٣٠٩ .

«لقد حميَ الوطيسُ، واشتدَّت لظى الحرب، إِلَّا أَنَّ كفة المرهة كانت راجحة، فأصدرَ أَحمد شاه أمره لجنوده الفارين من الزحف أن يحاصرُوا ويقتلُوا، وأعلنَ أَنَّ من حاولَ الفرار يقتلُ فورًا، ثم أَمْرَ جيشه بالتقدم، وأمرَ فرقة عسكرية أَن تحملَ من جهة يساره على العدو، وقد أصابَ سهمُ هذا التدبير مقتله، وقد كان (بهاو) وبسوس راؤ) في قلب الجيش راكبين يحرّضان الجنود (والمرهة) على القتال، وكانت الحرب بالخناجر والرماح، وإذا به وقع ما يعلمُه، فترزلت أقدام الجنود المرهة، وذهبت ريحُهم، وما إن تزلزلت أقدامُهم حتى امتلأت ساحة الحرب بالجثث والأشلاء، فتعقبهم الجيش الإسلامي، وتبعهم -بحماس واندفاع - في كُلّ جهة وجاء إلى خمسة عشر وعشرين ميلاً، وأثخنهم بالجراح، وأسقطهم أكوااماً من الصرعى والقتلى، ومن بقي من المرهة من أيدي هؤلاء الأعداء فقد قتلهم البدو الرعاع، وقتل (بسوس راؤ) وبهاو)، وكان قد أخفى بعض الدرّانيين (جي كوجي سندوها) وستر عليه، ولكنَّه أخذَ بعد بحث وتفتيش وقتل، وأسرَ (إبراهيم خان كاري) ^(١)، ولقى حتفه بعد أسبوع، وقتل (شمشير بهادر) وهو يحاول الفرار، وفر (ملهاراؤ) في مالوه بنفسه، ووصل (أبا جي سنهيا) إليه كذلك وهو أخرج، ولم يبق أحدٌ من القادة المعروفين سوى هذين القائدين، ولم تلحق المرهة مثل هذه الهزيمة الساحقة من قبل، ولا نزلت بهم مثل هذه النازلة قط.

وقد أحدثت هذه المصيبة يأساً في النفوس، فسقطت الهمم، وبردت القلوب، ومات (بالاجي) لهذه الصدمة الشديدة بعد أيام، وكان من يوم أن سمع نباء الهزيمة اعتكف في أحد المعابد يدرس اللغة السنسكريتية ^(٢).

وبحسب تصريح أحد المؤرخين: «لقد تطايرت قوة المرهة في لمح البصر كالكافور»، ويقول (سرجاد وناهيركار): «إنه لم يبقَ بيتٌ من البيوت في ولاية

(١) كان رئيس المدفعية في جيش المرهة، وكان رغم إسلامه وفيأ لهم، بقي بجوارهم إلى آخر لحظة.

(٢) تاريخ الهند: ٣٠٩/٩.

(مهرانشتر) لم يعمّه المأتم والرثاء، فقد ذهبَ جيلُ القادة والرؤساء كلّه في معركة واحدة»^(١).

وتوجّه أحمد شاه الأبدالي - حسب تخطيط الإمام الدهلوi - بعد تحقيق هذه المهمة الضرورية إلى قندهار، يقول الشيخ ذكاء الله:

«لقد قدم أحمد شاه بعد هذا الفتح والانتصار من (باني بت) إلى نواحي دهلي، وملأ عدة أيام، وعيّنَ الأمير (علي كوهراي شاه عالم) ملك البلاد، وشفع لدى الملك أن يولي شجاع الدولة الوزارة، ونجيب الدولة إمارة الأمراء، ولم يكن (شاه عالم) إذ ذاك في دهلي، فعين ابنه (جوان بخت) نائباً عنه، وفتوض إلى نجيب الدولة إدارة دهلي ونظامها، وخلعَ على شجاع الدولة، وولاه ولايات أوده وإله آباد، وتوجّه هو نفسه إلى قندهار»^(٢).

يقول البروفيسور خليلق أحمد نظامي:

«لقد حاول أحمد شاه الأبدالي - بعد حرب (باني بت) أن يدعو (شاه عالم) إلى دهلي، ويعثّ إليه برسوله، ولما لم يحضر، طلب أحمد شاه من والدته النّواب (زيت مل) أن تكتب إليه، وكان أحمد شاه يحاول دعوة شاه عالم (إلى دهلي) حتى يتخلّص هو من قبضة الإنكليز، ويقدم إلى دهلي، ويضاعف قوته، ويحكمها حال وجود أحمد شاه الأبدالي»^(٣).

ويقول خليلق أحمد أيضاً:

لم يكن عندَ أحدٍ من المرهنة والسيّخ والجت من السعة وشمول التصور والتفكير بحيث يفكّر في أساليب المحافظة على وحدة الهند ومركزيتها، وقد كان الإمام الدهلوi - حسب مخططه المقترن - يريدُ استعادة السلطة العليا والمركزية والوحدة التي كانت في عهد الملك (أكبر) و(جهانكير) و(شاه جهان)،

(١) الرسائل السياسية، ص ٤٥.

(٢) تاريخ الهند: ٩/٣٠٩ - ٣١٠.

(٣) الرسائل السياسية، ص ٤٥ - ٤٦.

و(أورنك زيب) في البلاد، ولكن عن طريق الحكومة العادلة لا الملوك الجائرين الجبارين»^(١).

ولو كانت الدولة المغولية تملك رصيداً من الحياة، لكان تستطيع أن تنتفع بتتابع حرب (باني بت) وتستعيد سلطتها في الهند لعدة قرون قادمة. ولكن الواقع أنّ الدولة المغولية - إذ ذاك - كانت جسداً بلا روح، ولقد استغلَ حرب (باني بت) أصلاً، الفاتحون في حرب (بلاسي)^(٢).

لقد ضيع (شاه عالم) - بسبب سقوط همته، وقصر نظره - هذه الفرصة الذهبية، ولم يحضر القلعة - رغم كل الجهود والمحاولات، ورسالة والدته (زيت محل) الرقيقة الرحيمة. إلا بعد عشرة أعوام في أواخر عام ١٧٧١ م يوم ٢٥ كانون الأول - ديسمبر من عام ١٧٧١ م ثم ما وقع عليه وعلى خلفائه، قد سجله التاريخ كله بإسهاب وتفصيل، وقد كان أوج ذلك وذروته (Climax) تلك المأساة الأليمية لقلب السلطة والنظام - الذي لم يكن إلا اسماً - بل اختصابه وسلبه، التي وقعت على أيدي الإنكليز المستعمرین، الذين لم يضيعوا - لحكمتهم وحنكتهم وذكائهم السياسي - أي فرصة من الفرص للسيطرة على البلاد.

واستمر - بعد الإمام الدهلوi - خليفته بحق وجداره؛ ووارثه في علمه وبصيرته؛ وحميته الدينية، ابنه الكريim الأكبير سراج الهند (الشيخ عبد العزيز الدهلوi) على درب والده، وتحقيق مهمته التي بدأ بها، بل إكمالها وتوسيع نطاقها، وصرف كل همه وعناته - مع تغير الأوضاع السياسية إلى العدو الأصيل والقوة الحقيقة (أي السلطة الإنكليزية) في ميدان السياسة، التي تجاوزت حدود خطر من الأخطر - التي يحتاج لإدراكيها إلى بصيرة ووعي سياسي - إلى واقع ملموس يكفي لشهوده البصر الظاهر^(٣).

(١) الرسائل السياسية، ص ٤٧.

(٢) المرجع السابق، ص ٤٥.

(٣) سيأتي تفصيل هذا الإجمال في الفصل السابع من هذا الكتاب في ذكر الشيخ عبد العزيز الدهلوi.

وقد حاول بعد الشيخ عبد العزيز الدهلوi اثنان من تلامذته وغرسه من أصحاب العزيمة والدعوة والإصلاح والجهاد، الإمام (أحمد بن عرفان الشهيد)، والشيخ (إسماعيل الشهيد)، أن ينفذا ذلك المخطط السياسي الذي عرضه الإمام الدهلوi - نظرياً في (حجـة الله البالغة) و(إزالة الخفاء) و(التفهيمات الإلهية) وغامراً بـنفسـهما لـإقامةـ الحكومةـ علىـ منهاـجـ الخـلـافـةـ الرـاشـدةـ، ويـعـلـمـ منـ رسـائـلـ السـيـدـ أـنـهـماـ إـلـىـ أـيـ حدـ استـفـادـاـ مـنـ تعـالـيمـ الإـلـامـ الـدـهـلـوـيـ وـتـوجـيهـاتـهـ وـأـنـوارـهـ،ـ وإـلـىـ أـيـ حدـ بلـغـتـ عـزـائـمـهـمـ مـنـ الصـرـامـةـ،ـ وـهـمـمـهـمـ مـنـ الـعـلـوـ،ـ وـنـظـرـهـمـ مـنـ الـبـعـدـ،ـ وـالـعـقـمـ،ـ وـقـلـوبـهـمـ مـنـ الـرـاحـةـ وـالـسـعـةـ.

وقد كانوا يهدون إلى تحرير الهند - ولكنهم بدؤوا مؤقتاً بحماية مسلمي بنجاب من النكبات التي تعرضوا لها، وخطر الإبادة الشاملة الذي استهدفوا له في حكم السيخ في البنجاب، في هذا الحكم العسكري الطاغي المجائر، وكان الوضع الشاذ لا يحتمل التأجيل (كما كان شأن الإمام الدهلوi نفسه في تحصين بيته المعاصرة، ومجتمعه المعاصر، وحمايتهما من غارات الجت والمرهنة، وأغتيالاتهم اليومية) وبعد طرد الإنكليز المستعمررين، - الذين كانوا يصفونهم بالأجانب الدخلاء، والتجار التزلاء - كانوا يريدون حكم البلاد وتنظيمها وإدارتها في ضوء أصول العدالة والمساواة الإنسانية - يقدّر كل ذلك ، ويعلم من رسائل السيد التي كتبها إلى السلاطين المعاصرين ، والأمراء المعروفيـنـ وأـصـحـابـ الـغـيرةـ والـحـمـيـةـ منـ الـمـسـلـمـيـنـ وـالـوـلـاـةـ الـعـاقـلـيـنـ الـحـازـمـيـنـ^(١).

* * *

(١) انظر للتفصيل: الباب السادس عشر من كتاب (سيرة السيد أحمد الشهيد) (الأردية) بعنوان (الجهاد: دوافعه وأهدافه)، ص ٣٨٥ - ٣٩٤.

الفصل السادس

الحسنة على مختلف طبقات الأمة وَدَخُوتُهُ إِلَى الْإِصْلَامِ وَالتَّغْيِيرِ

ميزة الإمام الذهلي:

إن العلماء الكبار الذين يتذوقون العلم والبحث والتحقيق والتأليف، ويكونون على حظ وافر من الذكاء ودقة الملاحظة، وعمق النظر، ينصرفون كلياً - بصفة عامة - إلى دراسة الكتب والبحث العلمي والتحقيق، أو التدريس والتأليف، ويستغرقون فيه، ويعيشون في عزلة عن واقع المسلمين، وأدواء الطبقات المختلفة في المجتمع، وإنحرافاتها، ومواضع ضعفها، أو يصعب عليهم التزول إلى مستوى العامة، والتسلق إليهم من سماء العلم والنظر الذي يجدون فيه لذة وحلوة أكبر من كل لذة وحلوة.

وي يمكن أن يُستثنى من هذا العموم - بصورة واضحة - شخصيتان اثنتان:

أحد هما حجّة الإسلام الإمام الغزالى (ت ٥٠٥ هـ) الذي وضع الأصابع على أمراض الطبقات المختلفة من الأمة الإسلامية، والمجتمع المسلم في عصره، ومواضع ضعفه، في كتابه الخالد الذي طبع صيته الآفاق (إحياء علوم الدين)، بحيث يتجلّى منه أنه مارس الحياة العامة، واطلع على الطبقات المختلفة في المجتمع عن كثب، من جلّى دروس العلماء، ومجالس الذكر والمراقبة لدى المشايخ، إلى بلاط الخلفاء والسلطانين، وقصور الأمراء والأثرياء، ومساكنهم الوثيرة الناعمة، ومن هذه القصور الملكية والأميرية إلى ضريح حوانيت المحترفين والتجار، وجلبة الأسواق، ويعرف كيف تخدع النفس والشيطان

مختلف طبقات العلماء والوجهاء والأعيان، ومختلف أوساط الخواص والعوام، وكيف تغيرت الحقائق الأساسية والتصورات الدينية، وكيف عمت الغفلة عن الهدف الأعلى سعادة الآخرة ومرضاة الله تعالى^(١).

وهذا هو شأن العلامة ابن الجوزي (ت ٥٩٧هـ) مع شيء من الفرق في الإجمال والتفصيل والأسلوب والمنهج - في كتابه الشهير (تلبيس إيليس) الذي استعرض فيه المجتمع المسلم كله في عصره، واحتبر كل طبقة من طبقات المسلمين على محك السنة النبوية والشريعة الإسلامية، ودلّ على مواضع ضعفها وإنحرافاتها وأخطائها، ولم يحاب في هذه الدراسة الناقلة أي طبقة من الطبقات، فقد انتقد في العلماء والمحدثين، والفقهاء والواعظين، والحكام والسلطانين، والزهاد والعباد، والتصوفين والعامة من الناس أجمعين، وفضح مغالطاتهم وتلبيسات الشيطان عليهم^(٢).

ولكن هذا النقد فيما يتعلق بـ(تلبيس إيليس) أكثره سلبي وانتقاد فحسب، وليس معه دعوة قوية إيجابية واضحة لإصلاح الأوضاع وتوجيه المجتمع، وإن كانت فليست في كميتها وكيفيتها بالدرجة المطلوبة، ولعل السبب في ذلك أنَّ مجال هذا الموضوع ونطاقه المحدود لم يكن يتحمل أكثر من ذلك.

الخطابات الخاصة لمختلف طبقات الأمة:

وإننا نرى بعد هذين العالمين الجليلين المعروفين من معلمِي الأخلاق الفاضلة، والدعاة إلى الله (اللذين كانوا مع علو مرتلتهما في مجال الإصلاح والتربية من أجل العلماء والمؤلفين) مأثرة الإمام الذهلي - في هذا الصدد - من

(١) انظر للتفصيل والأمثلة: (إحياء علوم الدين)، ج ٢ - ٣؛ أو (رجال الفكر والدعوة في الإسلام)، (ترجمة الإمام الغزالى): ١/٢٥٧ - ٣١٥.

(٢) انظر للتفصيل: (تلبيس إيليس)، ص ١١٩ - ٣٩٤؛ أو (رجال الفكر والدعوة في الإسلام)، ج ١، (ترجمة العلامة ابن الجوزي). [لكن هذه الترجمة لم تُعرب وتنشر في الطبعة العربية للجزء الأول].

أروع المآثر وألمعها في تاريخ الإصلاح والتجديف، فإنّه قد خاطب السلاطين المسلمين والأمراء وأركان البلاط والجنود العسكريين والصناع والمحترفين، وأولاد المشايخ المتصوفين، وعلماء السوء المنحرفين، والوعاظ المتشدّقين المتّقشفيين، والزهاد المتعزلين، كل طبقة من هذه الطبقات على حدة، وفي صورة مستقلة، وضرب على وترهم الحساس، ودل على مكامن ضعفهم وأنحرافهم، وأنواع غرورهم وخداعهم.

كما خاطب الأمة الإسلامية - بصورة عامة - خطاباً جامعاً شاملاً، وكشف عن أمراضها وأدواتها، ووصف علاجها.

وقد بلغ توجّعه، وحرقة قلبه، واندفعه في الحمية الإسلامية وعاطفة الدعوة الدينية، وبلاعة البيان، وقوّة التعبير في هذه الخطابات الخاصة أوجها وذروتها، بحيث يصعب أن تجد أمثلتها في كتب المؤلفين السابقين - الذين مضى ذكرهم - والمصلحين الناقدين.

وسوف نورد مقتطفات من كتاب (التفهيمات الإلهية) للإمام الدهلوi الذي خاطب فيه قادة مختلف الطبقات البارزة المؤثرة وسادتها، ويتجلى في هذه الخطابات الخاصة من دقة نظر الإمام الدهلوi، وعمق ملاحظته وحكمته في الدعوة، وجرأته الخلقيّة، وأطلاعه الواسع الدقيق ما يحאר به دارس التاريخ الذي اطلع على انحطاط هذا العهد ومجتمعه، ومراعاة العلماء وأصحاب الأقلام لمصالحهم الشخصية، ويسأس الدعوة والمصلحين من إصلاح الأوضاع وتغيير الأحوال، ويتعجب ويقول: «هل كانت هذه الجمرة يارب كامنة في الرماد!».

وها نحن ننقل هذه الكلمات الموجّهة إلى مختلف الطبقات بنصّها:

١ - خطابه للسلاطين المسلمين:

«أقول للملوك: أيها الملوك! المرضي عند الملأ الأعلى في هذا الزمان أن تسلوا السيوف، ثم لا تغمدوها حتى يجعل الله فرقاناً بين المسلمين والمرتّكين،

وحتى يلحق مَرَدُّ الكفار والفساق بضعفائهم، لا يستطيعون لأنفسهم شيئاً، وهو قوله تعالى: ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا يَكُونُ فِتْنَةٌ وَيَكُونُ الَّذِينَ يُلْهُونَ ﴾ [البقرة: 193].

إذا ظهر الفرقان فرضاء الملا الأعلى أن تنصبو في كل ناحية وفي كل مسيرة ثلاثة أيام وأربعة أيام أميراً عادلاً، يأخذ للمظلوم حقه من الظالم، ويقيم الحدود، ويجهد أن لا يحصل فيهم بغي ولا قتال، ولا ارتداد ولا كبيرة، ويفشووا الإسلام، وتظهر شعائره، ويأخذ بفرائضه كل أحد، ويكون لأمير كل بلد شوكه يقدر بها على إصلاح بلده، ولا يكون له شوكة يتمتع بسببيها ويعصي السلطان.

وينصب في كل إقليم كبير أميراً يقلد القتال فقط، يكون جمعه اثنا عشر ألفاً من المجاهدين، لا يخافون في الله لومة لائم، يقاتلون كل بغٍ وعد.

إذا كان ذلك فرضاء الملا الأعلى أن يفتح حيتنه من النظمات المتزلية، والعقود ونحوهما، حتى لا يكون شيء إلا موافق الشرع، حتى يأمن الناس من كل وجه^(١).

٢ - خطابه للأمراء وأركان الدولة:

«... وأقول للأمراء: أيها الأمراء! أما تخافون الله، أشتغلتم باللذات الفانية الداثرة، وتركتم الرعية يأكل بعضها بعضاً، أما شرب الخمور جهرة وأنتم لا تنكرون؟ أما بنيت منازل ودور لزنا وشرب الخمر والقامر وأنتم لا تغيرون؟ أما هي البلاد الكبيرة لم يضرب فيها حد منذ ستمائة سنة أو أكثر، من وجدتموه ضعيفاً أكلتموه، ومن وجدتموه قوياً تركتموه وعترته، خاضت أفكاركم في لذائذ الطعام، ونواعم النساء، ومحاسن الثياب والدور، وما رفعتم إلى الله رأساً، وما ذكرتموه إلا بالستكم في حكاياتكم، كأنكم تريدون باسم الله انقلاب الزمان، تقولون: الله قادر على كذا، تعنون أنَّ الزمان قد ينقلب كذلك»^(٢).

(١) التمهيدات الإلهية: ١/٢١٥-٢١٦.

(٢) المرجع السابق: ١/٢١٦.

٣- خطابه للعسكر:

«وأقول للعسكر: أيها العسكر! أخرجكم الله للجهاد، ولتُظْهِرُوا كلمة الحق، وتكبِّروا الشرك وأهله، فتركتم ما أخرجكم لأجله، واتخذتم رباطاً للخيل وحمل السلاح كسباً، تستكثرون به أموالكم من غير نية الجهاد وقصده، شربتم الخمر والبنج، وحلقتم اللحى، وأعفيتم الشوارب، وظلمتم الناس، ولم ينالوا مما تأكلون، فوالله إلى الله سوف تُرجعون، فينبئكم بما كنتم تعملون.

كان مرضيُّ الحقّ فيكم أن تتزبوا بزيِّ الصالحين من الغزاوة، اغفوا اللحى، وقصوا الشوارب، وصلوا الصلوات الخمس، واتقوا الله في أموال الناس، واصبروا في الحرب والباس، وتعلموا رُخص الصلوات كالقصر والجمع، وأنه يجوز ترك السنن في السفر، وكذلك أحكام التيمم، فتمسکوا بها، وغضّوا على الفرائض، وأصلحوا نياتكم، يبارك لكم ربكم في خولكم، وينصركم على أعدائكم»^(١).

٤- خطابه للمحترفة والصناع:

«وأقول للمحترفة: ضاعت أماناتكم، وذهلت عن عبادة ربكم، وأشركتم بربكم، وذبحتم لطواحيتكم، وحججتم إلى المدار^(٢) والصالار^(٣)، فبئس صنيعكم ذلك، ورب إنسان منكم جعل الطيرة ماله وكسبه، فجعل يتتكلّف في لباسه وزيه ومطعمه ما لا يكفي له، فيضيّع حقوق نسائه.

ورب إنسان منكم اكتفى بشرب الخمر، واستئجار الفروج، فيضيّع معاشه ومعاده.

إن الله هيأ لكم من الكسب ما يكفي لكم ولذوي حقوقكم إن أنتم اقتتصدتم

(١) التفهيمات الإلهية: ١/٢١٦-٢١٧.

(٢) المراد به الشيخ بدیع الدین المکتبوری الذي یعرف بالشاه مدار.

(٣) المعنی به هو السيد سالار مسعود الغازی، المدفون في مدينة (بهرائیج) ترفع باسمه الأعلام، ويرد للاحتفال بمولده آلاف الناس من الأماكن البعيدة والقريبة.

واكتفيت بما يكون بُلْغَةً إلى المعاد، فكفرتم بنعمة ربكم، وأسأتم التدبير، أما تخافون عذاب جهنم وينش المهداد ..

واصرفوا أغذاتكم وعشيقكم في ذكر الله، وطول النهار في حرفتكم، والليل في نسائكم، واجعلوا الصرف أقل من الدخل، فما غير فواسوا فيه الغريب والفقير، وذرروا شيئاً لنوائبكم وحوائجكم، فإن خالفتم هذه الأمور فقد أساءتم التدبير^(١).

٥ - خطابه لأولاد المشايخ والمرشدين:

وقد نادى - هكذا - أولاد المشايخ، وطلبة العلم، والزهاد والوعاظ في عصره - بصفة خاصة - فيقول وهو يخاطب أولاد المشايخ يعظهم ويذكرهم:

«أقول لأولاد المشايخ المترسمين برسم آباءهم من غير استحقاق: يا أيها الناس! مالكم تحربتم أحزاباً، واتبع كل ذي رأي رأيه، وتركتم الطريقة التي أنزلها الله على محمد ﷺ رحمةً بالناس ولطفاً بهم، وهدى لهم، فانتصب كل واحد منكم إماماً، ودعا الناس إليه، وزعم نفسه هادياً مهدياً، وهو ضالٌّ مضلٌّ.

نحن لا نرضى بهؤلاء الذين يباهيون الناس ليشتروا به ثمناً قليلاً، أو يشوبيوا أغراض الدنيا بتعلم علم، إذا لا تحصل الدنيا إلا بالتشبه بأهل الهدایة، ولا بالذين يدعون إلى أنفسهم، ويأمرون بحب أنفسهم، هؤلاء قطاع الطريق دجالون كذابون مفتونون فتانون، إياكم وإياهم، ولا تتبعوا إلا من دعا إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ولم يدع إلى نفسه، ولا ترضوا بإشاعة الإشارات الصوفية في المجالس والمحافل، إنما المرضي الإحسان، أما لكم عبرة في قول الله تعالى: «وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَنَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ» [الأنعام: ١٥٣]^(٢).

٦ - خطابه للعلماء والطلاب:

ثم يخاطب العلماء والطلاب في عصره، فيقول:

(١) التفهيمات الإلهية: ١/٢١٧.

(٢) المرجع السابق: ١/٢١٤.

«أقول لطلبة العلم: أيها السفهاء المسمون أنفسكم بالعلماء اشتغلتم بعلوم اليونانيين، وبالصرف والنحو والمعاني، وظننتم أنَّ هذا هو العلم، إنما العلم آية مُحْكَمةٌ من كتاب الله تعالى، أن تتعلّموها بتفسير غربيها، وسبب نزولها، وتتأوّل معضلتها. أو سنة قائلة من رسول الله ﷺ، أن تحفظوا كيف صلَّى النبي ﷺ وكيف توضأ، وكيف كان يذهب ل حاجته؟ وكيف يصوم؟ وكيف يحج؟ وكيف يجاهد؟ وكيف كان كلامه؟ وحفظه للسانه؟ وكيف كانت أخلاقه؟ فاتبعوا هديه، واعملوا بسننته على أنَّه هدى وسنة، لا على أنها فرض ومكتوب عليكم، أو فريضة عادلة. أتعلّمون ما أركان الوضوء؟ وما أركان الصلاة؟ وما نصاب الزكاة؟ وما قدر الواجب؟ وما سهام فرائض الميت؟ أما السير وما يرغب في الآخرة من حكايات الصحابة والتابعين فهو فضل!». وأن ما اشتغلتم به وما يهتم به فليس من علوم الآخرة، إنما هي علوم الدنيا»^(١).

ثم يقول لهؤلاء الطلاب والعلماء:

«أن لا تشغلو بالعلوم الالهية إلا بأنها آلة، لا بأنها أمور مستقلة، أما أوجب الله عليكم أن تُشَيِّعُوا العلم حتى تظهر شعائر الإسلام في بلاد المسلمين، فلم تُظْهِرُوا الشعائر، وأمرتم الناس أن يستغلوا بالزوائد، واستكثرتם في أعينهم طلب الحق والدين، أما ترونَ البلاد العظيمة تخلو من العلماء - وإن كانوا - فهم دون ظهور الشعائر»^(٢).

٧- مع الوعاظ المعسرين في الدين والزهد المفزوين المنعزلين:
ثم خاطب أولئك الناس الذين جعلوا وساوسهم ونطرات قلوبهم ديناً، وكل من لم يتفق ومقاييسهم المؤسس على هوا جس النafs ونطرات القلب كأنه

(١) التهيمات الإلهية: ٢١٤/١.

(٢) المرجع السابق: ٢١٥/١.

خارج عن الدين، وقد كان معظم هذه الطبقة من الناس الذين أصيّبوا بهذا الانحراف من الزهاد المتقشفين، والعباد الغالين، والوعاظ المتشددين، ولذلك اختير لهم هذا العنوان.

«أقول للمتقشفين من الوعاظ والعباد والجالسين في الخانقاهات:

يا أيها المتنسكون! ركبتم كلّ صعب وذلول، وأخذتم بكلّ رطب وبابس، دعوتم الناس إلى الموضوعات والأباطيل، وعشرتم على الخلق، وإنما بعثتم ميسيرين لا معسرين، وتمسكتم بكلام المغلوبين من العشاق، وكلام العشاق يُطوى ولا يُروى، واستطعتم الوسواس، وسميتكم الاحتياط.

وكان مرضي الحق فيكم أن تفهموا الإحسان بجزأيه الاعتقادي والعملي، فتحصلوه من غير أن تخاطروا به أحوال المغلوبين، وإشارات المكاشفين، فادعوا الناس إليه، أما تعلمون أن الرحمة كل الرحمة والهدى [كل الهدى] ما جاءكم به محمد ﷺ، أكان يفعل فعلكم هذا أم كان أصحابه يفعلون هذه الأفعال^(١)؟

٨ - خطابه الشامل للأمة الإسلامية جماء: تشخيص الداء، ووصف الدواء:

ويخاطب - أخيراً - عامة المسلمين، لا يخصّ فيه طبقة منهم دون طبقة، يقول:

«أقول لجماعات المسلمين عموماً خطاباً واحداً:

يا معاشربني آدم! فسدت أخلاقكم، وغلب عليكم الشح، واستحوذ عليكم الشيطان، ورزئت النساء على الرجال، وغمط الرجال على النساء، واستطعتم الحرام، واستبيشعتم الحلال، فواه الله إن الله ما كلف نفساً إلا ما تطيق.

عالجو شهوة فروجكم بالنكاح، وإن كثرن، ولا تتكلّفوا في نفقتكم

(١) التفهيمات الإلهية: ٢١٥/١.

وزيكم مالا تطيقون، ولا تثُرْ زوازرة كأنها معلقة، ولا تضيقوا الأمور على أنفسكم،
فإنكم إن ضيقتم خرجت نفوسكم إلى حد الصدق .

ولأن الله يحب أن يؤخذ برضاه كما يحب أن يؤخذ بعزمـه .

وعالجو شهوة بطونكم بالأطعمة، واكتسبوا قدر ما يكفيكم، ولا تكونوا
كلاً على الناس، تسألونهم فلا يعطونكم، ولا تكونوا كلاً على الخلفاء والأمراء .
إنما المرضي لكم الكسب بأيديكم، إلا عبدُ ألهـمـه الله: أن الله يكفيك ، والله
يعصـمـك من آفات الفقر .

يا معاشر بنـي آدم! من رزقـه الله مسكنـاً يـؤـويـهـ، ومشـربـاً يـرـوـيـهـ، ومـطـعمـاً يـشـبـعـهـ،
ومـلـبسـاً يـسـترـهـ، وـمـنـحـاً يـحـصـنـ فـرـجـهـ، وـيـعـاوـنـهـ فيـ مـعـيـشـتـهـ، فـقـدـ أـدـىـ لـهـ الدـنـيـاـ
بـحـذـافـيرـهـ، فـلـيـشـكـرـ اللهـ، وـلـيـتـخـذـ كـسـبـاًـ يـكـفـيـهـ، وـلـيـكـنـ مـنـ شـأـنـ القـنـاعـةـ، وـالـقـصـدـ
فـيـ الـمـعـيـشـةـ، وـلـيـتـهـزـ الفـرـصـةـ لـذـكـرـ اللهـ، وـلـيـحـافـظـ عـلـىـ ثـلـاثـةـ أـوـقـاتـ: الـغـدوـةـ،
وـالـعـشـيـةـ، وـالـسـحـرـ، وـلـيـذـكـرـ اللهـ بـالـتـهـلـيلـ وـالـتـسـبـيـحـ وـتـلـاوـةـ الـقـرـآنـ، وـاسـتـمـعـواـ
الـمـحـدـثـ، وـاحـضـرـواـ حـلـقـ الذـكـرـ .

يا معاشر بنـي آدم! اتـخـذـتـ رـسـوـمـاًـ فـاسـدـةـ تـغـيـرـ الـدـيـنـ، اـجـتـمـعـتـ يـوـمـ عـاـشـورـاءـ
عـلـىـ الـأـبـاطـيلـ .

فـقـوـمـ اـتـخـذـوـهـ مـأـتـمـاًـ! أـمـاـ تـعـلـمـوـنـ أـنـ الـأـيـامـ أـيـامـ اللهـ، وـالـحـوـادـثـ مـنـ مـشـيـةـ
الـلـهـ، وـإـنـ كـانـ الحـسـينـ رـضـيـ اللـهـ عـنـهـ قـتـلـ فـيـ هـذـاـ الـيـوـمـ، فـأـيـ يـوـمـ لـمـ يـمـتـ فـيـهـ
مـحـبـوبـ مـنـ الـمـحـبـوبـيـنـ .

وـقـوـمـ اـتـخـذـوـهـ لـعـبـاًـ بـحـرـابـهـمـ وـسـلاـحـهـمـ .

وـقـوـمـ اـتـخـذـوـهـ مـنـسـكـاًـ، أـفـ لـصـنـيـعـكـمـ اـجـتـمـعـتـ يـوـمـ الـبـرـاءـةـ، يـلـعـبـ قـوـمـ،
وـيـزـعـمـ قـوـمـ أـنـهـ يـجـبـ إـكـثـارـ الـأـطـعـمـةـ لـلـمـوـتـيـ، قـلـ هـاتـوـاـ بـرـهـانـكـمـ إـنـ كـتـمـ صـادـقـينـ،
وـرـسـوـمـاًـ تـضـيـقـ عـلـيـكـمـ كـالـإـفـرـاطـ فـيـ الـوـلـاـئـمـ، وـكـالـامـتـنـاعـ مـنـ الـطـلاقـ، وـكـإـمـسـاكـ
الـمـرـأـةـ بـعـدـ زـوـجـهـاـ مـنـ النـكـاحـ، فـضـيـعـتـ أـمـوـالـكـمـ وـأـوـقـاتـكـمـ فـيـ الرـسـوـمـ، وـتـرـكـتـمـ
الـهـدـيـ الصـالـحـ .

وكان المرضي أن لا تخذلوا هذه الرسوم، وأن تخذلوا رسوماً سهلة ليس فيها ضيق، اتخذتم المأتم عيداً، كان إكثار الطعام واجب عليكم، وضيعتم الصلوات.

وقوم اشتغلوا بمكاسبهم، فلم يقدروا على الصلوات، ومنشأ هذا الفساد أنهم ما أخذوا رخصة الله.

وقوم اشتغلوا بتزجية الوقت، وترفيهه بالحكايات والأحاديث، فلو أنهم اتخذوا مجالسهم في رحاب حول المساجد، يسهل عليه الصلوات.

وضيعتم الزكاة، وما من غني إلا له متعللون من المحاويخ يطعمهم ويواسيهم، ولو أنه نوى الزكاة والعبادة لكتفاه.

وضيعتم صوم رمضان، فضييعه قوم لأنهم صاروا عسكراً لا يقدرون على الصوم، مع ما هم عليه من المحنّة، أعلموا أنكم أساس التدبير، وصرتم عيالاً على السلطان، ولما لم يجد السلطان ما يعطيكم، ضيق على الرعية، فما أقيبح صنيعكم هذا! قوم لا يتسرعون ولا يجتنبون أعمالاً شاقة، وذلك من سوء تدبيرهم وعقلهم».

ويقول أخيراً: «ومقالات الملا الأعلى في هذا الزمان كثيرة، والغرفة تنبئ عن الخير الكثير، والقليل يكون نموذجاً عن الكثير»^(١).

إصلاح الطقوس والتقاليد وتطهير المجتمع منها:

لم يقتصر الإمام الذهلي على هذه الخطابات الخاصة لهذه الطبقات الخاصة من الناس، بل شدد النكير على تلك الطقوس والتقاليد الهندوكتية، والبدع والشعائر غير الإسلامية، التي تسربت إلى المجتمع المسلم، وشاعت فيه - بسبب الاختلاط الطويل بالهندوك، ومواطنتهم لعدة قرون، وعدم الاهتمام بالسنة المشرفة والحديث الشريف، وغفلة العلماء وقصورهم، وعدم شعور

(١) التمهيدات الإلهية: ٢١٧-٢١٩.

الحكومة المسلمة بمسؤوليتها، وفقدان الحسبة الدينية - والتزم بها المسلمين التزاماً شديداً.

وشتئع على تلك المعتقدات الباطلة، والأوهام والخرافات الجاهلية، وتقليل غير المسلمين واتباعهم، وعابهم عليه.

وقد كان عامة العلماء المشتغلين بالعلوم العقلية والفنون الحكيمية لا يعيرون لهذه العادات والتقاليد الجاهلية بالأّ، ويرونها هيبة خفيفة، أو يتغاضون عنها فراراً من الواقع في المشاكل، ومعارضة الجماهير.

وقد بدأت هذه المهمة لإصلاح الطقوس والتقاليد وتطهير المجتمع المسلم منها - بعد الإمام السرهدني، الذي شتّع في عدد من رسائله على هذه المعتقدات الشركية والتقاليد الجاهلية، والطقوس الهندوسية^(١) - بجهود الإمام الدهلوi، وقد قام بتكميل هذه المهمة وتوسيعها - بعده - أبناءه الأعلام، ومن تخرج عليهم، ونشأ في أحضانهم من المصليحين المجددين كالأمام أحمد بن عرفان الشهيد (خليفة الشيخ عبد العزيز الدهلوi ابن الإمام الدهلوi) والشيخ إسماعيل الشهيد، حفيد الإمام الدهلوi^(٢).

ونورد هنا مقتطفاً من (التفهيمات الإلهية) و(وصايا الإمام الدهلوi)، يقول:

«من عادات الهندوس الشنيعة: أنه إذا مات زوج المرأة، فلا يخلونها تتزوج مرة ثانية، ولم تكن هذه العادة في العرب قط، لا قبل النبي ﷺ ولا بعد، فرحم الله آمراً يقضى على هذه العادة الشنيعة، وإذا لم يمكن القضاء على رواج هذه

(١) انظر: (رجال الفكر والدعوة في الإسلام) ج: ٣، المخاص بحياة الإمام السرهدني وأعماله.

(٢) انظر: الصراط المستقيم (إملاءات الإمام أحمد بن عرفان)، وترتيب الشيخ إسماعيل الشهيد، وقد نقله المؤلف إلى العربية وطبع باسم (رسالة التوحيد) في مطبعة ندوة العلماء لكتو الهند، وكتاب (سيرة السيد أحمد الشهيد) و(كاروان إيمان وعزيمت) بالأردو للمؤلف.

العادة في عامة الناس، فينبغي ترويج طريقة العرب فيما بين قبيلته، وإن لم يمكن ذلك كذلك فلا بد من استقبح هذه العادة ومخالفتها من أعماق القلب على الأقل، إذ هو آخر درجة من الإنكار على المنكر.

وعادتنا الشنيعة الثانية: أنا نغالي في المهور، وقد كان نبينا محمد ﷺ الذي نيط به شرفنا في الدنيا والآخرة - حدد لأهله الأقربين - الذين كانوا أفضَّلَ الخلق بعده - الشيء عشرة أوقيَّة ونصف أوقيَّة، وهو ما يبلغ خمسة درهم.

ومن عاداتنا الشنيعة: الإسرافُ، فإننا نبذُر الأموالَ في مناسبات الأفراح وتقاليد الأعياد، ولم يثبت عن النبي ﷺ إلا الوليمة في الزواج والعقيقة، ولذلك فينبغي الالتزام بهما، والاحتراز عن غيرهما، أو عدم الاهتمام الكثير بغيرهما.

ومن عاداتنا السيئة أيضاً الإسرافُ والتبذير في مناسبات المأتم باسم (سيم جهلَم، ششمائي، فاتحه، سالانه)^(١)، مع أنه لم يكن شيءٌ من هذا في العرب الأوَّلين، فمن الخير أن يهتمُ بتعزية ورثة الميت في مصابهم لثلاثة أيام، وبالطعام ليوم وليلة، ولا يلتزم بتقليد آخر، ولتجمع نساء القبيلة بعد ثلاثة أيام، ولزيارتين ثياب النساء ذوات قربى الميت، وإذا كانت زوجة الميت موجودة فليقض على سلسلة المأتم بعد عدتها^(٢).

ولقد صدق الأستاذ السيد أبو الأعلى المودودي رحمه الله تعالى إذ صرَّح في مقالة بعنوان (حقيقة منصب التجديد، ومكانة الإمام الذهلي في تاريخ التجديد) في مجلة (الفرقان) (العدد الخاص بالإمام الذهلي)، بعد إيراده لمقتضفات من (إزالة الخفاء) و(التفهيمات الإلهية) بما يلي:

«ويقدِّرُ من هذه المقتضفات - إلى حدٍ ما - أنه كيف استعرضَ الإمام الذهلي ماضي المسلمين وحاضرهم هذا الاستعراض التفصيلي، وكيف انتقدَهم بهذا الشمول والاستيعاب، وأنَّ من نتائج هذا النوع من الانتقاد اللازم أن جميع

(١) هذه تقاليد خاصة بالأيام المحددة بعد وفاة شخص.

(٢) التفهيمات الإلهية: ٢٤٦ - ٢٤٧، والوصايا (بالفارسية) طبع دهلي، ص ٢٤.

العناصر الصالحة في المجتمع التي لا تزال في إيمانها وضمائرها بقية من حياة، ولا تزال قلوبها تميّز الصالح من الطالح والخير من الشر. يقلقهم الشعور بفداحة الخطب، وسوء الأوضاع، ويرهف شعورُهم الإسلامي إلى حد أنه يربّهم كل أثر من آثار الجاهلية في الحياة من حولهم، ويحييك في صدورهم، وتقوى قوة التمييز، وتزداد فيهم، فيبدئون يحسّون بشوائب الجاهلية مع الإسلام في كل ناحية من نواحي الحياة، وتستيقظُ فيهم القوة الإيمانية إلى أنَّ كلَّ شوكة من أشواك الجاهلية تقضي مضمونهم وتدفعهم إلى الإصلاح.

ثم يلزم المجدد - بعد ذلك - أن يقدم أمامهم مخططًا واضحًا للبناء الجديد، حتى يركّزوا أنظارهم على الوضع المنشود، الذي يغير به الوضع الراهن، ويكتسوا كلَّ جهودهم ومحاولاتهم نحو هذه الجهة المطلوبة.

وقد أنجَز الإمام الدهلوi هذه المهمة البناءة أيضًا في شموٍ وإجادٍ وإتقانٍ، كما شاهدته في مهمته النقدية الماضية^(١).

* * *

(١) مجلة (الفرقان) (العدد الخاص بالإمام الدهلوi)، ص ١٠٢ - ١٠٣.

الفصل السابع

القِيَامُ بِتَبْرِيْسِ الْعِلْمَاءِ الرَّاسِخِينَ وَرَجَالِ الْعَزِيْمَةِ وَالْكَفَاحِ

أبناء الإمام - خلفاؤه العظام - معاصروه الكبار:

إنَّ من مزايا الإمام الدهلوi في سلسلة رجال الفكر والدعوة، ونعم الله تعالى الخاصة عليه من بين المصلحين والمجددين أنَّ الله عز وجل خَصَه بأولئك الأبناء والخلفاء الأعلام الكرام، الذين كانوا خيرَ خلفٍ لخير سلفٍ، والذين لم يحافظوا على ذلك المشعل الذي أناره الإمام الدهلوi مضيناً وهاجاً فحسب، بل أشعلوا به مئات من الشموع والمشاعل، ولم تزل هذه المشاعل تمدُّ المشاعل الأخرى، وتنتقل إليها من نورها وضوئها.

واستمرَّت هذه السلسلة المباركة دون انقطاع في شبه القارة الهندية وخارجها في نشر تعاليم الكتاب والسنَّة والعقائد الصحيحة، والتَّوحيد الخالص، والرد على الإشراك والبدعة، وإصلاح التقاليد والعادات، وتركيبة النفوس، وتهذيب الأخلاق، والوصول إلى درجة الإحسان، وإعلاء كلمة الله تعالى، والجهاد في سبيله، والحمية الدينية، والغيرة الإسلامية، وإقامة المدارس الدينية، وعرض تعاليم الإسلام الصحيحة، والكتابة والتَّأليف لتَبليغ هذه الرسالة والدعوة إليها، وترجم القرآن الكريم، والعناية بالحديث الشريف، وكتب الفقه، إلى يومنا هذا.

فلو درستنا تاريخَ هذه الخطوات والجهود المباركة، وبحثنا عن مراكم هذه الخيرات والمبرات، ونسب هذه السلسل والحلقات، لرأينا أنَّ الشموعَ تضيءُ الشموعَ، والمشاعلَ لم تزل تمدُّ المشاعلَ، وقد أضاءت هذه الشموعُ والمشاعلُ

كلها بذلك السراج المنير، الذي أشعله الإمام الدهلوi في منتصف القرن الثاني عشر، وسطَ العواصف الهوجاء، والرياح العاتية الشديدة.

الشبه العجيب بين الإمام الدهلوi والإمام السرهندي:

إنَّ هناك شبهاً عجياً بين الإمام الدهلوi والإمام المجدد السرهندي مؤسس السلسلة النقشبندية المجددية في أبنائهما الأعلام، ونشر دعوتهما، وطريقتهما الخاصة على أيديهم ومجهودهم.

وهو رغم فضائل ومناقب أخرى كثيرة خصيصة نادرةٌ عجيبةٌ في كتب التاريخ والتراجم - فقد كان للإمام (السرهندي) أربعةُ أبناء قد بلغوا درجة النبوغ والكمال [وهم] : الشيخ محمد صادق، والشيخ محمد سعيد، والشيخ محمد معصوم، والشيخ محمد يحيى، وقد توفي الشيخ محمد صادق حين كان عمره (٢٥) سنة عام ١٠٢٥ هـ وقد وردت عن الإمام السرهندي فيه كلمات عالية، ونحوت ذات قيمة.

وقد انتشرت السلسلة المجددية على أيدي الأبناء الثلاثة الكرام المؤخري الذكر، وتم توسيعُ نطاق هذه السلسلة وتبلغها إلى الآفاق، وتمكيل تلك المهمة الثورية التجددية التي بدأ بها الإمام السرهندي على أيدي هؤلاء الأبناء الأعلام وعن طريقهم.

ويليهم في انتشار الطريقة المجددية الشيخ السيد (آدم البُّوري) الذي لم تكن صلته مع الإمام السرهندي صلة قرابة، بل كانت صلةً روحيةً تقوم على التربية والاسترشاد، وقد بلغت هذه السلسلة من القوة، وكتب لها القبول إلى حد أنَّ الإمام الدهلوi، والإمام أحمد بن عرفان الشهيد، والشيخ إمداد الله المهاجر المكي، وخلفاءهم الكبار، والعلماء الأجلة العظام، كلُّهم يتعمون إلى هذه (السلسلة الآدمية).

ويمتازُ مِنْ بين هؤلاء الأنجال الكرام الشيخ (محمد معصوم)، فقد وصلت عن طريقه هذه السلسلة إلى تركستان والبلاد العربية وتركية، وقد صدق من قال :

«إنَّ الشِّيخَ مُحَمَّدَ مَعْصُومَ سَرَاجَ يَنِيرَ سَبْعَ مَمَالِكَ، فَقَدْ اسْتَنَارَتْ بِهِ الْأَرْضُ
مِنَ الْهِنْدِ إِلَى الرُّوْمِ».

ثم كانت يدُهُ الخفية وعندياته الروحية التربوية هي التي تعملُ وراء الستار، حتى خلفَ على عرش السلطان (أكبر) بعد عقدين من خلفائه ذلك السلطان المجاهد المتدين الفقيه المتدق بالحمية الدينية، الذي كان حامياً للدين، بدلاً من أن يكون ماحياً له، وخداماً للإسلام بدلاً من أن يكون هادماً له، وكان الشيخ محمد معصوم يخاطب من قبل بالأمير الحارس للدين، وكأنه بذلك كان يعده لهذا العمل العظيم.

* * *

أَدْبُرُ أَبْنَاءِ الْإِمَامِ الدَّهْلَوِيِّ الْأَعْلَامِ

وهكذا خلف الإمام الدهلوi أربعة أبناءٍ نوابغ وهم: الشيخ عبد العزيز الدهلوi، والشيخ عبد الوهاب (رفيع الدين)، والشيخ عبد القادر، والشيخ عبد الغني.

وكان من قصتهم أيضاً أنَّ الشيخ عبد الغني (الذي كان أصغر هؤلاء الأبناء الأربع سنًا وهو والد العلامة الشيخ إسماعيل الشهيد) توفي قبلهم جميعاً عام ١٢٢٧هـ.

واستمرت دعوة الإمام الدهلوi وتعاليمه ونشر علومه ومعارفه، وتربية رجال العمل والجهاد، والمنهج الخاص للتدرس والتأليف، الذي كان يتجلى فيه ذوقُ الإمام الدهلوi، وصيغة تجديده واجتهاده عن طريق هؤلاء الأبناء الثلاثة.

ثم حازَ سراجُ الهند الشيخ عبد العزيز الدهلوi - مِنْ بَيْنَ هُؤُلَاءِ الْإِخْرَاجِ - تلك المكانةُ العاليةُ الممتازةُ، التي كان يتمتع بها الشيخ محمد معصوم من بين أبناء الإمام السرهندي، وقد انتشرت به سلسلةُ الإمام الدهلوi وعلومه ومعارفه انتشاراً عالمياً، وبلغت بعضُ الجوانبِ من عمله التجديدي ذروتها وأوجَ كمالها على يديه، حتى نضطر أن نقول في أدبِ وتهيئِ: إنَّ مَا لم يستطعَ الوالد تحقيقه وإنجازه حققه الابن النابغة وأكمله.

و قبل أن نذكر هذه المهمة من التكميل والتوضيح لأعمال الإمام الدهلوi وما تأثره، التي قام بها الشيخ عبد العزيز الدهلوi، نود أن نسوقَ نبذةً من سيرته وتعريفاً بشخصيته، وترجمةً موجزةً جامعاً له، ونكتفي في هذا الصدد باقتباس ترجمته من كتاب (نزهة الخواطر) للعلامة السيد عبد الحي الحسني - رحمة الله تعالى - المجلد السابع، فهي على وجائزتها شاملةً جامعاً:

١- الشیخ عبد العزیز الدهلوی:

«الشیخ الإمام العالم الكبير العلامة المحدث عبد العزیز بن ولی الله بن عبد الرحيم العمري الدهلوی سید علمائنا في زمانه، وابن سیدهم، لقبه بعضهم (سراج الهند) وبعضهم (حجۃ الله).»

ولد ليلة الخميس لخمس ليال بقین من رمضان سنة تسع وخمسين ومئة ألف، كما يدلُّ عليه لقبه المؤرخ لمولده (غلام حلیم).

حفظ القرآن، وأخذ العلم عن والده، فقرأ عليه بعضاً، وسمع بعضاً آخر بالتحقيق والدرایة والفحص والعنایة، حتى حصلت له ملکة راسخة في العلوم.

ولما توفي أبوه، وانتقل إلى جوار رحمة الله تعالى ورضوانه، كان له ست عشرة سنة عند وفاة والده، فأخذ عن الشیخ نور الله البرهانوی، والشیخ محمد أمین الكشمیری، وأجازه الشیخ محمد عاشق بن عبید الله الفلتی، وكانوا من أجلة أصحاب والده، فاستفادَ منهم ما فاتَه من أبيه، وله رسالة فضیل فيها ما قرأه على والده وعلى غيره من العلماء، فقال:

«إنه أخذَ بعض كتب الحديث مثل أحاديث (الموطا ضمن المسوى) و(مشکاة المصایب) بتمامه قراءةً على والده، و(الحصن الحصین) و(شمائل الترمذی) سمعاً عليه بقراءة أخيه الشیخ محمد، و(صحیح البخاری) من أوله إلى كتاب الحج سمعاً عليه بقراءة السيد المولوی ظہور الله المراد آبادی، و(مقدمة صحيح مسلم) وبعض أحاديثه، وبعض (سنن ابن ماجه) سمعاً عليه بقراءة محمد جواد الفلتی، و(المسلسلاط) وشيئاً من مقاصد (جامع الأصول) بقراءة مولوی جار الله نزیل مکة، وشيئاً من (سنن النسائي) سمعاً عليه. وبقية هذا الكتاب من الصلاح ست قرأها سمعاً على خلفاء والده كالشیخ نور الله وخواجه محمد أمین.

وأخذَ غير ذلك من الكتب، إجازة عامة من أفضل خلفائه وابن حاله الشیخ محمد عاشق الفلتی، وخواجه محمد أمین، وإجازة والده لهما مكتوبةً في

(التفهيمات الإلهية)، (شفاء العليل)، و هو لاء قرأوا على والده، مع أنَّ الشيخ محمد عاشق كان شريكاً لوالده في السماع والقراءة والإجازة عن شيخهما أبي طاهر المدني، وأسانيدُه مذكورةٌ في كتابه (الإرشاد في مهمات الإسناد) وفي غير ذلك من الرسائل.

وكان طويلاً القامة، نحيفَ البدن، أسمَّ اللون، أنجلَ العينين، كثُرَ اللحية، وكان يكتب النسخَ والرقاعَ بغاية الجودة، وكانت له مهارة في الرمي والفرروسية والموسيقى.

وقد قرأ عليه إخوته عبد القادر ورفع الدين وعبد الغني وخُطْبَتْه عبد الحفيظ بن هبة الله البرهانوي.

وقرأ عليه المفتى إلهي بخش^(١) الكاندھلوی ، والسيد قمر الدين السوسي بتي مشاركاً لإخوته في القراءة والسمع .

وقرأ عليه الشيخ غلام بن عبد اللطيف الدهلوی (صحيح البخاري) قراءة عليه .

وقرأ عليه السيد قطب الهدی بن محمد واضح البریلوی الصاحبَ الست . وأما غيرهم من أصحابه فإنهم قرؤوا على إخوته، وأسندوا عنه، وحضروا مجالسه، وسمعوا كلامه في دروس القرآن، واستفادوا منه ما شاء الله .

وأما سبطه إسحاق بن أفضل العمري، فإنه كان مقرئه، يقرأ عليه كل يوم ركوعاً من القرآن، وهو يفسره، وهذه الطريقة كانت مأثورة عن أبيه الشيخ ولی الله، وكان آخر دروس الشيخ ولی الله المذكور: «أعذلوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ» [المائدة: ٨]. ومن هناك شرع عبد العزيز، وأآخر دروسه كان: «إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَنذِّلُوكُمْ» [الحجرات: ١٣]. ومن هناك شرع سبطه إسحاق بن أفضل كما في (مقالات الطريقة).

(١) عطا الله.

وكان رحمة الله أحد أفراد الدنيا بفضله وآدابه، وعلمه وذكائه، وفهمه سرعة حفظه، اشتغل بالدروس والإلقاء، وله خمس عشرة سنة، فدرس وأفاد، حتى صار في الهند العَلَم المفرد، وتخرج عليه الفضلاء، وقصدته الطلبة من أغلب الأرجاء : وتهافتوا عليه تهافت الظمآن على الماء .

هذا وقد اعتبرته الأمراض المؤلمة وهو ابن خمس وعشرين، فأدت إلى المراق والجذام والبرص والعمى ونحو ذلك ، حتى عد منها أربعة عشر مرضًا مفجِعًا ، ومن ذلك السبب فوضَّ تولية التدريس في مدرسته إلى صنويه رفيع الدين وعبد القادر ، ومع ذلك كان يدرس بنفسه النفيضة أيضًا ، ويصنف ويفتني ويعظ ، ومواعظه كانت مقصورة على (حقائق التنزيل)^(١) في كل أسبوع يوم الثلاثاء .

وكان في آخر عمره لا يقدر أن يقعد في مجلسٍ ساعةً، فيمشي بين مدرستيه القديمة والجديدة ، ويشتغل عليه خلق كثير من ذلك الوقت فيدرّس ويفتني ، ويرشد الناس إلى طريق الحق ، وكذلك يمشي بين العصر والمغرب ، ويدهب إلى الشارع الذي بين المدرسة والجامع الكبير ، فيتهادى بين الرجلين يميناً وشمالاً ويتربّق الناسُ قدوّمه في الطريق ، ويستفيدون منه في [حل] مشكلاتهم .

ومن تلك الأمراض المؤلمة فقدان الاستهاء إلى حد يقضي أيامًا وليلًا لا يذوق طعم الغذاء ، حتى صار الأكلُ غبًّا بطريق النوبة كالحمى ، صرَّح بها في تقريره على (المناقب الحيدرية) قال فيه :

«ويعتذر من التقصير في التقرير بأعذارٍ صادقةٍ، وأمراضٍ سابقةٍ ولا حقةٍ حتى أدت إلى فقدان الطعام بالمرة، وصار الأكلُ غبًّا بطريق النوبة، كالحمى لغبنة المرة، وتساقطت القوى، واختلت الحواس، وتهارت الأعضاء والظام والأضراس، إلى غير ذلك».

وقال في كتابه إلى أمير حيدر بن نور الحسينين البلگرامي: «إإن سألكم عن

(الناشر)

(١) للإمام النسفي .

حال هذا المُحِبّ، فهو في سقم واصب ليلًا ونهاراً، وكرب يزعجه سرًا وجهاراً، وقرار زائل، وقلق حاصل، وذلك لاجتماع أمراض كلٌ منها بانفراده يكفي لإزعاج الرجل وإكماده، منها: قبضُ البواسير، واحتباسُ الرياح في المعدة والأمعاء، ومنها: فقدان الاستهاء إلى حد يقضى أيامًا وليالي لا يذوق طعمَ الغذاء، ومنها صعود الأبخرة إلى القلب، فيحاكي حالة الانزهاق والاختناق، وربما تصعد إلى الدماغ فتحدث شقيقةً ثاقبة، وصداعاً لذاعاً كأنها ضربات الدقاق، وإلى الله المُشتكي، وهو المستعان، فهذه لا يسع النطق ببنت شفة فضلاً عن إملاء كتاب وإنشاء صحيفة أو خطاب إلى غير ذلك».

ولعلك تتعجب أنه كان مع هذه الأمراض المؤلمة والأسقام المفجعة لطيف الطبع، حسن المحاضرة، جميل المذاكرة، فصيح المنطق، مليح الكلام، ذات تواضع وبشاشة وتودد، لا يمكن الإحاطة بوصفه، ومجالسته هي نزهة الأذهان والعقول، بما لديه من الأخبار التي تشتفف الأسماع، والأشعار المهدبة للطبع، والحكايات عن الأقطار البعيدة وأهلها وعجائبها، بحيث يظن السامع أنه قد عرفها بالمشاهدة، ولم يكن الأمر كذلك، فإنه لم يعرف غير مملكته، ولكنه كان باهر الذكاء، قوي التصور، كثير البحث عن الحقائق، فاستفاد بذلك بوفود أهل الأقطار البعيدة إلى حضرة دهلي، ولأنه قد صنف الناس في الأخبار مصنفات يستفيد بها مما يقرب من المشاهدة.

وكان الناس يقصدونه ليستيندوه من علمه، والأدباء ليأخذوا من أدبه، ويعرضوا عليه أشعارهم، والمحاويج يأتونه يشفع لهم عند أرباب الدنيا، ويواسيهم مما يمكنه، وكرمه كلمة إجماع، والمرضى يلوذون به لمداواتهم، وأهل الجذب والسلوك يأتونه ليقتبسوا من أشعة أنواره، وغرباء الديار من أهل العلم والمشيخة ينزلهم في منزله، ويفضل عليهم بما يحتاجون إليه، ويensus في قضاء أغراضهم، ونيل مطالبهم، وإذا جالسه منحرفُ الأخلاق، أو مَنْ له في مسائل الدينية بعض الشقاق، جاءه من سحر بيانه بما يؤلف بين الماء والنار، ويجمع بن الضب والنون، فلا يفارقه إلا وهو عنده راض.

قال الشيخ محسن بن يحيى الترهتي في (الیانع الجنی) : إنَّه قد بلغ من الكمال والشهرة بحيث ترى الناس في مدن أقطار الهند يفتخرُون باعتزائهم إليه ، بل بانسلاكهم في سلطان من ينتمي إلى أصحابه ، قال : ومن سجایاہ الفاضلة الجميلة التي لا يدانیه عامة أهل زمانه قوَّةً عارضته ، لم يناضل أحداً إلَّا أصاب غرضه ، وأصْمَى رميته ، وأحرز خصله .

ومن ذلك براعته في تحسين العبارة وتحبيرها ، والتأنق فيها وتحريرها ، حتى عَلِّه أقرأنه مقدماً من بين حلبة رهانه ، وسلَّمَوا له قصبات السبق في ميدانه .

ومنها فراسته التي أقدرها الله بها على تأويل الرؤيا ، فكان لا يعبر شيئاً منها إلَّا جاءت كما أخبر بها كأنه قد رأها ، وهذا لا يكون إلى لأصحاب النقوش الزاكيات ، المطهرة عن أدناس الشهوات الرديئة وأرجاسها ، وكم له من خصال محمودة وفضائل مشهودة .

وجملة القول فيه : إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى قَدْ جَمَعَ فِيهِ مِنْ صُنُوفِ الْفَضْلِ وَشَتَّاهُ الَّتِي فَرَقَهَا بَيْنَ أَبْنَاءِ عَصْرِهِ فِي أَرْضِهِ مَا لَوْرَآهُ الشَّاعُورُ الَّذِي يَقُولُ :

وَلَمْ أَرْ أَمْثَالَ الرِّجَالِ تَفَاوتُ ا لَدِيَ الْمَجْدِ حَتَّىْ عُدَّ الْفُّ بِوَاحِدٍ

استبان له مثل ضوء النهار أنه وإن كان عنده أنه قد بالغ فيه فإنه قد قصر ، فكيف الظن بأمثاله أن يحسن عدد مفاخره التي هي أكثر عدداً من حصى الحصى ونجوم السماء . . .

هذا وللشيخ عبد العزيز مؤلفات كلها مقبولة عند العلماء ، محبوبة إليهم ، يتنافسون فيها ، ويبحتجون بترجيحاته ، وهو حقيقٌ بذلك ، وفي عبارته قوَّةً وفصاحةً وسلامةً ، تعشقها الأسماعُ ، وتلتذَّ بها القلوب ، ولكلامه وقع في الأذهان قلَّ أنْ يمعن في مطالعته مَنْ له فهمٌ ، فيبقى على التقليد بعد ذلك ، وإذا رأى كلاماً متهاضاً زيقه ومزقه بعبارات عذبة حلوة ، وقد أكثر الحطَّ على الشيعة في المسائل الكلامية ، وله حجة قاطعة عليهم لا يستطيعون أن ينطقوها في جوابٍ تُحْفَتُه بِبِنْتِ شَفَةٍ» .

وأما مصنفاته:

- ١ - فأشهرها: تفسير القرآن المسمى (فتح العزيز) صنفه في شدّة المرض، ولحقه الضعف إملاءً، وهو في مجلدات كبار، ضاعَ معظمُها في ثورة الهند، فما بقي إلا مجلدان من أول وأخر.
- ٢ - ومنها (الفتاوى في المسائل المشكلة)^(١)، وقد جمعت ما تحويها ضيّحات الدفاتر، والميسر منها أيضاً في مجلدين.
- ٣ - ومنها (التحفة الإثنى عشرية) في الكلام على المذهب الشيعي، كتاب لم يسبق إلى مثله.
- ٤ - ومنها كتابه (بستان المحدثين)^(٢)، وهو فهرسُ كتب الحديث، وترجم أهلها ببسط وتفصيل، ولكن لم يتم.
- ٥ - ومنها (العجالة النافعة) رسالة له بالفارسية في أصول الحديث.
- ٦ - ومنها رسالة فيما يجب حفظه لطالبي الحديث.
- ٧ - ومنها (ميزان البلاغة) متنٌ متينٌ له في علم البلاغة.
- ٨ - ومنها (ميزان الكلام) متنٌ متينٌ في علم الكلام.
- ٩ - ومنها (السرُّ الجليل في مسألة التفضيل) رسالة له في تفضيل الخلفاء بعضهم على بعض.
- ١٠ - ومنها (سرُّ الشهادتين) رسالة نفيسة له في شهادة الحسينين رضي الله عنهمَا.
- ١١ - ومنها رسالة في الأنساب.
- ١٢ - ومنها رسالة عجيبة له في الرؤيا.

(١) لقد كان الشيخ عبد العزيز الذهلي عالي الكعب في الفقه الحنفي، وكانت له قدم راسخة، وبصيرة دقيقة فيه، حتى يعتبره بعض العلماء من أصحاب الاختصاص، إنه يبذل فيه والده الإمام الذهلي.

(٢) يقدر من هذا الكتاب اطلاعه الواسع على كتب الحديث وطبقات المحدثين.

وله غير ذلك من الرسائل.

وأما مصنفاته في المنطق والحكمة:

١٣ - ف منها حاشية على (ميرزا هد) رسالة.

١٤ - وحاشية على (ميرزا هد ملا جلال).

١٥ - وحاشية على (ميرزا هد شرح المواقف).

١٦ - وحاشية على (حاشية ملا كوسج) المعروفة بالعزيزية.

١٧ - وحاشية على (شرح هداية الحكمة) للصدر الشيرازي.

١٨ - وله شرح على أرجوزة الأصممي.

وله مراسلات إلى العلماء والأدباء.

وتتخميس نفيس على قصيبي والده (البائية) و(الهمزية)^(١).

وكان نسيج وحده في النظم والنشر وقوة التحرير، وغضارة الإملاء، وجزالة التعبير، وكلامه عفو الساعة، وفيض القرىحة، ومسارعة القلم، ومسابقة اليد، وعندي بفضل الله جملة صالحة منها، ولو كان يسعها هذا المختصر لأوردت شيئاً كثيراً هننا.

توفي بعد صلاة الفجر يوم الأحد لسبعين خلون من شوال سنة تسع وثلاثين ومئتين وألف، وله ثمانون سنة، وقبره بدھلي عند قبر والده خارج البلد^(٢).

(١) يعتبر شعر الشيخ عبد العزيز الدھلوي لاسيما قصيبيه اللامية - التي أوردها مؤلف (نزهة الخواطر) في ترجمته - من أرفع نماذج الشعر العربي، ويظهر أنه يفوق شعر الإمام الدھلوي، ولا نجد مثل هذه العربية السليقة بعده إلا في شعر تلميذه النجيب المفتى صدر الدين خان، اقرأ الآيات التي وردت في (الثقافة الإسلامية) كنموذج لشعره، وفي (نزهة الخواطر) في ترجمته.

(٢) نزهة الخواطر: ٧/٢٧٥ - ٢٨٠ (الطبعة الثانية).

قيامه بتكمليل أعمال الإمام الدهلوi الخاصة، وتوسيع نطاقها:

يمكن أن نرّجع أعمال الإمام الدهلوi التجديدية إلى خمس شعب:

١ - ترجمة القرآن الكريم، والقيام بنشر تعاليمه ومحفوبياته في المسلمين بصفة عامة، وتصحيح العقائد عن طريقه، والجهود المتواصلة لتمتين صلة العامة بالدين الخالص ، والتعاليم الإسلامية السمعحة العادلة .

٢ - القيام بنشر الحديث الشريف ، والدعوة إلى إحياء السنة النبوية ، وإقامة دروس الحديث الشريف ، والاهتمام بأسانيده وإجازاته ، والقيام بحلقاته ، وإعداد المدرسین للحديث والشارحین لكتبه .

٣ - مقاومة فتنـة التشـيع والـرفـض ، وسـدـ كلـ المناـفـذـ والأـبـوابـ ضدـ المحـاوـلـاتـ المشـبـوـهـةـ لـلـطـعنـ فـيـ الصـحـابـةـ رـضـيـ اللـهـ عـنـهـمـ ،ـ وـالـتـشـكـيـكـ فـيـ قـطـعـيـةـ الـقـرـآنـ الـحـكـيـمـ .

٤ - إحياء الجهاد في سبيل الله ، ومقاومة أكبر خطر وأعظم تحد لحرية المسلمين وسلطهم الإسلامية في الهند .

٥ - تربية الرجال الأ��فاء لمهمة الإصلاح والدعوة حسب مقتضيات الظروف والأوضاع ومتطلبات الدين الحقيقة .

٦ - الدعوة إلى فهم القرآن الكريم، والقيام بنشر تعاليمه، وتبلیغ رسالته:

أما ما يتعلّق بتبلیغ رسالة القرآن الكريم إلى عامة الناس ، وإصلاح العقائد الباطلة والتقاليد المنحرفة ، وإقامة الصلة والعلاقة مع الله تعالى عن طريقها ، فإنَّ الشیخ عبد العزیز الدهلوی قد قام في هذا الصدد بتوسيع مهمة والده الإمام الدهلوی ، فقد زادها تقدماً وقبولاً وسعةً وشمولاً .

لقد كانت دروس الإمام الدهلوی في القرآن الكريم وصلت إلى هذه الآية ﴿أَعَدُّوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ [المائدة: ٨]. حيث وفاه الأجل المحتوم ، فبدأ الشیخ عبد العزیز الدهلوی سلسلة دروسه منها ، وكان قد بلغ إلى قوله تعالى من

سورة الحجرات «إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَقْنَدُكُمْ» [الحجرات ١٣]. وإذا بهذه السلسلة من دروسه قد انقطعت مع انقطاع سلسلة حياته، وبدأ بعده ابن بنته الشيخ محمد إسحاق (الذي كان قد تربى وتخرج على يديه وكان خليفته بحق) دروسه في القرآن الكريم.

كانت دروس الشيخ عبد العزيز الذهلي في القرآن الكريم يومي الثلاثاء والجمعة من كل أسبوع، يحضر فيها الخاصة من الناس - بصفة خاصة - والعامة منهم برغبة وشوق وتذوق، وكانت قريحته الفياضة وطبعه الريان يفيضان في هذه الدراسات في اندفاع وجولان، وتهمر عليه الحقائق والمعاني كالسيل^(١).

وقد عمّ بهذه الدراسات تذوق القرآن الكريم في العاصمة دهلي (التي كانت مركز العلماء وأهل الفضل والكمال) وجرت موجة قوية من إصلاح العقائد، وبدأت سلسلة مباركة لترجمة القرآن وتفسيره لم تزل حلقاتها متصلة إلى يومنا هذا في شبه القارة الهندية، وقد صلحت بها نفوس مئات الآلاف من الناس، وحسنت أحوالهم، وذاقت قلوبهم وعقولهم عن طريقها حلاوة التوحيد الخالص، ولذلة القرآن الكريم، وتمتعته الروحية، حتى المدارس الإسلامية بدأت فيها سلسلة الدراسات القرآنية، وفهم معانيه ومطالبه بتأثير أولئك العلماء الذين تكونت ثقافتهم، وتمّت تربيتهم في حلقات هذه الدراسات، التي لم يعط لها مكان في المنهج الدراسي إلا في صورة (التفسير الموجز)^(٢) للبركة فحسب، وتحطيم ذلك الطلسم الذي روج له علماء الدنيا أنّ نشر القرآن الكريم في العامة نذيرٌ خطيرٌ كبيرٌ، وتمهيدٌ لضلالٍ مستطيرٍ، وقد كان يعمل في ذلك وراء الستار هذا الخوف بأن الجماهير من الناس سوف تخرج بذلك عن سلطة العلماء المحترفين المرتّزين، الذين جعلوا القرآن العظيم أحجيةً من الأحجاج أو لغزاً من الألغاز، وحاولوا بذلك إبعاد الناس عنه، وحرمانهم منه.

(١) انظر: مجموعة كلمات الشيخ عبد العزيز (ملفوظات عزيزي)، ص ١٠ .

(٢) كان المنهج الدراسي - قديماً - يشتمل على (تفسير الجلالين) و(تفسير البيضاوي) (سورة البقرة فحسب) ولم تكن ترجمة القرآن وتفسيره كله متداولاً.

والمأثرة العلمية الإصلاحية الثانية للشيخ عبد العزيز الدهلوi هي تفسيره المسماى (فتح العزيز) أو ما يسمى (التفسير العزيزي) أو (بستان التفاسير) وهو كتاب مستقل مؤلف من إملاءات الشيخ عبد العزيز، وهو يشتمل - حسب تصريح الشيخ الدهلوi نفسه - على تفسير سورة الفاتحة، وسورة البقرة، ثم سورة الملك إلى آخر القرآن الكريم^(١)، إلا أن سورة البقرة لم تتم لأسباب لا نعلمها، فلم يطبع منها إلا إلى قوله تعالى: «وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرًا لَكُمْ» [البقرة: ١٨٤].

وقد صدرت لهذا الأصل الفارسي من التفسير عدّة طبعات، ويشتمل على ثلاثة مجلدات، المجلد الأول من سورة الفاتحة إلى ربع الجزء الثاني، والمجلد الثاني من سورة الملك إلى آخر سورة المرسلات، والمجلد الثالث من سورة النبأ إلى آخر القرآن الكريم.

وقد ألف بعد الشيخ عبد العزيز الدهلوi تلميذه الفاضل العلامة (حيدر علي الفيض آبادي) (ت ١٢٩٩هـ) صاحب (متهى الكلام) تكملاً لهذا التفسير: يقول مؤلف (مقالات طريقت):

لقد أكمل الشيخ (حيدر علي) مؤلف (متهى الكلام) - حسب رغبة الأميرة سكدر بيكم والية بوفال - تفسير (فتح العزيز) في (٢٧) مجلداً، وشاهدته كاتب هذه السطور^(٢)، وتوجد هذه التكملة إلى آخر الجزء الخامس فحسب في مكتبة ندوة العلماء، وقد فقدت ورقتان من بدايتها.

وهناك تفسير بالأردية يسمى (التفسير العزيزي) ويعرف أيضاً بـ(الوعظ العزيز) وقد طبع في المطبع الأننصاري بدلهلي، وهو يشتمل حسب تصريح مرتبه الشيخ أبي الفريد محمد إمام الدين - على مجموعة دروس الشيخ عبد العزيز

(١) انظر مقدمة تفسير (فتح العزيز) للشيخ عبد العزيز الدهلوi، ص ٣، ويستفاد من المقدمة أن تأليف هذا التفسير بدأ بطلب من أخيه الأكبر الشيخ محمد بن ولی الله الدهلوi وتحريضه عام ١٢٠٨هـ.

(٢) مقالات طريقت، ص ٣٣.

الدهلوi، التي كان يلقىها يومي الثلاثاء والجمعة، وقد قيدت هذه الدروس ورتبt وطبعت بهذا الاسم المذكور أعلاه، وكان تأليف هذا الكتاب عام ١٢٥٩هـ ويحتوي على تفسير (سورة المؤمنون) وما بعدها إلى (سورة الصافات).

ولكن رغم أنّ تفسير الشيخ عبد العزيز الدهلوi لم يكُمل، إلا أنه يحتوي على لطائف ونكات كثيرة نادرة، لا تكاد تجدها في عامة التفاسير المشهورة.

وقد اشتغلت دروس الشيخ الدهلوi وكتابه في التفسير المسمى (فتح العزيز) على بحوث علمية في تلك المسائل والقضايا - بصفة خاصة - كان العلماء لم يجرؤوا فيها على الصراحة بالحق، أو لم يقوموا فيها بالبحث والتحقيق المطلوب، وكان قد وقع بذلك عدد كبير من الدهماء والعامة في ضلال وعقائد وأعمال شركية، وانحرافات في التطبيق والسلوك.

فمن ذلك تفسير آية: «وَمَا أَهْلَ بِهِ لِفَتَرَ اللَّهُ» [البقرة: ١٧٣]. فهو من المباحث الخاصة في هذا الكتاب، كذلك البحث في مسألة السحر في تفسير: «وَمَا كَفَرَ شَيْمَنُ» [البقرة: ١٠٢]. ضمن تفسير عدد من الآيات، تعدد من خصائص هذا الكتاب ومباحثه الفذة النادرة.

٤ - القيام بتدرییس الحديث الشريف ونشره وترویجه:

وأما ما يتعلّق بتدرییس الحديث الشريف ونشره وترویجه، فإنه يصعب أن يوجد له مثيلٌ في تاريخ الهند العلمي والديني، وتمتدّ فترة تدرییسه للحديث الشريف إلى أربع وستين سنة، وإنّه لم يقتصر في هذه المدة الطويلة على تدرییس الكتب الستة، وتألیف الكتب النافعة المفيدة (بستان المحدثين) و(العجالۃ النافعة) التي تنشئ الذوق الصحيح للحديث، والمعرفة الجيدة بطبقات كتب الحديث، والاطلاع على مراتب المحدثين ومنازلهم في العلم والفضل، والتعرّف بأصوله وقواعده، وقد جاءت فيها خلاصة مئات الصفحات، ولباب التقول والأقوال فحسب، بل قد خرج فيها أولئك التلاميذ النجباء والخريجين الفضلاء، والنوابغ من العلماء والمدرسين، الذين أفضوا علوم الحديث ومعارفه، ليس في الهند

فحسب بل في الحجاز كذلك ، واستفاد منهم خلائق من الناس لا يحصى لحد وعدد ، ويبلغ عدد من تخرج على يديه من نواعي تلاميذه وأفاضلهم ممن ترجم لهم مؤلف (نزهة الخواطر) في المجلد السابع منه فحسب أربعين خريجاً ، منهم من كانت له حلقات لدروس الحديث ، وتخرج على أيديهم محدثون آخرون وشيوخ أجياله ومدرسوه نذكره أسماءهم فيما يلي :

- ١- الشیخ محمد إسحاق الدهلوی .
- ٢- الشیخ محمد يعقوب الدهلوی .
- ٣- المفتی إلهی بخش الكاندھلوی .
- ٤- الشیخ السید أولاد حسن القنوجی .
- ٥- الشیخ میرزا حسن علی الشافعی الکنواری .
- ٦- الشیخ حسین احمد المحدث الملیح آبادی .
- ٧- الشیخ حیدر علی الطونکی .
- ٨- الشیخ خرم علی البھوری .
- ٩- المفتی صدر الدین الدهلوی .
- ١٠- المفتی علی کبیر المجهلی شهری .
- ١١- الشیخ السید قطب الهدی الحسنی الرائی بریلوی .

والذین أسندوا عنه - سوی هؤلاء - تطول قائمةٍ لهم ، بحيث يصعب الإحصاء والاستقصاء ، ونكتفي هنا بإيراد أسماء بعضهم ممن يمتازون عن غيرهم بسميزات خاصة لفضائلهم ومناقبهم ، أو نسبة بعض السلالسل والطرق إليهم ، أو لسمعتهم الذائعة ووصيّتهم المتشرّد :

- ١- الشیخ غلام علی الدهلوی (خليفة الشیخ الجلیل میرزا مظہر جان جانان)
- ٢- الشیخ أبي سعید الدهلوی (خليفة الشیخ غلام علی).

- ٣- الشیخ احمد سعید الدهلوی (خلیفۃ الشیخ غلام علی).
- ٤- الشیخ فضل الرحمن الكنج مراد آبادی (خلیفۃ الشیخ محمد آفاق الدهلوی).
- ٥- الشیخ بشارت الله البهراچی (أحد كبار الشیوخ في السلسلة المجددیة).
- ٦- الشیخ بزرک علی المارھروی (شیخ المفتی عنایت احمد کاکوروی).
- ٧- الشیخ بناء عطا السلونی (أحد كبار الشیوخ في السلسلة الجشتیة النظامیة، وكانت له إجازة عن طریق المکاتبة).
- ٨- الشیخ ظہور الحق الفلواروی.

وقد انتشر علم الحديث انتشاراً واسعاً كبيراً على يدي الشیخ محمد إسحاق الدهلوی، الذي تخرجَ عليه علماء كبارٍ، وأساتذة الحديث في الهند، إلى أن هاجر إلى مكة المكرمة عام ١٢٥٨هـ وأستند عنه كبارُ علماء الحجاز وأساتذة الحديث بها.

ومن الذين تلذموا عليه وكان لهم صيت واسع ودور كبير:

- ١- الشیخ السيد نذیر حسین المحدث الدهلوی.
- ٢- والمقریء عبد الرحمن البانی بتی.
- ٣- الشیخ السيد عالم علی المراد آبادی.
- ٤- والمفتی عبد القیوم ابن الشیخ عبد الحی البدھانوی (من أجلة خلفاء الإمام احمد بن عرفان الشهید).
- ٥- الشیخ فضل الرحمن الكنج مراد آبادی.
- ٦- والنواب قطب الدین الدهلوی (مؤلف مظاہر حق).

٧ - والشيخ أحمد علي السهارنفوري (ناشر صحيح البخاري بتصحیحه وحواشیه).

٨ - المفتی عنایت احمد الكاکوروی.

٩ - أستاذ العلماء الشیخ لطف الله العلي کرھی.

وعلماء کثیرون ممن يطول ذکرهم، وهذا هو السند الوحید الذي بقی فی الهند حسب تصریح مؤلف (نزہۃ الخواطر).

وقد استمرَّ المحدث السيد نذیر حسین الدهلوی (ت ۱۳۲۰ هـ) وحده من تلامذة الشیخ محمد إسحاق الدهلوی يدرّس الحديث الشریف بدھلی أعواماً طوالاً، وتخرّجَ فی حلقة دروسه عدد من شرّاح الحديث وعلمائه الأجلة وناشریه، منهم.

١ - الشیخ عبد المنان الوزیر آبادی الضریر - الذي كان عدد كبير من تلامذته منصرفين إلى التدريس والإفادة في البنجاب.

٢ - والعارف بالله السيد عبد الله الغزنوی الأمترسی.

٣ - وابنه الجليل السيد عبد الجبار الغزنوی الأمترسی، والد الشیخ السيد داود الغزنوی.

٤ - والشیخ شمس الحق الديانوی مؤلف (غاية المقصود).

٥ - والشیخ محمد حسین البتابولی.

٦ - والشیخ غلام رسول القلعوی.

٧ - والشیخ محمد بشیر السہسوانی.

٨ - والشیخ امیر احمد السہسوانی.

٩ - والشیخ الحافظ عبد الله الغازیبوری.

١٠ - والشیخ أبو محمد إبراهیم الأروی مؤلف (طريق النجاة).

١١ - والشيخ السيد أمير علي الملحق آبادي .

١٢ - والشيخ عبد الرحمن المباركفوري صاحب (تحفة الأحوذى) .

ومن العلماء العرب الشيخ عبد الله بن إدريس الحسني السنوسي ، والشيخ محمد بن ناصر النجدي ، والشيخ سعد بن أحمد بن عتيق التجلي ، وأمثالهم من يكفي ذكر أسمائهم لمعرفة انتشار هذه الدراس وسعتها ، وبعد صيتها ، وعظيم فوائدها .

ومن تلامذة الشيخ محمد إسحاق : الشيخ عبد الغني المهاجر المدنى (ت ١٢٩٦هـ) الذي تتلمذ عليه كبار علماء الهند ، وشيوخ الحديث فيها ، الذين تنورت الهند كلها عن طريقه بنور الحديث الشريف وملئت به ، وترجع جميع المدارس الإسلامية وحلقات الدراس للحديث الشريف فيها الآن إليه ، وتعتبر بالانتماء إليه ، فمن تلامذته الأجلة المعروفيين العلامة رشيد أحمد الكنكوي ، والإمام محمد قاسم النانوتوي (مؤسس دار العلوم بدبيوند) .

ويكفي من تلامذة الشيخ رشيد أحمد الكبار ذكر الشيخ محمد يحيى الكاندھلوي ، والشيخ خليل أحمد السهارنفورى .

كما يعني في تلامذة الشيخ خليل أحمد السهارنفورى ذكر شيخ الحديث الشيخ محمد زكريا الكاندھلوي صاحب (أوجز المسالك إلى موطن الإمام مالك) .

وفي قائمة أسماء تلاميذ الشيخ محمد قاسم النانوتوي أسماء الشيخ السيد أحمد حسن الأمرهوي ، وشيخ الهند الشيخ محمود حسن الديوبندي ، وفي تلامذتهم أسماء العلامة أنور شاه الكشمیری ، والعالم المجاحد السيد حسين أحمد المدنی ، وأعمالهم الجليلة الرائدة لا تحتاج إلى تعريف وتفصيل ، ويشتمل كتاب الشيخ محسن بن يحيى الترهتي (اليانع الجنى في أسانيد الشيخ عبد الغنى) فيما يتعلق بعلو أسانيد الشيخ عبد الغنى ، وعموم نفعه وإفادته وسموّ منزلته على معلومات قيمة مفيدة .

٣- الدفاع عن السنة والرد على الشيعة:

وأما فيما يتعلّق بتأثيرة الشيخ الدهلوi في مقاومة فتنة الرفض والتشيّع وحماية أهل السنة وصيانتهم من تأثيره وعدوّاه، والتي بدأها الإمام الدهلوi بكتابه المنقطع النظير (إزالة المخفاء) فقد أكملها ودعمها الشيخ عبد العزيز الدهلوi بكتابه الرائع الجليل (التحفة الإثناعشرية) (بالفارسية) الذي يُعدُّ من الكتب التي تصنّع التاريخ، وتحوّل تيار الأحداث.

وكما أنَّ مؤلفات الشيخ محب الله البهاري كـ(سلم العلوم) وـ(مسلم الثبوت) شغلت علماء الهند - قرناً كاملاً من الزمن - بشرحها وتعليقها والدوران حولها، واستقطبت طاقاتهم الفكرية وعقولهم العجبارية^(١)، كذلك شغلَ الردُّ على هذا الكتاب وتفنيده كبار علماء الشيعة ونوابغهم في الكتابة والتّأليف، ويكفي لذلك أنَّ كتاب (العقبات) الذي سمي بـ(عقبات الأنوار في إمامية الأئمة الأطهار)^(٢) الذي ألفه الشيخ السيد حامد حسين الكتوري (ت ١٣٠ هـ) جاء في ثمانية مجلدات كبيرة، ويمكن أن يقدر حجم هذا الكتاب وضيّعاته من أنَّ المجلد الأول منه يحتوي على (١٢٥١) صفحة، والمجلد الثاني على (٩٧٧)، والمجلد الثالث على (٦٠٩)، والرابع على (٣٩٩) صفحة، والخامس على (٧٤٥) صفحة، والسادس على (٧٠٤) صفحة، وقس على ذلك البقية، والكتاب كله في ثلاثين جزءاً، وقد أكمل الكتاب ابن المؤلف الشيخ السيد ناصر حسين.

ويستفاد من كتاب (نجوم السماء) أنَّ الشيخ دلدار علي المجتهد الأول، وميرزا محمد كامل الدهلوi، والمفتى محمد قلي خان الكتوري، وسلطان العلّماء السيد محمد، كذلك ألفوا في الردِّ على كتاب الشيخ الدهلوi ومحو آثاره كتاباً ضخمة كبيرة، وقد انتهت هذه السلسلة من الردود إلى ميرزا هادي رسول

(١) ويمكن الاطلاع على العدد المذهل من شروح هذا الكتاب وحواشيه في (الثقافة الإسلامية في الهند) للعلامة السيد عبد الحفيظ الحسني - طبع مجمع اللغة العربية بدمشق.

(٢) وقد طبعت الأجزاء المختلفة للكتاب في المطابع المتعددة بلكتون ولديهانة.

اللكتنوي الشاعر المعروف الذي كان رجل الأدب والفلسفة، ولكنه حاول كذلك المساهمة في هذه المبرة.

وكيف خطر ببال الشيخ الدهلوi أن ينقطع إلى هذه القضية انتظاماً كلياً -

في خضم الأشغال الصارفة عن التدريس، وإلقاء الدروس العامة في التفسير والحديث، والقيام بنشر الكتاب والستة، ومهمة التربية والإرشاد، وتسليك المربيدين، والإفتاء، وفصل الخصومات، التي لا تدع فرصة للتفكير في شيء آخر، ورغم الأمراض والألام الشديدة التي كان يعاني منها، كيف انقطع - رغم كل ذلك - إلى هذه القضية التي كانت تحتاج إلى دراسة عشرات من الكتب وألاف من الصفحات، مع راحة البال، وحمية القلب، والانصراف الكامل؟ لا يمكن أن يقدر ذلك إلا إذا كانت هناك دراسة عميقة للمجتمع المسلم في أواسط القرن الثاني عشر الهجري وأواخره (النصف الآخر من القرن الثامن عشر المسيحي) في الهند، لا سيما شمال الهند، وفي دلهي ونواحيها، وفي ولاية أوده، وبهار، وبنغال، واطلاع واسع دقيق على الفوضى العقلية والفكيرية المنتشرة في المجتمع الإسلامي الهندي، وما كان يحاوله علماء الشيعة من زرع الشكوك والشبهات في حقائق الدين وتصوراته الأساسية، وما كان للتشيع من التأثير على الأسر المسلمة، لا سيما أسر الأشراف والبيوتات الكريمة، وأصحاب الحكم والإدارة والطبقة المؤثرة، وموافقه الهجومي العنيف.

ولم يمكن أبداً أن يقدر ذلك من لم يستعرض الثورات السياسية والإدارية بعد عودة (الملك همايون) من إيران إلى الهند إلى عهد (فرخ سير) وبعده أيضاً، وتأثير الأمراء والعلماء الإيراني الأصل ونفوذهم، وسيطرة الإخوة الأشراف (حسن علي خان وحسين علي خان) على بلاط دلهي، وتأثيرهم فيه، ثم تفاصيل استيلاء النواب نجف علي خان علي دلهي^(١)، وكذلك قيام دولة النواب

(١) لقد كانت للنواب نجف علي خان سيطرة كاملة على دلهي، وكان مدافعاً متھمساً عن الشيعة، ومعارضاً قوياً لأهل السنة علينا وجهاراً، وقد اشتهرت عنه وقائع من ظلمه واعتدائه، وهي وإن لم تكن صحيحة - كلياً - ويكون قد يبلغ فيها، أو دخلتها العصبية =

أبي المنصور خان صدر جنح النيسابوري في ولاية أوده، وتأثيرات الشيعة بعد شجاع الدولة، ويُسَعُ القارئ أن يقدر ذلك - شيئاً ما - بتصريح الشيخ الدهلوi الذي صدر من قلمه المعروف بالحيطة والزانة في مقدمة كتابه : (التحفة الإثناء عشرية)، يقول فيها:

«إنّ هذه البلاد التي نسكنها، وهذا العهد الذي نعيشـه، قد بلغ فيها المذهب الإثنـاء عشرـي من الـذـيـعـ والـانتـشارـ والـقبـولـ والـروـاجـ بـحيـثـ قـلـ بـيـتـ منـ بـيـوتـ أـهـلـ السـنـةـ لاـ يـمـيلـ فـيـهـ وـاحـدـ مـنـ أـفـرـادـ إـلـىـ هـذـهـ العـقـيـدـةـ، وـيـتـبعـ هـذـاـ المـذـهـبـ، وـمـعـظـمـ هـؤـلـاءـ مـنـ لـاـ يـعـرـفـونـ عـلـمـ التـارـيـخـ وـالـأـخـبـارـ، وـيـعـشـونـ فـيـ غـفـلـةـ وـقـلـةـ عـلـمـ بـسـيرـ أـسـلـافـهـمـ وـأـصـوـلـهـمـ وـمـنـهـجـهـمـ، وـعـنـدـمـاـ يـتـنـاقـشـونـ مـعـ أـهـلـ السـنـةـ وـالـجـمـاعـةـ فـيـ مـجـالـسـهـمـ وـنـوـادـيهـمـ، يـأـخـذـونـ طـرـيقـ الـجـدـالـ وـالـمـرـاءـ وـالـمـغـالـطـةـ، وـقـدـ جـاءـ تـأـلـيفـ هـذـهـ الرـسـالـةـ حـسـبـةـ لـهـ تـعـالـىـ لـهـ ذـرـفـ، حـتـىـ لـاـ تـزـلـ أـقـدـامـ الـمـتـبـعـينـ لـمـذـهـبـ أـهـلـ السـنـةـ وـالـجـمـاعـةـ عـنـدـ الـمـنـاقـشـةـ وـالـمـنـاظـرـةـ، وـلـاـ يـنـكـرـوـاـ أـصـوـلـهـمـ أـنـفـسـهـمـ، وـلـاـ يـدـعـوـاـ الشـكـوكـ وـالـشـبـهـاتـ فـيـ تـلـكـ الـأـمـورـ - الـتـيـ تـبـنـيـ عـلـىـ الـحـقـائـقـ - تـجـدـ إـلـيـهـمـ سـيـلـاـ (١٦)ـ .

ولم يتبع الشيخ الدهلوi في هذا الكتاب تلك الكتب الكلامية التي تؤلف على طريق المناقضة والجدل، ولا ذلك الأسلوب الذي يستخدم في الرد على الفرق المخالفـةـ وـتـفـنـيـدـهـاـ وـإـبـطـالـهـاـ، وـتـكـوـنـ لـهـ لـغـةـ خـاصـةـ وـأـسـلـوبـ خـاصـ، وـقـدـ جـاءـ فـيـ الـكـتـابـ أـلـأـ ذـكـرـ نـشـأـةـ الـمـذـهـبـ الشـيـعـيـ، وـانـقـاسـمـهـ إـلـىـ مـخـلـفـ الـفـرـقـ وـالـنـحـلـ، وـتـعـرـيـفـ بـعـلـمـاءـ الشـيـعـةـ الـمـتـقـدـمـينـ وـكـتـبـهـمـ وـمـؤـلـفـاتـهـمـ، ثـمـ يـأـتـيـ مـبـحـثـ

لـأـهـلـ السـنـةـ إـلـاـ لـهـ أـصـلـاـ، وـلـعـلـ الشـيـخـ الـدـهـلـوـيـ - تـجـبـاـ منـ اـعـتـدـائـهـ - تـسـبـ كـتـابـهـ هـذـاـ إـلـىـ اـسـمـهـ التـارـيـخـيـ (غـلامـ حـلـيمـ) بـدـلـاـ مـنـ اـسـمـهـ الـمـعـرـوفـ، وـجـاءـتـ عـلـىـ صـدـرـ الـوـرـقـةـ الـأـوـلـىـ مـنـ الـكـتـابـ الـعـبـارـةـ التـالـيـةـ: «تأـلـيفـ الـعـالـمـ الـفـاضـلـ الـأـكـمـلـ الـحـافـظـ غـلامـ حـلـيمـ بنـ الشـيـخـ قـطـبـ الدـينـ أـحـمـدـ بنـ الشـيـخـ أـبـيـ الـفـيـضـ الـدـهـلـوـيـ - قدـسـ سـرـهـ - وـحـيـثـماـ أـحـالـ مـنـ رـدـ عـلـىـ هـذـاـ الـكـتـابـ مـنـ الـمـؤـلـفـينـ ذـكـرـواـ الـمـؤـلـفـ بـ(ـالـفـاضـلـ الـعـزـيزـ)ـ .

(١) (الـتـحـفـةـ الـإـثـنـاءـ عـشـرـيـةـ)، صـ٢ـ، طـبـعـ مـطـبـعـ نـوـلـكـشـورـ، لـكـنـوـ عـامـ ١٣٢٥ـ هــ .

الخلافة، والمطاعن التي وُجّهت إلى الصحابة - رضي الله عنهم - ويدلّاً من الاقتصار على الردود عليها، أفردَ الشیعی الدھلوی أبواباً مستقلة في القضايا الأصولية من الإلهیات والنبوّات والمعاد والإمامـة، ثم أفاض في الرد على مطاعن الشیعیة في الخلفاء الثلاثة الراشدین، وأم المؤمنین السیدة عائشة رضي الله عنها، والصحابة الآخرين رضي الله عنهم أجمعین، وفنّد اعترافاتهم واتهامهم.

ثم تحدّث عن خصائص مذهب الشیعیة وأوهامه وخرافاته وعصیبته، وعلق على أخطائهم وسوء فهمهم ومغالطتهم، ويشتمل الباب الآخر (وهو الباب الثاني عشر) على (الولاء والبراء) عندهم، وهو يبني على عشر مقدمات، وقد جاء الكتاب في (٤٠٠) صفحة من القطع الكبير والحرف الدقيقة.

والميزة الثانية عذوبة لغته، وسهولةها وطلاقتها، التي اعترف بها علماء الشیعیة أنفسهم في الهند وفي إیران، ويتجلّى من اسم الكتاب هذا الغرض وهذا المعنى الذي كان من الدوافع إلى تأليف هذا الكتاب.

وأما الكتب التي ألفت في الرد عليه فإنه يظهر من أسمائها الغضب والعنف والإثارة، ويلمع فيها بريق السيف والحسام، فمنها - على سبيل المثال - كتاب باسم (صوارم الإلهیات)، وأخر باسم (حسام الإسلام)، وثالث باسم (سيف ناصري)، ورابع باسم (ذو الفقار).

وسوف يكون من الصعوبة بمکان أن يقدّر - في هذا العصر - ما أدى هذا الكتاب - الذي كان حاجة من حاجات العصر - من دور كبير وخدمة جليلة، وقد سمع كاتب هذه السطور نفسه من الأمير الفاضل الشیعی حبیب الرحمن خان الشیروانی صدر الصدور (الرئيس العام) للشؤون الدينیة بولاية حیدر آباد - سابقاً - (الذي كانت أسراه دائمة الاتصال بالشیعی الدھلوی وخلفائه) أنه قال: «لقد قام هذا الكتاب في وجه السیل الجارف من التشیع سداً منيعاً» وكان هذا الكتاب قد طبع وانتشر صيته في الآفاق في عهد الشیعی الدھلوی نفسه عام ١٢١٥هـ^(١).

(١) انظر: (مقالات طریقت)، ص ٢٣.

وكانت قد بدأت سلسلة الردود عليه، وقد قام أحد تلامذة الشيخ الدهلوi الشیخ أسلمی المدارسي بتعريب هذا الكتاب ، وقد رأى كاتب هذه السطور هذه الترجمة العربية للكتاب في مكتبة شیخ الإسلام عارف حکمت بك بالمدينة المنورة.

٤ - معارضۃ السلطة الإنجلیزیة والحفاظ على کیان الملة الإسلامية:

لقد قدم الشیخ الدهلوi - فيما يتعلّق بالحافظ على السلطة الإسلامية في الهند، ومقاومة الأخطر والتحديات التي تَضُع عقبات كأداء في سبيل حرية المسلمين فيها - نموذجاً رائعاً للدراسة الواقعية الجادة للأوضاع والظروف، واليقظة العقلية، وبُعد النظر، والأخذ بالعزيمة والصرامة، التي تليق بعالم دیني من الدعاة والمصلحین، ومن أصحاب البصيرة والفراسة، وتتجذر بالقائد والمرشد الدينی في عصره .

لقد كانت كبرى القضايا في عصر الإمام الدهلوi إيقاف غارات المرهنة ومحفهم وحملاتهم ، التي أصبحت حادثاً يومياً، كانت الدولة المغولية تعاني - بسببها - من العجز والشقاء ، والذلة والمهانة في جانب ، وكانت أعراض المسلمين وأموالهم - في جانب آخر - معرضةً للخطر ، ولم تعد الحياة في المدن عادمة آمنة .

وقد كانت إزالة هذا الخطر والحصول على المساعدات الممكنة لإيقافه والحلولة دونه - في ذلك الحين - كطلب رجال المطافئ وسيارات الإسعاف عند وقوع الحريق في بيت من البيوت أو حي من الأحياء ، وقد كان هذا هو موقف الإمام الدهلوi من أحمد شاه الأبدالي وجشه ، وكأنه اشترط عليه أن يعود وجشه بعد إطفاء هذا الحريق ، وكان هذا في نظر الإمام الدهلوi حيلة مؤقتة ، وتدييراً عارضاً لـإعطاء الدولة المغولية فرصةً طيبةً لتدارك نفسها ، أو أن يحل محلها نظام أفضل منها (إذا كان لا بد منه) ولكن لم ينجح بـقصر نظر (شاه عالم) ملك الدولة المغولية حينذاك ، وسقوط همته ، إلا أنه لم تكن قد بدت في الأفق - إلى ذلك الحين - علائم سطرة الشركة الشركية الهندية وتوليها لزمام الدولة ، وقيام حکومتها عبر البحار في هذه المنطقة النائية البعيدة ، التي كانت تسترعى اهتمام الإمام الدهلوi وتصرف كل عنایته إليها .

ولكن تغيرت الظروف - سريعاً - في الهند بعد وفاة الإمام الدهلوi، فقد كانت ولايات البنغال وبهار وأريسه الثلاث قد عُهدَ بحكمها وإدارتها عام ١٧٩٦هـ الموافق عام ١٧٦٥م (بعد وفاة الإمام الدهلوi بثلاث سنوات) إلى (دولة) الشركة الشرقية الهندية دون مشاركة أحد، كقطاع أو جائزة ملوكية من الأرضي الإقطاعية، وكانت الشركة قد حصلت على (بنارس) و(غازيبور) كقطاع - أيضاً - ولم يكن قد يقى بعد ذلك في يد ملك الأسرة التيمورية (شاه عالم) إلا ولاية إله آباد، كما لم يكن له من الدخل إلا تلك النقود التي كان يمنحها الإنكليز إياها.

وقد أُعلن في مجلة الواقع (Galevta Gazette) بكلكتة يوم ٨ آذار - مارس عام ١٧٨٧م الموافق عام ١٢٠٢هـ: أن حكومة المسلمين قد بلغت من المهانة والحقارة ما بلغت، ولا خوف علينا من الهندوس.

ثم هزم الإنكليز (سراج الدولة) في ساحة بلاسي عام ١٧٥٧م، وهزموا (شجاع الدولة) في ٢٣ تشرين الأول - أكتوبر عام ١٧٦٤م الموافق عام ١٧٨٦هـ في ساحة بكسّر، واستشهد السلطان (تيبي) عام ١٧٩٩م الموافق عام ١٢١٤هـ في ساحة سرنكابتن، وكأنه ختم بذلك على مصير حكومة المسلمين وسلطتهم، ولما وقع بصر الجنرال هارس (Harris) على جثة السلطان تبي الشهيد قال - بحق - : «الآن أصبحت الهند لنا»^(١).

إن الشيخ الدهلوi كان منقطعاً إلى التدريس والإفادة بدلهي، ولكن عينه البصيرة النافذة إلى أعماق الحقائق كانت تنظر إلى الهند كلها، وقد رزقه الله تعالى عقليةً واقعيةً غير عادية، وحمية دينية متقدة، وعزيمة قوية صارمة، وقد درس هذا الانقلاب والتغير الهائل في الأوضاع دراسة مستوعبة، وتوصل بها إلى نتيجة مفادها أن الإنكليز يشكلون أكبر خطر في هذا العين لمستقبل المسلمين والبقية الباقية من سلطتهم وحكومتهم، وقد صور هذه الحقيقة في بيت من شعره العربي

(١) انظر: تاريخ سلطنت خداداد (تاريخ الدولة الموهوبية)، لمحمد خان محمود البنغلوري، ص ٢٦٦.

تصويراً كاملاً، ويظهر منه أنه لم يكن يرى تأثير الإنكليز منحصرًا في حدود الهند فحسب، بل يعتبره أوسع حدوداً وأبلغ مدى، يقول:

ولاني أرى الإفرنج أصحاب ثروة لقد أفسدوا ما بين دهلي وكابل

وهو أول شخص - في حدود علمنا - تجاسر على إعلان أنَّ الهند أصبحت دارَ حربٍ، وقام مستعراضاً للأوضاع والظروف في ضوء الفقه وأصوله، بتحقيق هذه المسألة وتنقيحها بطريق يدلُّ على عمق بصيرته، وشجاعته الخلوقية والدينية أيضاً، فقد قال في (الفتاوى العزيزية) ج ١ ، في الرد على سؤال أن دار الإسلام هل يمكن أن تتحول دار حرب أو لا؟ بعد نقل عبارة طويلة من (الدر المختار):

إنَّ حكم إمام المسلمين في هذه المدينة (دهلي) غيرُ نافذٍ، وحكم الحكام النصارى نافذٌ مطبق بدون معارضة ونقد، وإن ما يسميه الفقهاء بإجراء أحكام الكفر يراد به أن يكون الكفار أصحاب حكم وسلطة في شؤون إدارة البلاد، وتنظيم الرعية، وأخذ الجبيات، وتعشير أموال التجارة، وتعزيز الشُّرّاق وقطع للطرق، والفصل في الخصومات، والتعزير على عامة الجرائم، وإن كانوا لا يتعرضون لبعض الأحكام الإسلامية، كإقامة الجمعة والعيددين والأذان وذبح البقر، ولكنَّ الأصل الأصيل أن تكون هذه الشؤون المتقدمة الذكر تحت رحمتهم، وفي دائرة نفوذهم.

إننا نرى بأمِّ أعيتنا أنهم يهدمون المساجد علينا - ولا يسمح لأيِّ مسلم أو ذمي أن يدخل هذه المدينة أو نواحيها إلا بإذنهم، ولا يمنعون الوافدين من الخارج والمسافرين والتجار لمصالحهم الذاتية، ولكنَّ الوجهاء الآخرين كشجاع الملك وولايتي بيكم لا يمكن أن يدخلوا المدينة بغير إذنهم، إنَّ حكم النصارى يسود من مدينة دهلي إلى كلكتة.

نعم إنهم لم ينفذوا أحكامهم في بعض المناطق - يميناً وشمالاً - كحيدر آباد، ولكتو، ورامغور، إما لأجل مصالحهم الخاصة، أو لأنَّ حكام هذه الولايات

خضعوا للسلطانهم وقبلوا طاعتهم^(١).

وقد انعكست هذه التصورات التي كان يحملها الشيخ الدهلوi ، والنظرة التي كان ينظر بها إلى الإنكليز على تصورات خليفة الجليل وخريج مدرسته التربية العظيمة الإمام الداعية المصلح السيد (أحمد بن عرفان الشهيد) وعواطفه ومشاعره، وتتجلى هذه التصورات في رسائله التي كتبها إلى وجهاء عصره وأعيانه وأمرائه وبعض الحكماء المسلمين الأجانب، يقول في رسالة كتبها إلى شاه سليمان وإلى (جترال)

«لقد تدهورت حكومة الهند وسلطتها - لسوء الحظ - منذ أعوام إلى وضع سيئ ، حتى استولى النصارى والمشركون على أكثر بقاع الهند ، وملؤوها بظلمات الظلم والجور والطغيان»^(٢).

ويقول في كلمات أكثر صراحة منه في رسالة إلى (هندوراو) وزير كواليا:

«من الواضح الظاهر عليكم أن هؤلاء السكان وراء البحار ، قد ظلوا سلاطين العالم وملوك الأرض ، وهؤلاء البياعين التجار قد غدوا يملكون زمام البلاد ، وقد أسقطوا حكومات الحكماء الكبار ، وانتهكوا الاحترامات والأعراض ، وأذلوهم وأرغموا أنوفهم»^(٣).

ويكتب إلى (غلام حيدر) الذي كان أحد الضباط العسكريين في كواليا:

«لقد راحت معظم البقاع من هذه البلاد إلى سلطة الأجانب ، وقد شمروا عن ساعد الجد في الظلم والعدوان في كل مكان ، لقد ضاعت حكومة حكام الهند وخربت»^(٤).

(١) الفتوى العزيزية: ١١٤ / ١ ، طبع المطبع المجتبائي.

(٢) سيرة السيد أحمد الشهيد: ١ / ٣٨٩.

(٣) المرجع السابق: ١ / ٣٨٩ - ٣٩٠.

(٤) سيرة السيد أحمد الشهيد: ١ / ٣٩٠.

ويظهر - جلياً - من تلك الرسالة التي يوجهها الإمام الشهيد إلى الأمير (كامران)، أنَّ الغرض الحقيقي من وراء هذا الجهاد الذي كان يقوم به، كان هو تحرير الهند، التي كان يتم عليها استيلاء الإنكليز وسيطراً عليهم بصورة تدريجية، يقول في هذه الرسالة:

«إنَّ هذا الفقير سوف ينصرفُ مع المجاهدين الصادقين بعد الفراغ من هذه المهمة (مهمة البنجاب ومنطقة التغور الشمالية) إلى الهند بعزيمة القضاء على الكفر والطغيان، إذ هو الغرض الحقيقي من ذلك»^(١).

ويمكن أن يقدر ذلك - أيضاً - من أنَّ الإمام أحمد بن عرفان ذهب عام ١٢٢٧هـ (أي قبل وفاة الشيخ عبد العزيز الدهلوi باثنين عشرة سنة) إلى جيش الأمير أمير خان الذي كان - حينذاك - في حرب مع الإنكليز، وكان معه أفضل العناصر العسكرية في الهند، ودماء المسلمين الفائرة، والبقية من القوة الفاتحة في الهند، وكثير من أسود ذاك العهد وأبطاله ورجاله، وقد كانت هذه قوة ناهضة متقدمة حرة في الهند، لم يكن من الممكن أن يتتجاهلها أيُّ مُطلع بصير، وقد كان يمكن بتنظيمها وإحياء روح الأهداف الصحيحة العالية فيها أن تقف إزاء القوة الناهضة للإنكليز^(٢).

فقد غيرت مثل هذه القوى ذات الهمة والشهمة - رغم ضعفها في العدد والعتاد - وجهة الأحداث، وتيار الظروف والأوضاع في تاريخ الشعوب والبلاد.

ولم يثبت حتى الآن عن طريق الوثائق الكتبية أنَّ الإمام أحمد بن عرفان كان قصدَ جيش أمير خان بأمر من الشيخ الدهلوi وإرشاد صريح منه، إلا أنَّ هناك

(١) سيرة السيد أحمد الشهيد: ٣٩٠ / ١.

(٢) انظر للتفصيل: (سيرة السيد أحمد الشهيد) ج: ١، ولعلَّ أنَّ أمير خان لم تكن له أيُّ صلة بالفنداريين الذين وصفتهم كتب التاريخ الإنكليزية وكتب المؤرخين الذين تأثروا بهما بأنَّهم قطاع العرق، ولغيف من الهدامين، والحقيقة في هذا الأمر أنَّ الفنداريين كانوا - أحياناً - يلجمون إليه، وكان هو ينقدُهم من الأخطار المؤذنة المفاجئة.

من القرائن ما يفيد أن هذه الخطوة كانت بإشارة منه أو - على الأقل - بموافقته ورضاه، وذلك لأنه لما صالح النواب أمير خان عام ١٢٣٣ هـ الإنكليز، وقنع بالحصول على عدد من المناطق المفرقة غير ذات شأن من ولايات راجبوتانه وماليوه، التي كانت تسمى مجموعها إمارة (تونك)، واختار العزلة على محاربة الإنكليز، رأى الإمام أحمد بن عرفان أن البقاء معه أكثر من ذلك لا غنى فيه ولا فائدة، فاختار هو - أيضاً - مفارقته والانفصال عنه، وكتب رسالة إلى الشيخ дلهلي و كان من محتواها:

«سوف يتشرف الفقير بالحضور، فقد تفرقَ العسكر هنا وتبدد، واتفقَ النواب مع الإنكليز وصالحهم، فلا مجال لنا... الآن... للمكث والبقاء»^(١).

ويمكن أن يستنتج من ذلك أن هذه الرحلة للإمام أحمد بن عرفان إلى الأمير كانت بإشارة من الشيخ الدلهلي، ولذلك رأى من اللازم عليه أن يخبره بعودته عنه ومفارقته.

وهكذا استخدم الشيخ الدلهلي في التعرّف على ذلك الخطر الكبير الذي كان يواجهه المسلمون والهند كلها - بصيرته الموهوبة وفراسته الإيمانية، ولم يدخل وسعاً في اتخاذ التدابير اللازمة لعلاج ذلك، التي كان في وسعه أن يتخدّها في عهده، وتتجلى بصيرته هذه وعاظفته الإيمانية في جميع أفراد جماعة المجاهدين التي تنتمي إليه، والتي كان يقودها الإمام أحمد بن عرفان الشهيد وابن أخي الشيخ الدلهلي النابغة العظيم الشيخ إسماعيل الشهيد، في أروع مظاهرها، وأجلّ صورها، كما تتجلى مشاهدها الرائعة في حروب الشيخ ولايت علي العظيم آبادي، والشيخ يحيى علي الصادق بوري، والشيخ أحمد الله، والشيخ عبد الله ضد الإنكليز على الحدود، وفي تلك التفصيات الجليلة التي قام بها الصادقون من صادق بور، والتي لا يوجد لها نظير إلا بصعوبة^(٢).

(١) انظر: (وقائع أحمدي) ص ٨٥، مخطوط في مكتبة ندوة العلماء - لكنو.

(٢) انظر للتفصيل: كتاب المؤلف (إذا هبت ريح الإيمان) ص ١٨٩ - ٢٠٠ ، طبع دار القلم الكويت، ومؤسسة الرسالة.

ثم انتقلت هذه العاطفة من هذه الجماعة المجاهدة المناضلة إلى أولئك العلماء والقادة الدينيين الذين خاطروا في سبيلها بمهجهم وأرواحهم عام ١٨٥٧م، وقد اشتهر منهم الشيخ أحمد الله شاه المدراسي، والشيخ لياقات علي الإله آبادي، والشيخ إمداد الله المهاجر المكي، والحافظ ضامن الشهيد، ثم انتقلت إلى أولئك العلماء الذين ما تركوا هذا المشعل يخبو يوماً، ولم تزل تتصل حلقات هذه السلسة إلى ١٩٤٧م.

«مَنْ أَمْرَى مُؤْمِنًا يَجَلُّ صَدَقَوْا مَا عَاهَدُوا اللَّهُ عَلَيْهِ فَيُنَزَّهُمْ مَنْ قَضَى تَحْبِبُهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا يَدْلُو أَبْدِيلًا» [الأحزاب: ٢٣].

٥- تربية رجال العمل والجهاد:

أما ما يتعلق ب التربية رجال الجد والجهاد، الذين يقومون - حسب مقتضيات العصر والأوضاع ومتطلبات الدين الحقيقة - بأعمال الدعوى والإصلاح، ويرفعون راية الجد والجهاد، فإنّ من حُسْنِ الحظ، والحكمة الإلهية البالغة أنّ نصيب الشيخ الدهلوi من ذلك أكبر وأعظم من كثير من سلفه ومشايخه ومن أولئك الرجال الذين يمكن أن تكون متردتهم عند الله تعالى أعلى وأفضل (والقرائن تدلّ عليه) فقد وفقه الله تعالى ل التربية عدد من الرجال الأكفاء ذوي الصلاحية الفائقة، والهمة العالية، والعزيمة الصارمة، والتأثير في النفوس والقلوب ، الذين أحدثوا ثورة عظيمة في حياة الآلاف المؤلفة من الناس ، وكأنّهم أمسكوا بقرن كامل ، وحفظوه من السقوط والانهيار ، لقد كان نهر علم الشيخ الدهلوi وحياته هادئاً ساكناً ، ولكنه كان كما يقول الدكتور إقبال : «من هذا النهر تصاعد تلك الأمواج الطاغية المتلاطمة التي تحطمُ أو كارَ التماسيح ، وتجعل عاليها سافلها».

الإمام أحمد بن عرفان الشهيد:

يكفي لإثبات هذه الدعوى أن يذكر اسم خليفته الأجل الإمام أحمد بن عرفان الشهيد (١٢٠١ - ١٢٤٦هـ) الذي قاد في شبه القارة الهندية تلك الحركة الإسلامية العظيمة، التي لا يوجد لها نظير في شمولها وقوتها تأثيرها ومشابهتها

للدعوة الإسلامية الأولى، والمنهج النبوي الكريم، لا في القرن الثالث عشر الهجري فحسب، الذي هو عهدها، بل لا نعثر في عدة قرون ماضية على مثل هذه الحركة الإيمانية، والجماعة القوية المنظمة للرجال المخلصين الصادقين، وأن ذلك النشاط الذي قام به في مجال تصحيح العقائد، وتربيّة الرجال والدعوة، والتذكير والتضحيّة والجهاد الطويل العريض، لم يقتصر تأثيره على ساحة حربه ونضاله والجيل المعاصر له، بل ترك آثاراً بارزةً عميقـة خالدة على الأجيال القادمة، والركب القادر لدعاة الحق والصدق، ورجال الفكر والجهاد، وقادـة الحركة الإسلامية والخدمة لهذا الدين الحنيف.

وهو الذي بدأ بالجهود الموفقة والمحاولات الجادة للدفاع عن الهند والبلدان المجاورة لها، وحمايتها إزاء السلطة التاهضة المتزايدة للمستعمرين الإنكليز، وتأسيس الحكومة الإسلامية على منهاج الخلافة الراشدة.

وقد كان زمام القيادة لهذه الحركة والنشاط، والجد والجهاد في الهند، أو لا بأيدي علماء هذه الجماعة وقادتها المخلصين، وتدينُ بجهودهم الحركة الجديدة في مختلف بقاع الهند للتصنيف والتأليف والبحث والتحقيق والترجمة والنشر (التي ردمت تلك الهوة الواسعة العميقـة الواقع بين عامة المسلمين وبين التعاليم الإسلامية الصحيحة والكتاب والستة).

كما أنَّ القيظة الدينية والسياسية في المسلمين - بواسطة أو بدون واسطة - ليست إلا من ثمار هذه الدعوة والحركة ونتائجها الطيبة المباركة، وقد أثـرت هذه الحركة على الثقافة الإسلامية والفكر الإسلامي واللغة والأسلوب المتداول أيضاً، وقامت بأعمال عظيمة جبارـة في إصلاح المجتمع، والقضاء على التقاليد الجاهلية، وإزالة الآثار الهندوسـكية، والعودة إلى الحياة الإسلامية الصحيحة من جديد.

ونذكر - فيما يلي - لقياس ما كان لدعوة الإمام الشهيد وتربيته من تأثير وشمول وقوـة وعمقـة بعض المقتطفات من كتابات العلماء البصـيرـين المطلعـين: يقول مؤلف الهند المعـروف والمـؤـرـخ الكبير السيد صـديـق حـسـن خـانـ والـيـ

بوفال - (ت ١٣٠٧ هـ) - الذي كان من المشاهدين لآثار تربية الإمام الشهيد وتعلمه وإرشاده، وعاصر عدداً كبيراً من صحبوه أو شهدوه، يقول في كتابه (قصاص جيود الأحرار) :

«كان السيد أحمد الشهيد آيةً من آيات الله تعالى في هداية الخلق ورجوعهم إليه، وقد وصلت جماعات كثيرة وعالم بأسره بعنياته المعنوية والمادية إلى منازل الولاية ومدارج الإحسان، وقد ظهرت مواضع خلفائه وخطبهم أرض الهند من أواث الشرك والبدع وأقذائها، وساروا بها على درب الكتاب والسنّة، ولا تزال برّكات مواعظهم وتذكيرهم تسري في الوجود وتجري كالأنهار».

وينزيد قائلاً :

«وبالجملة فإنه لم يُسمع في العصر وفي أي بلد من بلدان العالم بمثل هذا العبرى الفذ، وإن ما فاض على خلق الله تعالى من هذه الجماعة القائمة بالحق من خير وفائدة وهداية، لم يحصل عشر معشارها على أيدي علماء هذا العهد ومشايخه»^(١).

ويقول أستاذ الأساتذة في عصره العلامة الشيخ حيدر علي الرامفورى الطوکي (ت ١٢٧٣ هـ) تلميذ الشيخ عبد العزيز الدھلوی في (صيانت الناس) :

«لقد أضاء نور هدايته وإرشاده كالسراج الوهاج في البلاد؛ وقلوب العباد، وضرب السعداء المحظوظون إليه أكباد الإبل، وشدو إلية الرحال، وتابوا على يديه من الإشراك والمناهي والبدع والمحدثات - التي كانوا قد اعتادوها ودرجوها عليها - وسلكوا سبيل التوحيد والسنّة والرشاد، وبعث خلفاء الصادقين العاملين إلى أكناف البلاد البعيدة، ومهّد بهم لمئات الآلاف من الناس طريق الملة المحمدية - على صاحبها الصلاة والسلام - فمن عقل ورشد، وحالفة التوفيق والتأييد فقد اهتدى إلى هذا الطريق»^(٢).

(١) (قصاص جيود الأحرار من تذكرة جنود الأبرار) (بالفارسية)، ص ٩٠ - ١١٠ طبع بوفال عام ١٢٩٨ هـ.

(٢) صيانت الناس عن وسوسة الخناس، ص ٤، طبع عام ١٢٧٠ هـ.

ويقول أحد علماء الهند المطلعين الثقات الشيخ عبد الأحد، الذي زار عدداً كبيراً من أفراد هذه الجماعة النيرة الصادقة، وكان عهده قريباً من عهد الإمام الشهيد:

«لقد أسلم على يدي السيد (أحمد الشهيد) أكثر من أربعين ألفاً من الهندوك وغيرهم من الكفار، وبما يزيد على يديه ثلاثة ملايين من المسلمين، وأما ما يجري من سلسلة المباهلة على أيدي خلفاء خلفائه على وجه الأرض كلها، فإنه يدخل عن طريقها في بيعته مئاتآلاف من الناس»^(١).

ويعتبره - لأجل هذه المأثرة الإصلاحية والتجديدية العظيمة - معظم أصحاب الفكر وال بصيرة المنصفين مجدهم القرن الثالث عشر الهجري.

الشيخ عبد الحي البرهانوي:

والمثال الثاني لتراثية الشيخ عبد العزيز الدهلوi وتعليمه وإرشاده اثنان من تلامذته النجباء والأدرين من ذوي قرباه الشيخ عبد الحي البرهانوي، والشيخ محمد إسماعيل الشهيد، وقد كان الشيخ الدهلوi يعترف لهما بالعلم والفضل والتبحر فيه، وقد وصفهما في إحدى رسائله (تاج المفسرين وفخر المحدثين وأحد نوابغ العلماء المحققين) وقال في رسالة كتبها إلى أحد أعيان لكتو المنشئ خير الدين.

(١) انظر: (سوانح أحmedi)؛ وانظر مزيداً من الشهادات وتصريحات الشيخ ولايت على العظيم آبادي عام ١٢٦٩هـ، والشيخ كرامت علي الجنونفوري عام ١٢٩٠هـ في رسالة المؤلف بعنوان (الإمام الذي لم يوف حقه من الاعتراف والإنصاف)؛ وانظر لسيرة الإمام أحمد ابن عرفة ومناقبه وفضله بتفصيل: (سيد أحمد شهيد) للشيخ غلام رسول مهر (المجلدات ١ - ٤)؛ و(سيرة السيد أحمد الشهيد) للمؤلف جـ (١ - ٢)؛ وأما ما حصل على أيدي خلفائه من هداية عامة وإصلاح كبير وما كان لهم من تأثير فيمكن أن يقدر شيء من ذلك من (الذكر الجلي في كرامات السيد محمد علي) (بالأردية) تأليف أفسر الدولة جان جهان خان ابن النوب محب خان عالم خان بهادر تهور جنك طبع عام ١٣٠٥هـ بمطبع مرغوب دكن، اسكندر آباد، وهو سيرة خليفة الإمام الشهيد، السيد محمد علي الرامفوري ومناقبه وكراماته وما تم على يديه من هداية وإصلاح في (مدارس).

«كلاهما لا يقلان عن هذا الفقير في علم التفسير والحديث والفقه والأصول والمنطق وغيره، وأن ما شملتهما من عنابة الله تعالى ورعايته لا أستطيعُ أن أؤدي حقَّ شكرها عليٍّ، فأعتبرهما من العلماء الربانيين، وإذا استعصى عليك إشكال فاعرضه عليهما»^(١).

لقد كانت مكانة الشيخ عبد الحي العلمية لدى أهل العلم والفضل رفيعةً ممتازة، وكان عالي الكعب في العلوم المتداولة، ويفضله الشيخ الدهلوi في علم التفسير على جميع تلامذته الآخرين، وكان يقول: (إنه مثلي) وقد خاطبه في إحدى رسائله إليه بلقب (شيخ الإسلام) الذي لم يدع به إلا بعض خاصة العلماء.

وأما الذي هو فوق تبحّره العلمي ونبوغه العقلي والفكري فهو رياناته وإخلاصه، حيث راجع الإمام الشهيد - رغم هذا العلم والفضل - الذي كان أصغر منه سنًا بكثير، وتتلمذ عليه في العلم - فإنه لما بايعه لم يلبث أن انصبّ بصيغته، وفداء بعلمه وفضله، وأنفق كل ذلك عليه وعلى عمل الدعوة والجهاد، ونذر قلمه ولسانه وكل ما آتاه الله تعالى من قوة صلاحية وكفاءة لنصر الحق وتمكينه ونشره، وأسلم نفسه في رحلته للهجرة والجهاد إلى بارئها الكريم، وهكذا صدق ما عاهد الله عليه.

الشيخ محمد إسماعيل الشهيد:

وأما الشيخ محمد إسماعيل الشهيد، فإنه من أولئك الأفراد الأفذاذ، من أولي العزم وأصحاب الهمة العالية، والذكاء الخارق، والجرأة الكبيرة، الذين لا يلدون إلا بعد عهود وقرون، فقد كان يملك العقلية الاجتهادية، ولا يكون من المبالغة والإسراف في القول إذا قلنا بأنه كان يملك القدرة والكفاءة لتدوين كثير من العلوم من جديد، وقد ذكره الشيخ الدهلوi في إحدى رسائله إليه: «بحجة الإسلام»، ويتجلى في علمه ومؤلفاته لون الإمام الدهلوi ومنهجه

(١) انظر: (سيرة أحمد الشهيد): ٢١٦-٢١٧.

وأسلوبه: طرافة علم، ولطافة استدلال واستشهاد، ودقة نكات وسلامة ذوق، وتفقهاً في الكتاب والسنّة، واستحضرصاراً عجياً للمعلومات، وقوّة تعبيرٍ وبيان.

وإنّ من خصائصه الكبرى أنّه خرجَ من ذلك النطاق المحدود للعلماء المدرسين الأذكياء، الذين تعين لجماعتهم منذ أعواو بل منذ قرون، ولم يدخل ساحة الجد والجهاد، والإصلاح والإرشاد فحسب، بل قاد فيها جيشه وجحافله، وأنّ ما قام به كتابه (تقوية الإيمان) وحده من نفع عظيم للخلق، وتصحيح للعقائد والتصورات، لعله لا يمكن أن تقوم به الجهود المنظمة في إشراف حكومة من الحكومات إلا بجهدٍ وصعوبة.

وقد كان الشيخ رشيد أحمد الكنكوفي يقول: «لقد صلح بجهود الشيخ إسماعيل في حياته مئتا ألف وخمسون ألف من الناس، ولا يمكن أن يقاسَ ما جرى بعده من نفعٍ وفائدةٍ عظيمة».

وكان قد أعدّ نفسه - مع هذه المهمة العظيمة للإصلاح والدعوة الشعبية العامة - للجهاد في سبيل الله تعالى إعداداً كاملاً، ولم يكن قد أدى حق مرافقته الإمام الشهيد ومواكبته - الذي كان قد بايعه بيعة السلوك والجهاد - فحسب، بل كان دوره في هذه المهمة دور قائد للحركة، ونائب للأمير، ووزير له، ثم أفنى نفسه في ذلك، وحاز شرف الشهادة في معركة (بالاكوت) وهؤلاء الذين يحق أن يقال فيهم:

«رُهاباً بالليل وفرسانًا بالنهار».

الشيخ محمد إسحاق والشيخ محمد يعقوب:

لقد خلف الشيخ الدهلوi - في ذوقه الخاص، وتدریسه للحديث الشريف، والاهتمام بأسانیده وإجازاته، والقيام بنشر العلوم الدينية وتعديمها - سبطاه (ابنا بنته) الشيخ محمد إسحاق (١١٩٧ - ١٢٦٢ هـ) والشيخ محمد يعقوب (١٢٠٠ - ١٢٨٢ هـ)، وكانا ابنين للشيخ محمد أفضل.

وقد استخلفَ الشيخ الدهلوi الشيخ محمد إسحاق، ووهبَه جميع كتبه

وبيته وغير ذلك ، فجلس بعد وفاة الشيخ الدهلوi على كرسى التدريس ، وانصرف من عام ١٢٣٩هـ إلى ١٢٥٨هـ بدھلی ، (العام الذي هاجر فيه إلى مكة المكرمة) ، ومن عام ١٨٥٨هـ إلى ١٢٦٢هـ في الحجاز إلى خدمة الحديث الشريف ، وتدریسه والاستغراق فيه .

وقد قرأ عليه الحديث مثاثٌ من علماء الهند ، واستفاد منه كبارُ العلماء وأساتذة الحديث الوافدون عليه من مختلف البلدان والأماكن ، وأسندوا عنه الحديث ، كان منهم الشيخ عبد الله سراج المكي ، وكبار العلماء الآخرون .

وقد كان الشيخ الدهلوi يشكر الله - تعالى - على أن رزقه العضدين القويين في صورة الشيخ محمد إسماعيل (أبن أخيه) والشيخ محمد إسحاق (سبطه) ، وكان كثيراً ما يردد هذه الآية الكريمة :

﴿الْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ [ابراهيم : ٣٩].

وقد توفي الشيخ إسحاق الدهلوi في ٢٧ رجب عام ١٢٦٢هـ بمكة المكرمة ، ودفن في (المعلاة) بمقرية من مرقد أم المؤمنين السيدة خديجة رضي الله عنها^(١) .

ولم يزل الشيخ محمد يعقوب كذلك - مستغلًا بالتدريس والإفادة بدھلی لمدة طويلة من الزمن ، ثم هاجر مع أخيه الأكبر الشيخ محمد إسحاق إلى مكة المكرمة عام ١٢٥٨هـ واستوطنهما ، واستفاد منه الأمير العلام السيد صديق حسن خان القنوجي (أمير بوفال)^(٢) ، والشيخ السيد أحمد النصیر آبادي^(٣) ، وخلق ،

(١) انظر لترجمته : (نزهة الخواطر) ، جـ ٧.

(٢) إنَّ ما قام به الأمير السيد صديق حسن خان من خدمة جليلة للحديث الشريف ونشر لكتبه ومصادرها ، وتحويل ولاية بوفال - بعنایته وإشرافه - إلى مركز لتدريس الحديث الشريف ، وموطن لمحدثي اليمن ، من الحقائق التاريخية ومن مأثره الجليلة ، وإنَّ طبع (فتح الباري) بطبع يوصل بمصر ونشره ، الذي أنفق عليه ٥٠٠٠ روبيه منه عظيمة على العلماء وطلبة العلم ، ويرجع إليه السبق فيه .

(٣) كان أحد الدعاة المصلحين في سلسلة الإمام الشهيد ومن أسرته ، انظر لترجمته المفصلة : (نزهة الخواطر) ، جـ ٧

وانتقل الشيخ محمد يعقوب يوم الجمعة ٢٧ ذي العقدة عام ١٢٨٢ هـ إلى رحمة الله تعالى ودفن في (المعلاة).

العلماء الأجلاء والأساتذة الكبار الذين تلذموا عليه:

إن العلماء الذين استفادوا من دروس الشيخ الدهلوi وتراثه وصحيحته، ثم أقاموا حلقات دروسهم، وذاع صيتهم في الآفاق، ونفخوا في النظام التعليمي الديني روحًا جديدة من الحياة، ثم تخرج على أيديهم عدد كبير من العلماء الأجلاء، نود أن نذكر فيما يلي - أسماء من بعدهم صيّطهم، واعترف لهم القاصي والدانى بملكتهم القوية الممتازة في التدريس، وجمعهم بين المعقول والمنتقول، وتبصر علمهم، وسعة معلوماتهم، وقد كان كل واحد منهم مدرسة قائمة بذاته، ومؤسسة علمية بمفرده، وهؤلاء كالتالي :

- ١- المفتى إلهي بخش الكاندلهلي .
- ٢- الشیخ إمام الدين الدهلوi .
- ٣- الشیخ حیدر علی الرامفوری الطوکی .
- ٤- الشیخ حیدر علی الفیض آبادی ، صاحب (متهی الكلام) .
- ٥- الشیخ رشید الدين الدهلوi .
- ٦- المفتى صدر الدين الدهلوi ^(١) .

ويمكن أن يقال (نظراً إلى هؤلاء النوابغ الأجلاء والأساتذة الكبار، ومن ذكر قبلهم من رجال الفكر والدعوة، وأصحاب الهمة والعزمية، وقادة حركة الإصلاح والتجديد والجهاد في سبيل الله تعالى، الذين كانوا يتبنون إلى الشيخ الدهلوi روحاً وعلمياً ومعنىً) : إن القرن الثالث عشر الهجري كان قرن الشيخ الدهلوi في تعليمه وتدرسيه، وإرشاده وتراثه للرجال الذين يتجمّل بهم التاريخ، وتغييرت بهم وجهة الأحداث، وذلك فضل الله يؤتى به من يشاء .

(١) ليراجع لترجمتهم وأخبارهم : (نزهة الخواطر) للعلامة السيد عبد الحي الحسني ، ج ٧

وستورد بعد الفراغ من ذكر الشيخ الدهلوi الذي هو كالنقطة المركزية في دائرة سلسلة الإمام الدهلوi ، وواسطة العقد في السلk النوراني لأبنائه وتلامذته - تراجم أبني الإمام الدهلوi الآخرين ، وهما: الشيخ (رفيع الدين) ، والشيخ (عبد القادر) ، وترجم ثلاثة من خلفائه الكبار الشيخ (محمد عاشق الفلتني) ، والشيخ (محمد أمين الكشميري) ، والسيد (أبو سعيد الحسني الرائي بريلوi) ، وهي تراجم مقتبسة من (نزهة الخواطر).

٢- الشيخ رفيع الدين الدهلوi:

الشيخ الإمام العلم الكبير العلامة رفيع الدين عبد الوهاب بن ولـي الله بن عبد الرحيم العمري الدهلوi ، المحدث المتكلم الأصولي الحجـة الرحلة ، فريد عصره ، ونادرة دهره ، ولد بمدينة (دهلي) ونشأ بها ، واشتغل بالعلم على صنوه عبد العزيز ، وقرأ عليه ، ولازمه ، وأخذ الطريقة عن الشيخ (محمد عاشق بن عبيد الله البهـتي) ، ويرع في العلم ، وأفتى ودرس وله نحو العشرين ، وصنف التصانيف ، وصار من أكابر العلماء في حـيـة أخيه المذكور ، وقام مقامه في التدريس ، بعد ما أصـيـبتـ عـيـنـاهـ ، فازـدـحـمـ عـلـيـهـ النـاسـ ، وـتـلـقـيـ كلـ وـاحـدـ منـ تـلـكـ اللـطـافـ عـلـىـ قـدـرـ الـاستـعـدـادـ ، واعـتـرـفـ بـفـضـلـهـ عـلـمـاءـ الـآـفـاقـ ، وـسـارـتـ بـمـصـنـفـاتـهـ الرـفـاقـ .

قال صـنـوـهـ عـبـدـ العـزـيزـ فـيـمـاـ كـتـبـ إـلـىـ الشـيـخـ أـحـمـدـ بـنـ مـحـمـدـ الشـرـوـانـيـ : «هـذـاـ أـوـانـ الـأـخـ الـفـذـ الـبـذـ ، الـمـتـخـلـقـ مـنـ طـيـبـ الـخـلـالـ بـمـاـ طـابـ وـلـدـ ، الـذـيـ هـوـ شـقـيقـيـ فـيـ النـسـبـ ، وـلـحـيـقـيـ فـيـمـاـ يـظـنـ بـيـ الـكـرـامـ مـنـ فـنـونـ الـعـلـمـ وـشـجـونـ الـأـدـبـ ، هـوـ تـلـويـ فـيـ السـنـ ، وـصـنـوـيـ فـيـ الصـنـاعـةـ وـالـفـنـ ، قـدـ رـيـاهـ اللـهـ بـمـنـحـ الـطـافـهـ عـلـىـ يـدـيـ ، وـمـنـ بـتـكـمـيلـهـ عـلـيـ ، لـمـ زـارـنـيـ مـنـ مـقـامـهـ بـعـدـ مـاـ اـغـتـرـبـ شـطـرـاـ مـنـ أـيـامـهـ ، أـتـحـفـنـيـ بـرـسـالـةـ وـجـيـزـةـ ، بـلـ جـوـهـرـةـ عـزـيزـةـ ، تـحـتـويـ عـلـىـ نـكـتـ مـخـترـعـةـ هـوـ أـبـوـ بـجـدـتـهاـ ، وـتـنـطـوـيـ عـلـىـ فـقـرـ مـفـتـرـعـةـ لـمـ يـسـبـقـ إـلـىـ أـسـوـتـهـ ، مـسـوـقـةـ لـتـفـسـيـرـ كـلـامـ اللـهـ الـمـجـيدـ فـيـ آـيـةـ الـنـورـ ، وـكـشـفـ الـقـنـاعـ عـنـ وـجـوـهـ تـلـكـ الـمـعـانـيـ الـمـقـصـورـاتـ مـنـ الـإـعـجازـ فـيـ

القصور، ولعمرى لقد أتى في هذا الباب بالعجب العجائب، وميّز القشر من اللّباب، ونور مصابيح زجاجات القلوب، وروح الأرواح ببديع الأسلوب».

وقال محسن بن يحيى الترهتي في (اليانع الجنى): «وكان له خبرة تامة بغير هذه العلوم أيضاً من علوم الأوائل، وهذا قلماً يتفق مثله لأهل العلم، وله مؤلفات جيدة مرصفات،رأيت بعضها، فرأيتها يكثُر في ما له من المتون المذهبة في نفائس الفنون من رموز خفية، يعسر الاطلاع عليها، ويجمع مسائل كثيرة في كلمات يسيرة، وفي ذلك دلالة واضحة على تعمقه في العلوم، ودقة فهمه بين الفهوم، وكتابه (دمغ الباطل) في بعض المسائل الغامضة من علوم الحقائق معروف، أثني عليه أهلها.

وله مختصر جامع بينَ فيه سريان الحب في الأشياء كلها، وأوضح للناس أطواره، يسمى (أسرار المحجة) قلماً اتفق مثله لغيره ممن تكلّم عليها، ولا أعزُّ من سبقه إلى ذلك إلا رجلان من الفلاسفة (أبو النصر الفارابي) (وأبو علي ابن سينا) على ما يفهم من كلام النصير الطوسي في بعض كتبه».

وله مصنفات غير مذكورة الشیخ محسن، وهي :

- ١ - رسالة في العروض.
- ٢ - رسالة في مقدمة العلم.
- ٣ - رسالة في التاريخ.
- ٤ - رسالة في إثبات شق القمر.
- ٥ - رسالة إبطال البراهين الحكمية على أصول الحكماء.
- ٦ - رسالة في تحقيق الألوان.
- ٧ - رسالة في آثار القيامة.
- ٨ - رسالة في الحجاب.
- ٩ - رسالة في برهان التمانع.

- ١٠ - ورسالة في عقد الأنامل.
- ١١ - ورسالة في شرح أربعين كافات.
- ١٢ - ورسالة في المنطق.
- ١٣ - ورسالة في الأمور العامة.
- ١٤ - ورسالة (حاشية) على ميرزا هد.
- ١٥ - ومن مصنفاته: (تكميل الصناعة). كتاب عجيب قلّما اتفق مثله لغيره. وله غير ذلك من المؤلفات الجيدة. وله تخميس على بعض القصائد لوالده.
- ١٦ - وله قصيدة بليغة تدل على علو كعبه في العلوم الفلسفية، واقتداره على العربية، عارض بها قصيدة الشيخ الرئيس أبي علي ابن سينا (العينية) التي تعرف بقصيدة الروح، ومطلعها:

هبطت إليك من محل الأرفع ورقاء ذات تعزز وتمتع
فأجاب عنها بقصيدة، أولها:

عجبًا لشيخ فيلسوف المعنى خفيت بعيونه منارة مشروع
توفي رحمه الله في حياة صنوه الكبير عبد العزيز لست ليال خلون من شوال
سنة ثلاث وثلاثين ومئتين وألف بمدينه دهلي ، فدفن بها خارج البلدة عند أبيه
ووجهه^(١).

٣- الشیخ عبد القادر الدهلوی:

الشیخ الإمام العالم الكبير العارف عبد القادر بن ولی الله بن عبد الرحيم العمري الدهلوی ، أحد العلماء البارزين المبرّزين في المعارف الإلهية ، اتفق الناس على ولایته وجلالته ، توفي والده في صغر سنہ ، فقرأ العلم على صنوه

(١) نزهة الخواطر ، ج.٧

الكبير عبد العزيز بن ولی الله، وأخذ الطريقة عن الشیخ عبد العدل الدهلوی، وجمع العلم والعمل، والزهد والتواضع وحسن السلوك، ووضع الله سیحانه له المحبة في قلوب عباده، لما اجتمع فيه من خصال الخیر، فصار مرجوعاً إليه في بلدته، ومرجوعاً إليه بعلم الروایة والدرایة وتهذیب النفوس، والدلالة على معالم الرشد وطرائق الحق.

كان يدرس ويفید، ويسكن بالمسجد الأکبر آبادی في دہلی ، فرأى عليه الشیخ عبد الحی بن هبة الله البرھانفوری، والشیخ إسماعیل بن عبد الغنی الدهلوی، والشیخ فضل حق بن فضل إمام الخیر آبادی، ومیرزا حسن علی الشافعی اللکنوی، والشیخ إسحاق بن أفضل العمیری الدهلوی المدفون بمکة المکرمة، والسيد محبوب علی الجعفری، والسيد إسحاق بن عرفان البریلوی، وخلق کثیر من العلماء .

ومن أعظم ما منَّ الله تعالى عليه أنه وُفقَ لترجمة القرآن الكريم وتفسيره في لغة أهل الهند، وقد اعتنى بها العلماء، واتفقوا على أنها معجزة من معجزات النبي ﷺ، قال السيد الوالد في (مهرجهانتاب): إنَّ الشیخ عبد القادر رأى في المنام قبل أن يُوَفَّقَ لها أن القرآن نزل عليه، فحكاه لصنوه عبد العزيز، فقال له صنوه المذکور: إنَّ الرؤيا حق، ولكن الوحي قد انقطع من زمان النبي ﷺ، وتأوليه أنَّ الله تعالى يوقفك لخدمة القرآن بما لم تسبق إليه، فحصلت له تلك البشارة على صورة (موضع القرآن).

ومن خصائصه أنه اختار لغة بحداء لغة قاربت بما حازت في العموم والخصوص والإطلاق والتقييد، حتى إنها لا تجاوز عنها في موارد الاستعمال، تلك موهبة إلهية وكرامة ربانية يختص بها من يشاء.

وإنَّی سمعتُ ورویتُ (موضع القرآن) عن جدتي لأمي السيدة حمیراء بنت السيد علم الهدی الحسني النصیر آبادی، عن بنت الشیخ عبد القادر، من أبيها المصطف رحمه الله.

وكانت وفاتها يوم الأربعاء لسبعين عشرة خلون من رجب سنة ثلاثين ومئتين

وألف بدهلي ، فدفن عند والده ، وكان الشيخ عبد العزيز ورفيع الدين لا يزالان على قيد الحياة ، فكان يوم موته من أنسوس الأيام عليهما ، وكانا يقولان عند دفنه : «إنا لا ندفن الإنسان ، بل ندفن العلم والعرفان».

ومن عجائب الدهر ، أنه كان للشيخ ولـي الله بن عبد الرحيم الذهلي أربعة أبناء من بطن إرادة بنت السيد ثناء الله ، أكبرهم عبد العزيز ، ثم رفيع الدين (عبد الوهاب) ، ثم عبد القادر ، وأصغرهم عبد الغني والـدـ الشـيـخـ إـسـمـاعـيلـ الشـهـيدـ ، فـمـاتـ أـصـغـرـهـمـ عـبـدـ الغـنـيـ أـولـاـ ، ثـمـ عـبـدـ القـادـرـ ، ثـمـ رـفـيـعـ الدـينـ ، ثـمـ أـكـبـرـهـمـ عـبـدـ العـزـيزـ ، وـكـانـواـ كـلـهـمـ مـنـ أـجـلـاءـ الـعـصـرـ عـلـمـاـ وـعـمـلاـ ، إـفـادـةـ وـإـفـاضـةـ إـلـاـ الشـيـخـ عـبـدـ الغـنـيـ ، فـإـنـهـ تـوـفـيـ فـيـ عـنـفـوانـ شـيـابـهـ فـوـقـ اللهـ سـبـحـانـهـ وـلـدـهـ إـسـمـاعـيلـ المـذـكـورـ أـنـ يـتـدارـكـ مـاـ فـاتـ وـالـدـهـ^(١).

* * *

(١) نـزـهـةـ الـخـواـطـرـ ، جـ.ـ٧ـ.

خلفاء الإمام الذهلي العظام

١- الشیخ محمد عاشق البهله‌ی:

الشیخ العالم الكبير المحدث محمد عاشق بن عبید الله بن محمد الصدیقی البهله‌ی، أحد كبار المشايخ، يرجع نسبه إلى محمد بن أبي بکر الصدیق - رضی الله عنه - بإحدى وعشرين واسطة، اشتغل بالعلم من صباہ، ولازم الشیخ الأجل ولی الله بن عبد الرحيم العمري الذهلي، وكان ابن عمته، فصحبه، وأخذ عنه العلم والمعرفة، وسافر إلى الحرمين الشريفين معه سنة ثلاثة وأربعين ومئة وألف، فحجَّ وزار، وشارک في الأخذ والقراءة على أستاذة الحرمين، الجلهم الشیخ أبو طاهر محمد بن إبراهيم الكردي المدنی، وأجازه الشیخ أبو طاهر المذکور فبلغ رتبة لم يصل إليها أحدٌ من أصحاب الشیخ ولی الله المذکور في العلم والمعرفة، وصار صاحب سر الشیخ، كما عبر به الشیخ أبو طاهر في الإجازة، فقال: إنَّه مرآة كماله، وخدین جميل خصاله. انتهى. وقال شیخه ولی الله مخاطباً له:

تُحَدِّثُنِي نَفْسِي بِأَنَّكَ وَاصْلُ إِلَى نَطْقِهِ قَصْوَاءَ وَسْطَ الْمَرَاكِبِ
وَأَنَّكَ فِي تِيكَ الْبِلَادِ مُفَخَّمٌ يَكْفَئِكَ يَوْمًا كُلُّ شَيْخٍ وَنَاهِزِ

أخذ عنه الشیخ عبد العزیز، وصنوه رفیع الدین، والسدید أبو سعید البریلوی وخلق کثیر، ومن مصنفاته: (سبیل الرشاد) كتاب بسيط في السلوك بالفارسية.

ومنها: (القول الجلي في مناقب الولي) كتاب في أخبار شیخه ولی الله.

ومنها: شرح (دعاء الاعتصام) للشیخ ولی الله في الحقائق والمعارف.

ومن أعظم مآثره: (تبیض المصفی شرح الموطا) للشیخ ولی الله المذکور.

توفي نحو سنة سبع وثمانين ومئة وألف، يظهر ذلك من كتاب الشيخ عبد العزيز إلى السيد أبي سعيد البريلوي^(١).

٢- الشيخ محمد أمين الكشميري:

لقد كان الشيخ (محمد أمين الكشميري) من خلفاء الإمام الأربعة^(٢) الكبار، الذين انتشرت دعوته و تعاليمه على أيديهم.

يقول العلامة السيد عبد الحي الحسني في ترجمته في (نזהة الخواطر):

«الشيخ العالم الكبير الشيخ محمد أمين الولي إلهي الكشميري نجارة، والدهلوبي داراً، كان من أجلة أصحاب الشيخ ولی الله بن عبد الرحيم العمري الدهلوبي، يتسبب إلى شيخه، ويعرف بالنسبة إليه، وهو الذي أخذ عنه الشيخ عبد العزيز بن ولی الله بعد وفاة والده، كما صرّح به الشيخ المذكور في (العجبالة النافعة)، وفيه مغفرة عظيمة له، وقد صنف له الشيخ ولی الله بعض رسائله، توفي نحو سنة سبع وثمانين ومئة وألف، يظهر ذلك من كتاب الشيخ عبد العزيز إلى الشيخ أبي سعيد بن محمد ضياء الحسني البريلوي، الذي سافر للحج، ووصل إلى مكة المباركة في ربيع الأول سنة ١١٨٧هـ، ورجع إلى الهند سنة

(١) نזהة الخواطر، ج. ٧.

(٢) يقول الشيخ عبيد الله السندي في كتابه (التمهيد): لا يتجاوز عدد من أدرك آراء الإمام الدهلوبي ونظرياته بصورة متكاملة أربعة من أصحابه:

- ١- ابن خاله الشيخ محمد عاشق الفلتي.
- ٢- جمال الدين الشاه محمد أمين الكشميري.
- ٣- الشيخ نور الله البرهانوي.

٤- الشيخ أبو سعيد الحسني البريلوي. انظر: (شاه ولی الله اوران کی سیاسی تحریک) (الإمام الدهلوی وحركتہ السیاسیۃ) للشيخ عبيد الله السندي، ص ١٧٣ - ١٧٤.
وقد جاء ذكر الأصحاب الثلاثة، الشيخ محمد عاشق، والشيخ محمد أمين، والشيخ أبو سعيد بتفصيل، أما الشيخ نور الله البرهانوي، فقد كان من أخص تلامذة الإمام الدهلوبي، وقد نال صيتاً ذائعاً في حياة الإمام الدهلوبي، وقرأ عليه الشيخ عبد العزيز الدهلوبي - الذي كان يخْتَمُ أيضاً - كتب الفقه، توفي قريباً من عام ١١٨٧هـ.

١١٨٨هـ، كتبه بعد رجوعه من الحرمين الشريفين، وأخبره بوفاة الشيخ محمد أمين^(١).

وممّا يدلّ على مكانة الشيخ محمد أمين الكشميري الخاصة لدى الإمام الدهلوi، أنّه توجّد أربعة رسائل في (كلمات طيبات) كتبها الإمام الدهلوi إليه، وتحتوي على معارف وحقائق جليلة.

وقد كان للإمام الدهلوi - عدا هؤلاء الخلفاء الأربع - خلفاء آخرون، لم نعثر على تراجمهم بالتفصيل، كان منهم المحافظ عبد النبي المعروف بعد الرحمن، الذي كانت له - كما يبدو - صلة قوية بالإمام الدهلوi^(٢).

٣- السيد أبو سعيد البريلوي:

السيد الشريف أبو سعيد بن محمد ضياء بن آية الله بن الشيخ الأجل علم الله النقشبendi البريلوي، أحد العلماء الريانيين، ولد ونشأ ببلدة رائي بريلي، وقرأ العلم على ملا عبد الله الأميتيهوي، ثم بايع عمّه السيد محمد صابر بن آية الله النقشبendi، واشتغل بأذكار القوم مدةً من الزمان، ثم رحل إلى دهلي، ولازم الشيخ ولی الله بن عبد الرحيم الدهلوi، وأخذ عنه.

ولما توفي الشيخ ولی الله تحسّس في نفسه شيئاً، فلازم صاحبته الشيخ محمد عاشق بن عبد الله البهلي، وأخذ عنه، وكتب له محمد عاشق المذكور الإجازة، قال فيها: «إنّ السيد التقى العارف بالله، الولي الحميد، السيد أبو سعيد كان قد صحب شيخنا الأجل ولی الله المحدث رضي الله عنه، وأخذ عنه بعض أشغال الطريقة، ومارسها، وداوم عليها، حتى افتتح عليه ببركة توجّه الشيخ بابُ أسرارِ اللطائف اليقينية؛ البارزة منها والكاميرا، فظهرت عليه أحوالُها وأثارها، وحصل له الشهود الذي عند القوم أتم المقصود.

ثم لما انتقل الشيخ إلى دار الرضوان بدا له أن يأخذ من الفقير ما بقي من

(١) نزهة الخواطر: ٢٨٦/٦.

(٢) انظر: مجلة (برهان)، مقال مسعود أنور العلوi، عدد سبتمبر وأكتوبر عام ١٩٨٣م.

أشغال الطريقة النقشبندية والقادرية والجشتية، وغيرها من طرق المشايخ الصوفية، وأن يدخل في الطريقة بالطريق المتوارث بين الصوفية، فلما رأيته مشغوفاً بذلك أسعفت له المرام، خوفاً من حديث الإلحاد، فلقته تلك الأشغال، فلما شاهدت فيه آثارها وأنوارها؛ ووجده متمنكاً فيها أجزئه البيعة - بعد الاستخاراة - لإرشاد الطالبين؛ وتسليلك السالكين، وأخذ البيعة في تلك الطرق جميعاً، وأليسته الخرقة الفقرية إلباب إناية وإجازة، كما أجازني وألبسني شيئاً للأجل، وكما أجازني وألبسني العارف بالله الشيخ عبيد الله بما وصل إليه من آبائه الكرام ومشايخه العظام.

وأيضاً أجزئه لدرس التفسير والحديث والفقه والتصوف بعد المطالعة ومراجعة الشرح، ودرس التحو والصرف.

وأيضاً أجزئه لتصريف الآيات والأسماء وأعمال الشيخ في الحوائج المشروعة، وأجزئه لجميع ما في (القول الجميل في بيان سوء السبيل) ولجميع ما في (الانتباه في سلاسل أولياء الله) من الأشغال والأعمال».

والسيد أبو سعيد كان شيخاً جليل الوقار، عظيم الهيبة، كريم النفس، مسدي الإحسان، ومقرى الضيقان، سافر إلى الحجاز مع أصحابه، ووصل إلى مكة المباركة لليلتين بقيتا من شهر ربيع الأول ستة سبع وثمانين ومئة وألف، فسعد بالحج، وسافر إلى المدينة المنورة، وأقام بها ستة أشهر، وسمع (المصابيح) على الشيخ أبي الحسن السندي الصغير، وكان جالساً تجاه المرقد المنور للنبي المطهر عن زيه البصر، فرأه كأنه خرج من الحجرة المباركة، ويداً كتفاه أولاً، ثم ظهر له الجسد المطهر، وجلس قدامه وتبسّم، قال صاحبه الشيخ أمين بن عبد الحميد الكاكوري في رسالته: إن الشيخ أبو سعيد كان يقول: إني رأيت رسول الله ﷺ في المدينة المنورة بعين رأسه، ثم رجع إلى مكة المباركة، وقرأ الجزرية على الشيخ محمد ميرداد الأنصاري، ورحل إلى الطائف، ثم إلى الهند، ودخل مدراس فأقام بها زماناً، ورزقَ حسن القبول في تلك الناحية، وانتفع به الناس، وأخذوا عنه، منهم الشيخ الحاج أمين الدين بن حميد الدين الكاكوري،

والشيخ عبد القادر الخالص بوري، والمير عبد السلام البدخشي، والشيخ ميرداد
الأنصارى المكى، ومولانا جمال الدين بن محمد صديق قطب، ومولانا عبد الله
الأفندى، والشيخ عبد اللطيف الحسيني المصرى . . . وخلق آخرون، مات فى
تاسع رمضان سنة ثلاثة وتسعين وألف بيلاة رأى فدفن بها^(١).

* * *

(١) نزهة الخواطر، ج. ٧.

جـ. معاصرـه الكبار

معاـصـرـ الإمام الدـهـلـوي

الـشـيخـ المـصـلـحـ الـكـبـيرـ مـحـمـدـ بـنـ عـبـدـ الـوـهـابـ

لقد كان الشيخ محمد بن عبد الوهاب بن سليمان التميمي الحنبلي (١١١٥هـ - ١٢٠٦هـ، ١٧٩٣م - ١٧٩٢م) أحد المعاصرـين الكبار للإمام الـدهـلـويـ، والمصلـحـينـ العـظـامـ، وـمنـ عـلـمـاءـ نـجـدـ الـمـمـتـازـينـ، وأـصـحـابـ الدـعـورـ والـعـزـيمـةـ فـيـهاـ، فـهـوـ بـالـنـظـرـ إـلـىـ سـنـةـ وـلـادـتـهـ يـقـارـبـ الإـلـامـ الـدـهـلـويـ فـيـ سـنـةـ (١)، ولـكـنـهـ بـالـنـظـرـ إـلـىـ سـنـةـ وـفـاتـهـ مـتـأـخـرـ عـنـهـ بـثـلـاثـيـنـ سـنـةـ، وـرـغـمـ هـذـهـ الـمـعـاصـرـةـ وـكـثـيرـ مـنـ الـأـمـورـ الـمـشـتـرـكةـ بـيـنـهـمـاـ لـمـ نـعـثـرـ عـلـىـ مـعـرـفـةـ الإـلـامـ الـدـهـلـويـ بـهـ، وـتـعـرـفـهـ عـلـيـهـ فـضـلـاـًـ عـنـ مـقـابـلـتـهـ وـلـقـائـهــ.

وقد كان الإمام الـدهـلـويـ سـافـرـ لـلـحـجـ عـامـ ١١٤٣هــ، وـمـكـثـ فـيـ الـحـجـازـ أـكـثـرـ مـنـ عـامـ وـاحـدـ، وـهـذـهـ هـيـ الـفـتـرـةـ التـيـ كـانـتـ دـعـوـيـ الشـيـخـ مـحـمـدـ بـنـ عـبـدـ الـوـهـابـ وـحـرـكـتـهـ فـيـهـ مـنـ حـصـرـتـيـنـ مـحـدـوـتـيـنـ فـيـ مـنـطـقـةـ الـعـيـنـةـ وـالـدـرـعـيـةـ مـنـ نـجـدـ، وـلـمـ يـكـنـ قـدـ بـاـيـعـهـ الـأـمـيـرـ مـحـمـدـ بـنـ سـعـودـ حـيـنـذـاكـ، وـلـاـ وـقـعـتـ بـيـنـهـمـاـ اـتـفـاقـيـةـ عـلـىـ الـقـيـامـ بـنـشـرـ هـذـهـ الـدـعـوـةـ وـإـقـامـةـ الـحـكـومـةـ عـلـىـ أـسـاسـهـاـ وـمـسـانـدـتـهـاـ وـتـأـيـيـدـهـاـ، بـلـ كـانـتـ هـذـهـ الـاـتـفـاقـيـةـ عـامـ ١١٥٨هــ التـيـ أـصـبـحـتـ الـدـرـعـيـةـ نـتـيـجـةـ لـهـاـ مـرـكـزاـ لـهـذـهـ الـدـعـوـةـ، وـعـاصـمـةـ دـيـنـيـةـ لـحـكـومـتـهــ.

وقد عـرـفـتـ دـعـوـةـ الشـيـخـ مـحـمـدـ بـنـ عـبـدـ الـوـهـابـ فـيـ الـحـجـازـ، وـكـُـتـبـ لـهـاـ التـأـيـيـدـ وـالـنـفـوذـ حـيـنـ استـولـيـ آـلـ سـعـودـ عـلـىـ مـكـةـ الـمـكـرـمـةـ عـامـ ١٢١٨هــ بـعـدـ وـفـاةـ

(١) ولـدـ الإـلـامـ الـدـهـلـويـ عـامـ ١١١٤هــ، وـلـذـلـكـ فـهـوـ أـكـبـرـ مـنـ الشـيـخـ بـسـنـةـ وـاحـدـةـ.

الشيخ باثنتي عشرة سنة، وبعد وفاة الإمام الذهلي باثنتين وأربعين سنة.

وقد كانت دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وجهاده وجهوده العظيمة تدور حول الدعوة إلى التوحيد الخالص، والردة على مظاهر الشرك، واستئصال التقاليد والطقوس الجاهلية، التي كان لبعض مظاهرها وشعائرها الظهور والانتشار بعد العهد عن زمان النبوة، والجهل العام، وغفلة العلماء في بعض القبائل والأماكن من المنطقة الشرقية في الجزيرة العربية^(١).

وتدور الدعوة أيضاً حول توضيح الفرق بين توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية، وشرح حقيقة التوحيد الذي طلبه الله تعالى من عباده، ودعا القرآن الكريم إليه دعوة صريحةً واضحةً، وتنقيحها.

وما حصل للشيخ في هذا الصدد من النجاح لا يوجد له نظيرٌ في الدعاء والمصلحين في العهود الماضية، وإن كان - حسب ما يقول الدكتور أحمد أمين - يرجع ذلك إلى حد كبير إلى قيام حكومة (وهي الحكومة السعودية) على أساسها وتبنيها لهذه الدعوة، وتشجيعها لها، وإشرافها عليها^(٢).

ولكن مما لا يقبل الجدل والاختلاف أنَّ الشيخ محمد بن عبد الوهاب قام - في هذا الصدد - بدورٍ مصلحيٍ ثوريٍ عظيم، ومهما خالفه بعضُ الناس في بعض أفكاره وأرائه وأسلوبه في عرض الدعوة ومنهجه، ولم يوافقه مئة في المئة، إلا أنه لا يمكن إنكار تأثير هذه الدعوة وفائتها وال الحاجة إليها في تلك الظروف الخاصة.

وأما ما يتعلق بتوضيح عقيدة التوحيد وتنقيحها، وإثباتها بالقرآن الكريم، وشرح الفوارق بين توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية، فإنَّ هنالك شبهاً كبيراً بين آراء الشيخ وتحقيقاته وبحوثه وأراء الإمام الذهلي وتحقيقاته وبحوثه، وليس

(١) انظر للتفصيل: كتاب الأستاذ مسعود عالم الندوى (الشيخ محمد بن عبد الوهاب المصلح المفترى عليه)، وكذلك الكتب الأخرى التي ألفت في سيرة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وهي كثيرة.

(٢) راجع: زعماء الإصلاح في العصر الحديث.

هذا إلا نتيجة الدراسة العميقـة المباشرـة للقرآن الكريم وتدبرـه ، والمعرفـة الدقيقـة الواسـعة بالكتـاب والسنـة ، وهي التي أدـت بشـيخ الإسلام ابن تـيمـية في عـصره وكـبار الدـعـاة والمـصلـحـين والـعلمـاء المـحـقـقـين في عـصـورـهـم إـلـى نـتـائـجـ مـشـابـهـةـ مـتـقـارـبـةـ ، وـدـفـعـتـهـمـ إـلـى تـبـليـغـ التـوـحـيدـ الـخـالـصـ ، والـدـعـوـةـ الـجـرـيـةـ الـواـضـحةـ إـلـيـهـ .

ولـكـنـ دـائـرـةـ أـعـمـالـ الإـمامـ الـدـهـلـوـيـ الإـصـلـاحـيـةـ وـالتـجـدـيـدـيـةـ أـوـسـعـ وـأـشـمـلـ منـ ذـلـكـ بـكـثـيرـ ، فـإـنـهاـ تـضـمـ بـيـنـ جـوـانـبـهاـ إـحـيـاءـ الـعـلـمـ الـإـسـلـامـيـةـ ، وـتـجـدـيـدـ الـفـكـرـ الـإـسـلـامـيـ ، وـالـكـشـفـ عنـ أـسـرـارـ الشـرـيـعـةـ وـمـقـاصـدـهـاـ ، وـالـمـأـثـرـةـ الـعـلـمـيـةـ لـعـرـضـ الـتـعـالـيمـ الـدـينـيـةـ وـالـشـرـيـعـةـ الـإـسـلـامـيـةـ فـيـ صـوـرـةـ مـتـنـاسـقـةـ شـامـلـةـ ، وـمـقاـوـمـةـ الـجـمـودـ وـالـتـحـجـرـ الـعـلـمـيـ ، وـالـعـصـبـيـةـ الشـدـيـدـةـ لـلـمـذـاهـبـ الـفـقـهـيـةـ ، وـالـعـلـمـ الـاجـهـادـيـ لـلـتـطـبـيقـ بـيـنـ الـعـقـلـ وـالـنـقـلـ ، وـالـتـوـفـيقـ بـيـنـ الـمـذـاهـبـ الـفـقـهـيـةـ الـأـرـبـعـةـ ، وـالـمـحاـوـلـاتـ الـجـادـةـ لـلـحـفـاظـ عـلـىـ السـلـطـةـ الـإـسـلـامـيـةـ فـيـ الـهـنـدـ ، وـالـدـرـاسـةـ الـعـمـيقـةـ لـلـأـحـادـيثـ الـنـبـوـيـةـ الـشـرـيـفـةـ ، وـالـجـهـودـ التـجـدـيـدـيـةـ لـنـشـرـهـاـ وـتـعـمـيمـهـاـ ، وـالـدـعـوـةـ إـلـيـهـاـ ، وـالـدـعـوـةـ إـلـىـ تـزـكـيـةـ النـفـوسـ ، وـإـصـلاحـ الـقـلـوبـ ، وـالـوصـولـ إـلـىـ درـجـةـ الـإـحـسانـ ، وـتـعـلـيمـ طـرقـهـاـ وـمـنـاهـجـهـاـ وـتـرـبـيـةـ الرـجـالـ الـأـكـفـاءـ .

وـمـعـ كـلـ ذلكـ يـتـمـيزـ الإـمامـ الـدـهـلـوـيـ بـرـقةـ وـحـنـانـ ، وـقـوـةـ عـاطـفـةـ كـانـتـ عـلـىـ حدـ تـعبـيرـ محمدـ إـقبالـ الشـعـريـ - كـوـجـودـ مـاءـ زـمـزـ الرـقـيقـ الـفـيـاضـ فـيـ أـرـضـ الـحـجـازـ الـصـلـبةـ الـحـجـرـيـةـ ، وـبـذـلـكـ يـجـمـعـ بـيـنـ صـلـابـةـ عـقـيـدـةـ التـوـحـيدـ وـحـنـانـ الـقـلـبـ ، وـهـوـ أـنـهـ منـ آـثـارـ بـيـتـةـ الإـمامـ الـدـهـلـوـيـ وـتـرـبـيـتـهـ الـرـوـحـيـةـ الـخـاصـةـ ، وـيـمـكـنـ أـنـ نـشـاهـدـ أـمـثلـتـهـ فـيـ قـصـائـدـهـ وـمـدـائـحـ الـنـبـوـيـةـ ، عـلـىـ مـمـدوـحـهـاـ الـصـلـبـةـ وـالـسـلـامـ .

ولـذـلـكـ فإـنـهـ مـنـ الـمـنـاسـبـ أـنـ تـكـوـنـ هـنـاكـ درـاسـةـ مـقـارـنـةـ بـيـنـ الإـمامـ الـدـهـلـوـيـ وـبـيـنـ شـيـخـ الـإـسـلـامـ اـبـنـ تـيمـيـةـ ، وـالـبـحـثـ عـنـ نقاطـ الـاـنـفـاقـ وـالـاـخـتـلـافـ بـيـنـهـمـاـ بدـلـاـ مـنـ الـدـرـاسـةـ الـمـقـارـنـةـ بـيـنـ الإـمامـ الـدـهـلـوـيـ وـشـيـخـ مـحـمـدـ بـنـ عـبـدـ الـوـهـابـ - رـغـمـ جـهـودـهـ الـعـظـيمـةـ الـمـشـكـورـةـ - وـتـبـعـ نقاطـ التـشـابـهـ وـالـاـنـفـاقـ بـيـنـهـمـاـ ، لـأـنـهـمـاـ أـيـ المـتـقدـميـ الذـكـرـ - يـبـلـدـوـ بـيـنـهـمـاـ الشـيـءـ الـكـثـيرـ مـنـ وـجوـهـ التـشـابـهـ فـيـ تـبـحـرـهـمـاـ الـعـلـمـيـ ، وـيـلوـغـهـمـاـ درـجـةـ الـإـمـامـةـ وـالـاجـهـادـ فـيـ عـلـمـ الـكـتـابـ وـالـسـنـةـ ، وـسـعـةـ النـظرـ ، وـعـمقـ

التفكير ، وتنوع الأعمال الإصلاحية والتجديدية ، وعظمـة الشخصية وعـقريـتها .
وقد تقدمت إليها إشارات في مواضع متفرقة من الكتاب . رغم الاختلاف الطبيعي
الـذـي هو نـتيـجـة البيـئةـ والتـعلـيمـ والتـرـبيـةـ ، واختـلـافـ العـهـدـ والمـكـانـ ، والـسـلـوكـ
والتـرـبيـةـ الروـحـيـةـ الـبـاطـنـيـةـ .

* * *

الفهرس

الصفحة	الموضوع
--------	---------

٥	مع الإمام الدهلوi للدكتور عدنان زرزور
٩	- مآثره التجديدية
١٠	- المحدث الدهلوi
١٣	- حجّة الله البالغة أو أسرار الشريعة وفلسفه نظام الإسلام
١٦	- إزاله الخفاء عن خلافة الخلفاء
١٩	- بين المجدد الدهلوi ومعاصره محمد بن عبد الوهاب
٢١	كلمة المؤلف

الباب الأول

العالم الإسلامي في القرن الثاني عشر الهجري

تمهيد: أهمية دراسة أوضاع البلاد الإسلامية وتطوراتها وأحداثها في

٢٩	القرن الثاني عشر الهجري
٣٢	- تأثير إيران الحضاري والثقافي على الهند
٣٢	- أهمية الدولة العثمانية وعظمتها

الفصل الأول: الوضع السياسي في العالم الإسلامي

٣٥	الدولة العثمانية في القرن الثاني عشر
٣٧	- الوضع السياسي في الحجاز
٣٩	- الوضع السياسي في اليمن
٤٠	- الوضع السياسي في إيران
٤١	- نادر شاه أفشار
٤٢	- حالة إيران بعد مقتل نادر شاه

- أفغانستان وأحمد شاه الأبدالي	٤٣
- أفغانستان بعد أحمد شاه الأبدالي	٤٤
الفصل الثاني: وضع العالم الإسلامي العلمي والديني	٤٦
- نوابغ القرن الثامن عشر الهجري	٤٦
- نظرة على الذوق العلمي والأدبي والروحي في العالم الإسلامي ..	٤٩ ..
- سيطرة العلوم العقلية في إيران وتأثيرها على البدان المجاورة ..	٥١ ..
الفصل الثالث: الوضع الخلقي والاجتماعي والعقائدي العام	٥٥
الفصل الرابع: الهند	٥٨
١- الوضع السياسي	٥٨
- أورنوك زيب عالمكير	٥٩
- خلفاء عالمكير الضعفاء	٦١
- شاه عالم بهادر شاه الأول	٦٣
- فرخ سير	٦٥
- محمد شاه بادشاه (ت ١١٦١ هـ)	٦٧
- شاه عالم الثاني	٧٢
٢- الوضع العلمي والروحي	٧٣
٣- الانحطاط الخلقي والاجتماعي	٧٦
٤- فساد العقيدة واستيلاء الإشراك والبدع	٧٧

الباب الثاني
سيرة الإمام дхлю

الفصل الأول: أجداد الإمام الدهلوi ووالده	٨٣
- أجداد الإمام الدهلوi	٨٣
- سياق النسب	٨٤
- دخول أسرة الإمام الدهلوi في الهند	٨٥
- الإقامة بـ(رهتك)	٨٥
- من الشيخ شمس الدين المفتى إلى الشيخ وجيه الدين	٨٦

٨٨	- جد الإمام الدهلوi الشيـخ وجـيه الدين
٩٢	- جد الإمام الشـيـخ الـدهـلـوي من أـمـهـ الشـيـخـ محمدـ الفـلتـي
٩٣	- عم الإمام الـدهـلـوي الشـيـخـ أبوـ الرـضاـ مـحـمـدـ
٩٤	- والـإـمامـ الـدـهـلـوـيـ الشـيـخـ عـبـدـ الرـحـيمـ
٩٧	- دراسته
١٠٠	- أـخـلـاقـهـ وـشـمـائـلـهـ وـعـادـاتـهـ وـأـورـادـهـ
١٠١	- حـمـيـتـهـ إـسـلـامـيـةـ
١٠١	- زـوـاجـهـ وـأـوـلـادـهـ
١٠٢	- وـفـاتـهـ
١٠٣	- الشـيـخـ عـبـدـ الرـحـيمـ فـيـ نـظـرـ إـلـاـمـ الـدـهـلـوـيـ
١٠٣	- الأـسـرـ الـعـرـبـيـةـ الـأـصـلـيـةـ فـيـ الـهـنـدـ وـخـصـائـصـهـ وـتـقـالـيدـهـ
الفصل الثاني: حـيـاةـ إـلـاـمـ الـدـهـلـوـيـ بـإـجـازـ	١٠٩
١٠٩	- ولـادـتـهـ
١١٠	- دراسته
١١١	- المـقـرـراتـ التـيـ درـسـهـاـ إـلـاـمـ الـدـهـلـوـيـ
١١٤	- تـرـيـةـ الـوالـدـ وـعـطـفـهـ وـإـجـازـتـهـ وـاسـتـخـالـافـهـ
١١٦	- زـوـاجـهـ الـأـوـلـ
١١٧	- الزـوـاجـ الثـانـيـ
١١٧	- رـحـلـتـهـ لـلـحـجـ
١٢٠	- مشـاـيخـ إـلـاـمـ الـدـهـلـوـيـ وـأـسـاتـذـتـهـ فـيـ الـحـرـمـيـنـ الشـرـيفـيـنـ
١٢٠	- الشـيـخـ أـبـوـ طـاهـرـ المـدنـيـ
١٢٢	- الشـيـخـ تـاجـ الدـينـ القـلـعـيـ الحـنـفيـ
١٢٢	- الشـيـخـ مـحـمـدـ وـفـدـ اللهـ الـمـالـكـيـ
١٢٤	- تـدـرـيـسـ إـلـاـمـ الـدـهـلـوـيـ لـلـحـدـيـثـ الشـرـيفـ
١٢٦	- بـعـضـ عـادـاتـ إـلـاـمـ الـدـهـلـوـيـ وـخـصـائـصـهـ كـمـاـ ذـكـرـهـ الشـيـخـ
١٢٦	- عبدـ العـزـيزـ الـدـهـلـوـيـ
١٢٧	- وـفـاةـ إـلـاـمـ الـدـهـلـوـيـ
١٣٠	- مدـفـنـهـ

الفصل الثالث : مؤلفات الإمام الدهلوi ١٣١ ١٣١
- الكتب والرسائل مرتبة حسب الحروف الأبجدية ١٣١ ١٣١

الباب الثالث

مآثر الإمام الدهلوi التجديدية

تمهيد - سعة دائرة التجديد الذي قام به الإمام الدهلوi وتنوعه ١٣٩ ١٣٩
الفصل الأول : إصلاح العقائد والدعوة إلى القرآن ١٤١ ١٤١
- أهمية العقائد ١٤١	
- الحاجة إلى شرح عقيدة التوحيد والدعوة إليها من جديد ١٤٣ ١٤٣
- الطريق المؤثر لعلاج هذه الأدواء وإصلاح الأوضاع ، نشر القرآن الكريم والدعوة إلى فهمه ١٤٧ ١٤٧
- الترجمات الأردية للقرآن الكريم بعد الإمام الدهلوi ١٥٤ ١٥٤
- دروس القرآن الكريم ١٥٥ ١٥٥
- الفوز الكبير في أصول التفسير ١٥٦ ١٥٦
- التحقيق والتنقيح العلمي لمسألة التوحيد ١٥٩ ١٥٩
- بيان العقائد وشرحها في ضوء الكتاب والسنة وعلى منهج الصحابة والسلف الصالح ١٦٤ ١٦٤

الفصل الثاني : القيام بنشر الحديث الشريف والسنة المشرفة والدعوة إلى التوفيق بين الحديث والفقه والجهود في سبيله ١٦٩ ١٦٩
- أهمية الحديث الشريف والجاحية إليه في كل عصر ومصر ١٧٩ ١٧٩
- شهادة التاريخ لتأثير كتب الحديث والسنة في الإصلاح والتجديد ١٧١ ١٧١
- علم الحديث والعرب ١٧٤ ١٧٤
- ازدهار علم الحديث وانحطاطه في الهند ١٧٥ ١٧٥
- مآثره الشيف عبد الحق الدهلوi ١٧٧ ١٧٧
- الحاجة إلى مجدد ١٧٨ ١٧٨
- مشاعر الإمام الدهلوi وآراؤه في الحديث ١٨٠ ١٨٠
- الشكوى قلة العناية بالحديث الشريف في الهند ١٨١ ١٨١

- نشاط الإمام الذهلي في خدمة الحديث الشريف ونشره	١٨٣
- خدمات الإمام الذهلي التأليفية في علوم الحديث	١٨٥
- التوفيق بين الفقه والحديث	١٨٨
- نقطة التوسط والاعتدال بين التقليد والاجتهاد	١٩٤
- منهج المسلمين في القرون الأولى	١٩٥
- الصورة الطبيعية المشروعة للتقليد	١٩٧
- ميزات المذاهب الأربعة	١٩٨
- الحاجة إلى الاجتهاد في كل عصر	١٩٩

**الفصل الثالث: عرض الشريعة الإسلامية عرضاً مبرهنأً متسلقاً والكشف
عن مقاصد الأحكام الشرعية وأسرارها وحكمها في ضوء
(حجۃ الله البالغة)**

٢٠١.....	- ميزة (حجۃ الله البالغة) وتفرده
٢٠٣.....	- دقة الموضوع وخطورته
٢٠٤.....	- الحاجة إلى كتاب مستقل وجهود العلماء المتقدمين
٢٠٧.....	- الموضوعات الأساسية التمهيدية: التكليف والمجازاة
٢٠٩.....	- أهمية الأعمال وأثارها
٢٠٩.....	- الارتفاقات
٢١٠.....	- أهمية الارتفاق
٢١١.....	- أهمية الحياة المدنية والاجتماعية وأشكالها
٢١٢.....	- صور المكاسب ووجوه المعاش المحمودة والمذمومة
٢١٤.....	- السعادة وأصولها الأربعة
٢١٥.....	- العقائد والعبادات
٢١٧.....	- السياسات المدنية وال الحاجة إلى هداة السبيل ومقيمي الملل
٢١٧.....	- البعثة المقرونة
٢١٨.....	- إهانة القيم الأخلاقية والإيمانية وبيوس الإنسانية في المدنية الرومية والإيرانية
٢٢٠.....	- مباحث نافعة أخرى
٢٢١.....	- مكانة الحديث والسنّة وموقف الأمة منها
٢٢١.....	- أسرار الفرائض والأركان وحكمها

٢٢٥	- شمول الكتاب وإحاطته
٢٢٥	- الإحسان والتركية
٢٢٦	- الجهاد
٢٢٩	الفصل الرابع: الحاجة إلى نظام الخلافة وفوائده وإثبات خلافة الخلفاء الراشدين، وعظيم منتهم على الأمة في ضوء كتاب (إزالة الخفاء عن خلافة الخلفاء)
٢٣٩	- أهمية كتاب (إزالة الخفاء) وامتيازه وتفرده
٢٣١	- الصلة بين (حجۃ الله البالغة) و(إزالة الخفاء)
٢٣٤	- مؤلفات قديمة أخرى في الموضوع
٢٣٦	- مكانة الخلافة ومتزلتها في الإسلام
٢٣٩	- التعريف الجامع المانع للخلافة
٢٤٠	- الاستدلال بالقرآن الكريم على خلافة الخلفاء الراشدين
٢٤٤	- محظيات قيمة أخرى في الكتاب
٢٤٧	- الدلالة على الفتنة والتغيرات الحادثة بعد وفاة النبي ﷺ
٢٤٨	- ظهور الكتاب ونشره
٢٤٩	الفصل الخامس: دور الإمام الذهلي القيادي في عهد الفوضى السياسية واحتضار الدولة المغولية
٢٤٩	- ثلاث قوى مقاتلة ناشئة:
٢٤٩	- المرهنة
٢٥٤	- السيخ
٢٥٩	- الجت (الزط)
٢٦١	- الوضع في دهلي
٢٦٢	- حملة نادر شاه
٢٦٣	- الانقطاع إلى التدريس والتأليف في أثناء الأوضاع المضطربة والظروف المضيادة
٢٦٥	- الدور القيادي المجاهد في عهد الفوضى السياسية واحتضار الدولة المغولية

٢٦٦	- شعور الإمام الذهلي وثورته
٢٦٨	- نصيحته للسلطين المغول وأركان الدولة ورجال الحل والعقد ..
٢٧٤	- النواب نجيب الدولة ..
٢٧٨	- أحمد شاه الأبدالي ..
الفصل السادس: الحسبة على مختلف طبقات الأمة، ودعوتها إلى الإصلاح والتغيير	
٢٨٩	- ميزة الإمام الذهلي ..
٢٩٠	- الخطابات الخاصة لمختلف طبقات الأمة: ..
٢٩١	١ - خطابه للسلطين المسلمين ..
٢٩٢	٢ - خطابه للأمراء وأركان الدولة ..
٢٩٣	٣ - خطابه للعسكر ..
٢٩٣	٤ - خطابه للمحترفة والصناع ..
٢٩٤	٥ - خطابه لأولاد المشايخ والمرشدين ..
٢٩٤	٦ - خطابه للعلماء والطلاب ..
٢٩٥	٧ - مع الوعاظ المعسرين في الدين والزهاد المترؤسين المنعزلين
٢٩٦	٨ - خطابه الشامل للأمة الإسلامية جماعة تشخيص الداء ووصف الدواء ..
٢٩٨	- إصلاح الطقوس والتقاليد وتطهير المجتمع منها ..
الفصل السابع: القيام بتربية العلماء الراسخين ورجال العزيمة والكفاح ..	
٣٠٢	- الشبه العجيب بين الإمام الذهلي والإمام السرهندي ..
٣٠٣	أ - أبناء الإمام الذهلي الأعلام: ..
٣٠٥	١ - الشيخ عبد العزيز الذهلي ..
٣٠٦	- طلبه للعلم ..
٣٠٦	- شيوخه ..
٣٠٧	- حلية ..
٣٠٧	- تلامذته ..
٣٠٨	- ما انتابه من أمراض ..

٣٠٩	-شمائله
٣١١	-مصنفاته
٣١٣	-قيامه بتكميل أعمال الإمام الدهلوi الخاصة وتوسيع نطاقها:
١	الدعوة إلى فهم القرآن الكريم والقيام بنشر تعاليمه
٣١٣	وتبلیغ رسالته
٣١٦	٢-القيام بتدريس الحديث الشريف ونشره وترويجه
٣٢١	٣-الدفاع عن السنة والرد على الشيعة
٣٢٥	٤-معارضة السلطة الإنكليزية والحفاظ على كيان الملة الإسلامية
٣٣١	٥-تربيـة رجال العمل والجهاد
٣٣١	-الإمام أحمد بن عرفة الشهيد
٣٣٤	-الشيخ عبد الحي البرهانوي
٣٣٥	-الشيخ محمد إسماعيل الشهيد
٣٣٦	-الشيخ محمد إسحاق والشيخ محمد يعقوب
٣٣٨	-العلماء الأجلة والأساتذة الكبار الذين تلمندوهوا عليه
٣٣٩	٢-الشيخ رفيع الدين الدهلوi
٣٤٠	-مؤلفاته
٣٤١	٣-الشيخ عبد القادر الدهلوi
٣٤٤	ب-خلفاء الإمام الدهلوi العظام :
٣٤٤	١-الشيخ محمد عاشق البهلي
٣٤٥	٢-الشيخ محمد أمين الكشميري
٣٤٦	٣-السيد أبو سعيد البريلوي
٣٤٩	جـ-معاصروه الكبار:
٣٤٩	-معاصر الإمام الدهلوi الشيخ المصلح الكبير الشيخ محمد بن عبد الوهاب
٣٥٣	الفهرس

* * *